ترجمة د . سعدى المالح

Чингиз Айтматов

И ДОЛЬШЕ ВЕКА ДЛИТСЯ ДЕНЬ

РОМАН

на арабском языке

© حقوق الترجمة الى اللغة العربية محفوظة لدار ورادوغا» ١٩٨٩

A $\frac{4702300100\text{-}481}{031(01)\text{-}89}$ 082-89

ISBN 5-05-002009-3

مقدمة المؤلف

من المعروف لدى الجميع ان الشغف بالعمل واحد من المقاييس الاكيدة لمزايا الانسان .

ومن هذه الناحية فان يديغي جانغلدين او يديغي البوراني ، كما يدعوه معارفه ، شغيل بحق وحقيق . هو واحد من اولئك الذين يقال عنهم وفيهم ان الارض عليهم تدور وهم الذين يمسكونها فلا تغور . وهو مرتبط بمرحلة عصره الى الحد الذى يمكننى الحكم عليه بأوثق ما يمكن وفى هذا كنه جوهره ، انه ابن عصره .

ولهذا بالذات كان مهما بالنسبة لى حين تناولت المشاكل التى تمسها الرواية ، رؤية العالم من خلال مصيره كجبهوى قاتل ابان الحرب وعامل فى السكك الحديد . وقد حاولت انجاز ذلك بالقدر المتاح لى . وشخصية يديغي البوراني يمثل موقفى ازاء المبدأ الجذرى للواقعية الاشتراكية الذى كان ويبقى هدف دراستها الرئيسى انسان العمل .

بيد انى بعيد كل البعد عن المطلقية فى مفهوم «الشغيل» لمجرد كونه «انسانا بسيطا وعلى الطبيعة» يفلح الارض مجتهدا او يرعى القطعان . ان موقف الانسان الشغيل يتجلى فى الاصطدام ما بين الدائم والزائل فى الحياة ، لهو ذو اهمية بقدر تفرده كشخصية ومدى ثراء عالمه الروحى ومدى تركز عصره فيه . ولهذا حاولت تصوير يديغى البورانى فى قلب عالمى المعاصر وحومة المشاكل التى تشغل بالى .

وليس يديغي البوراني مجرد شغيل بالطبيعة ومن حيث

اشغاله بل انه انسان له نفس عامل . والانسان ذو النفس المحبة للعمل يهب نفسه كلها للاسئلة التى لدى الاخرين عنها جواب حاضر وجاهز ولهذا يقومون بالعمل الذى يزاولونه متكاسلين وحتى حينما ينجزونه بشكل جيد وانما يعيشون كمستهلكين فحسب .

اما الاشخاص اصحاب النفس المحبة للعمل فكانما تجمعهم رابطة قربى وهم دوما قادرين على تمييز الواحد عن سواه وفهم بعضهم البعض فان لم يفهموا فانهم يعكفون على التفكير لكى يفهموا . ويهيئ لهم وقتنا هذا مادة كثيرة للتفكير والتأمل كما لم يهيئ اى وقت آخر سبق . ويمكن القول بان حبل الافكار او سلسلة ذاكرة الانسان اصلها فى الارض وفرعها فى الفضاء .

ويبدو ان التناقض الاكثر تراجيدية أواخر القرن العشرين يكمن فى لامحدودية العبقرية البشرية وتعذر تحقيقها بسبب العوائق السياسية والايديولوجية والعرقية المتولدة عن الامبريالية .

فى ظروف اليوم الحاضر اذ لا يقتصر الامر على ظهور الامكانات التكنيكية للخروج المستقر الى الفضاء بل ان حاجات الانسان الاقتصادية والايقولوجية تتطلب بشكل مسيطر تحقيق تلك الامكانات ، يمثل افظع الجرائم الشنعاء النكراء بحق البشرية والانسان تاجيج الشحناء والحزازات بين الشعوب وبعثرة الموارد المادية والطاقة الدماغية على سباق التسلح .

وبوسع انفراج التوتر الدولى وحده لا غيره ان يعد اليوم سياسة تقدمية . وما من مهمة اخرى اكثر شعورا بتقدير المسؤولية منه فى العالم كله .

وان لم تتعلم البشرية العيش تحت ظلال السلم فانها سوف تفنى . ويشكل جو الارتياب والاحتراس والترقب والتهيب والمجابهة واحدا من اخطر التهديدات التى تتعرض لها حياة الانسان الهادئة والسعيدة .

يستطيع الناس ان يكونوا متسامحين بعضهم لبعض ولكنهم لا يستطيعون ان يفكروا بشكل واحد مع بقائهم لدى ذلك بشرا محافظين على خواصهم البشرية . ان الرغبة فى سلب الانسان

تفرده رافقت منذ اقدم الأزمنة ولحد الآن غايات الاطماع الامبراطورية والامبريالية والهيمنية .

والانسان بدون ذكرى الماضى والموضوع امام ضرورة ان يحدد من جديد موضعه فى العالم والانسان المحروم من الخبرة التاريخية لشعبه والشعوب الاخرى يجد نفسه خارج الافق التاريخى ولديه القدرة على العيش يومه الحاضر وحده فحسب .

ويكفينا تذكر «الثورة الثقافية» فى الصين والتلاعب بوعى الشعب الذى انزل ديالكتيك تعقد الحياة المتعدد الى مستوى بضع عبارات مقتبسة مما يدعى «كراريس ماو الحمراء» ومصير الشعب مالك اعرق التقاليد لكى نقتنع بتضافر هذه الظواهر . ومهما كان يبدو ذلك مفارقة ولكن تتصاحب ايضا امور اخرى : انكار أو تزييف الماضى والشوفينية المتغطرسة المتعجرفة التى لا بد لها ان تقيم حولها سور الصين لانه لا يمكن الا خلفه التمسك بالخرافة حول تفوق شعب واحد على الشعوب الاخرى قاطبة .

وانا اعتمد هذه المرة ايضا شأنى فى مؤلفاتى الاخرى على الاساطير والخرافات وعلى المأثورات باعتبارها الخبرة الموروثة لنا تركة من الاجيال السابقة . وبنفس الوقت ألجأ للمرة الاولى فى ممارستى ككاتب الى استخدام المحتوى الخيالى العلمى وهذا وتلك هما بالنسبة لى لا غاية بحد ذاتها وانما مجرد منهج للتفكير وكواحد من أساليب معرفة الواقع الراهن وتأويله .

وبالطبع فان الاحداث المرتبطة بأوصاف الاتصالات بالتمدن غير الارضى وكل ما يجرى بهذا السبب لا يقوم مطلقا على أى أساس واقعى . وليس ثمة فى اى مكان من العالم فى الواقع المطاران الفضائيان بمنطقتى ساروزيكى ونيفادا . والعالمان المختلفان وهما النظامان المختلفان تناولتهما هنا خارج نطاق الواقع التاريخى وبصورة اصطلاحية مشترطة تماما كقواعد لعبة مصطلح عليها . وكامل القصة «الفضائية» موضوعة من قبلى لغرض واحد فحسب هو العمل على زيادة الحدة فى شكل متناقض مبالغ للحالة المنطوية على المخاطر المحتملة التى تهدد كل البشر فى العالم كله .

اما بخصوص اهمية الابتداع الخيالى العلمى فان دستويفسكى كان قد كتب فى حينه يقول : «للخيالى فى الفن حد محدود وله

قواعد . يجب على الخيالى ان يكون له تماس مع الواقع الى الحد الذى يجعلكم معه تكادون تصدقون به» . لقد وضع دستويفسكى بدقة صيغة قانون الخيالى فى الفن . وبالفعل ، اذا اخذنا خرافة اساطير القدماء او خيالية واقعية غوغول وبولغاكوف وماركيز أو الخيالية العلمية المعاصرة على حد سواء رغم كل ما بينها من فروق فانها جميعا مقنعة بالذات من حيث قوة تماسها مع الواقع والواقعية . وتعزز الخيالية جوانب ما من الواقع الراهن وبعد اعطاء «قواعد اللعبة» حقها تبين هذه الجوانب موحدة فلسفيا محاولة الكشف الى الحد الاقصى عن القدرة الاحتمالية لتطور رسمات الواقع المنتقاة .

ان الخيال العلمى هو مجازية الحياة التى تتيح رؤيتها من زاوية نظر جديدة غير متوقعة . وقد غدت المجازات لازمة خصوصا فى قرننا ولا يقتصر السبب على اقتحام المنجزات العلمية – التكنيكية مجال الخيال العلمى بالامس وانما هو على الارجح ان عالم الخيال الذى نعيش فيه تمزقه التناقضات الاقتصادية والسياسية والايديولوجية والعرقية .

ولهذا اريد من المجازات الساروزيكية فى روايتى ان تذكر الانسان العامل مرة اخرى بمسؤوليته عن مصير كوكبنا ، الارض ، وعالمنا . . .

فاليكم – بدلا من جسدى – هذا الكتاب
واليكم – بدلا من روحه – هذا الخطاب

غريغور ناريكاتسي
«كتاب الأسى والاشجان»
القرن العاشر

الفصل الاول

اقتضى البحث عن قنيص فى المسايل المتيبسة والوهاد الجرداء طول اناة . واقترب الثعلب صائد الفئران ، الذى امضّ به الجوع ، متعقبا الجرى السريع لدبيبة صغيرة ملتبكة حتى الدوخان او منتبثا التراب بسرعة فائقة من جحر سولق او منتظرا ان يقفز اخيرا يربوع توارى تحت سفح وقط قديم على موضع مكشوف فيكون باستطاعته اقتناصه بلمح البصر ، اقترب بخطى وئيدة وثابتة من السدة الترابية القاتمة الممتدة بارتفاع متساوٍ فى السهوب التى تستميله وتخيفه فى آن ، وتمر فوقها قطارات صاخبة ، تارة فى هذا الاتجاه وتارة بعكسه هازة الارض من حواليها ، تاركة وراءها دخانا ورائحة حادة منتنة ، ورياحا متلاحقة متدحرجة فوق الارض .

عند المساء ربض الثعلب بقعر مسيل على طرف خط التلغراف فى جزيرة صغيرة نبتت فيها حموض كثيفة عالية يابسة ، متكورا على نفسه ومتحولا الى كتلة صفراء مذهبة بالقرب من السيقان الحمراء القانية غزيرة البذور . وراح يترقب حلول الليل متجملا بالصبر ، محركا اذنيه فى حذر ، متسمعا بلا انقطاع الى الصفير الرفيع للرياح الهابة منخفضة على الحشائش الميتة المخشخشة خشخشة عنيفة . كانت اعمدة التلغراف ايضا تصفر صفيرا مملا ، بيد ان الثعلب لم يكن يهابها ، لانه يراها دائما منتصبة فى مواضعها ، غير قادرة على تعقبه .

لكن الضجيج المصم للسمع من القطارات المتسارعة تباعا يجعله يجفل متوترا بين حين وآخر وينكمش على نفسه انكماشا

أشد ، وهو يشعر بجميع مسامات جسده النحيف واضلعه بهذه القوة العجيبة الخارقة للارض المدوية المهتزة تحته وعنف حركة قطارات الحمولة ، مع ذلك لبث فـــى المسيل متغلبا على الفزع والرائحة الدخيلة المقرفة ، منتظرا ان تحيـن الساعة التى تغدو فيها الطرق ، مع حلول الليل ، اهدأ نسبيا .

والثعلب لا يلتجئ الى هذه المنطقـة الا نادرا ، وفى اقصى حالات الجوع . . .

فى الفترات التى تخللت مرور القطارات ران صمـت مفاجىء كالذى يعقب الانهيار على السهب ، وتسنى للثعلـــب فى هذا الصمت المطلق ان يلتقط من الاعلى صوتا غير واضح محلقا فوق البرية المعتمة ، يكاد لا يسمع ولا يخص احدا ، صادرا اما عـن تلاعب تيارات الريح ، أو عن تغير مرتقب لحالة الطقس . شعر به الحيوان غريزيا ، وتجمد فى مكانه منقبض الصدر ، واحس برغبة فى ان يعوى بصوت عال ويضبح لحدس غامض منـــه بوقوع مصيبة شاملة . بيد ان الجوع خنق اشارة الطبيعـــة المحذرة تلك .

ولم يتمكن الثعلب الذى كان يلحس نهايات اطرافه اللاغبة من التراكض ، الا ان يهر هريرا واهنا .

فى تلك الايام ، كان الجو فى الامسيات يميل الى البرودة ، ذلك ان الخريف كان يقف على الابواب ، والتربـــة ما تلبث ان تفقد حرارتها فى الليالى ، ويتغطى السهب ، مـــع الفجر ، بندى متثلج ابيض ، كالملح ، لا يدوم طويـــلا . ودنا موسم القحط والكرب للحيوان السهبى . اذ توارت تلك القنانص القليلة التى تعيش فى هذه الاصقاع صيفا ، ورحلت الى مختلـف المناطق . بعضها هاجر الى اماكن دافئة ، وبعضها كمن فى جحوره ، وبعض آخر اندس فى الرمال لقضاء الشتاء هناك . واصبح كل ثعلـــب الآن يجتس السهوب بحثا عن الطعام وحيدا تماما ، وكان ذريـة الثعالب انقرضت عن بكـــرة ابيها فى العالم . وكبرت هـــذه الحيوانات الصغيرة المولودة هـــــذا العام وتراكضت فى شتى الجهات ، وموعد الحب لم يحن بعد ، الذى تبدأ فيه الثعالـــب بالتجوال شتاء فى كل مكان من اجل لقاءات جديدة ، تنشب فيها

بين ذكورها معارك ضارية بكل ما اوتيت من قوة منذ خلـــق الدنيا .

مع حلول الليل خرج الثعلب من المسيل ، ووقف يتسمع ، ثم خبّ نحو السدة ، وركض يخطو خطوات خرساء تارة على هذا الجانب من الطريق وتارة على ذاك باحثا عن فضلات طعام يرميهـا المسافرون من نوافذ عربات القطار . واضطـر ان يركض أمدا طويلا على امتداد القضبان الحديد متشمما كـــل الاشياء المثيرة فضوله والفواحة رائحة مقرفة الى ان عثر على شىء حقير صالـح للاكل . وكان طريق مرور القطارات من اوله الى آخره يعـــج بمختلف الاوساخ من مزق الجرائد وكسر القنانى والقشور وعلب الصفيح الفارغة وزبالة مماثلة ، ولا سيما كانت تفوح رائحـــة مقرفة وكريهة تصيب بالخدر من فوهات قنان زجاجية ظلت غيـر مكسورة ، واذ داخ رأس الثعلب غير مرة من تشممها اصبـــح يتجنب رائحة الكحول وينخر ويرتد جانبا فى الحال .

وكأنما نكاية به ، لم يلتق ذلك الشىء الذى بحـــث عنه ، واستعد له مصارعا خوفا دبّ فى نفسه . فتراكض على سكـــة الحديد بهمّة آملا فى ان يفلح فى الحصول على لقمة اخرى ، وهو لا يكف عـــن الانتقال بعجالة من جانـــب الى جانب على السدة الترابية .

بيد انه تسمر فجأة رافعا قدمه الامامية كالمباغت ، ولبـث واقفا غارقا فى ضوء خافت اشهب للقمر السديمى العالى بيـــن سكتى الحديد كشبح لا يحرك ساكنا . ولم ينقطع الصفير البعيد الذى شد انتباهه . كان لما يزل نائيا للغاية . وخطا الثعلـــب خطوة مترددة رافعا ذيله متهيئا للانصراف . لكن بدلا من ذلك انطلق فجأة يتراكض على طرفى سكة الحديد مسرعا فى عدوه ، وهو لا يزال يأمل ان يجد شيئا ما يؤكل . وانباه حدسه انـــه سيصادف لقية بين لحظة واخرى ، على الرغم من اقتراب صليـل ضربات الحديد وطقطقات العجلات بضجيج متزايد لا مفر منـه . تباطأ الثعلب بضع ثوان ، وكانت هذه الثوانى كافية ليندفـــع ويتشقلب مثل فراشـــة مشدوهة حين طعنته فجأة اضويـــة القاطرات القريبـــة والبعيدة ، المزدوجـــة والمتعاقبة ، عندما ارسلت المصابيح الكشافة اضواءهـا واغشت المساحة الممتدة

امامها برمتها ، مبيّضة السهب لهنيئة ، حاسرة بلا رحمة يبوسته الشاحبة شحوب الموت . اما القطار فمرق مروقا خاطفا على السكة . وفاحت في الهواء رائحة حريق حادة وغبار ، وهبت الريح هبوبا شديدا .

وما لبث الثعلب ان لاذ بالفرار ، وهو يتلفت وراءه مرة اثر اخرى ، ملتصقا بالارض من فزعه . اما المارد ذو الانوار الراكضة فظل يقرقع طويلا وينشر ضجيجا ويواصل الطقطقة فترة مديدة . ومع كل التفاتة كان الثعلب يتوثب وينطلق بكل ما اوتي من قوة . . .

ثم استعاد انفاسه ، ومن جديد استمالته سكة الحديد ، حيث كان من المتوقع ان يسد رمقه . لكن الاضواء بانت مجددا على السكة ، ومرت قاطرتان تجران سلسلة طويلة من عربات الحمولة .

عندئذ ولى الثعلب عائدا الى السهب ، يطوف فيه ، متوقعا ان تفضي به الدروب الى موضع من سكة الحديد لا يمر عليه القطار . . .

كانت القطارات في هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق .

وعلى جانبي خط سكة الحديد كانت تمتد مساحات شاسعة من الاراضي الصحراوية ساري اوزيكي ، الاراضي الوسطى من البرارى الصفراء . . .

وفي هذه الانحاء كانت المسافات تقاس نسبة الى خط السكك كانه خط غرينيتش . . .

اما القطارات فواصلت سيرها من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق . . .

في الليل ، رأى من كشك التحويل شبحا قادما ، كان يسير اول الامر عبر العوارض مباشرة ، ثم مع ظهور القطار هبط المنحدر متحدرا عليه ، وشق طريقه كما وسط عاصفة ثلجية مخفيا وجهه بيديه من الريح والغبار المندفعين كالاعصار من تحت قطار الحمولة السريع . (كان هذا قطارا خاصا ينطلق دون

توقف ، لكونه من القطارات ذات المهمات الخاصة التي تتوجه فيما بعد ، على سكة متفرعة ، الى منطقة ساروزيكي المغلقة ، حيث توجد ادارة السكة الخاصة بها وكان يتوجه الى المطار الفضائي . لذلك سار القطار مغطى «بمشمع» وتحت الحراسة العسكرية) . وحدس يديغي رأسا ان القادم هو زوجته ، وهي تسرع نحوه ، وانها لم تات دون قصد ، ولا بد ان سببا في غاية الجدية حملها على المجيء . وهذا ما اتضح فيما بعد . لكن كان لا يحق له ، بمقتضى واجبه الوظيفي ان يترك مكانه ، ما لم تمر آخر عربة من عربات القطار والكمساري يقف في مدخلها المفتوح . تبادلا الاشارات بالمصباح دلالة على ان كل شيء على ما يرام في الطريق ، وعندئذ فقط تلقت يديغي الذي أصمّه الضجيج المتواصل الى زوجته التي وصلت الكشك في اللحظة المناسبة .

– ماذا حدث ؟

القت اليه نظرة مضطربة وحركت شفتيها . لم يسمعها يديغي ، غير انه فهمها ، وهذا ما كان يتوقع .

اخذها الى الكشك ، وهو يقول :

– تعالي الى هنا من الريح .

بيد ان شيئا آخر تماما راعه في تلك اللحظة ، قبيل ان يسمع فيها من شفتي زوجته ما كان ينبئه به حدسه . مع انه كان يعلم ان مرد ذلك يعود الى الدنو من مشارف الشيخوخة ، لكن عزّ عليه ان يراها ، في هذه المرة ، كيف تلهث من المشي السريع ، وكيف تزحر زحارا شديدا وعسيرا ترتفع اثناءه كتفاها الضامرتان على نحو غير طبيعي . شعر بالرأفة عليها وتجلت له على الضوء الساطع للمصباح الكهربائي في الكشك الصغير المملط من الداخل بالابيض تجاعيد لن تزول ابدا على وجنتي اوق بالا القاتمتين المزرقتين . (بينما كانت وجنتاها في الماضي سمراوين كسمرة سنابل الحنطة ، وعيناها متألقتان تشعان شعاعين اسودين) ولاحظ ان فمها ذا الاسنان المفلجة يثبت بالدليل القاطع مرة اخرى ، عدم جواز بقاء هذه المرأة ، حتى وان تصرمت سنوات انوثتها ، بلا اسنان (كان ينبغي له ان ياخذها الى المحطة منذ زمن بعيد ويُركّب لها اسنانا

اصطناعية ، ذلك ان الجميع ، شبابا وشيوخا ، يُركّبون الآن مثل هذه الاسنان) . فضلا عن ذلك فقد تركت خصلات شعرها المشتعلة شيبا والمتهدلة على وجهها من تحت المنديل المنحسر ألما عميقا فى قلبه «آخ ، كم بلغ بك العمر !» وتأسف عليها بقلب يضيق حسرة من الشعور بالذنب ، واحسّ بتأثير ذلك ، بموجة عارمة من مشاعر الامتنان على السنوات الطويلة التى عاشاها سوية تجتاح كيانه ، ولا سيما على قطعها الآن هذا الطريق كله ، وفى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ومجيئها الى ابعد نقطة مراقبة احتراما له ، وشعورا بالواجب ، وتقديرا منها لمدى اهمية ذلك ، فهرعت لتنعى اليه العجوز المسكين قازانغاب الذى عاش وحيدا فى شيخوخته ومات وحيدا فى كوخ طينى خاوٍ . انها تدرك ان يديغي هو الشخص الوحيد فى هذا العالم الذى يتاثر لوفاة هذا الانسان المُهْمَل من الجميع ، مع ان المرحوم لا يمت له بصلة قربى لا من قريب ولا من بعيد .

واذ دخلا الكشك قال يديغي :

– اجلسى واستعيدى انفاسك .

اجابت :

– وانت ايضا ، اجلس .

وجلسا .

– ماذا حدث ؟

– توفي قازانغاب .

– متى ؟

– قبل قليل عرجت عليه لاقف على حاله ، وارى ان كان يحتاج عونا ، فالفيت الضوء مشتعلا ، وهو مستلقٍ فى مكانه رافعا ذقنه الى أعلى . دنوت منه وقلت : يا قازانغاب ، جلبت لك شايا حارا ، لكنه كان قد انتهى . – وتقطع صوتها ، فترقرق الدمع فى عينيها المحمرتين واجهشت ، ثم بكت بكاء خافتا . – هكذا انقلب الامر فى آخر المطاف . واى انسان رائع كان ! لكنه مات وحيدا ولا احد بجانبه حتى يسبل جفونه . – اردفت متحسرة وهى تواصل البكاء . – من كان يتصور ! لقد مات الرجل . . . – وارادت ان تقول – كالكلب ، لكنها لاذت بالصمت ، ،ولم تر موجبا للتدقيق . فالكلام واضح بلا ذلك .

واذ استمع يديغي البورانى كما كان يدعى في المنطقة وهو يعمل فى المفرق بورانلى-بورانى للسكك الحديد منذ ان عاد من الحرب – الى زوجته ، جلس مكفهرا على دكة لصق الحائط ، واضعا يديه الثقيلتين كجذمورين على ركبتيه ، وحاجبة قبعته – التى هى جزء من بزة عمل شغيلة سكك الحديد – الرثة المتسخة جيدا تظلل عينيه . بم كان يفكر ؟

قالت زوجته :

– ماذا علينا ان نفعل ؟

رفع يديغي راسه ورمقها بنظرة ترافقها ابتسامة مرة .

– ماذا علينا ان نفعل ؟ ماذا يفعل الناس فى مثل هذه الحالات ! ندفنه . – ورفع جسده قليلا عن الدكة كمن اتخذ قراره . – وانت يا زوجة عليك ان ترجعى بسرعة . اما الآن فاسمعينى .

– نعم .

– ايقظى عثمان . لا يهم وان كان مديرا للمفرق . كلنا سواسية امام الموت . اخبريه ان قازانغاب مات . لقد عمل الرجل اربعا واربعين سنة فى هذا المكان . على الارجح لم يكن عثمان قد ولد بعد عندما التحق قازانغاب بعمله هنا . وفى ذلك الوقت كان يستحيل ارغام اى كلب ، ومقابل اية اموال على المجيء الى ساروزيكى . لقد مرت من امام عينى المرحوم قطارات يفوق عددها عدد شعر الرأس . . . فليفكر فى ذلك . هكذا قولى له بالنص . اسمعينى ايضا . . .

– نعم .

– ايقظى الجميع ، واحدا اثر آخر . دقى على جميع النوافذ . فلا يزيد عدد البيوت عن ثمانية ، فهى تعد بالاصابع . . . أقيمى الدنيا واقعديها . لا ينبغى لأحد ان ينام اليوم ، وقد مات مثل هذا الانسان . اقيمى الدنيا واقعديها .

– واذا انهالوا علىّ بالشتائم ؟

– من واجبنا ان ننهى اليهم الخبر ، فليشتموا اذا ارادوا . قولى لهم انى انا امرتك بايقاظهم . فلتكن لديهم ذرة من ضمير . قفى !

– ماذا بعد ؟

– اعرعى اولا الى الخفير شايميردين ، فهو المناوب فـــى قسم الحركة اليوم ، واخبريـــه بتفاصيل الحادث ، عساه يجد حلا . وقد يجد بديلا عنى فى هذه الوردية . واذا تعذر عليـــه ذلك فليبلغنى . فهمتينى ! هكذا قولى له نصا .

– سأخبره ، – اجابـــت اوق بالا ، ثـــم وكأنها تذكرت الموضوع الاهم الذى لا يجوز نسيانه . – اما اولاده ! لقـــد نسيناهم ! واجبنا الاول ان نرسل خبرا اليهم ، فكيف لا ؟ لقد توفى والدهم . . .

قطب يديغي نافرا من هذه الكلمات ، وقـد ازداد عبوسا . لكنه لم يجب .

– مهما كانوا فانهم اولاده . – اردفـــت اوق بالا تسوغ كلامها هذا ، وهى تعرف ان يديغى لا يطيب له سماعه .

– أعرف ، – ولوّح بيده فى الهواء . – اتتصورين اننى لا اقدّر ذلك ؟ تلك هى المسألة ، كيف يجوز دفنـه بغيابهم ، على انه ، لو كان الامر بيدى ، لما سمحت لهم بالاقتراب !

– هذا لا يخصنا يا يديغي . وليأتوا ويدفنـوه بانفسهم . والا فسوف تشاع شائعات يتعذر اتقاءها .

– هل انا أصدهم ؟ فليأتوا .

– هل يستطيع ابنه الوصول فى الميعاد ؟

– يستطيع اذا اراد . اول امس عندما كنت فى المحطـــة ارسلت له برقية ، وكتبت ان الامر كذا وكيت ، وان اباك على حافة الموت . ماذا يريد اكثر ! انه يعدّ نفسه ذكيا ومـــن المفروض ان يفهم كيف يتصرف . . .

– مادام الامر على هذه الشاكلة فلا بأس . – اقتنعـــت الزوجة ببراهين زوجها قناعة مشوبة بشك موارب ، وامر مـــا خاص بها لا يزال يشغل بالها ، واردفت : – ليته جاء برفقـــة زوجته ، مهما يكن فهى تدفن حميها وليس ايا كان .

– فليقررا ذلك بنفسيهما ، ولا حاجة لتعليمهما . انهمـــا انسانان بالغان .

– اجل ، بالغان ، بالطبع ! – قالت اوق بالا موافقة والشك ما زال يخامرها .

ولزما الصمت .

وقال يديغي يذكرها :

– لا تتأخرى ، هيا اذهبى .

لكن الزوجة لم تشأ ان تنصرف قبل ان تفرغ جعبتها .

– يجب ان تحضر ايضا ابنته – آى زاده المسكينة التـى تعيش فى المحطة مع زوجها المدمن على الخمر واطفالها .

ابتسم يديغي ابتسامة عفوية ، وربت على كتف زوجته :

– اراك تتحملين همّ الجميع . . . آى زاده تعيش عـــلى مبعدة رمية عصـــا . سيخب الى المحطـــة احدهم من الصباح ويخبرها . وستصل فى الميعاد بالطبع . وانت يا زوجة افهمـى ان لا نفع فى آى زاده ولا فى ثابت جان ، وان كان هذا الاخير رجلا . سترين ، انهما سيأتيان لا محالة ، لكنهما سيقفان جانبـا كضيفين وسنقوم نحن بمراسيم التشييع . هذا ما سيحصل . . . اذهبى ونفذى ما اوصيتك به .

انصرفت زوجته ، ثم ترددت فتوقفت . لكنها مضت فـــى دربها من جديد ، وفى اللحظة نفسها هتف يديغي فى اعقابها :

– لا تنسى ان تعرجى فـــى الاول على الخفير ، عـــلى شايميردين ، ليرسل احـــدا مكانى . سأعمل فيما بعـد يوما اضافيا . المرحوم مسجى فى بيـــت خالٍ ولا احد الى جانبه ، لا يجوز . . . هكذا قولى له نصا .

غادرت الزوجة موافقة ، وفى هذه الاثناء زمّر المنبه فـى لوحة المسافة ، وتلألأ ضوء احمر . وهذا يعنى ان قطار حمولات آخر يقترب من المفرق . ووفق اوامـــر الخفير ينبغى استقبال القطار على الخط الاحتياطى لكى يفسح فى المجـال لمرور القطار القادم من الجهة المقابلة ، الواقف الآن عند مدخل نقطة المرور ، لكن من الطرف الاخر لكشك التحويل . وليست هـذه الا مناورة عادية معتادة . بينما كان القطاران يسيران عـــلى خطيهما كان يديغي يتلفت من حين الى آخر الى اوق بالا المتنائية عند طرف خط سكة الحديد ، وكأنه نسى ان يقول لها شيئا . وبالطبـع ، كان عنده مايقوله فعلا . اذ ان المشاغل التى تسبق الدفن كثيرة ومتشعبة ، ولا يتذكرها المرء دفعة واحدة . لكن يديغي كـــان يتلفت ليس لهذا الغرض ، فهو لم ينتبـــه الا الآن ، وبأسى ، كيف هرمت واحدودبت زوجته فـــى الفترة الاخيرة ، وكان هذا

ملحوظا جدا خلل الضوء الاصفر الشاحب الذى كان ينير خطوط سكك الحديد .

وفكر فى سره : «ألقت الشيخوخة بخطوبها على كاهلينا . لقد عشنا وشفنا تالى العمر !» ومع ان الله لم يبخل عليه بالصحة ، ولا يزال يتمتع بالقوة ، الا ان السنوات كانت تمضى سراعا ، وها قد عاش الستين منها بالتمام والكمال ، وها هو قد دخل الحادية والستين . «ما هى الا بضع سنوات واحال على التقاعد» * . فكر يديغي فى سره دون ان يخفى تهكمه ، لكنه كان يفطن انه لن يحال على التقاعد فى وقت قريب ، ولن يجدوا بسهولة بديلا عنه فى هذه المناطق . لانه يشتغل فى آن واحد عامل صيانة وعامل تصليح وعامل تحويل حين يمرض احدهم او يتمتع باجازة . هل ثمة من يعمل فى منطقة نائية ومحرومة من الماء طمعا بمرتب عالٍ ؟ لا اظن ، فليبحثوا عن امثالهم بين شباب اليوم .

لكى يعيش المرء فى مفارق سكة الحديد فى ساروزيكى عليه ان يكون ذا عزيمة ، والا يهلك . لان السهب شاسع واسع والانسان صغير ضعيف . السهب لامبالى ، سواء عنده ان يعيش الانسان فى سراء ام فى ضراء . لذا ينبغى التعامل معه كما هو على حقيقته ، بينما الانسان ليس سواء عنده كيف تسير الامور فى الحياة ، فهو يتعذب ، ويكابد ، ويخيل اليه ان من الاوفق له لو كان فى مكان آخر ، بين اناس آخرين ، وحياته فى هذا المكان ما هى الا خطأ من القدر . . . ولذلك يضيع امام هذا السهل الشاسع الذى لا يرحم ، ويضعف ، مثل بطارية الدراجة النارية ذات العجلات الثلاث لشايميردين . وشايميردين هذا يغالى فى صيانة دراجته والمحافظة عليها ، مع انه لا يستعملها ولا يسمح لاحد باستعمالها . وهكذا تقف الدراجة بلا شغل ، حتى نفدت قوتها المحركة ولم تعد تشتغل كما يجب . هكذا هو الانسان ايضا فى المفرق فى ساروزيكى . ان لم يلتذ بالعمل وينغرس فى السهب ويكابد استحال عليه الصمود . . عندما

---

* تقضى القوانين السوفيتية باحالة الرجل على التقاعد بعد بلوغه الستين اذا رغب بذلك . **الناشر** .

ينظر الاغراب من القطارات العابرة مسرعة يمسكون رؤوسهم بايديهم من الدهشة – يا الهى كيف يستطيع الناس العيش فى هذه المنطقة ؟ لا شىء فيها غير السهوب والجمال ! لكنهم يعيشون ، وكل على قدر صبره وتجلده . قد يصل صبر البعض الى ثلاث او اربع سنوات ، ثم كل شىء تمام * . يتحاسب ويسافر الى حيث يشاء . . .

اثنان فقط اتخذا من بورانلى-بورانى محلا لاقامتهما الدائمة ، هما قازانغاب ويديغي البورانى . وكم من الناس ترددوا على المنطقة او اقاموا فيها مؤقتا ! من الصعب على يديغي ان يحكم بنفسه على نفسه . كان يعيش ويشتغل ويصمد ، بينما قازانغاب عمل هنا اربعا واربعين سنة ، وليس لانه كان أسوأ الجميع ، الحق يقال كان وحده يعادل عشرة رجال . . . لكن قازانغاب ، لم يعد له من وجود . . .

سار القطاران احدهما جنب الآخر ، لكن فى اتجاهين معاكسين ، احدهما صوب الشرق والاخر صوب الغرب . واصبحت خطوط سكك الحديد فى مفرق بورانلى-بورانى شاغرة حينا من الزمن . وتكشف فجاة كل ما يحيط بالمنطقة : النجوم المتلألئة فى السماء القاتمة بالزرقة اسطع واوضح والرياح الهابة من المنعطفات هبوبا اشد على العوارض والارضية الحصوية بين قضبان سكة الحديد الباعثة رنينا وفرقعات خافتة .

لم يلج يديغي الكشك ، بل اتكأ على عامود واطرق يفكر . ورأى امامه ، فى البعد ، اشباحا قاتمة لرهط من الابل فى المُراح . كانت الابل تقضى ليلها واقفة تحت ضوء القمر لا تأتى بحراك . وميز يديغي بينها جمله قره نار ذا السنامين والراس الكبيرة – الجمل الراحلة فى ساروزيكى ، والملقب مثل صاحبه بـ«البورانى» . وكان الجمل الذى يعد قوة حيوانية نادرة مثار فخر واعتزاز يديغي ، على الرغم من كونه صعب الانقياد لبقائه غير مخصى ، لان يديغي أبى إخصاءه فى صغره .

---

* وردت باللفظ العربى ، هذه الكلمة وغيرها من الكلمات التى سترد باللفظ العربى هى من المفردات العربية فى لغات شعوب آسيا الوسطى . **المترجم** .

وتذكر يديغي ان عليه في الغد ان يسوق من الصباح الباكر جملة قره نار الى البيت ، ويشد عليه الرحل ، اذ سيحتاجه للسفر اثناء الدفن . وخطرت في ذهنه ايضا مختلف المشاغل التي كان عليه ان يؤديها . . .

الناس في المفرق لا يزالون يغطون في نومهم . وهم يسكنون بيوتا متشابهة ذات سقوف اردوازية منحدرة السطوح ، اتخذت من احد طرفي سكة الحديد موقعا لها . وهي ستة المباني وضعت تحت تصرف مصلحة سكك الحديد ، اضافة الى بيت يديغي الذي شيده بنفسه ، والكوخ الطيني لقازانغاب المرحوم ، ومختلف المرافق الاخرى والملحقات والزرائب المكشوفة المسيجة بالقصب وما شابهها ، نصبت في وسطها دوارة هوائية ، تستعمل احيانا كمضخة كهربائية ، وعند الحاجة كساحبة ماء يدوية ، وقد اقيمت في هذا المكان في السنوات الاخيرة . هذه هي كل موجودات قرية بورانلي-بورانى .

هذه هي المفرق على الخط العظيم لسكة الحديد ، في سهوب ساروزيكي الشاسعة ، وهي حلقة وصل صغيرة في شبكة من النقاط والمحطات والمراكز والمدن المتشعبة مثل الاوعية الدموية . . . وهي قرية ، منبسطة امام جميع الرياح ، من اية اتجاه هبت . ولا سيما الريح الشتوية التي تنفح بعواصفها الساروزيكية طامرة البيوت حتى النوافذ بالكثبان الثلجية ، والسكك الحديد بتلال من الجليد المرصوص . . . ولذلك تسمى منطقة المفرق السهبية هذه بورانلي- بورانى ، وحتى اسمها مركب من كلمتي بورانلي القازاخية وبورانى * الروسية . . .

يتذكر يديغي انه في تلك الازمنة قبل ظهور مختلف انواع جارفات الثلوج من على قضبان الحديد في المسافات المحصورة بين محطتين ، والتي ترمى بالثلج سيولا وتزيحه في الجانبين بمجارف ذات انصال حادة وما اشبه ، كان يصارع هو وقازانغاب ركام الثلوج على الطرق صراعا ، لا يمكن ان يوصف الا بانه صراع المستميت . وكان ذلك لم يكن الا قبل عهد قريب . واما اي شتائين قارسين حلا في العامين الحادي والخمسين والثاني

---

* صفة من العاصفة . المترجم .

والخمسين ! كان الوضع هنا يشبه جبهات القتال اذ يضطر المرء للتضحية بحياته في سبيل قضية واحدة ، بهجوم واحد ، او بالقاء قنبلة واحدة تحت دبابة وان لم تكن هنا عرضة للقتل فانك تكاد تقتل نفسك بنفسك حتى اخر قطرة من الدم . وكم من ركم ثلجية ازاحا بايديهما ، وجراها جرا ، وحتى نقلا الثلج اكياسا الى الاعلى ، وكان هذا عند الكيلومتر السابع حيث يمر خط سكة الحديد في الاسفل مخترقا رابية ، وفي كل مرة ، كان يخيل ، ان هذه هي آخر معركة ضد العواصف الدوارة ، ويمكن ان يهب المرء في سبيل ذلك هذه الحياة بلا تردد ، على ان لا يسمع فقط كيف تعوى القاطرات في السهوب ، مطالبة بفتح الطريق امامها !

بيد ان تلك الثلوج ذابت ، والقطارات مرت مسرعة ، والسنون انقضت . . . ولا من احد يتذكر الآن ذلك الذي طرته دائرة النسيان . ويأتي الآونة عمال سكك الحديد من فرق التصليح والمراقبة الى هنا للعمل لفترات قصيرة ، وهم ليسوا الا انماطا صاخبين عاجزين عن تصديق ذلك وفهمه ، بل وغير قادرين ان يتصوروا كيف ان بضعة افراد يعملون بالرفوش تمكنوا من ازالة السدود الثلجية على الخطوط بين المحطات في ساروزيكي ! يالها من اعجوبة ! وثمة اخرون يضحكون علينا : ولماذا كان عليكما ان تفعلا ذلك وتتحملا ما تحملتماه من عذاب ، لماذا ضحيتما بصحتكما ، ولاى مناسبة ! لو عرض علينا القيام بذلك لما رضينا ! ولوكنا في مكانكما لرفضنا هذا العمل وتركناه وذهبنا الى مكان آخر ، في اسوا الاحتمالات الى مشاريع البناء ، او الى اى مكان يكون كل شيء فيه كما يجب . ولاستلمنا اجورا تساوى اعمالنا ، اما في حالة الاستنفار ، فلابد من تشغيل عدد اكبر من الايدى العاملة ودفع اجور اضافية . . . لقد كنتما عرضة للاستغلال ايها الشيخان ، وكتب عليكما الموت وانتما على غبائكما هذا . . .»

عند الالتقاء بامثال هؤلاء «المقيمين الجدد» لم يكن قازانغاب ليعير اذنا صاغية ، وكان ذلك لا يعنيه . ويكتفي بالابتسام ابتسامة ساخرة كمن يطوى في صدره دفينة ليس بامكانهم

بلوغها ، فى حين كان يديغي يستسلم للانفعال فينفجر احيانا ، ويناقش بحرارة ، لكنه لا يهلك بذلك الا اعصابه .

على ان نقاشات كانت تجرى بينه وبين قازانغاب حول نفس الموضوعات التى يسخر منها الآن الانماط الحاليون القادمون فى عربات خاصة بالصيانة والتصليح ، واشياء اخرى كثيرة حدثت فى السنوات الغابرة عندما كان هؤلاء «الاذكياء» اولادا صغارا . وكان الصديقان حتى حينئذ وبعده ايضا يحللان امور الدنيا صغيرها وكبيرها قدر ما تتيحه لهما بصيرتاهما ، ثم اخذت الحقبة الزمنية التى تفصلهما عن تلك الايام – العام الخامس والاربعين – تزداد اتساعا يوما بعد يوم ، ولا سيما بعد ان احيل قازانغاب على المعاش ، وحدث ان رحل الى المدينة للسكنى مع ابنه ، لكنه لم يوفق ، فعاد ادراجه بعد ما يقوب من ثلاثة اشهر . لقد تبادلا الاحاديث عند ذاك عن مختلف الامور ، وسيرها فى هذه الدنيا . كان قازانغاب رجلا حكيما ، وترك عن نفسه ذكريات ثرة . . . وفجاة ، ادرك يديغى بجلاء تام انه لم يبق بعد الآن من صديقه الا تلك الذكريات ، فداهمته نوبة من الاسى العميق . . .

وحين سمع يديغي قرقعة مفتاح ميكرفون الهاتف الداخلى اسرع الى الكشك ، خرخش الجهاز وفحفح ، ثم هدر كالعاصفة ، قبل ان يصدر عنه صوت شاميردين خفير نقطة المرور :

– يديغي ، هلو يديغي ، أتسمعنى ؟ اجب !

– نعم ، اسمعك .

– اتسمع ؟

– اسمع ، اسمع .

– كيف تسمعنى ؟

– كانك تتحدث من العالم الآخر !

– لماذا من العالم الآخر ؟

– هكذا يعجبنى !

– ها . . . يعنى حدث للعجوز قازانغاب ذاك الشىء نفسه !

– ما هو ذاك الشىء نفسه ؟

وحاول شاميردين ان يبحث عن الكلمة المناسبة لمثل هذه الحال ، لكن دون جدوى .

– يعنى ، مات . لا ادرى كيف أعبر ؟ انقضى ذاك الشىء نفسه ، هذا نفسه ، اجله الموعود .

– اجل .

اجاب يديغى باختصار ، وفكر فى سره : «يا للحيوان * الاحمق ، لا يستطيع ان يعبر كما ينبغى حتى عن الموت !»

خرس شاميردين لدقيقة . لكن الميكرفون ازّ وخشخش وفحفح على نحو اشد من السابق ، ونقل انفاسا صاخبة . ثم اردف شاميردين بصوت مبحوح :

– يا عزيزى يديغي ، لكن هذا الشىء نفسه ، ماذا يسمونه ، لا تصدع راسى . طالما قد مات فليس باليد حيلة . . . لا احد عندى . ما حاجتك ان تجلس الى جانبه ؟ المرحوم باعتقادى هذا الشىء نفسه ، ماذا يسمونه ، لن يعود الى الحياة . . .

استاء يديغى :

– وباعتقادى ، انت لا تفهم شيئا ! ما معنى لا تصدع راسى ! انت تعمل هنا منذ عام ، اما نحن الاثنان فلقد عملنا هنا سوية ثلاثين عاما . فكر جيدا : المتوفى انسان وليس من المتبع ترك جثمانه وحده فى بيت خاوٍ .

– من اين له ان يعرف ، هذا الشىء نفسه ، ماذا يسمونه ، ان كان وحده ام لا ؟

– لكننا نحن نعرف !

– طيب ، لا تصرخ ، ماذا يسمونه ، لا تصرخ يا شيخ !

– انا اشرح لك الامر .

– قل ماذا تريد ؟ لا احد عندى لينوب عنك . وليس بامكانك ان تفعل فى البيت شيئا . . . الليل ما زال فى اوله . . .

– اصلى عليه واجهزه ، وادعو له بالدعاء الحسن .

– تصلى ؟ انت تصلى ، يا يديغى البورانى ؟

– بلى ، انا ، واعرف الصلاة جيدا .

– واعجباً ! عمر السلطة السوفييتية ، ماذا يسمونه ، ستون عاما .

---

* وردت مكتوبة بلفظها العربى . **المترجم** .

– دعك عن هذا . ما شأن السلطة السوفييتية بهذا الامر ؟ يصلى الناس على الموتى منذ غابر العصور . المتوفى انسان لا حيوان !

– طيب ، صلِّ ، هذا نفسه ، لكن لا تصرخ . سأرسل فى طلب عادل باى الطويل ، اذا وافق سيأتيك ، هذا نفسه ، ويحل محلك . . . والآن هيا اسمح للرقم ١١٧ بالعبور ، فهو ينتظر على الخط الاحتياطى الثانى .

وبهذا قطع شايميرديـــن الخط ، وفرقع مفتاح الهـــاتف الداخلى . اسرع يديغي الى المحولة . وفكر وهو منشغل بعمله ان كان سيوافق عادل باى وياتي . لكنه عندما رأى النـــور يضبئ ساطعا فى عدد من النوافذ ، خالج قلبه بعض الامـل ، وقال فى نفسه ان الناس لم يفقدوا ضمائرهم ، ثم نبحت الكلاب ، وهذا دليل على ان زوجته ايقظت الناس وبعثت هرجا ومرجـا بينهم .

فى هذه الاثناء تقدم القطار رقم ١١٧ على الخط الاحتياط . وجاء من الطرف الاخر قطـــار ناقل للنفط متألف مـــن عربات صهاريج . وسار كل منهما فى اتجاه معاكس . احدهما صـــوب الشرق والاخر صوب الغرب . . .

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل . تألقت النجوم فى السماء ، وكل نجمة تضئ وحدها وتتميز عن الاخرى . وارسل القمر ضياء اسطع من المعتاد قليلا ، وهو يفعم قوة اضافيـــة متدفقة تدريجيا . وكانت سهوب ساروزيكى تمتد امتدادا متناهيا لا حدود له تحت السماء المرصعة بالنجوم ، وليس فى وسع المرء ان يميز الا اشباح الابل ، وبينها الجمل العظيم ذو السنامين قرة نار والملامح غير الواضحة للتلال القريبة منه ، وفيما عـدا ذلك كان كل شىء فى كلا جانبى سكة الحديد يدخل فى غـــور الليل . حتى والريح لم تخف ، فواصلت صفيرها وحفيفها فـى القمامة .

وكان يديغي تارة يخرج من الكشك وتارة يدخل اليـــه مترقبا ان يلوح عادل باى الطويل فـــى الطريق ، وفى هذا الوقت رأى فى البعد حيوانا ، وتبين انه ثعلـب . كانت عيناه تبرقان بلون متألق ضارب الى الخضرة . وكان الثعلب واقفـا

منكس الراس تحت عامود التلغراف ، دون ان يهم بالدنو او الهرب .

– ماذا تفعل هنا ؟ – تمتم يديغى مهددا اياه باصبعه من باب المزاح . لكن الثعلب لم يخف . – حذار ! سأريك ! – وخبط الارض بقدمه .

ابتعد الثعلب واقعى ملتفتا نحوه . وكان ينظر نظرات ثاقبة متفجعة كما تراءى له ، دون ان يرفع عينيه عنه او عن شىء اخر بالقرب منه . ما الذى استماله ، ولماذا جاء هنا ؟ هل الانوار الكهربائية استدرجته ام الجوع فتك به ؟ لقد بدا ظهور الثعلب غريبا ليديغى ، فلماذا لا يقذفه بحجر مـا دامت الفريسة ترمى بنفسها بين يديه . ووجد يديغى على الارض حجرا كبيرا ، وسدّد على الثعلب . ثم رفع يده وانزلها ، فسقط الحجر تحت قدميه ، وتصبب يديغى عرقا . تصور ، ما اغرب الافكار تخطر فـــى راس الانسان احيانا ، فما ان همّ بضرب الثعلب حتى قفز الى ذهنه فجاة حديث احدهم ذات يوم ، ولا يتذكر ان كان احـــد هؤلاء الاناط القادمين او المصور الذى خاض معه نقاشا عـــن وجود الله ، او شخصا آخر ، لا ، لم يكن لا هذا ولا ذاك . لقد حدثه ثابت جان . وياله من رجل سيئ ثابت جان هذا ! يختلق دائما مختلف الاعاجيب غايتـــه فقط ان يصغى الناس لـــه ، ويتملكهم الذهول ليس الا . اجل ، ثابت جان بن قازانغاب حدثه عن تناسخ الارواح بعد الموت .

لقد حشا المهذار راسه بكل ما لا نفع فيه . اذا نظرت اليه تحسبه من الوهلة الاولى رجلا لا بأس به ، يعرف كل شىء ، ويسمع كل شىء ، لكن ليس فى هذا كله الا نزرا يسيرا مـن الفائدة . درس سنوات طويلة فى المدرسة الداخلية ، ثم فى المعهد ، لكن ، وا اسفاه للنتيجة ! يحب ان يتباهى ، بانـــه يشرب ، ويعد خبيرا برفع الانخاب ، اما بالعمل فلا . باختصار ، انه انسان فارغ ، لذلك لا يمكن ان يساوى ما كان يساويـــه قازانغاب ، مع انه يلوّح بدبلومه . اجل ، لم يوفق بأن يكون خير خلف عن ابيه ولم يرث منه خلقه . لكن ، ما العمل ، فهو موجود ، هذا المخلوق .

وهكذا ، فقد حدثه ذات مرة ، ان قوما فى الهنـد يعتنقون مذهبا يؤمن بان الروح بعد الموت تتقمص جسد مخلوق اخر ،

ايا كان ، حتى جسد النملة ، ويذهب هؤلاء اليوم فى قولهم ، الى ان كل انسان كان فى الاصل ، فى زمن ما قبل ميلاده ، طيرا او حيوانا او حشرة . لذلك يُعد قتل الحيوان خطيئة ، حتى وان كان ذلك الحيوان أفعى الكوبرا ، وفيما اذا التقوها فى الطريق مثلا لا يمسونها بأذى ، بل يسجدون امامها ويفسحون لهـــا الدرب .

العالم يحفل بمختلف انواع الاعاجيب ، من يعرف مدى صحة هذا كله . العالم واسع كبير ، اما الانسان فلم يتسن له ان يعرف كل شيء . وها قد خطر له عندما تأهب لرمـــى الثعلب بالحجر : واذا كان يتقمص روح قازانغاب ؟ قد يكون قازانغاب المتقمص ثعلبا جاء الى صديقه الافضل ، لان كوخه اصبح فارغا وخاويا وكئيبا بعد وفاته . «بدات اخرف !» وعاتب يديغـــى نفسه : «كيف يمكن ان يخطر لى هـــــذا ؟ تفو ، لقد خرفت تماما !» ومع ذلك حين اقترب من الثعلب بحيطة وحذر خاطبـه كمن يخاطب شخصا يفهم كلامه :

– اذهب ، مكانك ليس هنا . . . اذهب الى مأواك فـــى السهوب . أتسمعنى ؟ اذهب ، اذهب ، لكن ليس فى هـــذا الاتجاه ، ثمة الكثير من الكلاب . الله معك ، اذهب الى ملاذك فى السهوب .

استدار الثعلب ولاذ بالفرار . وما هى الا لحظات حتـــى اختفى فى العتمة .

فى هذه الاثناء وصل قطار آخر الى المفرق . وراح يبطئ من حركته مطقطقا حاملا معه الغبار المتطاير فوق العربات . وعندما توقف أطل سائق القاطرة التى كانت تهدر هديرا خافتا مـــن الدوران البطىء للمحرك ، رأسه :

– يا يديغي ، يا بورانى ، السلام عليكم !

– عليكم السلام ! *

ورفع يديغي رأسه ، لكى يرى جيدا من عساه يكون هذا . ذلك ان جميعهم ، على هذا الطريق ، كانوا يعرفون بعضهم بعضا . واتضح انه احد معارفه . وكان يديغي قد طلب اليه ان ينقل

* التحية والرد وردنا باللفظ العربى . المترجم .

الى قمبيل ، الى المحطة الرئيسية ، حيث تسكن آي زاده خبر وفاة والدها . والسائق وافق عن طيب خاطر ان يلبى هـــذا الطلب احتراما لذكرى قازانغاب ، ولا سيما ان تبادل وردیات عمال القطارات يتم فى قمبيل ، وحتى ان السائق هذا وعد بان ياخذ معه آى زاده وافراد عائلتها فى طريق عودته اذا مـــا استطاعت الوصول الى القطار قبل موعد تحركه .

كان رجلا ثقة . حتى ان يديغي احس ببعض اليسر . لانه تأكد من ان احدى المهمات قد نفذت .

تحرك القطار بعد دقائق معدودة . ورأى يديغى اثناء توديع السائق رجلا طويلا نحيفا يتقدم نحوه مـــن طرف السكة ، على امتداد القطار الذى تزداد سرعته ، فدقق النظر فيه ، وتبين انه كان عادل باي .

اثناء تسليم يديغي الوردية لعادل باى الطويل وتجاذبهمـــا الحديث حول المصاب الجلل وتأوهما متذكرين المرحوم ، وصل مفرق بورانلى-بورانى قطاران آخران وغادراها فى اتجاهيـــن معاكسين . واذ تحرر يديغى من كل اشغاله توجه الى البيـت . واخيرا خطر له فى الطريق انه نسى ان يذكر زوجته ، او بالاحرى ان يستشيرها كيف يتصرف بشأن ايصال خبر وفاة العجـــوز قازانغاب الى ابنتيه وزوجيهما . وكانت ابنتا يديغى المتزوجتان تعيشان فى طرف آخر تماما ، بالقرب من قزل-اوردا . الكبرى تعمل فى سوفخـــوز لزراعة الرز وزوجها سائق تراكتـــور . والصغرى عاشت فى البدء فى محطة قرب قازالين ، ثم انتقلت مع افراد اسرتها الى السوفخوز نفسه لتكون اقرب الى اختها . وعمل زوجها سائقا . ومع ان قازانغاب ليس قريبا مقربا لهما كى يتحتم عليهما حضور جنازته ، الا ان يديغي يعتبره اعز من اى قريب آخر . اذ ولدت البنتان بوجوده فى بورانلى-بورانى ، وترعرعتا فى هذه النقطة ودرستا فى المدرسة الداخلية للمحطة فى قومبيل ، الى حيث كان ياخذهما بالتتابع اما يديغي نفسه او قازانغاب . وتذكر كيف كان ياتى بهما من المدرسة فـــى بداية العطلة ويعيدهما اليها فى نهايتها ، معتلين ثلاثتهم ظهر

جمل واحد . الصغرى فى الامام والكبرى فـــى الخلف والاب يتوسطهما ، ويقطعون على هذا النحو مسافة تستغرق ثـــلاث ساعات او اكثر فى الشتاء . كان يديغى يحدو قره نار حـدوا فيركض خببا من بورائل-بورانى الى قومبيل . وعندما يداهمه الوقت يؤدى قازانغاب المهمة بدلا منه . وكان قازانغاب لهمـا بمثابة الاب . ولذلك ارتأى يديغي الابراق لهما فى الصباح ، ولتتصرفا وفق امكانياتهما . . . لكـــن كان ينبغى اعلامهما بان قازانغاب قد غاب عن الوجود . . .

ثم فكر وهو فى طريقه الى البيت ان اول عمل يجب ان يقوم به فى الصباح هو سوق جمله قره نار من مرتعه ، اذ سيكون بأمسّ الحاجة اليه ، ذلك ان وفاة انسان ليست مسألة سهلة ، كما وليس من اليسير ايضا ايداعه مثواه باكرام واجلال فـى هذا العالم . . . ما يلبث المرء ان يكتشف بين حين وآخـر نقص هذا الشيء او ذاك ، ويضطر الى تدبير الحاجات اللازمـة بعجالة بدءا من الكفن وانتهاء بالحطب لطبخ عشاء المآتم .

وفى هذه الاثناء بالضبط برق ضوء خاطف فى السمـاء مذكرا بما كان يحدث فى الجبهة اثناء وقوع انفجارات راعدة فى البعيد ، واهتزت الارض تحت قدميه ، فرأى امامه مباشرة فى تلك الجهة حيث يقع ، كما يعرف ، مطار ساروزيكى الفضائـى شيئا ما يصاحبه لهب عظيم قد طار الى الاعالى وما لبث ان تبعه اعصار من النيران يسبقه صاروخ منطلق الى الفضاء . لم ير فى حياته ابدا ما يماثل هذا . كان يعرف شأن جميع الساروزيكيين بوجود مطار ساروزيكى – ١ الفضائى الـــذى يبعد عنهم نحو اربعين او اقل من الكيلومترات . ويعلم ان خطا منفصلا مـن قضبان الحديد 'مدّ' اليه من محطة تغريك-تام ، ويقال ايضا ان مدينة ضخمة ذات حوانيت كبيرة شيدت فى تلك الجهة ، وسمع من الاذاعة وقرأ فى الصحف كثيرا من المواضيع حول رواد الفضاء والرحلات الفضائية . وهذا كله كان يحدث فى مكان قريب . او على الاقل فى حفلات فرق الهواة فى مدينة هى مركز محافظة حيث يعيش ثابت جان – هذه المدينة تبعد عنهم مسافة لا بأس بها ، تقدر بنحو يوم ونصف يوم من السفر بالقطار كان الاطفال يغنون اغنية تقول انهم اسعد الاطفال فى العالم لان رواد الفضاء ينطلقون

الى الفضاء من اراضيهم . ونظرا لكون المطار وكل ما يحيط به منطقة مقفلة – فان يديغى الذى يعيش غير بعيد عنه كان يكتفى بمعرفة اشياء يسمع عنها من الاخرين . وها هو للمرة الاولى يرى بام عينيه كيف ينطلق الصاروخ الفضائى انطلاقا جامحا الى السماء الفاتمة المرصعة بالنجوم يرافقه صخب شديـد ولهيب عظيم يضيء الدائرة المحيطة به بوميض مختلج . والتاث الامـر عليه . ايعقل ان انسانا يجلس فى هذه النار المضطرمة ؟ انسان واحد ام اثنان ؟ لماذا لم ير فى السابق ، وهو الذى يعيش هنا بصورة دائمة لحظة الانطلاق ، لا سيما وقد انطلق الناس الى الفضاء مرات يتعذر احصاؤهـا . قد تكون السفن الفضائيـة انطلقت فى تلك المرات نهارا ؟ مـــن المستبعد ان يرى المرء شيئا من هذه المسافة والشمس مشرقة . لكن لماذا اطلق هذا الصاروخ ليلا ؟ اكان ذلك على سبيل الاستعجال ام اقتضـــاء الضرورات ؟ لعله ينطلق من الارض ليلا ويصل الفضاء الخارجى نهارا ؟ ذات مرة حدثه ثابت جان وكأنما قد حلق فى الفضاء هو نفسه وقال ان الليل والنهار يتناوبان كل نصف ساعة . ينبغى الاستفسار من ثابت جان مرة اخرى . ثابت جان يعرف كل شيء ويسعى حثيثا لان يغدو رجلا ذا شأن ، واسع المعرفة . مهما يكن فهو يعمل فى مركز المحافظة . لكن لولا تظاهره وتباهيه ! ولماذا هذا التظاهر ؟ كن ما انت عليه . «كنت مع فلان ، جلست مع علان ، وقلت كذا وفعلت كيت» . وحدثه عادل باى الطويل انه صادف أن زاره ذات يوم فى موضع عمله فرآه بلا عمل لا ينفك يركض من الهاتف الى باب المكتب فى غرفة الاستقبال ، ولا ينى يكرر «سمعا وطاعة يا جبار قهرمانوفيتش ! حاضر يا جبار قهرمانوفيتش ! فى الحال يا جبار قهرمانوفيتش !» بينما ذاك يجلس فى مكتبه ويحث الناس ضاغطا على ازرار الميكرفون . ولم يستطع عادل باى ان يتبادل معه حديثا معقولا . . . يبدو ان هذا هو حال صاحبنا السهبى . سامحه الله ، هذا المخلوق . . . اسفى على قازانغاب ، كان يتعذب جدا من تصرفات ابنه لم يقل بحقه حتى الايام الاخيرة كلمة سوء واحدة . ولكان قد انتقل الى المدينة يعيش عنده وعند كنته . لقد دعياه واخذاه الى بيتهما ، لكن ما حصل . . . هذا موضوع اخر .

استغرق يديغي بمثل هذه الافكار فى ذلك الليل العميق بعد ان شيع المركبة الفضائية حتى اختفائها التام . وكان قد راقب هذه الاعجوبة امدا طويلا . وعندما طوت الهوة السوداء السفينة النارية التى راحت تتضاءل تدريجيا ، وتتحول الى نقطة بيضاء من الضباب هز راسه وانصرف تعتمل فى قلبه مشاعر غريبة ومتناقضة . وكان يفطن وهو يندهش مما يراه ان هذه المسالة بعيدة عن اهتمامه ، لكنها تثير لديه الدهشة والفزع . وتذكر فى تلك الاثناء فجاة ذلك الثعلب الذى تراكض عند سكة الحديد ، ماذا حدث له يا ترى عندما داهمه فى السهب الاجرد هذا الاعصار ؟ ربما لم يعرف اين يلتجىء . . .

بيد ان يديغي البورانى الشاهد على انطلاق الصاروخ الى الفضاء فى الليل لم يخامره ادنى شك ، بل ولم يجز له ان يعرف ان ذلك الاقلاع كان اقلاعا استثنائيا طارئا لسفينة فضائية على متنها رائد فضاء وبلا اى احتفال رسمى وصحفيين وبيانات ذات العلاقة بالحادث الاستثنائى فى المحطة الفضائية «باريتيت» * الموجودة منذ اكثر من عام ونصف عام ضمن البرنامج ** فى المدار ، والذى اصطلح على تسميته مجازا «ترامبلين» *** . من اين ليديغي ان يعرف هذا كله ، وكان لا يتبادر الى ذهنه ان هذا الحدث سيمسه ويمس حياته ، وليس بسبب وجود اواصر قوية لا تفصم عراها بين الانسان والبشرية بمغزاها العام فقط ، بل بشكلها المباشر والعملى . لا سيما كان لا يعرف ، ويستحيل عليه ان يخمن انه بعد مضى زمن قصير على اطلاق السفينة الفضائية من ساروزيكى ، اطلقت من الطرف الاخر للارض ، من مطار نيفادا الفضائى مركبة فضائية امريكية لتؤدى المهمة ذاتها وفى المحطة المدارية «باريتيت» عينها ، وفى المدار «ترامبلين» نفسه ، لكن من الجانب الاخر .

ارسلت المركبتان فورا الى الفضاء وفق الامر الصادر من حاملة الطائرات للبحوث العلمية «كونفينتسيا» **** التى تعد

* التكافؤ . المترجم .
** تحت من السوفيتى-الامريكى . المترجم .
*** المنطقة . المترجم .
**** الاتفاقية ، المترجم .

قاعدة عائمة للمركز الموحد لتوجيه برنامج «ديميورغ» الفضائى السوفريكى .

كانت حاملة الطائرات «كونفينتسيا» عائمة فى منطقة مرابطتها الدائمية فى المحيط الهادى ، الى الجنوب من جزر اليوت ، فى المربع الذى يتوسط تقريبا المسافة بين فلاديفوستوك وسان فرانسيسكو . وكان مركز التوجيه المشترك — «اوبتسينوبر» فى تلك الاثناء يرصد بمزيد الاهتمام خروج كلتا المركبتين الى مدار «ترامبلين» . ولقد سارت الامور جميعها ، الى ذلك الوقت ، بنجاح ، وكان من المقرر التحام المركبتين مع مجمع البحوث الفضائية «باريتيت» ، وكانت مهمتاهما من اعقد المهمات ، لان الالتحام ينبغى ان يتم فى آن واحد تماما من طرفى المحطة وليس بالتتابع وفى فترات زمنية متباعدة .

لم تستجب «باريتيت» لنداءات «اوبتسينوبر» من متن «كونفينتسيا» منذ اكثر من اثنتى عشر ساعة ، ولم ترد ايضا على اشارات المركبتين الفضائيتين المنطلقتين نحوها للالتحام . . . وكان ينبغى معرفة ماذا حدث لطاقم «باريتيت» .

الفصل الثانى

كانت القطارات فى هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب، ومن الغرب الى الشرق .

وعلى جانبى خط سكة الحديد كانت تمتد مساحات شاسعة من الاراضى الصحراوية — سارى اوزيكى الاراضى الوسطى من البرارى الصفراء . . .

وفى هذه الانحاء كانت المسافات تقاس نسبة الى خط السكك كانه خط غرينيتش . . .

اما القاطرات فواصلت سيرها من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق . . .

كانت المسافة من مفرق بورانلى-بورانى حتى مقبرة الاسلاف

آنا-بابيت تبلغ نحو ثلاثين كيلومترا فى اقل تقدير ، اذا شق المسافر لنفسه دربا مستقيما فى برارى ساروزيكى معتمدا على تخمينه ، واما اذا ارتأى ان يتجنب المخاطرة حتى لا يضل دربه عرضا فى السهوب ، فمن الافضل له ان يلزم خط سكة الحديد ويسير بموازاته ، لكن فى هذه الحالة ستطول المسافة وسيضطر الى قطع طريق منحنٍ طويل بما فيه الكفاية حتى منعطف وادى كيسيكساى المؤدى الى آنا-بابيت . وليس ثمة من طريق اخر ، وتقدر المسافة فى احسن الاحوال بنحو ثلاثين فرسخا ذهابا وما يعادلها ايابا ، لكن لا احد غير يديغى من بين البورانليين الحاليين جميعهم كان يعرف كيفية الوصول اليها ، على انهم سمعوا عن المقبرة القديمة التى تشاع عنها شتى الحكايات ، سواء كانت واقعية او خيالية لكن لم يزوروها بانفسهم ، لعدم اقتضاء الحاجة . وكان هذا اول حدث من نوعه خلال سنوات طويلة فى بورانلى-بورانى ، القرية الصغيرة ذات البيوت الثمانية الواقعة على خط سكة حديد ، التى توفى فيها انسان ويتطلب الأمر دفنه . قبل بضع سنوات حين توفيت طفلة بخناق الصدر أخذها والداها لدفنها الى موطنهم الاصل فى محافظة الاورال ، اما العجوز بوكيه ، زوجة قازانغاب ، فقد ووريت الثرى فى مقبرة المحطة فى قمبيل . وكانت قد فارقت الحياة فى مستشفى المنطقة قبل عدد من السنين ، وارتأوا فى حينه دفنها هناك ، اذ لم يكن ثمة من طائل لنقلها الى بورانلى-بورانى لان قمبيل هى اكبر محطة سكك حديد فى ساروزيكى ، فضلا عن ان ابنتها آى زاده تعيش فى البلدة ، وكذلك صهرها ، وان كان طانشا ومدمنا على شرب الكحوليات ، فهو على اية حال من الاقرباء . وانهما لا بد ان يعتنيا بقبرها . بيد ان فازانغاب نفسه كان آنذاك على قيد الحياة ، وهو الذى قرر كيف يتصرف .

اما الآن فبدأوا يضربون اخماسا باسداس ولا يعرفون كيف يتصرفون .

الا ان يديغي اصر على رايه . وقال فى محاولة منه لاقناع الشباب :

– ليس هذا بكلام الرجال . كفوا عنه . لا ندفن هذا الانسان الا فى آنا-بابيت ، حيث تثوى رفات الاسلاف واوصى

المرحوم نفسه . ولننتقل من الاقوال الى الاعمال ، ولنتزود فالطريق طويلة . . . نتحرك غدا منذ الصباح الباكر . . .

وكان الجميع يعلمون ان ليديغي الحق فى اتخاذ القرار فوافقوا . لكن ، والحق يقال ، حاول ثابت جان ان يعترض . وكان قد تمكن من المجيء فى ذلك اليوم فى قطار حمولات عابر ، اذ لا تتوقف قطارات المسافرين فى هذه المحطة الصغيرة . لقد جاء ثابت جان لحضور مراسيم الدفن وهو لا يدرى هل ابوه حى ام ميت ، وهذا وحده كان يكفى ليؤثر فى عواطف يديغي ويفرج عنه . وبالفعل ، احتضن احدهما الاخر فى لحظة اللقاء ، وبكيا يوحدهما المصاب نفسه والحزن عينه . وتعجب يديغي من نفسه فيما بعد ، اذ لم يتمكن ان يتمالك نفسه . وهو يضم ثابت جان الى صدره ويبكى ، وراح يقول خلل نشيجه : «حسنا فعلت بمجيئك ، حسنا فعلت يا عزيزى» وكأنه كان يستطيع بمجيئه ان يبعث قازانغاب الى الحياة . ولم يقو يديغي على ان يفهم لماذا انخرط فى البكاء مثلما لم يبك من قبل قط . بكيا طويلا فى الفناء امام باب الكوخ الطينى المهجور . وتحرك وازع ما فى نفس يديغي وهو يعيد الى ذاكرته كيف ترعرع ثابت جان امام عينيه ، كان صبيا ، محبوب والده ، وكانا – هو ووالده – ياخذانه للتعلم فى المدرسة الداخلية لاطفال شغيلة سكك الحديد فى قمبيل وكلما توفر لديهما متسع من الوقت ، وكانا احيانا يسافران لزيارته اما بقطار عابر او على ظهر جمل ليريا كيف يعيش فى القسم الداخلى ، ويقفا على شؤون دراسته ، ورأى المعلمين فيه ، او لعل احدا اساء اليه ، او قد يكون ارتكب حماقة ما . . . وكم من مرة حملاه ، اثناء العطلات المدرسية ، مدثرا بمعطف فرو على ظهر الجمل قاطعين سهوب ساروزيكى المغطاة بالثلوج ، متحملين العواصف والصقيع ، وذلك كله من اجل الا يتاخر عن دروسه .

آه لتلك الايام التى لن تعود ! انقضت جميعها وتلاشت كالحلم . وها هو ذا ثابت جان وقد بلغ مبلغ الرجال لا يشبه ذلك الذى كان عليه فى طفولته الا قليلا . كان جاحظ العينين ودائم الابتسام ، بينما الآن يضع نظارات على عينيه ويعتمر قبعة مفلطحة ويعقد ربطة عنق رثة . ويعمل ثابت جان حاليا فى

مركز المحافظة – ويبذل قصارى جهده ليبدو رجلا ذا شأن ، وموظفا كبيرا . بيد ان الحياة شيمتها الغدر وليس من السهل ان يصبح رئيسا اشتكى من ذلك غير مرة بنفسه وقال انه لا يستطيع ان يتولى منصبا رفيعا بلا سند قوى متنفذ من معارف واقرباء . فى حين هو ، من هو ؟ ابن قازانغاب ، الانسان النكرة ، من مفرق بورانلى-بورانى . فيالها من تعاسة ! حتى هذا الاب لم يعد له وجود الآن ، الاب الذى كان لا ينفع فى شىء ، مع ذلك فان الحى المغمور ، مهما كان ، افضل الف مرة من الميت المشهور ، وحتى هذا ايضا لم يعد له وجود . . .

ثم كفكفا دموعهما وانتقلا الى الحديث ودخلا صلب الموضوع . فى هذه الاثناء تبين ان هذا الابن العزيز العارف بالامور كلها لم يات لدفن ابيه وفق ما يليق به ، بل ليواريه فى حفرة كيفما اتفق ويتخلص من عبئه ويعود ادراجه على عجل . واخذ يدلى باراء مفادها : ما جدوى تحمل هذه المشقة حتى مقبرة آنا-بابيت ، طالما هذه الارض الواسعة كلها تحيط بنا ، وتمتد سهوب ساروزيكى المقفرة من عتبة البيت وحتى اقصى طرف الدنيا ، ويتيسر حفر قبر فى موضع قريب ، على مرتفع ما ، الى جانب سكة الحديد ، ويدفن فيه عامل الصيانة العجوز متسمعا للقطارات التى تنطلق فى رواحها ومجيئها على الخط الحديد الذى عمل فيه طول حياته . وبهذه المناسبة تذكر حكمة قديمة تقول : خير اكرام للميت دفنه فى الحال . . . ولماذا الاطالة والامعان فى التفكير . أليس سواء اين يحفر القبر ؟ كلما اسرع المرء فى مثل هذه الامور كان افضل . . .

هذه هى آراؤه ، غير انه كان يبررها بان اشغالا هامة لا تؤجل تنتظره فى العمل ، ويتذرع بمحدودية وقته ، ولا سيما ان المسؤولين ، كما هو معروف ، لا يهمهم ان كانت المقبرة بعيدة او قريبة ، ويفترض عليه ان يرجع الى عمله فى يوم محدد ، وساعة معينة . فالمسؤولون هم هم والمدينة هى هى . . .

لعن يديغى نفسه فى سره واحس بالخجل والاسف لانه غص بالبكاء تاثرا لمجىء هذا النمط وان كان ابن المرحوم قازانغاب .

وهب واقفا . كانوا نحو خمسة اشخاص يجلسون على عوارض خشبية قديمة ثبتت لصق الجدران بدلا من الكراسى ، وتحتم عليه ان يستجمع مزيدا من القوة لكى يتمالك ، ولا تفلت من لسانه كلمة مشينة امام الناس فى مثل هذا اليوم . واجلالا لذكرى قازانغاب اكتفى بالقول :

– الارض فسيحة بالطبع ، لكن الناس ، مثلما نعرف ، لا يدفنون موتاهم اينما كان ، وهم لا يفعلون ذلك دون قصد . والا فمن يبخل بالارض ؟ – وتوقف عن الكلام ، واصاخ له البورانليون صامتين فاردف : – فكروا مليا واتخذوا القرار ، اما انا فذاهب لتفقد الاحوال فى البيت .

وذهب بوجه مكفهر ، وقد قطب حاجبيه . كان يديغي صارما محتدا ، وعلى طبعه هذا الذى لا ند له سمى بـ«البورانى» التى تعنى العاصف . وفى هذه اللحظة ايضا لو وجد نفسه على انفراد مع ثابت جان لقال له ما يستحق من الكلام فى وجهه الصفيق ، حتى يتذكر ذلك طول حياته ! لكنه لم يشأ ان ينجر الى الاحاديث على طريقة النسوان . انهن يتهامسن ويبدين امتعاضهن . جاء الابن ليدفن اباه كما ياتى غريب ، جاء بيدين خاويتين . ليته جلب حتى ولو علبة شاى وليس اى شىء آخر . وزوجته المتمدنة ، كان عليها هى الاخرى ان تحترم حماها وتاتى وتبكيه وتندبه كما هو متبع . لا ضمير لها ولا حياء . عندما كان العجوز حيا وميسور الحال لديه ناقتان حلويتان ونحو خمسة عشر راسا من الاغنام – كان يعامل بالحسنى ، وهى كانت تزوره ، ولم تنقطع عنه الا بعد ان حققت مرامها ، واقنعته بان يبيع ما عنده من ثروة . ثم اخذت العجوز الى المدينة ، لكى يعيش عندها كما ادعت . لكن بعد ان اقتنوا سيارة وما يكفيهم من الأثاث استغنوا عنه ، فعاد الى كوخه . وها هى الآن حتى لم تطل بوجهها . ارادت النسوة اثارة ضجة لكن يديغي منعهن الا تتجرأن على فتح افواهن فى مثل هذا اليوم ، ثم ان هذا الامر لا يخصنا ، فليفصلوا فيه بانفسهم . . .

وخطا نحو الزريبة التى كان يقف جمله قره‌نار البورانى على مقربة منها . يرغم بين حين واخر غاضبا . وكان قره‌نار

طيلة الاسبوع بايامها ولياليها يتجول بحرية تامة ، اذا لم نأخذ بالحسبان اضطراره مرة او مرتين لورود الماء من البئر عند المضخة مع ذود الابل . لكن قره‌نار كان لا يطيع صاحبه فأخذ الآن يعبر عن سخطه فاتحا فمه ذا الاسنان الكبيرة بشراسة ، وهو يرغو بين حين واخر كأنى به يقول ، انك تريد ان تقيدنى من جديد وانا الحر الذى لم اعتد القيد .

اقترب يديغى من بعيره متكدرا من الحديث الذى جرى مع ثابت جان ، مع انه كان يعرف مسبقا الامَ سينتهى . واتضح ان ثابت جان صنع معروفا بمجيئه لدفن والده الذى ليس الا عبئا عليه ينبغى التخلص منه باسرع ما يكون . ولم يفض يديغي فى الكلام ، فالأمر ما كان يستدعى الافاضة طالما هو بدون ذلك مضطر ان يفعل كل شىء بنفسه ، ثم ان الجيران بدورهم لم يقفوا مكتوفى الايدى ، فمن لم يكن مشغولا منهم ساعده فى تجهيز الميت للدفن والتحضير لعشاء الماتم ، اذ جمعت النساء الأوانى من البيوت وجلبن السماورات واعددن العجين ، وبدان بالخَبز ، بينما نقل الرجال الماء ، واتخذوا عوارض السكة القديمة حطبا – ويعدّ الوقود فى السهوب الجرداء دائما من اولى الضروريات ، شأن الماء . سوى ثابت جان وحده اذ كان يعوق الناس عن اعمالهم متحدثا فى هذا الموضوع او ذاك ، ولا سيما عن توزيع المناصب العليا فى مركز المحافظة : من رقي الى منصب جديد ومن نحي ، دون ان يشعر باى خجل او حرج على غياب زوجته عن دفن حميها . والله عجيب ! عندما اجتماع يحضره ضيوف اجانب . اما الاحفاد فلم يأت على ذكرهم . انهم يعملون كل ما فى وسعهم لحضور الدروس والنجاح حتى يحصلوا على توصية جيدة للالتحاق بالدراسة الجامعية . واحس يديغي بالسخط والامتعاض : «عجيب أمر هؤلاء الناس ! الوقائع كلها يعدونها مهمة الا الموت !» وكانت تؤرقه فكرة «ان كان الموت لا يعنى شيئا ، فان الحياة ايضا لا تعنى شيئا . اين مغزى الحياة اذن ؟ لماذا وكيف يعيشون ؟»

وخاطب يديغي جمله بغضب :

– لماذا تهدر يا تمساح ؟ لماذا تهدر رافعا راسك الى

السماء ، وكان الله يسمعك ؟ – وكان يديغي ينعت جمله بالتمساح فى اقصى الحالات ، عندما كان يخرج عن طوره كليا . ولقد اطلق عمال سكك الحديد القادمون الى المفرق هذا اللقب على قره‌نار البورانى بسبب من اسنانه الكبيرة الحادة ، وطبعه الحرون . – سأتركك تهدر حتى تنفجر . يا تمساح ، واكسر جميع اسنانك !

كان على يديغي ان يضع رحلا على ظهر الجمل . ولم تهدأ ثائرته الا بعد ان شرع بالعمل ، ورنا الى قره‌نار معجبا به . كان جملا قويا وبهيا ، لا تبلغ اليد المرفوعة راسه ، مع ان يديغي كان طويلا بما فيه الكفاية . لذلك انتهز فرصة واحنى رقبة الحيوان قليلا ، ثم ربت بالكرباج على ركبتيه منيخا له بحزم لكى يجعله يبرك . احتج الجمل بصوت جهورى ، لكنه ، رغم ذلك ، اطاع ارادة صاحبه . وعندما برك اخيرا طاويا قوائمه تحته واناخ بكلكله على الارض وسكن ، عندئذ فقط انكب يديغي على العمل .

يعد تركيب الرحل على البعير عملا كبيرا اشبه بتشييد بيت . ولكل رحلة جديدة يصنع رحل جديد ، وينبغي ان يكون للرحال كثير من الحذاقة والقوة ، لا سيما اذا كان الرحل لجمل بضخامة قره‌نار ، ومعنى قره‌نار الجمل الاسود ، ولم يكن عبثا اطلاق هذا الاسم عليه . فراسه الاشعث اسود ، وغاربه مكسو بشعر كثيف اسود ، ورقبته مغطاة من الاسفل بوبر اسود ينسدل حتى ركبتيه كثيفا وفى غاية من الغرابة – وهذه هى زينة الذكر الرئيسية – وسنامان مرنان ينتصبان مثل برجين اسودين على ظهره . ويأتى اخيرا الطرف الاسود لذيله الابتر . اما باقى من جسمه – اعلى الرقبة والكلكل والجنبان والقوائم والبطن – فكان ذا لون فاقع ضارب الى الكستنائى الفاتح . ولم يكن مصدر جماله وذيوع صيته الا هذا التناسق فى جسده وهذا السواد فى لونه . وكان قره‌نار الذى تخطى عقده الثانى ، فى أوج جماله وقوته .

والابل حيوانات معمرة . وقد يكون هذا هو سبب عدم قدرة النوق على الانجاب الا فى السنة الخامسة من عمرها . ثم

ليس كل سنة متوالية ، بل مرة كل سنتين . وتحمل النوق اجنتها فى ارحامها اثنى عشر شهرا وهى اطول مدة بين جميع الحيوانات . والشىء الاهم بالنسبة للحوار (ولد الناقة) هو حمايته فى الاشهر الثمانية عشرة الاولى من تيارات الريح السهبية ، ثم تراه يكبر يوما بعد يوم لا يهاب شيئا ، لا البرد ولا الحر ولا العطش . . .

وكان يديغي ملما بالابل ، وحرص على تربية قره‌نار البورانى صحيحا معافى . وليس بروز سناميه الاسودين مثل نتوءين من حديد الا دليل بأس وصحة . حين اهدى له قازانغاب سقبا صغيرا مزغبا كفرخ البط عقب عودته من الجبهة والتحاقه بالعمل فى مفرق بورانلى-بورانى كان يديغي لما يزل شابا ، وانىّ له ان يعرف انه سيقضى عمره حتى الشيخوخة فى هذا المكان ! احيانا ، يتطلع الى الصور الفوتوغرافية لتلك السنوات ولا يصدق عينيه . تغير كليا واصبح ذا لون رمادى ، وقد وخط الشيب حتى حاجبيه . بالطبع ، تغيرت طلعته ، لكن جسمه لم يكتنز كما يحدث فى مثل هذا العمر . وقد حدث عفويا ان اطال ، اول الامر شاربيه ، ثم لحيته ، ومنذ ذلك الحين لا يستطيع التخلى عنهما . . . فبدونهما يشعر نفسه كالعارى . ولقد انقضى دهر باكمله على ذلك اليوم .

وها هو الآن ، اذ رحّل قره‌نار موبخا اياه تارة بصوته واخرى بتلويحة من يده ، حين كان ذاك يعاند ويكشر عن اسنانه ويزأر كالأسد متلفتا برأسه الاشعث الاسود الى الوراء، تذكر احوال تلك السنوات واخبارها واحس بفرج فى قلبه . . .

كدّ يديغي طويلا ورتب كل شىء . فى هذه المرة قبل ان يضع الرحل البس قره‌نار افضل جل بصنعة قديمة ، ذى شراشيب طويلة ملونة وموشاة بزخارف السجاجيد . ولا يتذكر متى زان قره‌نار آخر مرة بهذا الجل النادر الذى احتفظت به اوق‌بالا بشكل يغبط عليه . واتفق ان يحدث هذا الآن . . .

بعد وضع الرحل على قره‌نار البورانى ، ارغمه صاحبه على النهوض وشعر بارتياح كبير ، بل وافتخر بعمله . كان قره‌نار المزدان بالجل ذى الشراشيب والرحل المصنوع بمهارة فائقة والمثبت على مرتحله يبدو محاطا بالابهة والعظمة . اجل ،

ليتمتع الشباب بالتفرج عليه ، وثابت جان بوجه خاص ، وليفهموا ان دفن انسان عاش حياته معتبرا ليس عبثا ، ولا يشكل عقبة ، بل يعد حدثا عظيما وان كان مريرا ، ولذلك يجب ان يحظى بالاعتبار المناسب . تقام مختلف الطقوس عند التشييع ، البعض يعزف الموسيقى الجنائزية وينكس الاعلام ، والبعض يطلق الرصاص فى الهواء ، والبعض الآخر ينثر الزهور ويضع اطواقا منها على النعش . . .

اما هو ، يديغي البورانى فسوف يتوجه غدا منذ الصباح الباكر معتليا ظهر قره‌نار المزدان بالجل ذى الشراشيب الى مقبرة آنا-بابيت مودعا قازانغاب الى مثواه الاخير . . . وسيفكر به طول الطريق ، عبر برارى ساروزيكى الشاسعة . ومع استعادة ذكراه يودعه الرمس فى مقبرة الاسلاف وفق الاتفاق المسبق بينهما . اجل ، كان ثمة اتفاق كهذا . ومهما طالت رحلته او قصرت فلن يتمكن ان يصده احد ، حتى ابن المرحوم نفسه ، عن تنفيذ ارادة والده . . .

وليعرف الجميع ان قره‌نار جاهز لهذا الغرض ، وعليه الرحل والجل . ولكى يرى الجميع . قاد يديغي جمله من الزريبة ودار به حول جميع البيوت واوقفه امام كوخ قازانغاب ليراه الجميع . ليس فى وسع يديغى البورانى الا ان يفى بوعده . لكن عبثا يصر على اثبات ذلك ، ففى الوقت الذى انشغل فيه بصنع الرحل انتهز عادل باى الطويل الفرصة وانتحى بثابت جان جانبا .

– لنخرج الى الفىء ونتحدث .

وكان حديثهما قصيرا . اذ قال عادل باى مباشرة دون ان يلح على صاحبه فى العدول عن رأيه :

– احمد ربك يا ثابت جان لوجود يديغي البورانى ، صديق والدك ، على قيد الحياة . ولا تحل دون دفن والدك كما يجب . ان كنت على عجلة من امرك فاننا لا نمسكك . انا اهيل حفنة زائدة من التراب فى القبر بدلا منك !

– هذا والدى وانا اعرف . . . – اراد ثابت جان ان يعترض ، لكن عادل باى ما لبث ان قاطعه :

– الوالد والدك ، لكنك انت لست ملك نفسك .

نكص ثابت جان على اعقابه :

– طيب ، لن نتخاصم فى مثل هذا اليوم . فلتكن مقبرة آنا-بابيت . هى أو غيرها سواء . لكنى انما فكرت بكونها بعيدة . . .

الى هنا وانتهى حديثهما . ولما اوقف يديغى الجمل على مرأى من الجميع ، عاد الى البورانيين وقال : «ليس هذا كلام الرجال ، كفوا عنه ، لن ندفنه الا فى آنا-بابيت . . .» لم يعارضه احد . وكان سكوتهم هذا دليل الرضا .

امضى المعارف والجيران جميعهم تلك الامسية والليل فى فناء كوخ المتوفى . اذ ان الطقس كان قد استقر وحلت برودة مطلع الخريف الساروزيكى المفاجئة بعد حر النهار . وساد الكون سكون اخرس وصمت جليل تنسدل عليه ستارة خفيفة من الظلام . والى ان فرغوا من سلخ الخروف المذبوح للمأتم وتنظيفه وتقطيعه كان الليل قد اسدل ستائر ظلمته ، فجلسوا يرتشفون الشاى عند السماور الداخن ويتبادلون الاحاديث فى مختلف المواضيع ، وفى هذه الاثناء كان قد اعدّ كل شىء للدفن ، ولم يبق الا ان يتحركوا فى الصباح باتجاه آنا-بابيت . ومضت تلك الساعات من الليل هادئة ساكنة ، كما ينبغى ان تكون عند وفاة عجوز عاش بما فيه الكفاية . . .

والقطارات كانت تاتى الى المفرق وتغادره – تلتقى عنده قادمة من الشرق ومن الغرب وتفترق منه متجهة الى الشرق والى الغرب . . .

هكذا كانت الحال فى تلك الليلة عشية التوجه الى آنا-بابيت ولكانت الامور كلها قد سارت على ما يرام لولا وقوع حادث غير مستحب . اذ وصلت فى تلك الاثناء آى زاده بصحبة زوجها فى قطار حمولة عابر . وما ان اعلنت عن وصولها بولولة وعويل الا واحاطتها النساء منتحبات . ولا سيما اوق بالا التى انضمت اليها لتفرج عن كربها ورافة بحالها . وبكت المرأتان الميت بكاء مريرا وعددتا مآثره . وحاول يديغى ان يهدئ آى زاده : لا حول لنا ولا صول ولا يجوز ان تموتى كمدا على الميت ، ينبغى الاستسلام لحكم القدر والتسليم به . . . لكن آى زاده

لم تثب الى رشدها .

هذا ما يحدث فى احيان كثيرة ، ان تجعل البنت من وفاة والدها ذريعة للافراج عن كربها والتفريج عن نفسها بالبكاء ، والافاضة امام الناس بمكنون قلبها ، بكل ما لم يجد مخرجا مفتوحا له فى الكلمات . وكانت آى زاده وهى تنتحب وتخاطب والدها المتوفى شعثاء ومتورمة تتشكى بطريقة النسوان من حالها ، وما آل اليه مصيرها التعس ، وتريد ان تقول ان لا احد يفهمها او يعيرها اذنا صاغية ، هى التى لم توفق منذ شبابها . فزوجها سكير واولادها يتسكعون من الصباح حتى المساء فى المحطة بلا رقيب او حسيب ، ولذلك فقد اصبحوا شقاة ، وربما يستحيلون فى الغد عصاة ويبدأون ينهب القطارات . وها هو الكبير يسكر منذ الآن . ولقد جاء رجل الميليشيا وحذرها من مغبة مثل هذا السلوك . وسيقدم قريبا للنيابة . ماذا فى وسعها ان تفعل وحدها امام ستة اولاد ! بينما والدهم وكان الامر لا يعنيه . . .

وبالفعل كان يبدو على زوجها وكان الامر لا يعنيه ، فجلس لامباليا بهيئة كئيبة ومعتزلة يدخن سيكاير رخيصة نتنة الرائحة ، ويتظاهر انه جاء لتشييع جنازة حميه . ولم يكن هذا الكلام جديدا عليه . كان يعرف ان المرأة ستزعق وتولول ثم تكف . . . لكن ثابت جان تدخل فى هذه الاثناء بغير مناسبة . ومن هنا بدات المشكلة . انشأ ثابت جان يؤنب اخته : اين رايتم هذا ، ما هذا الاسلوب ، لماذا جاءت ، التدفن اباها ام لتخزى نفسها ؟ اهكذا يليق بالبنت القازاخية ان تبكى اباها المعتبر ؟ الم تتحول البكائيات العظيمة للنساء القازاخيات الى اساطير واناشيد يتداولها الاحفاد منذ مئات السنين ؟ لم تقتصر تلك البكائيات على رثاء الموتى حسب ، بل حتى الاحياء جعلتهم يسترسلون فى البكاء . وكانت تعدد مناقب الميت وخصاله الحميدة حتى تصل اسماع السماء . هكذا كانت تبكى النساء ! بينما هى ، اراايتموها كيف تبكى ؟ تنوح وتندب حظها وشقاءها وسوء طالعها فى هذه الحياة !

وكان آى زاده ما كانت تنتظر الا مثل هذا الكلام . فصرخت بكل ما اوتيت من قوة وغضب . يا لك من فهيم حكيم ! اذهب وعلم زوجتك فى الاول ! لماذا لم تات وترينا كيف يكون البكاء

العظيم . كان عليها ان تاتى وتقدر ابانا حق قدره . مكارة وانت مثلها يا سافل ورذيل ، لقد نهبتم وسلبتم ما عنده من ثروات ! زوجى وان كان سكيرا فقد جاء لكن اين زوجتك المتاجرة فى ذكاء ؟

عندئذ شرع ثابت جان يصرخ بوجه زوجها لكى يرغمها على السكوت ، لكن ذاك استشاط غضبا واخذ بخناق ثابت جان . . .

ولم يفلح البورانليون الا بمشقة بالغة فى تهدئة الاقرباء المتقاتلين ، واعربوا جميعا عن عدم ارتياحهم لهـــذا التصرف وشعروا بالخجل . وتكدر يديغي كدرا شديدا . فهو يعرف قيمة كل منهم ، لكنه لم يتوقع ان تتفاقـــم الامور الى هذا الحـــد . وحذرهم بمنتهى الصرامة : اذا كنتم لا تحترمون بعضكم بعضا ، فلا تسيئوا على الاقل الى ذكرى والدكم . والا فلن اسمح لاحد منكم بالبقاء هنا . ولن آخذ بعين الاعتبار اى شيء ، ولن تلوموا الا انفسكم . . .

اجل ، لقد وقع مثل هذا الحادث المشيـــن عشية الدفن . وكان يديغي حزينا اشد الحزن . فزوى ما بين حاجبيه عاقـــدا اياهما على جبينه المقطب وراحت الاسئلة تفترسه مرة اخرى : لماذا وكيف آل الابناء الى ما هم عليه الآن ؟ وهل كان هـــو وصديقه يحلمان بذلك عندما كانا ياخذانهم فى الحر والبرد الى المدرسة الداخلية فى قمبيل ، من اجل ان يتلقوا العلم ويشقوا دربهم فى الحياة ، ولا يتورطـــوا فى العمل باحدى محطـــات ساروزيكى ، ولا يندبوا حظهم فيما بعد : والدانا لم يعتنيا بنا . لكن حصل العكس . . . ما الذى حال دون ان يصبحوا اناسا لا تاباهم النفس ؟

وهب عادل باى ليكون عونا لهم ، وابدى عناية ، هـــى معهودة لديه ، يسرّت من حال يديغى فى ذلك المساء . ذلك انه كان بلا ريب يفطن الى مدى الضيق الذى كان عليه يديغى . ثم ان ابناء الميت هم دائما الشخصيات الرئيسية فى التشييع ، وهذا امر ثابت فى العالم كله . فلا يمكن التخلى عنهم او ابعادهم مهما كانوا قليلى الحياء او غير نافعيـــن . ولكى يحل عادل باى المشكلة التى كدرت الجميع ويصالح بين الاخ والاخت دعا جميع الرجال عنده الى البيت ، بحجة اننا لم نات لاحصاء النجوم فى

السماء حتى نقف فى هذا الفناء ، فالاحسن ان نذهب عنـــدى ونشرب الشاى ونثرثر . . .

وجد يديغي نفسه فى بيت عادل باى الطويل وكانه فى عالم آخر . كان فى السابق يزور هذا البيت كجار ، وفى كل مرة ، كان يشعر بالرضا والارتياح ، ويمتلىء قلبه بالسرور لعائلة عادل باى . واليوم ايضا تملكته رغبة بالبقاء وقتا اطول ، ولقد شعر بمثل هذه الحاجة كمن يتوجب عليه ان يعيد الى نفسه فى هذا البيت قوته المفقودة .

كان عادل باى الطويل عامل صيانة كسائر العمال الآخرين ، ويتقاضى مرتبا لا يزيد عن مرتبهم ، ويسكن مثل الآخرين فـــى بيت مركب من الواح خشبية يتالف من غرفتين ومطبخ . غير ان نمطا اخر من الحياة كان يسود البيت . اذ كان دائما نظيفا ومرتبا ومثيرا ، الشاى نفسه الذى يرتشفه الآخرون بدا ليديغي فـى فناجين بيت عادل باى شفافا كالشهد . وزوجة عادل باى انسانة طيبة وربة بيت جيدة واطفالها مؤدبون . . . وافترض يديغـى انهم سيعيشون فى ساروزيكى قدر ما يستطيعون ، ثم ينتقلون الى مكان افضل . سنتاسف جدا عندما يرحلون من هنا . . .

وضع يديغى جزمته فى غرفة المدخل ، وجلس فى الغرفـة الداخلية وقد ثنى رجليه فى الجوارب تحته . وشعر للمـــرة الاولى ، خلال اليوم كله ، انه قد تعب وجاع . ولـــزم الصمت متكئا بظهره على الجدار الخشبـــى . بينما تحلق حول طاولـــة مستديرة واطئة بقية الضيوف يتبادلون الاحاديث باصوات خفيضة عن احوال الدنيا .

ولم تاخذ احاديثهم مسارا جادا الا فيما بعد ، عندما تطرقوا لموضوع غريب . وكان يديغي قد نسى امر السفينة الفضائية التى اطلقت فى الليلة الفائتة . ولكن الناس العارفين جاؤوا على ذكر شيء جعله يسترسل فى التفكير . وهذا لا يعنى انه اكتشف شيئا جديدا لنفسه ، بل انه انما اندهش من احكامهم وجهله هو بتفاصيل الموضوع . لكنه اثناء ذلك ما كان ليشعر بلوم مـــن نفسه ، اذ كانت هذه التحليقات الفضائية التى يهتم الجميـــع بامرها الى هذه الدرجة بعيدة جدا عن فهمه وادراكه وسحريـــة تقريبا وحتى غريبة . ولذلك كانت علاقته بهذا كله اجلاليـــة

وشديدة الحذر كعلاقته بظهور ارادة عظيمة مجردة من الصفات الخاصة ، والتى تستحق فى احسن الحال ان تؤخذ بعين الاعتبار . بيد ان منظر السفينة المنطلقة الى الفضاء روّعه واستحوذ على ذهنه وهذا الأمر كان موضوع الحديث الذى جرى فى بيت عادل باى الطويل .

شربوا اولا شيئا من الشوبات – وهو لبن النوق المختمر – وكان باردا مرغوا مسكرا بعض الشىء . وكان عمال الصيانة الاغراب يحتسونه برغبة عارمة ويسمونه الجعة الساروزيكية . ومع الوجبة الحارة قدم اهل البيت فودكا . وكلما حدث امر كهذا لا يمانع يديغي ، فيشرب نزولا عند رغبة الجماعة . لكنه فى هذه المرة لم يشرب ، وبهذا افهم الاخرين ، كما خيل اليه ، انه ينصحهم بان لا ينغرموا به ، لانهم غدا سيواجهون يوما شاقا ورحلة طويلة . واقلقه ان يلح الاخرون وخاصة ثابت جان فى عب كؤوس الفودكا وشرب الشوبات عليها . لا سيما وان الشوبات والفودكا يتآلفان جيدا مثل حصانين اصيلين يجريان مقرونين معا ، ويرفعان الانسان الى قمة الانتشاء . ولم يكن لكل هذا ما يبرره اليوم . لكن كيف يأمر المرء اناسا بالغين بالا يشربوا ؟ عليهم ان يعرفوا حدودهم بانفسهم . وكان امتناع زوج آى زاده عن الفودكا حتى تلك اللحظة على الاقل يبعث الطمانينة فى قلبه . لان السكير اذا بدأ فلن يتوقف حتى الثمالة . بيد انه كان يشرب الشوبات فقط . ويبدو ، انه مع ذلك ، فهم ان الفودكا زائدة عن اللزوم وانها ستجعله حتما يترنح فى موكب تشييع حميه . لكن الله وحده يعلم كم سيبقى متماسكا نفسه .

كانوا جالسين على هذه الهيئة يتجاذبون اطراف مختلف الاحاديث عندما تذكر عادل باى فجاة اثناء تقديم الشوبات للضيوف ، وقال وهو يمد قدحا ليديغي من الطرف الآخر للطاولة :

– يا يديغي ، ما ان استلمت خفارتك فى الليلة الفائتة ، وابتعدت انت مسافة الا وصعق شىء فى الهواء بحيث بدأت اترنح فى مكانى . نظرت فرايت صاروخا انطلق من المطار الى عنان السماء ! كان هائلا جدا كعريش مركبة . ارايته ؟

– طبعا ، وفغرت فاهى متعجبا ! هذه هى القوة ! يتوهج

نارا ويندفع اعلى فاعلى لا يلوى على شىء ! شعرت بالرهبة ، ذلك انى لم ار مثيلا له منذ وجودى فى المنطقة .

واعترف عادل باى :

– وحتى انا ، للمرة الاولى اراه بام عينى .

وقال ثابت جان يمزح من طوله على سبيل الدعابة :

– اذا كنت تراه انت للمرة الاولى ، فان امثالنا ليس باستطاعتهم ان يروه اطلاقا .

اكتفى عادل باى بابتسامة ساخرة . ولوّح بيده :

– ما هذا الكلام . انظر اليه ولا اصدق عينى . كان يهدر وسط النار وينطلق الى السماء ! وقلت فى نفسى ان انسانا آخر صعد الى الفضاء ، فلترافقه السلامة ! ثم اسرعت بفتح المذياع الذى احمله معى دائما معتقدا اننى لا بد وان أسمع نبأ عنه . فى مثل هذه الاحوال يبث الخبر مباشرة من المطار ، ويتحدث المذيع من شدة فرحه بلهجة خطيب فى حفل مهيب . واقشعر بدني ! كنت متشوقا جدا لمعرفة من هو هذا الذى رأيت تحليقه بام عينى . لكنى لم اعرفه حتى الآن رغم ما بذلت من جهد .

– لماذا ؟ – رفع ثابت جان حاجبيه بحركة تعجب تنم عن الاهتمام وعميق المغزى ، مستبقا بها الجميع ، وقد غمره العرق واكتسته الحمرة .

– لا اعلم لماذا . لم يذيعوا عن امره اى شىء . وكنت طول الوقت استمع الى اذاعة «مايك» ولم تنطق حتى بكلمة واحدة . . .

– هذا عجيب ! لا بد ان هنالك امرا ليس كما يجب ! – ارتاب ثابت جان ، وهو يتسرع فى شرب جرعة من الشوبات على الفودكا – ان كل تحليق فى الفضاء لهو حدث عالمى . . . مفهوم ؟ هو سمعة علمية وسياسية !

– لا اعلم لماذا ، ولقد سمعت آخر الاخبار خصيصا ، وكذلك عرض ما كتبته الصحف . . .

هزّ ثابت جان راسه :

– هيم . . . لو كنت فى محل عملى لعرفت ! اسفا ، فليأخذه الشيطان . لربما ان شيئا ما ليس على ما يرام ؟

– من يعلم ، اى الاشياء على ما يرام وايها ليست كذلك .

لكن والله يعز علي شخصيا ان اكون فى منأى عن معرفة هذا الامر – كان عادل باى الطويل يعرض رأيه بصفاء قلب – انه بالنسبة لى رائد فضاء صديق . لقد حلق امام ناظرى . وفكرت ، قد يكون احد شبابنا . وكم ستكون السعادة اذا التقينا فجأة فى مكان ما . . .

وما لبث ثابت جان ان قاطعه مستثيرا بهاجس ما :

– انا اعلم ! لقد اطلقوا سفينة فضائية تجريبية بلا رائد فضاء .

اعتدل عادل باى فى جلسته :

– كيف ؟

– تجريبية ، يعنى اختبارية . وانطلقت السفينة بلا رائد فضاء اما لتلتحم مع سفينة اخرى او لتخرج الى المدار ، وللآن غير معروف ماذا وكيف سيحصل . واذا تم كل شىء بنجاح سيعلن عنه فى الاذاعة والصحف . واذا لم ينجح ، لن يعلن عنه ، مجرد تجربة علمية .

ومسح عادل باى جبينه وقال مغموما :

– ظننت ان انسانا من لحم ودم حلق فى الفضاء .

وساد صمت . ولكان الحديث فى هذا الموضوع قد اقفل بعد بضعة توضيحات اخرى مخيبة للامال من ثابت جان ، لكن يديغى نفسه هو الذى فتح بابا آخر له مصادفة :

– فهمت من كلامكم ان سفينة بلا انسان قد اطلقت الى الفضاء ؟ فمن يوجهها اذن ؟

– كيف من ؟ – صفق ثابت جان بيديه والقى نظرة ظافرة الى يديغى الجاهل – الاعمال كلها تؤديها السفينة بالراديو ، وبتوجيه من الارض ، من مركز التوجيه . مفهوم ؟ حتى اذا كان رائد فضاء على متنها ، يوجه تحليقها بالراديو . وعلى رائد الفضاء ان يحصل على موافقة اذا اتخذ اجراء ما . . . هذا يا «كوكيتاى» * ليس الرحيل على متن قره‌نار فى ساروزيكى . الامور جد معقدة هناك . . .

---

* كوكيتاى كلمة تحبب وتلاطف فى آن . **المترجم** .

فقال يديغى بصوت غير واضح :

– هذا ما لم اكن اعرفه . . .

وبالفعل لم يكن يديغى البورانى يفهم مبدأ التوجيه بالراديو . وان الراديو بتصوره هو الكلمات والاصوات المذاعة عبر الاثير عن بعد . ولكن كيف يمكن توجيه اجهزة غير حية بهذه الطريقة ؟ اما اذا وجد فى داخلها انسان حى فتلك مسألة اخرى . اذ يقوم بتنفيذ الاوامر : افعل كذا افعل كيت . ورغب يديغى ان يستفسر عن هذا كله ، لكنه ارتأى ان لا داعى ، ابت نفسه ، ولاذ بالصمت . ثم عرض ثابت جان معارفه فى الموضوع بلهجة جد متسامحة ، وكأنه يريد ان يقول : انكم لا تعرفون شيئا وتحسبونى انسانا لا نفع فيه . وحتى صهرى ، هذا الكحولى المزمن اراد ان يخنقنى ، بينما انا افهم اكثر منكم جميعا فى هذه الامور . وفكر يديغى : «حفظك الله ، فى سبيل هذا بالذات علمناك طول حياتك . ولذلك فانه لمن البديهى ان تتفوق علينا فى بعض الامور ، نحن الجهلة .» ثم خطر له ايضا : «اذا كان انسان مثل هذا فى مقام السلطة فانه يرهق الجميع ويرغم مرؤوسيه ان يتظاهروا بمعرفة كل شىء ، اما الاخرون فلن يتحملوه باية حال من الاحوال . انه برغم كونه مازال يعمل رهن اشارة الاخرين يريد ان ينظر الجميع الى فمه فاغرى الافواه مشدوهين حين يتكلم ، وحتى هنا فى ساروزيكى» .

اما ثابت جان فكان كمن يريد ان يضع نصب عينيه مباشرة ادهاش البورانيين واخضاعهم له ، غايته فى ذلك ان يرفع بهذه الطريقة من قيمته امامهم بعد الحادث المخزى مع اخته وصهره . فقرر ان يستزيد من الحديث ويصرف انظارهم عن الحادث . وراح يتكلم عن وقائع غريبة ومنجزات علمية وهو اثناء ذلك لا يكف عن ارتشاف الفودكا فى رشفات متتالية تعقبها فى كل مرة جرعات من الشوبات . وكان بتأثير ذلك يزداد جرأة ويسرد اشياء خرافية حتى ان البورانيين المساكين احتاروا فى امره ، وهم عاجزون عن تمييز الصدق من الكذب .

واستطرد ثابت جان ماسحا الجميع بنظراته السحرية العاقدة :

– احكموا بانفسكم . اذا امعنا النظر فى احوالنا ، فانه يتجلى

لنا اننا أسعد الناس فى تاريخ البشرية . ها انت يا يديغى ، انت اكبرنا جميعا فى السن ، وتعرف كيف كانت الاحوال سابقا وكيف هى حاليا . ماذا اقصد من هذا الكلام ؟ فى الماضى كان الناس يؤمنون بالآلهة ، وكانت هذه الالهة عند الاغريق تعيش على جبل الاولمب . اية آلهة كانت تلك ؟ سخيفة . وماذا كان فى استطاعتها ان تفعل ؟ كانت تعادى بعضها بعضا ، ومن هنا استمدت شهرتها . لكنها اخفقت فى تغيير حياة الناس ، وحتى لم تفكر بهذا . واساسا لم يكن من وجود لهذه الآلهة ، هذه كلها اساطير وحكايات . اما آلهتنا فهى تعيش الى جانبنا ومعنا . ها هنا فى المطار الفضائى على ارضنا الساروزيكية ، وهى مفخرتنا امام العالم كله . لا احد منا يراها او يعرفها ولا يجوز لكل من هب ّ ودب ّ ان يتقدم اليها ويقول لها : مرحبا ، كيف الاحوال ؟ لكنها الهة حقيقية ! وها انت يا يديغى تندهش من توجيه السفن الفضائية بالراديو . هذا امر بسيط ، لقد اجتزنا تلك المرحلة ! تلك الاجهزة والمعدات تعمل مبرمجة . وسيأتى يوم يوجه فيه الناس بالراديو مثل تلك الاجهزة الآلية . الناس جميعهم بلا استثناء ، صغيرهم وكبيرهم . وثمة معطيات علمية من هذا النوع . لقد توصل العلم الى ذلك انطلاقا من المصالح العليا .

وقاطعه عادل باي الطويل :

– مهلا ، مهلا ، ما ان نحقق انتصارا الا وتربطه بالمصالح العليا . ارجو ان توضح ، فاننى لا اجد فى هذا معنى يذكر . ويتضح من اقوالك ، انه على كل انسان ان يحمل معه دائما مذياعا صغيرا كالترانزيستور ، لكى يسمع التوجيهات ؟ وهذا موجود فى كل مكان الآن !

– ارايت كيف تناقش ! وهل حديثنا عن هذا ؟ هراء . وهذه لعب اطفال ! لن يحمل احد شيئا معه . امش عاريا اذا شئت ، لكن موجات لاسلكية غير مرئية – هى ما يسمى بالتيارات الحيوية – ستؤثر عليك ، على وعيك تاثيرا مستمرا . اين لك ان تتوارى عندئذ ؟

– كذا ؟

– نعم ! كل شىء يعمله الانسان يكون مبرمجا من المركز . ويتراءى له انه يعيش ويتحكم بنشاطه الذاتى ، بارادته ، لكن

فى حقيقة الامر ، انما يفعل ذلك بتوجيهات من أعلى ، ووفق نظام صارم . واذا اردت ان تشرب لا بد من إذن يأتيك باشارة فيسمح لك ، واذا اردت ان ترقص لا بد من إذن يأتيك باشارة فترقص ، واذا اشتغلت فانك ستعمل بلا كلل ! وسينسى الناس معنى السرقة والشقاوة والجريمة ، ولن يصادفوها الا طي الكتب القديمة . لان كل شىء فى تصرفات الانسان سيستدرك مسبقا . الافعال كلها ، الافكار كلها ، الرغبات كلها . لنقل مثلا ، ثمة انفجار ديموغرافى فى العالم الآن . يعنى ان الناس يولدون بكثرة ، ولم يعد الطعام يكفيهم لسد الرمق . ماذا ينبغى القيام به ؟ تقليص الولادات . وستتصل بزوجتك فقط عندما تستقبل اشارة بذلك ، وانطلاقا من مصالح المجتمع .

وصحح عادل باي الطويل تعبيره المعتاد بلهجة لا تخلو من خبث :

– المصالح العليا ؟

– بالضبط . مصالح الدولة فوق كل شىء .

– واذا اردت ان افعل ، هذا الشىء نفسه ، مع زوجتى او غيرها دون مراعاة هذه المصالح ؟

– لن تحصل على شىء يا عزيزى عادل باى . لن تخطر مثل هذه الفكرة على بالك ، وحتى لو عرضت لك اجمل النساء فانك لن تلقى عليها نظرة اهتمام . لانه سيفرض فى هذا الشأن نظام تام . كن على ثقة . او لنأخذ قضية الحرب . سيكون كل شىء رهن الاشارات . اذا توجب القفز فى النار تقفز ، او بالمظلة تفعل بلمح البصر ، وان تطلب تفجير لغم ذري تحت دبابة تفجره بلحظة واحدة . قد تسألوننى لماذا ؟ لان معطيات التيارات الحيوية فى جسم الانسان تمتاز بالشجاعة ، وتجعله يتخلص من الرعب . . . هكذا !

وتملك عادل باي عجب صادق :

– يا للكذب الحاذق ! تعرف كيف تهرف ! ماذا علموك طيلة هذه السنوات كلها ؟

كان الجالسون يضحكون علنا من حين لآخر ، ويعدلون من اوضاع جلساتهم ويهزون رؤوسهم ، وكأنهم بذلك يقولون : اوغل الرجل فى دعاويه لكنهم ، مع ذلك ، واصلوا الانصات الى

كلامه . ذلك لان حديثه الشيطانى كان مشوقا لم يسبق ان سمعوا مثيلا له وان كانوا لا يثقون به ، ويدركون ان الشراب قد اثمله بتجرعه الشوبات على الفودكا بين فينة واخرى . ولذلك فليهذر بما يريد ، فهو على اية حال لا يرتجى منه شىء . وقد يكون سمع بعضا عن هذا الذى يقوله فى مكان ما ، لكن ربما لا يستحق هذا الكلام ان يتعب المرء راسه لكى يميز فيه الصدق عن الكذب . اجل ، بيد ان الرعب تملك يديغي فعلا . وظن ان هذا المهذار ليس ينعب دون قصد . واستحوذ عليه القلق ، لانه قرا هذا فى مكان ما او سمعه بطرف اذنه ، وانه يدرك بسرعة اين وماذا ليس على ما يرام . وماذا اذا كان ثمة اناس من هذا النوع بالفعل . وهم علماء كبار يتعطشون بحق وحقيق لتوجيهنا وكانهم الآلهة ؟

وبما انهم واصلوا سماعه انشا ثابت جان ينسج الاحاديث بلا رادع . واتسعت حدقتاه تحت نظاراته المتعرقة كحدقتى قط فى الظلمة . وظل يرتشف تارة الفودكا واخرى الشوبات . ثم اخذ ملوحا بيده يخترع حكاية عن منطقة تسمى مثلث برمودا فى المحيط ، حيث تختفى السفن بشكل غامض ، ولا احد يدرى اين تتوارى الطائرات المحلقة فوق المنطقة .

— كان عندنا فى المحافظة شخص عمل كل ما فى وسعه للسفر الى الخارج . وهل من غرابة فى هذا ؟ وفى آخر المطاف حصل ما كان يستحقه . لقد نحّى الآخرين جانبا وغامر وسافر عبر المحيط اما الى اورغواى او الى باراغواى ، وقضى نحبه . اذ اختفت الطائرة التى كان يستقلها فوق مثلث برمودا مباشرة وكان شيئا لم يكن . ولم يعثر على اى اثر للطائرة ! لهذا السبب لا اعتقد انه ثمة من داع للسعى من اجل هذا الشىء او ذاك ، او الحصول على موافقات وابعاد الآخرين . لا يا اصدقاء ، اننا بلا مثلث برمودا ندبر امورنا ونعيش على ارضنا اصحاء معافين . وهلم بنا نشرب نخب صحتنا !

اطلق يديغي شتيمة فى سره : «ها قد عب عبابه ! سيتذكر ديباجته المفضلة . يا لهذه الأذية ! كلما شرب فقد زمام اموره !» وهكذا حصل بالفعل .

— نخب صحتنا ! — كرر ثابت جان متفحصا وجوه الجالسين

بنظرة عكرة زائغة ، لكنه ظل يجاهد ان يعطى لوجهه تعابير انسان على جانب كبير من الاهمية — وصحتنا هى ثروة عظيمة للبلاد ، حتى تكاد تكون ذخرا للدولة . هؤلاء نحن ! لسنا اناسا بسطاء ، نحن رجال حكوميون ! واريد ايضا ان اضيف . . .

نهض يديغي البورانى بغتة وغادر البيت قبل انتهاء ذاك من سرد نخبه . ثم صدر عن سطل فارغ او نحوه دويا وطقطقة اثر تعثر يديغى به فى المدخل المظلم للبيت . واذ احتذى يديغي جزمتيه اللتين كانتا قد بردتا الى ذلك الوقت فى الهواء الطلق وتوجه الى البيت متكدرا مغتاظا . وزحر زحيرا غير مسموع تقريبا معضمضا شاربيه من الضيم : «آه لقازانغاب المسكين ! لا موته يشبه الموت ولا اسماه يشبه الاسى ! جلس ابنه يعب الشراب كما فى سهرة ليلية ، وكان الامر لا يخصه ! لقد ابتدع لنفسه هذه الديباجة الشيطانية : صحة حكومية . هكذا هو فى كل مرة . اذا سهل الله امرنا ومر يوم غد بشرف وكرامة واودعنا المرحوم منواه الاخير واقمنا الماتم الاول ، فلن يحط هذا الدعى رجله هنا بعد الآن ونتخلص من شره ، فمن هو بحاجة اليه هنا ؟»

مع ذلك ، يظهر انهم ظلوا مدة طويلة جالسين عند عادل باى الطويل . والليل يكاد ينتصف . استنشق يديغى ملء صدره من هواء ساروزيكى الذى انعشه الليل . وكان من المتوقع ان يكون الطقس فى يوم غد ، كعادته ، صافيا جافا حارا بما فيه الكفاية . النهار شديد الحرارة والليل شديد البرودة . ولهذا السبب اينما تنظر لا ترى غير السهوب المقفرة ، اذ من العسير جدا على النباتات ان تتكيف مع هذا المناخ . انها تندفع نهارا للقاء الشمس ، وتفتح اوراقها متعطشة الى الرطوبة ، فياتى الليل فيما بعد ليقتلها بردا ولا يبقى منها الا التى تتكيف مع هذه الظروف القاسية ، وهى مختلف الاشواك ، يحتل الشيح حصة الاسد منها ، واعشاب متنوعة منفردة يمكن حشها فى مصبات مسايل المياه . وكان صديقه القديم الجيولوجى يليزاروف قد حدثه ذات مرة وهو يرسم صورة زاهية للمنطقة ، انها كانت غنية باعشابها وتتمتع بمناخ آخر تماما ، وتسقط فيها الامطار — ثلاثة اضعاف ما تسقط عليها الآن . الامر مفهوم ، حتى الحياة

كان لها بفعل ذلك طعم اخر . كانت تسرح فـــى هذه السهوب قطعان ماشية وخيل وغنم . اعتقد ان ذلك كان منذ زمن قديم ، وربما قبل ظهور اولئك المحتلين الهمج – وهم الجوانجوانيون الذين انقرض نسلهم فى غابر العهود . والا فكيف كانت تتسع ساروزيكى لهذا العدد العديد من السكان . وليس عبثا قـــول يليزاروف : ساروزيكى هى الكتاب المنسي لتاريخ السهوب... وكان يعتقد ان تاريخ مقبرة آنا-باييت ايضا ليس تاريخا عرضيا . لكن ثمة اناس لا يعترفون الا بما هو مكتوب على الورق مـــن التاريخ . واذا كانوا فى تلك الازمنة لم يبلغوا بعد مرحلـــة التدوين ، فكيف يمكننا الحكم ؟

وشرع يديغي وهو يستمع الى دوى القطارات العابرة فـــى المفرق يعيد الى اذهانه بتناظر غريب عواصف بحر آرال الذى ولد على شاطئه وترعرع وعاش قبل الحرب . وقازانغاب ايضا كان قازاخيا من منطقة آرال . ولذلك عندما صادف احدهما الآخر فى سكة الحديد تقاربا وهما يشتقان فى ساروزيكى الى البحر . وقبل وفاة قازانغاب بفترة قصيرة سافرا معا الى آرال . ويبدو ان العجوز ذهب ليتوادع مع البحر . ليتهما لم يذهبا ! لم يحصلا الا على الهموم وتكدير البال . ذلك ان بحر آرال ، كما اتضح ، اصبح يناى ويضمحـــل بالضحالة . ولقـــد سارا نحو عشرة كيلومترات فى الطفال الرملى الذى كان مغطى بالمياه سابقا ، الى ان وصلا حافة الماء . وفى هذه الاثناء قال قازانغاب : «هـذه المساحة كلها كانت مغطاة بالمياه . حتى البحر يجف احيانا فكيف بحياة الانسان» . واردف : «اودعنى القبر فى آنا-باييت يـــا يديغي . . اما البحر فهذا لقائى الاخير معه» .

مسح يديغي البورانى دمعة فاضت من عينه ، وتنحنح ثم توجه الى كوخ قازانغاب ، حيث كانت آى زاده واوق بالا والنساء الاخريات جالسات وفق مألوف العزاء . وكانت النساء البورانيات ياتين الى الكوخ بالتناوب ليكن رهن الاشارة حين يتطلب الأمر .

واذ مر يديغي بجانب الزريبة توقف لحظة بالقرب من الجذامير المغروزة فى الارض ، والتى كان يقف عندها قره‌تار البورانى مرحّلا ومجللا بالجل ذى الشراشيب . ولاح الجمل فى ضوء القمر ضخما عظيما رصينا كالفيل . لم يتمالك يديغي نفسه ، قربت

على جنب الجمل :

– يا لك من معافى !

وعندما وصل يديغي الى العتبة تذكر وهو نفسه لا يدرى لماذا ، ليلة امس ، وكيف لجأ الثعلب السهبى الى سكة الحديد وكيف لم يتجرأ على قذفه بحجر ، وكيف انطلقت السفينـــة الفضائية الملتهبة الى فجوة السماء المظلمة فيما بعد حين كان يقصد البيت . . .

الفصـــل الثالـث

وفى تلك الاثناء حل الصباح فى خطوط العرض الشمالية من المحيط الهادى ، وكانت الساعة تشير الى الثامنة . وغمـــرت اشعة الشمس الساطعة بفيض نورها المتدفق المنطقـــة ذات الارجاء الواسعة المتلالئة والغارقة فى سكون عظيم . وما عـاد يُرى فى تلك الآماد اى شىء اخر غير الماء والسماء . بيد انه فى هذه المنطقـــة بالذات ، وعـــلى متن حاملـــة الطائرات «كونفينتسيا» ، وقعت مأساة عالمية بقيت حتى تلك اللحظات غير معروفة لاحد خارج نطاقها ، ترتبط بحدث لم يسبق لـــه مثيل فى تاريخ غزو الفضاء على المحطـــة المدارية السوفيتية-الامريكية المشتركة «باريتيت» .

ولذلك عمدت حاملة الطائرات «كونفينتسيا» – المقر العلمى الستراتيجى للمركز السوفريكى الموحد لتوجيه برنامج الابحاث الكونية «ديميورغ» – فى الحال الى قطع كل اتصال لها بالعالم الخارجى ، ولم تغير موقع مرابطتها الدائم الى الجنوب من جـزر الوشن فى المحيط الهادى ، بل على الضد ، تمركزت فى تلك المنطقة بدقة متناهية ، وفى نقطة تقع بالضبط فـــى منتصف المسافة بين فلاديفوستوك وسان-فرنسيسكو .

وحدثت بعض التغييرات فـــى السفينة العلمية نفسها . اذ عُزل بأمر من القائدين العامين للبرنامج العاملان المناوبان لوحدة الاتصالات الفضائية – وهما سوفيتى وامريكى – كانا قد استقبلا الانباء عن الاحداث الاستثنائية على «باريتيت» ، عزلا مؤقتا ،

وفرضت عليهما رقابة مشددة وصارمة تحاشيا لتسرب المعلومات عما يحدث . . .

ووضع العاملون فى «كونفينتسيا» فى حالة من التأهب القصوى علما بان السفينة لم تكن مكلفة بمهمات عسكرية ، ولا مزودة باية تجهيزات حربية ، وكانت تتمتع بالحصانة الدولية وفق قرار خاص من هيئة الامم المتحدة . ذلك انها كانت حاملة الطائرات الوحيدة غير العسكرية فى العالم .

فى نحو الساعة الحادية عشرة قبل الظهر كان يتوقع وصول اللجنتين المسؤولتين لكلا الطرفين الى «كونفينتسيا» بفارق زمنى امده خمس دقائق . وكانت اللجنتان ، بلا شك ، مخولتين باتخاذ القرارات الاستثنائية العاجلة والاجراءات العملية التى تراها ضرورية لصالح الامن فى بلديهما والعالم .

وهكذا ، فان حاملة الطائرات «كونفينتسيا» كانت فى تلك الساعة فى عرض البحر الى الجنوب من جزر اليوت عند نقطة تتوسط بالضبط المسافة بين فلاديفوستوك وسان-فرنسيسكو . ولم يات مثل هذا الاختيار للمكان عرضا ، بل أظهر الفريقان المشرفان على برنامج «ديميورغ» حدة ذهن وبعد نظر لم يسبق لهما مثيل فى هذا المجال ، لذلك جاء اختيار موقع السفينة التى كانت تنفذ على متنها الخطة المشتركة المعدة للابحاث الكونية ليعبر عن مبادئ المساواة التامة على اساس التكافؤ المطلق فى هذا التعاون الدولى فى المجال العلمى-التقنى البحت .

وكانت حاملة الطائرات «كونفينتسيا» بتجهيزاتها ومعداتها واحتياطي قدراتها ملكا للفريقين بالتساوى ، وعلى هذا الاساس عدت السفينة تعاونية مشتركة للبلدين المساهمين فيها . وكانت لها اتصالات لاسلكية وهاتفية وتلفزيونية مباشرة ومفتوحة مع مطاري اطلاق السفن الفضائية فى نيفادا وساروزيكى فى آن واحد . وكانت ثماني طائرات نفاثة ، اربع لكل فريق ، ترابط على متن السفينة وتواظب على نقل جميع الحمولات وتقوم بالتحركات اللازمة لـ«اوبتسينوبر» فى اتصالاته اليومية بالقارات . كان ثمة قبطانان متكافئان فى المسؤولية على متن «كونفينتسيا» القبطان ١ - ٢ والقبطان ٢ - ١ ، احدهما سوفيتى والاخر امريكى ، وكل منهما يعمل بمثابة الرئيس اثناء الورديات .

ويقتضى ذلك كانت المسؤوليات جميعها ثنائية ، من كلا الطرفين : مساعد القبطان ، الملاح ، الميكانيكى ، الكهربائى ، البحارة ، الخدم . . .

وبالنظام نفسه شكل ترتيب الملاك العلمى-التقنى لـ«اوبتسينوبر» على الـ«كونفينتسيا» ، اذ وزعت المهام العلمية توزيعا ثنائيا بحيث يمثل الفريقان فيها بالتساوى : ابتداء من القائدين العامين للبرنامج - من كل فريق عالم مختص فى الدراسات الكونية ١-٢ و٢-١- وانتهاء بجميع الباحثين العلميين والعاملين فى جميع الاختصاصات . ولذلك سميت المحطة الفضائية الواقعة فى ابعد مدار يمكن بلوغه عن الكرة الارضية «ترامبلين» بـ«باريتيت» مجسدة جوهر العلاقة المتبادلة على الارض .

لقد سبق هذا كله ، بطبيعة الحال ، عمل علمى تحضيرى كبير عديد الاوجه من قبل المؤسسات العلمية الدبلوماسية والادارية للبلدين وتطلب هذا العمل سنوات طويلة من المساعى لكى يتوصل الطرفان فى عدد من اللقاءات والاجتماعات التى لا تحصى الى التنسيق فى القضايا الخاصة والعامة ذات العلاقة ببرنامج «ديميورغ» .

ووضع برنامج «ديميورغ» نصب عينيه حل مهمة عظيمة للغاية فى مجال علم الفضاء فى هذا العصر ، وهى تتلخص فى دراسة كوكب اكس لغرض استخدام ثرواته المعدنية التى تحتوى ، وفق تصورات الارض ، على احتياطى من الطاقة الداخلية (الكامنة) يفوق التصور . وتشير التصورات الى ان مئات الاطنان من المواد الخام ترقد مكشوفة على سطح الكوكب ، ويمكن ، بمعالجة مناسبة ، ان تحرر طاقة داخلية تعادل ما تصرفه اوروبا من الطاقة المحولة الى كهرباء ووقود خلال عام كامل ، هذه هى مواصفات الصخور الصلدة المحتوية على الطاقة فى كوكب «اكس» الذى تكوّن فى ظروف المجرّة الخاصة بتاثير تفاعلات نشوء الكوكب دامت آمادا طويلة ، مليارات السنوات . وكانت العينات التى جلبتها الاجهزة الفضائية غير مرة من سطح اكس تشهد على ذلك ، فضلا عن نتائج البعثات التى ارسلت العديد من المرات للنزول على سطح هذا الكوكب الجميل من منظومتنا الشمسية .

وكان وجود الماء وبهذه الغزارة فى بواطن هذا الكوكب الاجرد بمظهره الى اقصى الحدود بما لا نظير له فى اي من الكواكب الاخرى ، بما فيها القمر والزهرة ، كان عاملا حاسما فى صالح مشروع غزو كوكب اكس . ولقد اثبتت الحفريات التجريبية على اكس توافر الماء بلا ادنى شك ، وطبقا لحسابات العلماء كان يتوقع وجود طبقة من الماء يبلغ عمقها عدة كيلومترات وتحتفظ بحالة ثابتة فى منطقة تقع تحت طبقات صخرية باردة تحت سطح الكوكب .

ان وجود هذه الكميات الغزيرة من المياه فى كوكب اكس بالذات هو الذى ضمن واقعية برنامج «ديميورغ» اذ ان الماء لا يعتبر فى مثل هذه الاحوال مصدرا مائيا فحسب ، بل هو ايضا المادة المعتمدة فى تركيب العناصر الاخرى الضرورية لادامة الحياة وتادية جسم الانسان وظائفه الحيوية بصورة اعتيادية ، فى ظروف كوكب غريب ، وقبل كل شىء حصوله على الهواء للتنفس . فضلا عن ذلك فمن وجهة النظر الانتاجية يلعب الماء الدور الرئيسى فى تقنية التعويم الاولى للصخور الاكسية قبل شحنها فى صناديق النقل الفضائية .

وكان ثمة نقاش حول الموضع الذى ينبغي تفريغ الطاقة الاكسية فيه : أهو المحطات المدارية فى الفضاء الخارجى لنقلها بعد ذلك الى الارض عبر مدارات جيو – تزامنية او فى الارض مباشرة . لكن الوقت لحل هذه القضية كان لا يزال فيه متسع .

كان يجرى اعداد بعثة كبيرة لانزال مجموعة من الحفارين ومعهم الهيدروجيين وكان ينبغى عليهم العمل على تدفق الماء من باطن الاكس الى شبكة انابيب المياه . وعدّت المحطة المدارية «باريتيت» ، اذا استخدمنا مصطلح متسلقى الجبال ، بمثابة القاعدة الرئيسية للمخيم فى الطريق الى اكس . وقد انشئت الهياكل الضرورية لهبوط وشحن وتفريغ «مكاكيك» النقل التى ستعمل بين الاكس والـ«باريتيت» ذهابا وايابا . ومع مرور الزمن ، والانتهاء من تشييد الوحدات ، يكون فى وسع ما يزيد عن مائة شخص ان يعيشوا على «باريتيت» فى ظروف تتوفر فيها جميع اسباب الراحة ، بما فيها استقبال البث التلفزيونى من الارض .

وسيكون استخراج الماء من باطن الاكس وتحليله فى هذه المنشاة الفضائية الكبيرة اول عمل انتاجى يقوم به الانسان خارج حدود كوكبه . . .

وكان ذلك اليوم يقترب . وكل شىء يستعد له . . .

اختتمت فى مطارى ساروزيكى ونيفادا الاستعدادات الاخيرة للعملية الهيدروتقنية على الاكس . وكانت «باريتيت» موجودة فى مدار «ترامبلين» على اتم الاستعداد لاستقبال اول مجموعة عمل وارسالها الى اكس لاداء مهماتها الاستصلاحية الكونية .

والحق يقال ، كانت البشرية المعاصرة تقف على عتبة حضارتها اللاارضية . . .

وفى تلك اللحظة بالذات ، عشية ارسال المجموعة الاولى من الهيدرولوجيين الى الاكس اختفى راندان متكافئان كانا فى مدار «الترامبلين» فى دورية فضائية طويلة الامد على متن «باريتيت» ولم يُعثر لهما على اى أثر . . .

انهما اقلعا فجاة عن الاستجابة لاية اشارات ، لا فى مواعيد الاتصالات المتبعة ولا فى الاوقات الاخرى . ولقد ترك ذلك انطباعا من الكآبة ، اذ توقفت جميع انظمة الاتصال اللاسلكية والتلفزيونية عن العمل ، فيما عدا المجسات التى تشير دائما الى موقع المحطة وقنوات تحديد مسار حركتها .

ومضى الوقت . ولم ترد «باريتيت» على اى من النداءات الموجهة اليها . وازداد القلق والاضطراب على «كونفينتسيا» وذهبت التوقعات والتخمينات بالعاملين على متنها كل مذهب . ماذا حل براندى الفضاء ؟ ما سبب صمتهما ؟ لعلهما مرضا او تسمما بطعام فاسد ؟ وهل هما على قيد الحياة ؟

فى خاتمة المطاف استخدموا آخر وسيلة ممكنة للاتصال : ارسلوا اشارة لفتح جهاز الانذار العام للحريق الموجود على المحطة . ولم يحصلوا على اى رد فعل على هذا العمل المفزع .

واذ خيم خطر جدى على برنامج «ديميورغ» ، لجأ «اوبتسينوبر» الواقع على متن «كونفينتسيا» الى تدبيره الاخير لاستيضاح الامور ، وأُرسلت سفينتان فضائيتان من نيفادا وساروزيكى للالتحام بالمحطة المدارية «باريتيت» تحملان راندين فضائيين .

حين تم الالتحام التزامنى ، الذى كان بطبيعة الحال على اقصى درجة من الصعوبة ، كانت الاخبار الاولى المرسلة من رائدى الفضاء المراقبين المتسللين الى المحطة المدارية «باريتيت» مذهلة وصاعقة . اذ انهما اعلنا بعد تفتيش الاقسام كلها والمختبرات جميعها ، وكذلك الطوابق بزواياها ومخابئها ، انهما لم يعثرا فى المحطة على رائدى الفضاء ، لا حيين ولا ميتين . . .

لم يكن من الممكن ان يخطر هذا ببال احد . ذلك ان المخيلة عاجزة ، اية كانت ، عن تصور ما حل فجأة بانسانين كانا لاكثر من ثلاثة اشهر يعملان على المحطة المدارية ويؤديان لحد الآن بدقة تامة كل المهام الموكولة اليهما . لا يعقل ان يكونا قد تبخرا او خرجا من المحطة الى عرض الفضاء الخارجى !

وكان تفتيش المحطة المدارية «باريتيت» يتم على خط اذاعى تلفزيونى مباشر مع «كونفينتسيا» وبالمشاركة المباشرة للقائدين العامين من كلا الطرفين ، اى كبيرى علماء الابحاث الكونية ، وكان يشاهد جيدا على الشاشات الكثيرة فى «اوبتسينوبر» كيف كان رائدا الفضاء المراقبان يتحدثان ويفتشان ويعومان بانسياب فى حالة انعدام الجاذبية وفقدان الوزن متنقلين فى جميع اقسام المحطة المدارية وغرفها . وكانا يفحصان المحطة خطوة فخطوة واثناء ذلك يدليان بنتائج عملهما . وتم تسجيل هذا الحديث على اشرطة فى آلات خاصة .

«باريتيت» : اتراقبون ؟ لا احد فى المحطة . لم نعثر على احد .

«كونفينتسيا» : هل هناك آثار اشياء مكسورة او عطب او اختلالات فى المحطة ؟

«باريتيت» : كلا . كل شىء يبدو على حاله ، وعلى ما يرام . كل شىء فى مكانه .

«كونفينتسيا» : ألم تشاهدا اثرا للدم ؟

«باريتيت» : لا ، ابدا .

«كونفينتسيا» : اين الحاجيات الخاصة برائدى الفضاء وباية حال هى ؟

«باريتيت» : يبدو ان كل شىء فى مكانه .

«كونفينتسيا» : مع ذلك ، تاكدا وتحققا .

«باريتيت» : هنا انطباع بانهما كانا هنا قبل قليل ، الكتب والساعات والمسجلات وكل الاشياء الاخرى فى مكانها .

«كونفينتسيا» : حسنا ، هل من كتابات على الحيطان او الورق ؟

«باريتيت» : لم نلاحظ شيئا من هذا القبيل . لكن مهلا ! سجل الوردية مفتوح على مقطع كبير ، ولكن اوراقه لا تتطاير رغم حالة انعدام الوزن فقد ثبت بمشدات وهو مفتوح لكى ينتبه اليه الداخل مباشرة . . .

«كونفينتسيا» : إقرآ ما كتب فيه !

«باريتيت» : سنحاول الآن . ثمة نصان كتبا على عمودين متجاورين بالانكليزية والروسية .

«كونفينتسيا» : لماذا تتباطآن ؟ هيا اقرآ !

«باريتيت» : العنوان : «رسالة الى سكان الارض» . وبين قوسين «رسالة توضيحية» .

«كونفينتسيا» : كفا . لا تقرآن . سينقطع الاتصال الآن . انتظرا سنستدعوكما بعد قليل من جديد . كونا مستعدين .

«باريتيت» : او كى !

وهنا انقطع الحوار بين «باريتيت» و«اوبتسينوبر» واذ تبادل القائدان العامان لبرنامج «ديميورغ» حديثا قصيرا بينهما طلبا من الجميع ان يتركوا وحدة الاتصالات الفضائية عدا عاملى التشغيل الخفيرين من الفريقين . بعد ذلك فقط اعيد الاتصال بين المحطة والمركز الموحد للتوجيه . وهو ذا النص الذى تركه رائدا الفضاء المتكافئان على متن «ترامبلين» :

«ايها الزملاء المحترمون : بما اننا نغادر المحطة المدارية «باريتيت» فى ظروف غير عادية للغاية ، ولفترة غير محددة ، وقد تكون طويلة للغاية — والامر مرهون بمجموعة من الوقائع المتعلقة بمشروعنا الذى لا سابق له — نرى لزاما علينا شرح بواعث سلوكنا هذا .

اننا نعرف تمام المعرفة ، ان سلوكنا هذا يبدو ليس غير متوقع فحسب ، بل وغير جائز من وجهة نظر الانضباط الاولى . الا ان الحادث الاستثنائى الذى واجهناه اثناء وجودنا فى المحطة المدارية فى الفضاء وهو الحادث الذى لا نظير له فى تاريخ

الحضارة البشرية يخولنا ان نأمل ، على اقل تقدير ، فى التفهم من جانبكم . . .

قبل مدة غير طويلة بدأنا نلتقط من بين الاعداد الهائلة من الذبذبات اللاسلكية الآتية من المحيط الفضائى ، وبالدرجة الاولى من الايونوسفير المشبع بالضجيج والتشوش المتواصل ، اشارة لاسلكية موجهة على الموجات القصيرة ، وكانت بينة جدا ، ولذلك كان يسهل تمييزها بوضوح وتعلن عن نفسها فى زمن واحد معين يتكرر باستمرار وبوقفات متساوية المدة . فى البدء لم نعر لها اهتماما خاصا . غير انها تواصلت بالحاح مذكرة عن نفسها وصادرة بانتظام من نقطة محددة من الكون ، وكانت موجهة حسب مراقباتنا الى محطتنا المدارية بالضبط . اننا الآن نعرف بالتحديد ان هذه الموجات اللاسلكية الموجهة اصطناعيا كانت تصل عبر الاثير حتى قبل فترة طويلة من ورديتنا التى هى الوردية الثالثة . اذ ان «باريتيت» موجود فى مدار «ترامبلين» فى الفضاء الخارجى النائى منذ سنة ونصف سنة . من الصعب علينا التفسير لماذا كان ينبغى ان نكون نحن الاثنين بالصدفة المحض اول المتلقين لهذه الاشارات الصادرة من الكون . مهما كان فاننا بدأنا نترصد ، ونسجل ، وندرس طبيعة هذه الظاهرة . ولقد ازدادت قناعتنا تدريجيا وتوصلنا الى نتيجة تؤكد منشأ الاشارات الاصطناعى .

لكننا لم نستأنس بهذه الفكرة بسرعة . ذلك ان الظنون لم تبارحنا طول الوقت . كيف يمكننا الحكم بوجود حضارة غير ارضية استنادا الى حادث وحيد ، وهو الاشارات اللاسلكية الاصطناعية الصادرة وفق تخميناتنا من اعماق الكون المجهولة ؟ ومما كان يردعنا عن هذا القرار كون المحاولات العلمية السابقة التى جرت غير مرة لاكتشاف اى دليل من دلائل الحياة حتى فى ابسط اشكاله ، وان فى جزء متاخم من الكون كانت كلها عقيمة ومخيبة للآمال واعتبر اكتشاف الحياة فى كواكب اخرى أمرا نادر الاحتمال . ثم بعد فترة عدّ ذلك مجرد عمل غير واقعى وطوباوى بما ان هذه الاحتمالات كانت تتضاءل مع كل خطوة جديدة من الابحاث فى الفضاء الخارجى ، حتى فى البرامج النظرية ان لم نقل انها كانت تتلاشى نهائيا . ولم نتجاسر على الاعلان عن حدسنا ولم

تقدم على مناقضة الفكرة التى تأصلت فى شتى ارجاء العالم بان الحياة على الارض نسيج وحدها ولا مثيل لها فى الوجود حتى الآن ، وهى ظاهرة بيولوجية شاذة موجودة على كوكب الارض وحده لا شريك له فيها . ولم نعتبر نفسينا ملزمين بمبادلتكم شكوكنا بهذا الصدد ، ما دام هذا النوع من البحوث لم يدرج فى برنامج مهمتنا على المحطة المدارية .

وحين اصبح حادث آخر شهادة اخيرة على وجود حياة واعية اخرى فى الكون اضافة الى الحياة على الارض ، لم يبق امامنا متسع من الوقت . لقد اجتزنا قفزة فى الوعى او انقلابا فى الفكر وتغيرا فى تصوراتنا عن الكون ، واكتشفنا فجاة اننا اصبحنا نفكر وفق مقولات اخرى مغايرة عن مقولات الماضى . ان نوعية الادراك الجديد لتركيب الكون واكتشاف مساحات جديدة مأهولة وموطن جديد للطاقة الفكرية قد جعلتنا نتحاشى مؤقتا ابلاغ سكان الارض عن اكتشافنا ، وذلك انطلاقا من المفاهيم الجديدة للعناية بالارض . وقد اتخذنا هذا القرار لصالح مجتمع اكثر معاصرة .

والآن نحدثكم عن جوهر الامر ، وكيف حدث هذا كله .

اشباعا لرغبة الفضول ارتأينا ذات مرة ارسال اشارة جوابية لاسلكية موجهة ، بنفس طيف الذبذبات تقريبا ، نحو تلك الجهة من الكون التى كانت تاتى منها الذبذبات اللاسلكية الغامضة باستمرار . **وهنا حدثت الاعجوبة ! أستقبلت اشارتنا مباشرة ! والتقط جوابنا وفهم !** وردا على اشارتنا ظهر على خط استقبالنا خط اضافى آخر الى جانب الخط السابق ، ثم خط ثالث . وكان ذلك بمثابة تحية . تلقيت ثلاث اشارات لاسلكية فورية من الكون ولعدة ساعات على التوالى مثل مارش احتفالي وحملت الينا اخبارا مبهجة ومغبطة عن وجود كائنات عاقلة خارج مجرتنا تتمتع بامكانيات عالية للاتصال مع كائنات مماثلة لها على مسافات خارقة البعد . وكانت هذه ثورة فى تصوراتنا عن البيولوجيا الكونية ومعرفتنا لتكوّن الزمن والفضاء والمسافات . امن المعقول اننا لسنا وحدنا فى هذا العالم ، اى لسنا الجنس الفريد من الكائنات العاقلة فى سرمدية هذا العالم الخاوى على نحو

يستحيل تصديقه . وهل يعقل ان تجربة الانسان على الارض ليست ظاهرة الحياة الوحيدة فى الكون ؟ !

ولكى نتاكد من حقيقة اكتشاف حضارة فى كوكب آخر ارسلنا عن طريق اشارات لاسلكية موجهة رسما كتلويا كروكيا لمعالم شكل الكرة الارضية التى نشات حياتنا عليها بادئ ذى بدء وتستمر فيها لحد الآن ، فاستلمنا جوابا على شكل شفرة تحوى رسما كتلويا مماثلا لكوكبهم . ولقد توصلنا الى استنتاج مفاده ان ذلك الكوكب المأهول ذو أبعاد كبيرة للغاية وقوة جاذبية مقبولة ومعقولة تماما .

وهكذا تبادلنا المعارف الاولية للقوانين الفيزياوية ، وهكذا باشرنا الاتصال بكائنات عاقلة فى كوكب آخر .

واتضح ان سكان الكوكب اللاارضى رفقاء نشطون فى مجال تعميق علاقاتنا وتقريبها . وبفضل مساعيهم ما لبثت ان تشبعت صلاتنا بمضامين جديدة . وسرعان ما علمنا ان بحوزتهم اجهزة طائرة تساوى سرعتها سرعة الضوء . ولقد تمكنا ان نتوقف على هذا كله وغيره بفضل مقدرتنا على تبادل الاراء فى الاول عن طريق المعادلات الكيمياوية والرياضية ، ثم اخبرونا انهم قادرون على الكلام . وتبين انهم منذ سنوات طويلة قبل ان يخترق سكان الارض جاذبية الكرة الارضية ، ويغزوا الفضاء الخارجى ويستطيعوا الاستقرار فيه ، كانوا يدرسون لغاتنا بواسطة اجهزة فلكية سمعية خاصة تتصنت للمجرة تصنتا دقيقا وتلتقط اشارات الاتصالات اللاسلكية بين الفضاء والارض بصورة منتظمة ، ولقد تمكنوا عن طريق المقارنة والتحليل من فك رموز كلماتنا وعباراتنا . وتاكد لنا ذلك عندما حاولوا ان يتفاهموا معنا باللغتين الانكليزية والروسية : وكان هذا اكتشافا مذهلا وخارقا بالنسبة لنا . . .

اما الآن فنحدثكم عن الأمر الأهم . لقد اقدمنا على زيارة هذا الكوكب الواقع خارج الحضارة الارضية . واصطلحنا على تسميته بـ«الصدر الغابى» . وتعود فكرة الزيارة للصدرغابيين الذين وجهوا الينا الدعوة واتخذنا نحن قرارنا بتفكير سليم : اوضح لنا الصدرغابيون ان اجهزتهم الطائرة التى توازى سرعتها سرعة الضوء ستصل الى محطتنا المدارية خلال ست او سبع وعشرين

ساعة ، وتعهدوا باعادتنا الى محطتنا فى مدة زمنية مماثلة ، متى رغبنا بذلك . وقالوا ردا على استفسارنا حول مسالة الالتحام ان تلك ليست مشكلة ، لان الجهاز الصدرغابى الطائر يمتاز بخاصية الالتحام المحكم باية مادة مهما كان شكلها او تركيبها ، وقد تكون هذه خاصية الالتحام الكهرومغناطيسى . ورأينا انه من الافضل ان يلتحم جهازهم الطائر بكوتنا المؤدية الى الفضاء الخارجى مباشرة ، وسيكون بامكاننا الانتقال من خلالها اليهم من محطتنا المدارية . وبالطريقة نفسها نزمع العودة أدراجنا ، بالطبع ، فيما اذا نجحت رحلتنا الى «الصدر الغابى» . . .

وهكذا ، فاننا نترك رسالتنا هذه على متن «باريتيت» ، ولكم ان تسموها رسالة توضيحية او مفتوحة او نداء . . . ليس هذا بالجوهر . . . اننا ندرك ادراكا سليما ما نقدم عليه ، وعبء المسؤولية التى اخذناها على عواتقنا . ونعى ان الاقدار شاءت ان تسنح لنا بالذات الفرصة الاكثر اصالة لنؤدى مثل هذه الخدمة للانسانية والتى لا نتصور خدمة اسمى منها . . .

بيد ان الشعور بالواجب والارتباط والمسؤولية واخيرا الانضباط بالنظام يعذبنا عذابا أليما . . . ذلك الشعور الذى تربى عليه كل منا بتقاليده القديمة وقوانينه ومعاييره الاخلاقية الاجتماعية . اننا نغادر «باريتيت» دون اخطاركم بذلك ، ايها المسؤولون فى مركز التوجيه ، ودون اخطار اى انسان آخر على وجه الارض عموما ، ودون ان ننسق غايتنا وهدفنا مع احد ولا باى شكل من الاشكال ، لا استخفافا منا بمبادىء الحياة الاجتماعية على الارض ، بل ان هذا الامر اخذ متسعا من وقتنا قضيناه فى تفكير عويص .ونحن الآن مضطران لاتخاذ مثل هذه الخطوات ، ذلك انه من اليسير على المرء ان يتصور اية امزجة وتناقضات ورغبات تضطرم حين تتحرك القوى التى ترى فى كل هدف من مباريات الهوكى انتصارا سياسيا وعظمة نظامها الاجتماعى . لكن ، هيهات ! اننا نعرف معرفة جيدة واقعنا الارضى . من يقدر ان يضمن ان امكانية عقد الصلات مع حضارات الكواكب الاخرى لن تصبح سببا آخر للنزاعات العالمية بين سكان الارض ؟

يصعب على الارض ، بـــل يستحيل ، الابتعاد عن النضال السياسى . لكن اثناء وجودنا امدا طويلا – اياما واسابيع – فى الفضاء النائى ، من حيث تبدو الكرة الارضية بحجم لا يزيد عن حجم عجلة سيارة ، كنا نفكـــر بانقباض القلب واسف بان ازمة الطاقة الحالية التى تدفـــع المجتمع العالمى الى الهيجان واليأس بحيث يجعلان امتـــلاك بعض الدول للقنبلة النووية – ليست الا قضية تقنية كبيرة . ويا ليت هذه الدول اتفقت عـــلى هذا الامر فكان هذا هو الأهم . . .

وخوفا من تعقيد وضع سكان الارض الوخيم بالاخطار اصلا وبدون ذلك ، تجرأنا ان نأخذ على عاتقنا مسؤولية لم يسبق لها مثيل ، هى ان نخاطب سكان هذا الكوكب اللاارضى باسم الجنس البشرى كله وفقا للمعتقد والضمير . اننا نأمل ونشعر بثقة داخلية اننا سنؤدى هـــذه المهمة الطوعيـــة على اكمل وجه . . .

وأخيرا نقول ، اننا كنا فى ترددنا وارتيابنا وحيرتنا كنـــا نهتم اكبر الاهتمام بالا نلحق ببرنامـــج «ديميورغ» الخسارة ، هذا البرنامج – المبادرة الاعظم فى تاريخ الجيوفضائى للانسانية الذى توصل اليه بلدانا بعد سنوات طويلة من انعدام الثقـــة المتبادلة والتعاون الذى عاش حالة المد والجزر . ومع ذلـــك انتصر العقـــل وخدمنـــا كلانـــا بنزاهة واخـــلاص قضيتنا المشتركـــة بحدود ما نملكه مـــن قوة وامكانيات . ولكن بعد تقليبنا الامور من كل وجوهها ، ورغبة منا فى تجنيب برنامج «ديميورغ» المحن بسبـــب المخاوف المذكورة أعلاه ارتأينا ان نتصرف وفق قرارنا : وهـــو ان نترك «باريتيت» مؤقتا على ان نقدم للبشرية بعد عودتنا تقريرا عن نتائج زياراتنا لكوكب الصدرغابى . واذا لم نعد او اعتبرتنا القيادة غيـــر جديرين بمواصلة دوريتنا على متـــن «باريتيت» فليس مـــن الصعوبة احلال آخرين محلنا ، اذ يمكن دائما العثور على شباب يعتمد عليهم وليسوا اسوا منا من حيث أهلية العمل .

اننا نغادر قاصدين المجهول ، ويقودنا الى هناك التعطش الى المعرفة وحلم الانسان الابدى فى اكتشاف كائنات عاقلة مثلـه فى عوالم اخرى ، لكى يتوحد فكرها مع فكره . بيد ان لا احـد

يعرف ما الذى تخبئه تجربة حضارة الكوكب المجهول : الخير ام الشر للبشرية ؟ اننا سوف نسعى ان نكـــون موضوعيين فى تقييمنا . واذا ما شعرنا ان اكتشافنا يعـــود باخطار على الارض ويؤدى الى فناء البشرية فاننا نقسم اليميـــن حالفين على كون تصرفنا لن يجلب اية ويلات على كرتنا الارضية .

وفى الختام نقول وداعا . اننا نرى الارض عبر كوة السفينة المستديرة ، فهى تضىء كماسة مشعة فى بحر من فضاء اسود . الارض رائعة بزرقتها النادرة المنقطعة النظير . فهى هشة مثـل راس الوليد . ويخيـــل الينا من هنا ان جميـــع الناس الذين يعيشون فى العالم هم اخوتنا واخواتنـــا ، ولا نتجرأ ان نتصور انفسنا بدونهم . على اننا نعرف انه من المستبعد ان تنحـــو العلاقة على الارض هذا النحو بالذات .

اننا نودع الكرة الارضية . ويتحتم علينـــا ان نغادر مدار «ترامبلين» بعد ساعات معدودة ، وعندئذ تختفى الارض عـــن انظارنا . ان الصدرغابيين لقادمـــون ، وهم قريبون مـــن مدارنا . وسيصلون قريبـــا ، ولم يبق الا القليل ، ونحـــن بانتظارهم .

ونحن نترك ايضا رسالتين لعائلتينا . ونرجو رجاء حارا مـــن جميع ذوى العلاقة بهذه القضيـــة ايصال رسالتينا الى العنوانين المعينين .

ملاحظة : معلومات لمن يحل محلنا على متن «باريتيت» ، لقد اشرنا فى سجل الدورية الى قناة استقبال الموجات اللاسلكيـــة وذبذبتها ، تلك القناة التى عقدنا بواسطتها الصلات مع سكان الكوكب الاخر . عند الضرورة سنتصل بكم عبـــر هذه القناة ونقدم تقاريرنا . وقد استوضحنا قدر امكاننا من خلال الاتصالات اللاسلكية التى جرت مع الصدرغابيين ان الوسيلة الاوفـــق والاوحد للاتصال هى بواسطـــة الاجهزة الموجودة فى المحطة المدارية ، لان الاشارات اللاسلكية الموجهة من الكون الى الارض مباشرة لا تصل سطحها نظرا لوجود حاجز لا يقهر ، وهـو محيط مؤين جبار فى الجو حول الارض .

هذا كل شىء . وداعا .

حرر نص الرسالة باللغتين الانكليزية والروسية .

رائد الفضاء ١–٢
رائد الفضاء ٢–١
متن المحطة المدارية «باريتيت»
الوردية الثالثة . اليوم الرابع
والتسعون» .

فى الميعاد المحدد تماما ، عند الساعة الحادية عشرة ، بتوقيت الشرق الاقصى ، هبطت بالتتابع على سطح حاملة الطائرات «كونفينتسيا» طائرتان نفاثتان تحملان لجنتين ذات صلاحيات خاصة من الجانبين الامريكى والسوفيتى .

تم استقبال اعضاء اللجنتين وفق قواعد البروتوكول الصارمة . وأعلن لهم مباشرة ان فترة الغداء ينبغى ان لا تتجاوز نصف ساعة . وبعد الغداء فورا كان يتوجب على اعضاء اللجنتين عقد اجتماع مغلق فى قمرة الضباط ارتباطا بحالة الطوارىء على المحطة المدارية «باريتيت» .

وقطع الاجتماع الذى بدأ لتوه اذ بث رائدا الفضاء المراقبان الموجودان فى «باريتيت» تقريرهما الاول الى مركز التوجيه فى «كونفينتسيا» والذى حصلا عليه من رائدى الفضاء المناوبين ١–٢ و٢–١ عن المجرة المجاورة ، من الكوكب «الصدر الغابى» .

الفصل الرابع

كانت القطارات فى هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق .

وعلى جانبى خط السكة الحديد كانت تمتد مساحات شاسعة من الاراضى الصحراوية – سارى اوزيكى ، الاراضى الوسطى من البرارى الصفراء . . .

وفى هذه الانحاء كانت المسافات تقاس نسبة الى خط السكك كانه خط غرينيتش . . .

اما القطارات فواصلت سيرها من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق . . .

مهما قلبنا الامور على عواهنها فان المسافة حتى مقبرة الاسلاف آنادبايت ليست قصيرة ، فهى تقدر بنحو ثلاثين فرسخا اذا سار المرء فى ساروزيكى بخط مستقيم تقريبا .

استيقظ يديغي البورانى فى ذلك اليوم مبكرا . بل ولم تكد تكتحل عيناه بالنوم ، وما ذاقه الا لماما عند مطلع الفجر ، وقبل ذلك كان مشغولا بتجهيز المرحوم قازانغاب وتكفينه . ويجهز الميت عادة فى يوم الدفن قبيل اخراج جثمانه من البيت ، اى قبل صلاة الجنازة . وتحتم عليه ان يؤدى ذلك كله ليلا عشية الدفن ، لكى يشد الرحال فى الصباح دون تأخير . وقام بنفسه بكل ما تطلب القيام به ، اذا لم نأخذ بعين الاعتبار ان عادل باى الطويل جلب الماء المدفأ لغسل الميت . عادل باى الطويل توجس قليلا وتجنب الدنو من المرحوم . بالطبع كان ذلك مرعبا . وقال له يديغي معاتبا :

– عليك ان تعتاد يا عادل باى . سيفيدك هذا فما دام الناس يولدون فهذا يعنى ايضا انهم يموتون .

اجاب عادل باى بلهجة غير واثقة :

– نعم ، افهمك .

– هذا ما اردت ان اقوله ، بالمناسبة ، اذا ما مت أنا غدا ، فهل ستعثرون على من يجهزنى ؟ ام سترمونني فى حفرة ما كيفما اتفق ؟

– ما هذا الكلام ! – تعكر عادل باى وهو يضىء بالفانوس ويحاول ان يتكيف بالقرب من المرحوم – لا نفع فى هذا المكان دونك ، ومن الافضل ان تعيش ، اما الحفرة ففى وسعها ان تنتظر .

استغرق التجهيز نحو ساعة ونصف ساعة ، لكن بالمقابل شعر يديغي بالرضا . فلقد غسل المرحوم كما ينبغى ، وعدّل من وضع يديه ورجليه كما يجب ، ثم لفه بكفن ابيض كما جرت عليه العادة دون ان يبخل بالقماش . واثناء ذلك ارى لعادل باى كيف يلف جثمان الميت بالكفن وبعد ذلك هنّدم قيافته وحلق ذقنه حلاقة ملساء ، وحدّد شاربيه . وشارباه كثيفان مثل حاجبيه ، بيد ان الشيب بدأ فى وخطهما . وحتى لون الجلد صار اقرب الى الرمادى . ولم ينس يديغي مدالياته

العسكرية . فمسح الاوسمة والشارات التى كوفئ بها الى درجة الصقل وشبكها على صدر سترته ، واستعد ليوم غد .

هكذا انقضى الليل . وكان يديغي البورانى يتعجب طول الوقت من نفسه . كيف انجز هذا كلـــه بهذه البساطة ورباطة الجاش . ولو كان احد قد ذكر له فى السابق انه سيؤدى هذه المهمة المفجعة بهذا الشكل لما صدقه . ويبدو انه كان قد كتب عليه ان يدفن قازانغاب بيديه ، هذا حكم القدر .

هكذا بالضبط من كان يتصور ذلك عندما التقيا للمرة الاولى فى محطة قمبيل . تسرح يديغي بعد اصابته بالصدمة العصبية اواخر العام الرابع والاربعين . كان يبدو فى مظهره وكانه على ما يرام : يداه ورجلاه فى اماكنها وراسه فوق كتفيه ، لكن كان يخيل اليه وكانما راسه غريب عنه . كان الضجيج لا يكف فى اذنيه ، مثل الريح التى لا تهدأ ثائرتهـــا . وما ان يسير عدة خطوات حتى يترنح ويشعر بدوار الراس وبالغثيان بينما يغرق جسده بعرق حار تارة وبارد تارة اخرى . واحيانا لا يطاوعـــه لسانه ، فيجهد نفسه كثيـــرا كلما نطق بكلمة . كانت موجة انفجار الصاروخ الالمانى قد هزته هزا عنيفا . صحيح انها لـــم تقتله ، لكنها جعلت حياته بـــلا معنى . ولقد تكدر يديغي حينذاك الى آخر حد . اذ كان بمظهره شابا صحيح البدن معافى ولكن ، ها هو يعود الى مسقط راسه ، الى بحر آرال وهو بهذه الحال ، ماذا سيفعل ، واية فائدة ترتجى منه ؟ ولحسن حظـــه عالجه طبيب قدير ، والحق يقال انـــه لم يعالجه ، بل فحصه واختبره كما يتذكر الآن . كان رجلا اشقر ضخما يرتدى صدرية بيضاء ويعتمر قلباقا ، وذا عينين صافيتين وانف كبير ، ربت على كتفه بمرح وضحك قائلا :

– ارايت يا اخي ، الحرب ستضـــع اوزارها قريبا ، والا لكنت قد اعدتك الى الجبهة من جديد ، لكى تقاتل فتـرة اخرى من الوقت . طيب ، اننا سنحقق النصر ونفوز به دون اسهامك . لكن لا تذهب بك الظنون كل مذهب فبعـد سنة او اقل سيكون كل شيء على ما يرام . وستكون سليما معافى كالثور . هذا ما اقوله لك ،وستتذكر كلامى فيما بعد . اما الآن ، فهيا اجمـــع

حاجياتك وسافر الى منطقتك ، ولا تتباطأ . ان امثالك يعيشون مائة عام . . .

يظهر ، ان ذلك الطبيب الاشقر لم يقل الا الحقيقة . ولقد حصل ذلك تماما . ولكن القول «بعـــد سنة» لم يكن سهلا الا باللفظ ، عندما خرج من المستشفى العسكرى – بمعطف الجنود المدعـــوك وعلى ظهره قمطر وفـــى يده عكاز تحسبـــا لكل الاحتمالات ونزل الى المدينة ، شعر كانه دخل غابة كثيفة ، كان يحس بضجيج فى راسه وقشعريرة فـــى رجليه وعتمة امام عينيه . ومن يهتم بحالك فى المحطات والقطارات ، فالناس هناك لا يعدون ولا يحصون ، والقوى منهم يندس حيث يريد ويتنحى سواه جانبا . ومع ذلك جرجر قدميه وتمكـــن من الوصول . وبعد شهر من الحل والترحال توقف القطار ليلا فى محطة آرال . وكان ذلك القطار «المشهور» يسمى «قطار ٥٠٧ المرح» ، لا قدر لاحد ان شاء الله ، ان يسافر فى قطار مثله . . .

كان عند ذاك مسرورا حتى بمثل هذا النصيب . نزل مـــن عربة القطار فـــى العتمة مثلما ينحدر المرء من جبل ، وتوقف حائرا ، والدنيا ظلام دامس من حوله ، فيما عدا مصابيح المحطة التى كانت تضيء . وكانت تهب رياح عاتيـــة . وهذه الرياح وحدها هى التى كانت فى استقبالـــه . رياح آرال العزيز ! وسرعان ما واجهه البحر . وكان البحر فى تلـــك الايام قريبا ، يطرطش تحت السكة الحديد . اما الآن فلا يُرى حتـــى بالمنظار المقرب . . .

واذ هبت رائحة خفيفة ، بالكاد محسوسة لنبات الشيح مـــن السهب ، هى رائحة استيقاظ الربيع الذى حل من جديد فـــى المراتع المحيطة بآرال ، احتبست انفاسه . ها هو مسقط الراس العزيز مرة اخرى !

وكان يديغي يعرف جيدا المحطة وبلدتها الواقعة على شاطىء البحر بشوارعها الصغيرة المنحنية . التصـــق الطين بجزمتيه ، وهو يذهب الى بيت صديقه لكى يقضى عنـــده ليلته ، على ان يتوجه فى الصباح الى اوول جانغيلدى لصيادى الاسماك ، والذى يبعد مسافة لا يستهان بها . ولم ينتبه لنفســـه كيف قاده الشارع الصغير الى نهايته ، الى الشاطىء نفســـه . وفى هذه

الاثناء لم يتمالك يديغي نفسه فاقترب من البحر . وتوقف عند الحد الذى كان الماء يطبطب فيه على الرمل . وكان البحر الملفع بالظلام ينبئ عن نفسه من خلال لطخات ضوء غير واضحة على اعراف الامواج التى كانت تظهر اشبه ما يكون بشطبة من قلم رسام ، وتختفى حالا . وكان القمر فى الهزيع الاخير من الليل قبيل الفجر ، وضربت بقعة وراء غيمة فى الاعالى الى البياض .

يبدو انهما التقيا . همس يديغي :

– مرحبا يا آرال .

ثم اقتعد حجرا ، واشعل سيكارة ، مع ان الطبيب نصحه كثيرا بعدم التدخين نظرا لحالته . لكنه ترك هذه العادة السيئة فيما بعد . اما فى ذلك الوقت فقد فكر فى داخله ما اهمية الدخان طالما ليس واضحا كيف سيعيش مستقبلا . والجلى انه يجب ان يكون للمرء ، عند مزاولة صيد السمك فى البحر يدان قويتان ، وقطن متين فى الشبكة ، والاهم راس ثابت ، لئلا يترنح فى الصندل . كان قبل الحرب يعمل صيادا للسمك على متن سفينة ، اما الآن فمن هو ؟ حتى انه ليس معوقا بمعنى الكلمة ، وعلى العموم لا ينفع فى اى عمل . وفى المقام الاول ليس راسه بذى نفع للصيد ، وهذا واضح تمام الوضوح .

وكان يديغي قد هم بالنهوض عندما ظهر من مكان ما كلب ابيض ، كان الكلب يركض خببا على حافة الماء . ويقف احيانا متشمما الرمل الرطيب بجد العمل . استماله يديغي واستدعاه ، فاقترب بثقة وتوقف جانبه هازا ذيله . ربت يديغي على رقبته الشعثاء .

– من اين جئت ، ها ؟ ما اسمك ؟ ارسستان ؟ جولبارس ؟ بوريباشر ؟ * افهمك ، انك تبحث عن سمكة على الساحل . انت شاطر ! شاطر ! لكن البحر ليس دائما يقذف الى شاطئه بسمكة ميتة . ليس باليد حيلة ! انت مضطر الى الركض ، ولذلك فانت ضعيف هذا الضعف . اما انا يا صديقى فعائد الى البيت من مشارف كنزبرغ . ولم تكن قد بقيت الا مسافة قصيرة لبلوغ هذه المدينة حين انفجر صاروخ بقربى . وبقيت على الحياة بقدرة

* اسد ! نمر ! كلب ذئبى ! **المؤلف** .

قادر . وها انني الآن اقلب الامور على اوجهها كافة ، وافكر كيف يجب ان اتصرف . لماذا تحدق بى هكذا ؟ لا شىء عندى لك . هذه اوسمة وميداليات . . . الحرب لا تزال دائرة يا صديقى والجوع قد حل فى كل مكان . والا لما بخلت عليك . . . مهلا عندى قند احمله لابنى ، ومن المفروض انه يركض الآن . . .

ولم يتكاسل يديغي ، ففك صرته الصغيرة التى كان يحمل فيها حفنة من القند ملفوفة بمزقة من جريدة ، وخمارا لزوجته اشتراه من المسافرين فى المحطة ، وعدة قطع من الصابون اقتناها ايضا من المضاربين بالسوق السوداء . وكانت صرته تحوى كذلك زوجا من الملابس الداخلية وحزاما وطاقية وقميصا عسكريا وبنطلونا . هذه محتويات جعبته كلها .

التقط الكلب بلسانه قطعة القند من راحة يد يديغي ، وبدا يقرقشها معترفا له بالجميل بهزة من ذيله ناظرا باهتمام وولاء بعينين ملتمعتين مفعمتين بالأمل .

– والآن وداعا .

نهض يديغي ومشى على امتداد الشاطئ ، وارتأى الا يضايق معارفه فى المحطة ، فقد انشق عمود الفجر ، ولا ينبغى له التأخر عن السفر حالا الى أوول جانغيلدى .

ولم يصل جانغيلدى الا عند انتصاف النهار . كان يسير طول الوقت بمحاذاة البحر . قبل اصابته بالصدمة العصبية كان يركض هذه المسافة فى ظرف ساعتين تقريبا ، وفى الأوول صعقه نبأ مفزع ، اذ اتضح ان ولده قضى نحبه منذ زمن . عندما جند يديغي كان الصغير يبلغ من العمر نصف عام . ولم يرحمه القدر فمات فى شهره الحادى عشر . وكان قد اصيب بمرض الحصبة وبسبب ارتفاع درجة حرارته توقف قلبه عن الخفقان . ولم يكتبوا عن هذا لوالده فى الجبهة . والى اين يكتبون ولماذا ؟ فى الجبهة بلا هذا تكفى المصائب السوداء . اذا عاد حيا سيعرف بالأمر حال وصوله ويحزن ويكابد ، حكم الاقرباء فى المسألة حسب تصوراتهم ، وتشاوروا مع اوق بالا حول الامر . ونصحوها بالا تكتب لزوجها عن موت ابنه . ذلك انهم اعتبروا ان الحرب ستنتهى ، وان الزوجين الشابين سينجبان اطفالا آخرين ، والله سيعطيهما ويمن عليهما بفضله . «اذا انكسر غصن من شجرة

دلب فليست هذه بمصيبة ، الأهـــم ان يبقى الجذع سالما» . وكانت ثمة تصورات اخرى ، لم يتجرأوا ان يصرحوا بها علنا ، لكنها كانت مفهومة من قبل الجميـــع : الحرب هى الحرب ، واذا اصابت والده رصاصة ، على الاقل ، سيودع العالم فى اللحظات الاخيرة وقلبه مفعم بالامل معتقدا انه ترك خلفا له فى البيت ، ولن ينقطع نسله . . .

اما اوق بالا فراحت تعذب نفسها عذابا اليما . انطلقـــت باكية منتحبة وضمت الى صدرها زوجها العائد . ذلك انها كانت قد عقدت آمالها على هذا اليوم ملوعة بعذاب الانتظار . وراحت تحدثـــه والدمـــع مدرار ان العجائز نبهنهـــا ان الولد مصاب بالحصبة ، وان هذا المرض غادر ، وعليها ان تلف الطفل بلحاف دافئ مضرب من وبر البعير ، وتبقيه فى غرفة مظلمة ، وتعطيه الماء المبرد بين فينة واخرى ، ثم تتركه وهو على هـذه الحال لرحمة الله ، فاذا تحمل الحرارة ، شفى وأبل ، بيد انهـا امراة تعيسة ، لم تسمع نصيحة عجائز الأوول . استعارت عربة مـن الجيران واخذت الطفل المريض الى الطبيب فى المحطة ، وحين بلغت آرال فى تلك العربة الكثيرة الارتجاج كان الوقت قـــد فات . وقضى الولد نحبه فى الطريق . صبت عليها الطبيبة سيلا من الشتائم ، ووبختها لكونها لم تسمع كلام العجائز . . .

كانت اخبار كهذه تنتظر يديغي فـــى البيت ، ما ان اجتاز عتبته . فتحجر فى مكانه واسود من الغم منذ تلك اللحظة . فما كان يتوقع سابقا انه سيعانى مثل هذا الحنين وبهـذه القوة الى صغيره ، الى وليده البكر الذى لم يهدهده كما ينبغى . وبسبب من هذا الشعور راح يحس بالم اعمق لفقدانه . لم يستطـع ان ينسى تلك الابتسامة الطفولية المضيئة الواثقة التى كلما تذكرها تقطر قلبه دما .

وابتدا كل شىء من ذلك الحادث . فقد ملأ يديغي الأوول . فى غابر الازمان كان على هذا التل الرملى من الساحل نحو خمسين بيتا يعيش سكانها على صيد الاسماك فى بحر آرال . وكانت ثمة جماعة تعاونية لصيد الاسماك . اما الآن فلم يبق الا عشرة اكواخ قرب الجرف ، لا احد فيها . طحنت الحرب الرجال كلهم برحاها وتركت الشيوخ والاطفال ، وحتى هؤلاء يعدون بالاصابع ، ذلك

ان الكثير منهم رحلوا الى آوول فيـــه كلخوز للانتاج الحيوانى لئلا يموتوا جوعا . وحلت التعاونية ، ولم يبق احد ليركـــب البحر .

وكان فى وسع اوق بالا ايضا أن ترحل الى ذويها ، وهى تنحدر من قبيلة سهيبية . وقد جاء الاهل فى طلبها ، واعربوا عن رغبتهم فى استصحابها معهم ، على ان تنتظر عندهم بضع سنين ، فما ان يعود يديغي مـــن الجبهة حتى تعود هـــى ايضا الى جانغيلدى ، قرية صيادى الاسماك ، ولن يمنعها من ذلك أحد . بيد أن اوق بالا رفضت رفضا قاطعا قائلـة : «سأنتظر زوجى . لقد فقدت ولدى . واذا عاد زوجى حيا فانه على الاقل سيجـــد زوجته فى البيت . وانا لست وحدى فى القرية ، بل ثمة عجائـز واطفال ، سأساعدهم ، ونصمد سوية» .

لقد تصرفت اوق بالا تصرفا صحيحا . بيد ان يديغي ، منذ الايام الاولى ، انشأ يقول انه لم يعد قادرا على تحمل البقاء فـى القرية ، على شاطئ البحر ، بلا عمل . وكان محقا فى ذلك . اقترح اهل اوق بالا الذين جاءوا لزيارتـــه ان ينتقل الى منطقتهم ، عارضين عليه العيش مع رعاة قطعان الضان فـــى السهوب ، ولعله سوف يستعيد بذلك صحته ، على حد قولهم ، ويشغل نفسه بعمل ما ، سيما وهو قادر على رعي الماشية . . . عبر يديغي عن امتنانه لهم ، لكنه لم يوافق . كان يدرك أنـــه سيغدو عالة عليهم . ففى امكان ذوى زوجتـــه واقربائها ان يستضيفوه بضعة ايام لا اكثـــر ، ثم ، اذا اتضح لهم انه غير قادر على العمل كما ينبغى فسوف تنتفى الحاجة اليه .

عندئذ عزم يديغي واوق بالا على المجازفة ، وقررا الارتحال الى سكك الحديد ، ظنا منهما ان عملا ما مناسبا ، لا بد ان يتوفر هناك ليديغي ، كحارس مثلا او مراقب على حاجز طريق ، لا سيما وان هذا المعوق القادم من الجبهة حقيق بالمساعدة وجدير بها .

وغادرا الأوول فى الربيع مـــع هذا الامل . كانا شابين لا يرتبطان بشىء . فى بداية الامر كانـــا يقضيـــان الليالى فى المحطات ، بيد انهما لم يوفقا فـــى العثور على العمل المناسب . ويوما بعد يوم اصبحا يعانيان معاناة شديدة بحثا عـن المأوى . وسكنا كيفما اتفق وايثما كان . واعتاشا عـــلى مختلف الاعمال

المؤقتة فى محطة القطار . وكانت اوق بالا عونا له ، تؤدى الجزء الاكبر من العمل ، لكونها شابة وصحيحة الجسم . امـا يديغي الذى يبدو بمظهره صحيحا معافـى فكان ملتزم مقاولة تحميل وتفريغ العربات ، بينما اوق بالا هى التى تؤدى العمل .

وعلى هذا المنوال وجدا نفسيهما ذات مرة ، وكان ذلك فى اواسط الربيع فى محطة قمبيل الرئيسية الضخمة . وعملا هناك فى تفريغ الفحم من العربات ، كانت العربات المملوءة بالفحم تصل الى خطوط سكك الحديد الاحتياطية ، والى الابواب الخلفية لعنابر المستودعات مباشرة . وهناك كانا ينزلان الفحم عـلى الارض اول الامر ، وذلك لتفريغ العربات بسرعـة ، ثم ينقلان هذا الفحم بعربات يدوية ويرميانه على كومة كبيرة بحجم البيت . وكان هذا احتياطى الفحم للسنة كلها . لقـد كان عملا شاقا ومغبرا وقذرا للغاية . لكن لا بد من العيش . وكان يديغي يملا عربة يدوية بذلك الفحم مستخدما المجرفة . فتدفعها اوق بالا الى فوق ، وتفرغها وتعود بها الى الاسفل من جديد ، ويعيـد يديغي مجددا ملء العربة بالفحم وتجرها اوق بالا مرة اخرى ، وهى تسحب هذا الحمل الذى لا يناسب النساء الى كومة الفحم بكل ما اوتيت من قوة . فضلا عن ذلك كان حر النهار يتزايـد باطراد ، حتى يغدو قائظا وكان يديغي بسبـب هذه الحرارة والسخام الاسود المتصاعد من الفحم يشعـر بالغثيان والقيء ، ويحس بانهيار قواه . وكم ود لو انطرح على الارض ، وبيـن اكوام الفحم مباشرة ، فلا ينهض ابدا . لكن اكثر ما كان يعذبه هو ان زوجته كانت تاتى لاهثة تغمرها سحابة من الغبار الاسود لكى تؤدى بدلا منه ما كان يفترض ان يؤديه هو . كان يصعب عليه النظر اليها وهى مكسوة من قمة راسها حتى اخمص قدميها بالسخام ، ولا يلوح منها سوى عينيها واسنانها ، وهى مبتلـة تماما بالعرق ، وقد سالت مسارب سوداء وسخة منه على وقبتها ونحرها وقفاها . وهـل كان يسمح بهـذا لو انه كان متمتعا بسابق قواه ! لكان قد فرغ لوحـده عشرات العربات من هذا الفحم اللعين ، لئلا يلمح ما تكابده زوجته من نكال العذاب .

حين تركا جانغيلدى آوول صيادى الاسماك المقفر آمليـن بان يجد المصاب القادم من الجبهة عمـلا مناسبا ، لم يحسبا

حساب امر واحد ، الا وهو ان امثال هذا القادم مـن الجبهـة كثيرون ، وتكتظ بهم الاماكـن كلها . تحتم عليهم جميعا ان يتكيفوا من جديد للحياة ولحسن الحظ كـان يديغي قد عاد باطراف سليمة . وكم من المشوهيـن مبتورى السيقان أو السواعد وعلى عكازات كانوا يتسكعون آنذاك فى محطات القطار . فى ذلك الوقت ، بعد ان كانا يظفران بمكان لهما فى ركن زاوية من بناية المحطة العفنة المكتظة بالناس مترثين انتهاء الليل ، كانت اوق بـالا ، تطلب العفـو والمغفـرة ، رافعـة الحمد والشكر الى الله العلى القديـر بهمس ومناجاة على وجود زوجها الى جانبها لم تلحق به الحرب تشوها مروعا مستديما ، فان ما شاهدته فى المحطات جعلها تقاسى الرعب والمعاناة . كان الناس مقطوعى الارجل والايدى جرحى ومشوهين يرتدون معاطف عسكرية متهرئة وشتى الخرق البالية ، ويسيرون عـلى عكازات او على عربات او يقودهم مرافقون ، لا ملاذ لهم ، يتنقلون مـن قطار الى قطار ومن محطة الى محطـة ، ويسعون الى المقاصف والحوانيت ، مروعيـن نفوس الناس بزعقاتهم الهستيريـة وبكائهم . . . اى مستقبل ينتظر هؤلاء ، وبماذا يمكن تعويضهم عما فقدوه ؟ وكانت اوق بالا مستعدة ان تؤدى اشق الاعمال فى العالم لسبب واحد فقط ، هو سلامتها من ماساة كهذه ، مـع العلم بانها كان يمكن ان تصيبها ، وكون زوجها قد عاد . وان كان مرضوضا ، لكنه ليس مشوها . ولذلك لم تتذمر ، ولـم تتضجر ولم تجار بالشكوى ، حتى عندما كان متعذرا عليها جر قدميها وبدا لها انها لم تعد قادرة الصبر .

غير ان يديغي لم يشعر من ذلك باليسر . وكان حتما عليه اتخاذ خطوة ما لكى يستقر فى الحياة على نحـو اكثر ثباتا ، اذ ليس ممكنا الترحل على مدى العمر . وكانت دائما تلح على راسه فكرة : ماذا لو قلت لنفسى «تاوباكيل» * ، ورحلت الى المدينة ، مهما كان من امر ؟ آه ، لو عادت الىّ صحتى ، لو تخلصت مـن هذه الرضوض اللعينة . اذن لاصبح فى مقدورى مصارعـة الحياة ، والدفاع عن نفسى . . . كان من الممكن ، بالطبع ، ان

* تاوباكيل — فليكن ما يكون . **المؤلف .**

تحول الحياة وجهتها الى اية جهة ، وفـــى المدينة كان ممكنا ان يتكيفا مع الزمن لظروفها ويصبحا من أهل المدن شان الكثيرين الآخرين ، لكن شاء حكم القدر امرا مغايرا . اجل ، هـــذا هو مصيرهما وهو المكتوب لهما على الجبين . . .

فى تلك الايام ، عندما كانـــا يجوبان ارجاء محطة قومبيل ، ويلتزمان المقاولات بتفريغ عربات القطار مـــن الفحم ونقله الى الكداس ظهر فى الباحة الخلفية لعنبر الفحم ذات مرة قازانغـــاب يمتطى ظهر بعير ، ولعله جاء من السهوب لقضاء بعض الاعمال . هكذا ، على اية حال ، كان يبدو من مظهره . أناخ القـادم بعيره فى ارض خلية وعقله ، وتلفت للتحقق ، ثم تركه وسار وهو يتأبط كيسا فارغا . ولما مر الرجل بجنب يديغي خاطبه بقوله :

– ايها الاخ ، هلا أسديت لى معروفا ومنعت الاطفال مـــن مشاكسته . لقد تعلموا عادة سيئة هـــى مشاكسة الحيوانات وضربها . بل وربما يفكون وثاقه من باب التسلية . لن اغيب الا فترة قصيرة .

– اذهب ولا تقلق بالك سيكون تحـــت عهدتى . – وعد يديغي وهو يتحكم بالمجرفة ماسحا وجهه بخرقة سوداء مبتلة من العرق .

كان العرق يسيل على وجه يديغي بلا انقطاع ، وهو يشتغل بالقرب من كومة الفحم جارا العربة . وليس من العسير عليه ان يتلفت بين حين واخر ليتحقق ان الاولاد العابثين من ابناء العاملين فى المحطة لا يهيجون ولا يؤذون البعير المسكين ؟ سيما وانه ذات مرة كان شاهدا على شيطنتهم ، اذ اوصلوا الحيوان الى حالة اصبح معها يرغو ويبصق ويركض نحوهم وخلفهـــم . بينما هم كانوا يستمتعون بذلك ، ويحيطون به مصدرين اصواتا وحشية مثل الصيادين البدائيين ، ويرجمونه بالحجارة والعصي ، ويتحمـــل البعير المسكين كل هذا العبث الى ان جاء صاحبه . . .

وفى هذه المرة ، وكأنما نكاية به ، اينما نظر رأى شلة من الاطفال الطائشين يلعبون فى الشارع كرة القـدم . واخذوا يصدمون البعير المعقول بالكرة بكـــل ما اوتوا لهم من قوة . والبعير يحاول الابتعاد عنهم ، وهم يضربون الكرة على جنبيه . وكل يحاول ان يسدد الضربة اقوى وامهر من صاحبه . وما ان

تصيب البعير حتى يبتهج وكأنه سجل هدفا فى مرمى الفريـــق الخصم . . .

– ويحكم يا اولاد ، انقلعوا مـــن هنا ، ولا تضايقوه ! –

– والا اريتكم ! – ولوح لهم بمجرفته مهددا :

انسحب الاولاد لاعتقادهم ان حمـال الفحم هذا هـو صاحب البعير ، اوبسبب مظهره المرعب . فابتعدوا راكلين كرتهم خوفا من ان يكون سكران فتحل بهم على يده مصيبة ، غير عارفيـــن انه كان بوسعهم ان يعذبوا البعير ما شاؤوا دون خشية من أى عقاب ، ذلك ان يديغي هددهم بالمجرفة على سبيل التظاهر ليس الا . فانه فى حقيقة الامر ما كان ليستطيع ، وهو فى تلك الحال التى كان عليها ذلك الوقت ، ان يجرى وراءهـــم ويلحقهـــم بالمرة . كان كل جاروف من الفحم يرميه فى العربة يكلفه جهودا مضنية . ولم يخطر له قط من قبل ان الضعف مذل ومهين لهذه الدرجة ، وانه يجعل الانسان اشبه ما يكون بسقط المتاع . كان الدوار يعذبه باستمرار ويتصبب عرقا غزيرا ، وقواه تخور تحت ثقل الفحم وانفاسه تضيق وتثقل الرطوبة عـــلى صدره فيحس بالاختناق . وكانت اوق بالا لا تنفـــك حريصة ان تتولى الجزء الاعظم من العمل على عاتقها ، لكى يرتاح قليلا ويجلس جانبا ، وفى هذه الاثناء كانت تدفع العربة وترفع الى الاعلى كومة الفحم . بيد ان يديغي لم يستطع ان يراقـــب بهدوء بال كيف تضنى نفسها ، فينهض من جديد ويشرع بالعمل وهو يترنح . . .

وسرعان ما عاد ذلك الرجل الذى رجاه ان يتعهد البعيـــر بنظره واضعا على ظهره حملا ، وبعد ان ثبته على ظهر البعيـــر وتهيأ للرحيل تقدم من يديغي ليبادله بضع كلمات . ولا يتذكر كيف دخلا فى الحوار ، وكان هـــذا قازانغاب القادم من بورانلي-بورانى . . .

واتضح انهما من ابناء منطقة واحدة . وذكـر قازانغاب انه ينحدر فى اصله ايضا من ساحل آرال . ولقد قربهما هذا الأمر من بعضهما البعض بسرعة .

ولم يخطر ببال احد ، آنذاك ، ان هذا اللقاء سيعيّن مسبقا الحياة اللاحقـــة ليديغي واوق بالا . كـــل ما فى الأمر هو ان قازانغاب اقنعهما بالانتقال معـــه الى مفرق بورانلي-بورانى ،

ليعيشا ويعملا هناك . يلتقى المرء احيانا بالفعل مثل هذه الانماط من الناس الذين يميل الآخرون اليهم منذ اللقاء الاول . ولم يكن فى شخص قازانغاب اى مظهر مميز ، بالعكس ، كانت البساطة نفسها تتوسم فيه انسانا اكتسب ذكاءه بمشقة الصبر . وكان بمظهره كازاخيا عاديا يرتدى ملابس باهتة رثة اتخذت شكلا ملائما عليه . وليس من الصدفة ان يرتدى سروالا من جلد الماعز المضروب وهو الآخر لم يكن عاديا ، فهو مناسب للسفر على ظهر بعير . غير انه كان يعرف قيمة الملابس فاعتمر سدارة لبدلة عمال سكك الحديد جديدة نسبيا وهو يحتفظ بها خصيصا للسفرات ، وانتعل جزمتين من الجلد المطلى بالكروم بقيطان من المشمع كثرت فيهما الرقع لطول استعمالهما . وكان فى وسع المرء ان يلاحظ انه ابن سهوب وشغيل من وجهه الاسمر الداكن الخشن من الشمس الواحفة والرياح اللافحة ويديه الجاسئتين المعروقتين . وبسبب احديداب ظهره قبل الاوان من العمل تهدل كتفاه ، لذا بدت رقبته طويلة وممدودة مثل رقبة اوز مع انه كان متوسط الطول . وكانت عيناه عجيبتين تشعان بابتسامة وعندما تضيقان تتجمع حولهما التجاعيد والغضون .

وكان قازانغاب آنذاك قد ناهز الاربعين . ولعله بان كذلك لان شاربيه القصيرين المقصوصين ولحيته الصغيرة بدت ملامح رجل كبير فى السن . لكنه كان يوحى بالثقة فيه اكثر من خلال حديثه . وحظى هذا الرجل مباشرة باحترام اوق بالا . وكان حديثه ، وكل ما يتحدث به ، يجد له عندها وقعا حسنا . وكان بالفعل معقول الكلام . وقال فيما قال ما دمت قد تعرضت لمثل هذه المصيبة – الرضوض – لا ينبغى لك ان ترهق نفسك وتسىء صحتك ، واضاف ، اننى لاحظت راسا ان هذا العمل فوق طاقتك يا يديغي . لم تشتد صحتك بعد لمثل هذه الاعمال ، وانت بالكاد تجرجر قدميك . من المفروض ان تزاول فى الوقت الحاضر عملا اسهل ، وفى الهواء الطلق ، وان تشرب حليبا صرفا بكثرة . وعلى سبيل المثال ما أشد الحاجة عندنا فى المفرق الى عمال صيانة ، ويقول لى مديره فى كل مرة : انت من سكنة المنطقة القدماء فاطلب الناس المناسبين للعمل عندنا . لكن اين هؤلاء الناس ؟ الجميع فى جبهات الحرب . ومن عاد يتوفر

له العمل فى اماكن اخرى . وبالطبع ليست الحياة عندنا جنة النعيم اننا نقيم فى مكان قاسى الطقس . واينما نظرت فلن ترى غير ساروزيكى المقفرة الجافة . يجلب الماء فى صهاريج لاسبوع . ويحدث احيانا ان يتاخر جلب الماء . اجل ، هذا ما يحدث . عندئذ نضطر ان نذهب الى البئر البعيدة فى السهب . ونجلب الماء فى القرب ، تغادر صباحا ولا ترجع الا فى المساء . وكان قازانغاب يقول ومع هذا فان تكون فى ساروزيكى بعيدا عن الاخرين افضل من ان تحتمل كثيرا من المحن فى مختلف الاماكن . سيكون لك ماوى ، وعمل دائم ، نساعدك ونعلمك ما يجب عمله ، وحتى فى استطاعتك ان تدبر مزرعة خاصة بك ، وهذا يتوقف على مهارتك ، وقال ان مرتبكما الشهرى سيكون كافيا للمعيشة . وعندما تستعيد صحتك ، سوف تعمل حسب امكانك ماشئت من الزمن ، واذا سئمت انتقل الى مكان آخر . . .

هذا ما قاله الرجل . فكر يديغي وثم فكر ووافق . وتوجهوا فى ذلك اليوم نفسه مع قازانغاب الى ساروزيكى ، الى مفرق بورانلى-بورانى ، نظرا لسرعة تاهب يديغي واوق بالا حتى وفق مفاهيم ذلك الوقت . جمعا متاعهما البسيط وواجها الطريق بصدرهما . ولم يكن هذا صعبا عليهما ، اذ قررا ان يجربا مثل هذا الحظ . واتضح فيما بعد ان ذلك كان مصيرهما .

وبقى يديغي يتذكر تلك الرحلة عبر ساروزيكى من قمبيل وحتى بورانلى-بورانى طول حياته . فى البدء تحركوا بموازاة سكة الحديد ، لكنهم حادوا عنها تدريجيا نحو هضبة ذات منحدرات . وكما شرح لهما قازانغاب فانهم اختصروا بنحو عشرة كيلومترات من السير فى درب منحرف ، لان سكة الحديد تميل فى هذه المنطقة على شكل قوس كبير متفادية منطقة تاقر كبيرة سبخاء وهى عبارة عن بحيرة ملحية يابسة منذ غابر الازمان . وللآن يخرج الملح والطين من باطن التاقر ، وهذا السهل الملحى يستيقظ كل ربيع ويتحول الى مستنقع ويغدو عسير الاجتياز ، بينما يتغطى عند مجىء الصيف بطبقة بيضاء خشنة من الملح ، وتغدو صلبة مثل الحجر حتى الربيع القادم . وكان قازانغاب فى حديثه عن وجود بحيرة فى هذا المكان يعتمد على كلمات الجيولوجى

المختص بساروزيكى يليزاروف الذى ارتبط معه يديغي البورانى فيما بعد بصداقة قوية . وهو على درجة كبيرة من الذكاء .

اما يديغي الذى لم يكن وقتئذ يدعى بالبورانى بل كان مجرد كازاخى من آرال وجريح عائد من الجبهة وعاطل التقى قازانغاب العامل فى سكة حديد المنطقة واولاه ثقته واعتماده . فكان يسير برفقة زوجته باحثا عن عمل وماوى بمفرق بورانلى- بورانى غير حاسب انه سيبقى هنا طيلة العمر .

أذهلت يديغي المساحات العظيمة ، اللامتناهية ، التى لا تكسوها الخضرة الا فترة قصيرة فى الربيع . وما اكثر السهوب والسهول التى تكتنف بحر آرال ، فلنأخذ مثلا هضبة اوستيوت العظيمة ، بيد انه لم يتفق له من قبل ان رأى مثل هذه البوادى الصحراوية . وكما ادرك فيما بعد ، لا يستطيع البقاء هنا وحيدا فى مواجهة ساروزيكى الا من كان قادرا على مقابلة هول الصحارى بقوة ارادته وعزيمته . اجل ، ان ساروزيكى لعظيمة ، لكن الفكر الحى للانسان يستوعبها ويحتويها . كان يليزاروف فطنا ذا حكمة فقد تهيأ له ان يشرح ويفسر ذلك الأمر الخفى الذى كان يعتمل فى الهواجس الغامضة داخل النفس .

ومن الذى يدرى ما سيشعر به يديغي واوق بالا على قدر توغلهما فى عمق ساروزيكى عدا قازانغاب الذى كان يتخطى الى الامام قائدا زمام البعير .

كان يديغي راكبا بعيره بين احمال شتى . بالطبع ، كان يفترض ان تكون اوق بالا هى الراكبة لا هو وان يكون هو الراجل لانها امراة وهو رجل . لكن قازانغاب ، واوق بالا على وجه الخصوص ألحا عليه بالرجاء والى حد الحمل والارغام تقريبا لكى يعتلى يديغي ظهر البعير قائلين : «نحن من الناس الاصحاء ، بينما عليك انت ان تصون قواك فلا تناقش ولا تؤخرنا . ان الطريق طويلة جدا . . .» كان البعير لا يزال صغير السن ، وضعيفا امام الاحمال الكبيرة . ولهذا كان اثنان يسيران بجانبه والثالث يمتطيه . لو كان هذا هو بعير يديغي الحالى لأمكن ان يعتلى ظهره ثلاثتهم ، ولكانوا وصلوا الى المكان أسرع بكثير ،

ربما بثلاث ساعات ونصف ساعة او بأربع ساعات . . . بينما لم يبلغوا حينذاك بورانلى-بورانى الا فى ساعة متأخرة من الليل .

غير ان ذلك الطريق انقضى دون احساس منهم بطوله نظرا لما دار بينهم من الاحاديث والتطلع الى الاماكن غير المألوفة . كان قازانغاب يتحدث فى الطريق عن شؤون الحياة والمعيشة ، وعن كيفية مجيئه الى منطقة ساروزيكى والى العمل فى السكك الحديد بالذات . واتضح انه ليس كبيرا فى السن ، فى ذلك العام قبل انقضاء الحرب دخل السادسة والثلاثين من عمره . وكان ينتمى الى الكازاخيين القاطنين بالقرب من بحر آرال . وكان أوولى (قريته) بيش اغاتش يبعد بنحو ثلاثين كيلومترا على طول الشاطئ من جانغيلدى . وعلى الرغم من ان قازانغاب غادر الأوول منذ أمد بعيد ، وقد مرت سنوات طويلة على ذلك الزمن ، لكنه لم يزر أوولى حتى ولا مرة واحدة . كانت ثمة اسباب وجيهة لذلك ، على ما يظهر ، ذلك ان أباه نفي اثناء القضاء على الكولاكيين كطبقة ، ومات فى طريق عودته من منفاه بعد ان اتضح انه لم يكن كولاكا ، وراح ضحية المغالاة فى أمره . ودون جدوى ، بل اذا اردنا الدقة على سبيل الخطأ تعرض هذا الفلاح ذو الدخل المتوسط الى مثل هذه المعاملة القاسية . ثم اعلنت براءته لكن بعد فوات الاوان ، بعد ان تشتت جميع افراد العائلة - اخوته واخواته - واختبأ كل واحد فى مكان ، تحاشيا من انظار الناس ليس الا . ومنذ ذلك الحين كأنما الارض انشقت وابتلعتهم . وكان قازانغاب آنذاك شابا والنشطاء المتحمسون يلحون عليه ان يلقى الخطب فى الاجتماعات منتقدا والده ، ومعلنا امام الناس انه يؤيد النهج بحرارة ، وان والده تعرض للمحاسبة بحق لكونه عنصرا غريبا وانه يتبرأ من اب كهذا ، ولا مكان للاعداء الطبقيين على الارض ، وينبغى ان يقضى عليهم فى كل مكان .

واضطر قازانغاب ان يرتحل الى منطقة نائية جدا لكى يتجنب ذلك العار . وعمل ست سنوات كاملة فى بيتباك-داليه فى سهوب وادى الجرع بضواحى سمرقند . وتلك الاراضى لم تمسها يد الانسان منذ قرون ، وكان استصلاحها قد بدأ آنذاك لزراعتها قطنا . وكان يشعر بمسيس الحاجة الى الناس . عاش الناس

هناك فى اكشاك خشبية مؤقتة وكان مطلوبا حفر القنوات . وعمل كازانغاب حفارا للارض ، وسائقا للتراكتور ، ورئيس فريق ، ومنح شهادة تقدير على عمله الجيد . وهناك تزوج . وكان الناس فى ذلك الزمن يسعون الى سهوب وادى الجوع من جميع ارجاء البلاد طمعا بالمرتب العالى . وجاءت بوكيه القراقلباقية من ضواحى مدينة حيوى مع عائلة اخيها للعمل فى بيتباك-داليه . ويبدو انه كان مكتوبا على الجبين ان يلتقيا . وتزوجا فى بيتباك-داليه وقررا ان يعودا الى مسقط رأس قازانغاب ، الى بحر آرال ، الى اهله وذويه ، الى ارضه ودياره . لكنهما لم يقلبا المسألة على كافة جوانبها . سافرا فترة طويلة منتقلين من قطار الى قطار ولما بقيت تحويلة واحدة فقط ، التقى قازانغاب فى قمبيل صدفة ابناء منطقته القادمين من آرال ، وفهم من احاديثهم انه لا ينبغى له ان يرجع الى بيش اغاتش . يبدو ان هؤلاء الرؤساء الذين اخطأوا فى تصرفاتهم كانوا لا يزالون يديرون دفة الامور ، وطالما ظل الأمر يجرى على هذا المنوال عدل قازانغاب عن فكرة العودة الى أوولد . ليس لانه كان يتوجس خيفة من شىء ، فانه يحمل الآن شهادة تقدير على حسن عمله من اوزبكستان . وانما لكونه لم يشأ ان يرى الناس الذين كانوا وقتذاك يزدرون به ممتلئين حقدا عليه وحتى الآن لم ينزل بهم الجزاء المستحق والقصاص العادل . وكيف كان يستطيع بعد هذا كله ان يسلم عليهم بطيبة خاطر ويتظاهر بالدعة وكان شيئا لم يكن ! لم يكن قازانغاب يحب ان يتذكر ذلك ، ولم يدرك ان الجميع ، ما عداه ، قد اقلعوا منذ امد بعيد عن التفكير بما جرى فى ذلك الوقت ، بعد تعاقب سنوات طويلة على انتقاله الى ساروزيكى لم يشعر الآخرون الا مرتين بانه لا يعرف للغفران معنى . فى المرة الاولى عندما كدره ابنه وعكر عليه صفوه ، وفى المرة الثانية حين مازحه يديغي مزاحا طائشا .

فى احدى زيارات ثابت جان كانوا جميعهم يتحلقون حول صينية الشاى ، يتبادلون الاحاديث ، ويسمعون اخبار المدينة . وبينما كان ثابت جان يتحدث فى شأن من الشؤون ضحك ساخرا من اولئك القزاخيين والقرغيزيين الذين هاجروا ابان سنوات

الكلخزة الى سينتزيان وهم يعودون الآن ، لأن الصين ضمتهم الى الكومونات ، ومنع عليهم الاكل فى البيت ، ولم يسمح لهم يتناول الطعام الا من القدر العمومى ثلاث وجبات فى اليوم ، فيلف صغارهم وكبارهم فى الطابور حاملين قصعاتهم . لقد الفهم الصينيون حجرا وساموهم سوء العذاب مما جعلهم يهربون من هناك كالمسموطين تاركين ممتلكاتهم كلها ، يقبلون الايدى والارجل طالبين اخلاء سبيلهم والسماح لهم بالعودة .

– وما هو المضحك فى هذا ؟ – تكدر قازانغاب وارتعشت شفتاه من الغضب . ونادرا ما كان يحدث معه هذا ، وايضا من النادر ان لم يحدث قط ان يتحدث بمثل هذه اللهجة مع ابنه الذى احبه وعلمه ولم يرد له طلبا يقينا منه بانه – اى ولده – سيشق طريقه فى الحياة كانسان ذى شأن – لماذا تسخر من هؤلاء ؟ – اضاف بصوت خفيض وقد ازداد توتره من الدفاع الدم الى راسه . – هذه مأساة انسانية .

– كيف تريدنى ان أعبر ؟ يا للغرابة ! – عارضه ثابت جان – اننى اذكر الواقع .

لاذ الوالد بالصمت ، وابعد قدح الشاى عن نفسه منزعجا . وبات صمته ثقيلا لا يحتمل .

– وعلى العموم ، ممن تشعر بالاستياء ؟ – قال ثابت جان مستغربا ، هازا كتفيه – اننى لا افهم . اكرر مرة اخرى – ممن تستاء ؟ من الوقت ؟ انه قد فات ولا يمكن ادراكه وارجاعه . من السلطة ؟ لا يحق لك ذلك .

– يا ثابت جان ، ان قضيتى تخصنى ، وهى شأنى وبوسعى ، ولست اتدخل فى القضايا الاخرى . لكن تذكر يا بنى ، فانى تصورت انك قد ادركت هذا بنفسك ، تذكر اذن ، ان الله وحده لا تظن به الظنون وهو فوق الشك والتهم فاذا اخذ روح الانسان فهذا معناه ان حياته قد بلغت منتهاها ، وقد ولد لكى يموت . اما التصرفات الاخرى على الارض فينبغى ان يسأل عنها ويحاسب عليها – ونهض قازانغاب وخرج من البيت مستعضا ، غاضبا بصمت دون ان ينظر الى احد ، وخرج الى حيث لا يدرى احد . . .

وفى المرة الثانية ، وكانت هذه بعد سنوات عديدة من ذلك

اللقاء فى قمبيل ، عندما استقروا فى بورانلى-بورانى ، واعتادوها وانجبوا اطفالا ترعرعوا وكبروا ، وكان ذلك عشية الربيع بعد ان ساق يديغي الماشية الى الزريبة قال له مازحا وهو يتطلع الى الاغنام المتكاثرة شياها وخرافا :

– غدونا اثرياء يا قازانغاب . وحان وقت انتزاع ملكيتنا الكولاكية من جديد !

رماه قازانغاب بنظرة شزراء ، حتى لقد قف شارباه :

– لا تهرف بما لا تعرف .

– ماذا دهاك ، الا تفهم المزاح ؟

– هذا الموضوع ليس موضع مزاح .

– كفاك تاثرا يا قازانغاب . لقد مضى قرن كامل .

– تلك هى المسالة . اذا اخذوا ممتلكاتك ، لن تهلك ، بل تبقى حيا . ولكن عندما يدوس الناس على مشاعرك ، لن تغفر لهم مطلقا . . .

ولكن فى ذلك اليوم ، حين اجتازوا ساروزيكى من قمبيل الى بورانلى – بورانى ، كانوا بعيدين جدا عن التطرق الى امثال هذه المواضيع . ولم يكن احد ليعرف ماذا ستكون حصيلة سفرتهم الى مفرق بورانلى – بورانى وكيف ، وعما اذا كانوا سوف يستطيعون الصمود هناك طويلا وهل سيتاقلمون ام سوف يعاودون ترحلهم فى هذا العالم . دار الحديث عن الحياة والعيش ، واثناء الاحاديث استفسر يديغي من قازانغاب عن سر صرف النظر عن ارساله الى الجبهة ام ان داءا ما اعاقه ؟

– لا والحمد لله أنا صحيح الجسم معافى البدن – اجاب قازانغاب – لم اكن اعانى من اية امراض ، ولكنت قاتلت ، على ما اعتقد ، ليس اسوأ من الاخرين . لكن حادثا ما قلب الأمور راسا على عقب . . .

بعد امتناع قازانغاب عن العودة الى بيش اغاتش توقف فى محطة قمبيل ، وهو لا يرى مكانا يلجأ اليه . ايرجع أدراجه الى سهوب وادى الجوع ؟ انها نائية جدا ، ثم ما الذى استوجب يومذاك ترك هذه المنطقة . وغيرا فكرتهما فى العودة الى آرال من جديد . وكان مدير المحطة طيب القلب والنفس ، فقد لاحظ هذين الزوجين المتوادين وسالهما من اين جاءا وماذا يريدان ان

يعملا ثم ارسلهما فى قطار حمولة عابر لينزلا فى مفرق بورانلى – بورانى وقال انهم هناك محتاجون الى الناس للعمل ، وانتما زوجان مناسبان ، وكتب رسالة الى مدير المفرق ولم يكن على خطا . فمهما بدا هذا المفرق مقفرا بالقياس الى سهوب وادى الجوع – فقد كانت السهوب تكتظ بالناس وتموج بالعمل – ومهما كانت الحياة مفزعة فى ساروزيكى القاحلة فانهما قد ألفاها بعض الشىء وتكيفا لها ومعها وشرعا يعيشان فيها . الفاقة سيئة لكنهما مستقلان . عين كلاهما عامل صيانة للسكك الحديد ، علما بانهما كانا يضطران لتادية كل الاعمال التى كان يتطلب القيام بها فى المفرق . هكذا ، فى الواقع ، شرعت حياتهما المشتركة حياة قازانغاب وزوجته الشابة فى مفرق بورانلى – بورانى بساروزيكى القفراء . صحيح انهما فى تلك السنوات ، وبعد ان جمعا بعض المال ، فكرا فى الانتقال الى مكان آخر ، أى مكان ، اقرب الى المحطة او الى المدينة ، لكن ريثما كانا يستعدان لذلك نشبت الحرب .

وراحت قوافل القطارات المكتظة بالجنود تغادر عبر بورانلى – بورانى صوب الغرب ، مزدحمة بالمجليين صوب الشرق ، وحاملة وناقلة غلال الحبوب الى الغرب والجرحى نحو الشرق . وغدا المرء يتحسس فى مثل هذه المفرق الصغير الثانى بورانلى-بورانى تغير الحياة تغيرا حادا . . .

وكانت القاطرات تصفر واحدة أثر الاخرى ، مطالبة بفتح السيمافور بينما كانت تقابلها صفارات مثلها . . . ولم تتحمل العوارض ثقل النقليات ، فالتوت ، وتحطمت قبل الاوان ، وتشوهت تحت عبء العربات الملأى حتى آخرها . ولا يكادون ينتهون من تبديل القضبان فى موضع ، حتى يستدعى الأمر تصليحها بسرعة فى موضع آخر . . .

وسارت القطارات بلا انقضاء ولا انتهاء . ولا احد يدرى من اين تجمع هؤلاء العساكر الذين لا عد لهم ولا حصر . قافلة وراء قافلة تاتى وتغادر من والى الجبهة ليل نهار اسابيع واشهرا ، ثم سنوات وسنوات ، وكلها الى الغرب ، الى هناك حيث يتواجه عالمان . . .

بعد مضى فترة قصيرة جاء دور قازانغاب ايضا . فاستدعى

الى الحرب . وارسل له تبليغ من قمبيل : الحضور فى مركز التجنيد . شد مدير المفرق رأسه بيديه يأسا وراح يئن – لقد اخذوا احسن عامل صيانة ، وهم معدودون بالاصابع ، فى بورانلى – بورانى . ولكن ماذا فى وسعه ان يفعل ، ومن يعيره اذنا صاغية وهو يقدر ان قابلية التمرير فى المفرق ليست مطاطية . . . القطارات تزأر عند السيمافورات . . . ولسوف يضحكون منه ان قال انه يحتاج وبسرعة الى خط اضافى آخر . من الذى يعير هذا اهتمامه ، سيما وان العدو متخندق فى ضواحى موسكو . . .

طرق الابواب اول شتاء من الحرب . وهو شتاء مبكر قصير النهارات ، حالك الليالى ، قارس البرد . وفى عشية ذلك الصباح سقط الثلج ، ولم يقلع فى الليل ايضا . اول الامر تساقط خفيفا شحيحا ثم كثيفا غزيرا مواظبا . وفى صمت ساروزيكى المهيب تواصل سقوط الثلج على السهول والهضاب والوهاد مفترشا اياها برداء ناصع البياض . وتحركت مباشرة رياح ساروزيكية متلاعبة بقشرة الثلج المتجمدة غير المتلبدة بعد . وكانت تلك الرياح تمهيدية لا تلبث ان تعصف وتهيج وتحدث الزوابع . فماذا سيحل ، يا ترى ، بهذا الخيط الدقيق من قضبان الحديد التى تقطع اواسط البرارى الصفر الكبرى من اقصاها الى اقصاها كعروق الصدغ ؟ وكان هذا العرق الحديدى ينبض ، والقطارات تروح وتغدو فى الاتجاهين . . .

فى ذلك الصباح غادر قازانغاب قاصدا الجبهة . غادر وحيدا وبلا اية مراسيم توديع . عندما خرج من البيت برفقة زوجته بوكيه ، توقفت هى ، وقالت ان رأسها بدأ يدور من الثلج . تناول قازانغاب الوليد المقمط من يديها – كانت آى‌زاده ، فى ذلك الوقت ، حديثة الولادة – وسارا بجانب بعضهما البعض تاركين اثار اقدامهما على الثلج ربما لن يتكرر هذا المشهد بعد هذا . لكن ليست زوجته هى التى ودعته ، بل هو ، فى آخر الأمر قادها حتى كشك التحويل قبيل ان يستقل قطار حمولة عابرا حتى قمبيل . وحلت بوكيه محل زوجها لتشتغل عاملة تحويل . فى هذا الكشك توادعا . وقد قيل كل ما لزم قوله ، وذرفت الدموع على ما كان يلزم ان تذرف عليه فى الليل

الفائت . كانت القاطرة واقفة تحت غيوم من البخار . وكان سائقها على عجلة من أمره . ينادى قازانغاب ويدعوه . فما ان استجاب له قازانغاب الا وصفرت القاطرة صفيرا طويلا وتحركت بسرعة ، وكانت بوكيه تراه من كشك التحويل ، حيث فتحت الطريق للقطار ، معصوبة الرأس ، ومتحزمة ، ومحتذية جزمة رجالية ، ترفع فى احدى يديها الشارة وتمسك بالاخرى طفلتها . ولوح احدهما للآخر للمرة الاخيرة . . . وافترقا بسرعة : اختفى وجهها اولا ، فنظرتها ، فيدها فالسيمافور . . .

وفى تلك الاثناء انطلق القطار باقصى سرعته ، صاما بدويه الاذان عبر ساروزيكى المكسوة بالثلج والمشمولة بالصمت ، والمترامية الاطراف مثل حلم ابيض . هبت الريح على القطار مضافة الى رائحة الفحم المحترق القوية فى فرن القاطرة العبق الطرى للثلج السهبى الازلى . . . حاول قازانغاب ان يستنشق ملء رئتيه هذا الاريج الشتوى للاماد الساروزيكية ، اذ انه كان يدرك ان فراق هذه الارض لن يهون على نفسه . . . كان المجندون يرسلون الى الجبهة من قمبيل ، فينتظمون فى صفوف ثم يدعون بالاسماء فردا فردا ، ويوزعون على العربات . وهنا ، فى هذه الاثناء وقعت حادثة غريبة . عندما تقدم قازانغاب مع رتله للصعود الى العربة لحقه احد العاملين فى لجنة التجنيد :

– حسن بايف قازانغاب ! من منكم حسن بايف ؟ اخرج من الصف واتبعنى .

واطاعه قازانغاب .

– انا حسن بايف !

– وثائقك ! . . صحيح ، هو نفسه . اما الآن فامض خلفى .

وعادا ادراجهما الى المحطة ، حيث كان يقع مركز التجميع وقال له ذلك الرجل :

– انت يا قازانغاب ارجع الى بيتك . هل فهمت ؟

– فهمت – اجاب قازانغاب مع انه لم يفهم شيئا .

– اذن فاذهب . ولا تتدافع هنا . انت حر .

لبث قازانغاب بين حشد المودعين والمسافرين الهادر ذاهلا ايما ذهول . حتى انه اول الامر سر بهذا التغير المفاجئ ، ثم

فجاة احس بحرارة لا تطاق من التخمينات التى خطرت فى اعماق وعيه . اخ ، الآن فهمت ! وحاول ان يشق طريقه عبر الزحام صوب باب غرفة مدير مركز التجميع .

– الى اين ، لماذا تتدافع ؟ – صرخ اولئك الذين ارادوا مراجعة المدير .

– عندى قضية مستعجلة ! القافلة تغادر ، قضية مستعجلة !

وتمكن من بلوغ الباب .

فى غرفة تعج بدخان السيكاير حتى العتمة ، وبين اجهزة الهاتف والاوراق ، وعدد من الرجال الكهل المحتشدين ، رفع رجل ابح الصوت وجهه المعوج من الطاولة حين حشر قازانغاب نفسه امامه .

– من انت ، وماذا تريد ؟

– انا غير موافق .

– على ماذا ؟

– لقد برئت ساحة والدى الذى وقع ضحية المغالاة ولم يكن كولاكا ! تاكد من الاوراق التى عندك ! لقد برئ من التهمة لكونه فلاحا متوسط الحال .

– مهلا ، على مهلك ماذا تريد ؟

– اذا كان عدم سوقكم لي يعود الى هذا السبب ، فليس بصحيح .

– اسمع ، لا تهذر بالحماقات . كولاك ، متوسط الحال . . . من الذى يعنيه هذا الآن ! من اين اتيت ؟ من انت ؟

– انا حسن بايف من مفرق بورانلى – بورانى .

ومضى المدير يعاين القوائم .

– قل هكذا من الاول . لقد جئت تصدع راسى . متوسط ، فقير ، كولاك ! انت مؤجل ! دعيت سهوا . هناك امر الرفيق ستالين نفسه بعدم سوق شغيلة السكك الحديد . كلهم يبقون فى اماكن عملهم . هيا لا تعرقل عملنا . اذهب الى نقطتك وواصل شغلك . . .

داهمهم الغروب فى الطريق ، على مقربة من بورانلى – بورانى . وانشاوا يقتربون من السكة الحديد مجددا ، وراح صفير القطارات المقتربة من هذه الجهة او تلك يسمع جيدا ، وكان فى وسع المرء تمييز قوام العربات . وكانت تبدو فى سماروزيكى من بعيد صغيرة جدا . والشمس الآيلة الى الغروب وراءهم كانت تضيئ وتظلل الوهاد الجراء والتلال المحيطة بها . وكانت تظهر على الارض فى الوقت نفسه عتمة خفيفة ، تزداد قتامة بالتدريج مفعمة الهواء وزرقة السماء برائحة الارض الربيعية المتبردة التى لا تزال تحتفظ ببقية من رطوبة الشتاء .

– ها هو مفرقنا بورانلى ! – اشار قازانغاب بيده مستديرا نحو يديغي الراكب على ظهر البعير واوق بالا تحث الخطى الى جانبه – لم يبق الا القليل . سنصل قريبا ان شاء الله . وتستريحان .

كان ثمة بضعة بيوت فى الامام على رقعة صحراوية منبسطة ، حيث تنعطف سكة الحديد انعطافة غير حادة بينما كان واقفا على السكة الاحتياطية قطار عابر ينتظر انفتاح السيمافور . وعدا ذلك كانت تمتد فى كل الاتجاهات مساحات من الارض الجرداء وهضاب معتدلة الانحدار : انها ارجاء خرساء لانهاية لها من البرارى القفراء وانتاب يديغي الهلع فلم يستوعب ، وهو من سكان السهول الساحلية لبحر آرال وراعه هذا الانتقال من البحر الازرق المتموج الذى ترعرع على شواطئه الى الصحراء القاحلة الجرداء . كيف سيعيش هنا ؟ !

مدت اوق بالا التى كانت تسير الى جانبه يدها وامسكت برجل يديغي ، ومشت قاطعة عدة خطوات دون ان ترفع يدها عنه . فادرك هو انها تريد ان تقول له : «المهم ان تستعيد صحتك . ثم سنعيش ونرى . . .»

هكذا دنوا من المكان الذى كتب عليهما كما اتضح فيما بعد ان يمضيا فيه سنوات مديدة وعديدة ، هى كل البقية الباقية من حياتهما .

بعد قليل غربت الشمس ، وواصلوا فى الظلام طريقهم الى

بورانلي – بورانى ، حين تلألأت فى سماء ساروزيكى مجموعة لا تحصى من النجوم بوضوح وجلاء .

عاشا لعدة ايام فى بيت قازانغاب . ثم فى بيت مستقل . اذ استلما غرفة فى بيت خشبى مؤقت اقيم خصيصا لعمال الصيانة . ومن ذلك اليوم بدأت حياتهما فى المكان الجديد .

رغم كل المشاق والمصاعب ، ولا سيما فى السنوات الاولى ، افاد يديغي فى ساروزيكى المقفرة من شيئين : الهواء وحليب النوق . كان الهواء صافيا رائقا ، اذ من الصعب العثور على مثل هذه البرارى العذراء ، اما الحليب فقد وفره قازانغاب ، اذ سمح لهما بحلب احدى ناقتيه ، قائلا :

– لقد تبادلنا المشورة انا وزوجتى ، وتوصلنا الى القناعة بان حليب ناقتى يكفينا ، امـا الاخرى ، ذات الراس الابيض ، فاحلباها انتما . فهى ناقة شابة حلوب ومدرار ، فهذه ستكون ولادتها الثانية . اعتنيا بها بنفسيكما واستفيدا منها . ولكـن احذرا لئلا يهلك حوارها جوعا . وهو لكما . فقد قررنا انـا وزوجتى ان نقدمه هدية اليكما . تقبله يا يديغي منى لتربيه كبداية . فاذا ما صنته ربطت ذودا من الابل حوله . واذا فكرت بالرحيل من هنا بعته ووفرت مالا .

كان حوار الناقة ذات الراس الابيض اسود الراس ، ضئيل الجسم بسنامين صغيرين قاتمين ، وقـد ولد قبل عشرة ايام فقط . لكنه ذو عينين واسعتين مؤثرتين . كانت عيناه كبيرتين جاحظتين ورطيبتين تشعان بحنان وفضول طفوليين . احيانا كان يشرع بالركض بصورة مضحكة فيتقافز ويلعب بمرح بالقرب من امه ويناديها عندما يبقى فى الزريبـة بصوت ينضح بالشكوى اقرب ما يكون الى صوت الانسان . من كان بامكانـه ان يتصور ان ذلك الحوار سوف يغدو قره‌نار البورانى هذا . . وهو جمل عملاق شديد البأس يذيع صيته مع الزمن ويشيع فى المنطقـة برمتها . وترتبط به ، كما سيرى فيما بعد ، احداث ووقائع جمة من حياة يديغي . وكان الحوار فى ذلك الوقـت محتاجا الى اعتناء متواصل . وتعلق به يديغي تعلقا شديدا ، اذ كان يقضى معه وقت فراغه كله . وعندما حل الشتاء كان قره‌نار الصغير قد كبر بشكل ملحوظ ومع هجمة البرد خاطوا له جلا دافئا يزرد

عند اسفل بطنه . وكان يبدو فى هذا الجل مدعاة الى الاضحاك ، اذ لم يكن يظهر من جسده الا راسه وعنقه وقوائمه والسنامان الصغيران . ومكث طيلة الشتاء وبدايـة الربيع مكتسيا هذا الرداء ، وراح يمضى اياما وليالى فى السهوب .

ومع حلول شتاء ذلك العام شعر يديغي بانه بدأ يستعيد قواه تدريجيا . ولم يلاحظ متـى اقلـع راسه عن الدوران . واختفى رويدا رويدا الضجيج المتواصل فى اذنيه وشح تعرقه اثناء العمل . اما فى اواسط الشتاء اثناء تراكن سدود الثلـج الغزير على الطريق فقد صار بامكانـه الخروج الى العمل فى الاستنفار العام سواسية مع الآخرين . ثم تقوى الى درجة انـه نسى – اذ انه كان شابا ، وكان بطبيعتـه قوى العزيمة كبير الهمة – كيف كانت صحته سيئة قبل فترة قصيرة ، وكيف كان يجرجر قدميه بالكاد . وتحققت عبارة الطبيب ذى اللحية الحمراء .

واحيانا ، فى لحظات الانشراح كان يديغي يمزح مخاطبـا الحوار ، وهو يمسد جلده ويربت عليه ويحيط رقبته بيديه :

– انا وانت اخوان بالرضاعة . انظر كيف كبـرت بحليب امك ، وانا على ما يبدو تخلصت مـن صدمتى العصبية ، وان شاء الله نهائيا . والفرق بيننـا هو انك رضعت من الضرع مباشرة اما انا فقد كنت احلب الضرع واصنع من حليبه شراب الشوبات . . .

بعد انقضاء سنوات طويلة ، بلغ قره‌نار البورانى ما بلغه من الشهرة فى ساروزيكى بحيث صار اناس يقدمون خصيصـا بغية تصوير لقطات فوتوغرافية له . وحدث هذا بعد ان وضعت الحرب اوزارها وشرع الاولاد بالدراسة ، وعندما ظهرت فـى المفرق مضخته المائية وبهذا قضى نهائيا على مشكلـة شحة الماء ونقصه . اما يديغي فقد شيد لنفسـه بيتا معدنى السقف . وبايجاز ، عندما اخذت الحياة بعد كل ما كـان فيها من الحرمان والمحن تسير ، اخيرا ، فى مجراها الطبيعى اللائـق بالانسان . عند ذاك شاع حديث ظل يديغي يتذكره طويلا فيما بعد .

كان قدوم المصورين الصحفيين ، كمـا قدموا انفسهم ، زيارة نادرة المثال ، ان لم نقل انها حادثة فريدة بل ويتيمة فى تاريخ بورانلي – بورانى . كان اولئـك المصورون الصحفيون

ثرثارين ومهذارين – وعددهم ثلاثة – لم يبخلوا بالوعود العريضة قائلين ، اننا بالطبع ، لم نأت الا لننشر فى جميع الصحف والمجلات صور قره نار البورانى وصاحبه . وضاق قره نار ذرعا بما اثير حوله من الهرج والمرج . فراح يشخر وينخر غاضبا متهيجا ، ويصدر صريفا عن انيابه ، ويشيح برأسه ويرفعه ، لكى يتركوه وشأنه مما اضطر المصورين الصحفيين القادمين الى الاستعانة باستمرار بصاحبه يديغي لكى يهدئ ثائرة البعير ، ويديره تارة كذا وتارة كيت . اما يديغي فكان فى كل مرة يدعو الاطفال والنساء وقازانغاب نفسه حتى لا يصورونه لوحده ، بل يصورون الجميع سوية معتبرا ذلك خيرا وابقى . وكان المصورون الصحفيون يوافقون على هذا عن طيبة خاطر ، ويطقطقون بمختلف الآلات واجهزة التصوير . وكانت اللقطة الاهم ، عندما ارتمى جميع الاولاد على قره‌نار البورانى ، اثنان على رقبته ، ونحو خمسة على ظهره ، وفى الوسط يديغي نفسه فى صورة كان معناها : هاكم انظروا اية قوة لهذا البعير ! وكم احدثوا انئذ من ضجيج المرح وعجيج الفرح ! لكن المصورين الصحفيين اعترفوا فيما بعد بان الاهم بالنسبة لهم كان التقاط صور الجمل وحده بلا اناس . تفضلوا ، بكل سرور !

عندئذ انشأ المصورون يلتقطون صورا لقره‌نار البورانى من جانب من الامام ، من قريب ومن بعيد ، قدر ما تمكنوا وتفننوا ، ثم راحوا يقيسون بمساعدة يديغي وقازانغاب طول العنق وعرض الصدر ، طول المعصم ، طول الجسم ، ويسجلون ويدونون كل هذه المعلومات ويقولون فى اعجاب :

– بكتريان رائع ! انظر اين تناسقت الجينات فى عملها اروع تناسق ! نمط كلاسيكى من بكتريان ! يا له من صدر ضخم واى مظهر ممتاز !

اما يديغي فسره ان يسمع ، بالطبع ، مثل هذه التعليقات وردود الفعل لكنه اضطر ان يسأل عن معنى كلمة «بكتريان» غير المفهومة بالنسبة له . واتضح انها تسمية النوع فى التصنيف العلمى لفصيلة عريقة من الجمال ذات السنامين .

– اذن هو بكتريان ؟

– ذو نقاوة نادرة . الماس .

– وماذا ستفعلون بهذه القياسات ؟

– نحتاجها كمعطيات علمية .

بصدد الصحف والمجلات ، بالطبع ، ذر القادمون الرماد فى عيون البورانليين زيادة فى الاهمية ، غير انهم بعد ستة اشهر ارسلوا طردا بريديا يحوى كتابا دراسيا مخصصا لمادة تربية الابل فى كليات تربية الحيوانات والدواجن يزين غلافه البكتريان الكلاسيكى قره‌نار البورانى ، وارسلوا كذلك عددا كبيرا من الصور بعضها ملونة . ويمكن للمرء ان يحكم حتى من الصور ان ذلك الزمن كان سعيدا وسارا . وكانت مصائب سنوات ما بعد الحرب قد انقضت ، والاطفال لم يجتازوا بعد مرحلة الصبا ، والكبار كلهم احياء واصحاء ، والشيخوخة كانت ما تزال بعيدة .

عند ذلك ذبح يديغي خروفا على شرف الضيوف واقام مأدبة كبيرة دعا اليها البورانليين جميعهم . وكانت المائدة عامرة بالشوربات والفودكا ومختلف المأكولات . وكان قد جاء الى المفرق آنذاك حانوت فى عربة قطار متحركة ، فيه كل ما تتمناه النفس . لو توفرت النقود فقط لكان فى وسع المرء ان يشترى مختلف انواع السرطانات والكافيار الاسود والاحمر والاسماك باصنافها والكونياك والسجق والحلويات وغيرها الكثير . ومن الغريب انه عندما يتوفر كل شىء لا يقبل الناس على الشراء بكثرة . لماذا عليهم ان يشتروا ما يزيد عن اللزوم ؟ لقد اختفى هذا الحانوت المتحرك منذ زمن ولم يعد له وجود . . .

وجلسوا يومذاك حول المائدة واحتسوا الخمر حتى فى صحة قره‌نار البورانى . وتبين من خلال الاحاديث ان الضيوف سمعوا عن قره‌نار من يليزاروف . وقد اخبرهم ان صديقه يديغي البورانى ، يعيش فى ساروزيكى وهو صاحب اجمل بعير فى العالم : قره‌نار البورانى ! آه يا يليزاروف ! انه رجل رائع ، خبير بساروزيكى ، وعالم . . . حين زار يليزاروف بورانلى – بورانى ، جلسوا ثلاثتهم ، يليزاروف ، وقازانغاب وهو ، وتجاذبوا اطراف الحديث ليالى بطولها . . .

وراحا يتحدثان الى الضيوف بالتتابع ، تارة قازانغاب واخرى يديغي ، مواصلين كلام احدهم الآخر او مضيفين اليه ، يسردان اساطير ساروزيكى وتاريخ الناقة الأم الاصلية لفصيلة الجمال

فيها ، وهى الناقـــة المشهورة اكمـــاى ذات الراس الابيض وصاحبتها نايمان – آنا التى لم تكن اقل شهرة منها والتى تثوى رفاتها فى مقبرة آنا-بابيت ويعود اصل قره‌نار البورانى الى تلك الناقة ! وكان البورانليون يأملون من الضيوف ان ينشروا فـى الجريدة ، شيئا عن هذه القصة القديمة . ولقد اصغى اليهـــم الضيوف جيدا ، وباهتمام ، لكنهم تصوروا ان هذه القصة قـــد تكون اسطورة محلية ، تناقلتها الألسنـــة والافواه من جيل الى جيل . لكن يليزاروف كانت لديه وجهة نظر اخرى انه كان يعتبر ان اسطورة اكماى ، فى وسعها ان تعبر تعبيرا كاملا عما كان ، كما كان يقول ، فى ذلك الواقـــع التاريخى . وكان يحب سماع مثل هذه الاشياء ، وهو بنفسه ايضا كان يعرف الى حد مـــا اساطير من الماضى العريق . . .

عند المساء ودعوا الضيوف . وكان يديغي راضيا وفخورا . ولهذا قال دون تفكير ، طبعـــا لانه شرب قليلا مع الضيوف . لكن قد قيل ذلك ان حقا وان كذبا :

– اعترف يا قازانغاب ، الســـت متأسفا على اهدائك قره نار لي وهو حوار ؟

رماه قازانغاب بنظرة ساخرة . وعلى ما يبدو فانه لم يكن يتوقع منه هذا السؤال . وبعد صمت قصير اجاب :

– بالطبع ، كلنا بشر . ولكنك تعرف : ثمة قانون متبـــع منذ عهود الاسلاف يقول ان «مال يوسى خودا يخان» * . هو عمل من الله . هكذا كتب . ينبغى ان يكـون قره‌نار ملكك وانت بالذات صاحبه . ولو افترضنا انه وقع فى يـد اخرى لما كان يدرى احد كيف كان سيكون . ولربما لما عاش ونفق او اوقـع له ما لا يتوقعه احد من وقائع . لكان قد سقط من جرف . انه يجب ان يكون ملكك . لقد كانت عندى قبله ابل وكانت جيدة ، ومن الانثى نفسها . من الناقة ذات الراس الابيض التى ولدت قره‌نار . وبينما كان هذا جملك الوحيـد ، الموهوب . . . ان شاء الله سيخدمك مائه سنة . لكن رايك هذا ليس بسديد . . .

– اعذرنى ، اعذرنى يـــا قازانغاب – قال يديغي خجلا .

---

* مالك الماشية أمر من الله وبمشيئته . **الناشر** .

واسف على فلتة اللسان هذه . وحين واصـــلا حديثهما شاطره قازانغاب مشاهداته . وفق الاساطير انجبت الانثى الذهبية اكماى سبعة من الصغار هم اربع نوق وثلاثة جمال . ومنذ ذلك الحين تولد جميع النوق شقراوات بيضاوات الرؤوس ، بينما الجمال ذوو الوان لوزية غامقة . ولهذا ولد قره‌نار على هذه الشاكلة فهو اسود من ناقة بيضاء الراس . وهذه اشارة اولى على كون اصله من اكماى . ومنذ تلك الازمان الغابرة فى ساروزيكى لم تنقرض فصيلة الجمال من اصل اكماى واستمرت على مدى زمن طويل ، ولا احـــد يعرف كم يبلغ من السنيـــن أهو مائتان ، ثلاثمائة ، خمسمائة او اكثر . وها قد ظهـــر فجأة مثل هذا البعير – سرتان * كقره‌نار البورانى . اما يديغي فقد اسعده الحظ بكل بساطة ، ولحســـن حظه ولد قره نار ووقع بيـــن يديه . . .

وعندما جاء الوقت الذى ينبغى فيه اتخاذ قرار ما بشـــان قره‌نار : اما اخصاؤه او حفظه معقولا لانه اخذ يعربد ايما عربدة . ولا يسمح للناس بالاقتراب منـــه ، فيتراكض ويختفى حيث لا يدرى احد عدة ايام ، قال قازانغاب مباشرة ليديغي حين لجأ هذا الاخير اليه طلبا للمشورة :

– هذا شأنك . اذا اردت ان تعيش مطمئن البال فعليـــك ان تخصيه . واذا اردت بالشهرة فاتركه على حاله ، ولكنـــك عندئذ سوف تتحمل كل المسؤولية ، فيما اذا حدث شيء . وان وجدت فى نفسك ما يكفى من القوة والصبـــر فانتظر سينتفض قرابة ثلاث سنوات ثم سيسير وراءك طائعا .

وهكذا ترك يديغي البورانى قره‌نار دون ان يمسه . اذ ان يديه لم تطاوعانه . فابقاه حرا طليقا ، لكن صادفته اوقات كان يعض فيها بنان الندم . . .

---

* ما فوق المخلوق ، على سبيل المثال ما فوق الكلب ، ما فوق الذئب . **الناشر** .

الفصـــل الخامس

كانت القطارات فى هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق .

وعلى جانبى خط سكة الحديد كانت تمتد مساحات شاسعة من الاراضى الصحراويـــة – سارى اوزيكـــى ، الاراضى الوسطى من البرارى الصفراء . . .

وفى هذه الانحاء كانت المسافات تقاس نسبـــة الى خط السكك وكانه خط غرينيتش . . .

اما القطارات فواصلت سيرها من الشرق الى الغرب ومـــن الغرب الى الشرق . . .

فى الصباح الباكـر كان كل شىء جاهزا . لف جثمـان قـازانغاب المكفن بلباد سميك مشدود بشريط من صـوف ، ووضع فى عربة ملحقة بالجرار ، وقد فرشت ارضيتها مسبقـا بالنشارة وبطبقة من القش النظيف . كـــان ينبغى الا يتأخروا كثيرا فى الخروج لكى يفلحوا فى العودة من المقبرة مساء قبـل الساعة الخامسة او السادسة . ذلك انهم يجب ان يقطعوا ثلاثين كيلومترا ذهابا والمسافة نفسها ايابا ، اضافـة الى الوقت الذى سيستغرقه الدفن وعلى هذا الاساس توجب اقامـة طعام الجنازة فى حدود الساعة السادسة مساء . وسافروا وفق هذه الحسابات حتى يتمكنوا من حضور عشاء الماتم . كان كل شىء على اهبـة الاستعداد . وشرع يديغي البورانى يستعجل الناس ماسكا بزمام قره‌نار المرحل والمجلل منذ امس . انهم دائما بطيئون ، بينما هو ، وان لم يغمض له جفن طول الليل ، فقد كان يبدو منتظم الحركات ، مركز الانتباه ، على الرغم من تضمر وجهه . ارتدى يديغي ذو الشاربين والحاجبين الرماديين والحليق حلاقة ملساء ، اجمل ملابسه : جزمتين من جلد الكروم وسروالا من القطيفـة معبعبا سروال الخيالة ، وسترة سوداء فـــوق قميص ابيض ، وسدارة عمال السكك الحديد التى تعتمر فى ايام العطل عادة . وكانت تلمع على صدره اوسمة وميداليات حربية ، وحتى شارات

الشغيل الطليعى للخطة الخمسية . وقد ناسبه هذا كله ومنحه وقارا وهيبة . على الارجح كان لا بد ان يظهر يديغي البورانـى بهذا المظهر فى تشييع قازانغاب .

حضر التشييع البورانليون جميعهم ، بصغارهم وكبارهم . فاحتشدوا عند العربة فى انتظار انطلاقها . وبكت النساء فـــى عويل متواصل ونحيب . وخاطب يديغي البورانليين المجتمعين من تلقاء نفسه مرتجلا :

– نتوجه الآن الى آنا – باييت ، الى المقبرة الأعرق والاكثر اجلالا فى ساروزيكى . والمرحوم قازانغاب يستحـق هذا كله . لقد اوصى هو نفسه ان يودع فيها جثمانـــه . – فكر يديغي لحظة فيما عليه ان يقول ، ثم استطرد : – انتهى الماء والملـح المقدرات له فى سلالته . لقد عمل هذا الانسان فى مفرقنـــا اربعة واربعين عاما بالتمام والكمـــال ونستطيع ان نقول طول حياتـــه . حين بدا المـــرحوم قازانغـــاب العمـل هنا لم يكن يتـوفر شىء مـــن مستلزمـــات الحياة فيها ، حتـــى مضخة الماء كانت لا اثر لها . وكان الماء يجلب الى المفرق فى صهاريج مرة فى الاسبوع . ولـم تتوفر آنذاك منظفات الثلج وغيرها من المكائن المستخدمة حاليا . كما لم يكن ثمة من وجود لمثل هذا التراكتور الذى نحمله فيه للدفن . لكن ، مع ذلك ، لم يتوقف سير القطارات وكانت الطريق امامها مفتوحة دائما . كان قازانغاب وفيا فى عمله طول حياته فى بورانلى – بورانى ، وادى خدمته باخلاص . كان انسانا طيبا ، وانتم جميعا تعرفون ذلك . وهلم بنا فلنتحرك الآن . ولا داعى لذهاب الجميع لانه اولا ليست لدينا وسائط نقل كافية ، وثانيا لا يحق لنا ان نترك السكة دون احد ، سنذهب ستتنا الى المقبرة ونقوم بكل ما ينبغى القيام به كما يليق . اما اثنتن ، ايتها النسوة ، فانتظرن هنـا وتهيأن ، ولتجتمعن جميعـــا مع موعد عودتنا لعشاء الماتم . وادعوكم جميعا باسم ولديه ، وهما هما : ابنه وابنته . . .

ونتج عن ذلك ، دون تفكير مسبق من يديغي ، مـا يشبه الحفل التأبينى المختصر . وسار بورانليون قليلا وراء النعش ، وتبعتهم بورانليات ثم مكثن متجمعات خلف البيوت . وبات يسمع

نحيب لبعض الوقـــت . وذلك النحيب كـــان نحيب آى‌زاده واوق بالا . . .

حين تلاشت الاصوات ، واخذ الرجال الستة يبتعدون اكثر فاكثر عن السكة الحديد ويتوغلون عميقا فى ساروزيكى تنفس يديغي البورانى الصعداء . انهم الآن وحدهم ، وهو يعرف ماذا عليه ان يفعل .

ارتفعت الشمس عاليا فوق الارض غامرة المراتع الساروزيكية بالضوء . ومع ان الطقس كان لا يزال باردا فى السهوب ، فانه لم يكن ثمة من عارض خارجى يعوق سيرهـم . اذ كانت السماء صافية صاحية وخالية الا من حداتين تحلقـان عاليا كالمعتاد ، وبعض القبرات التى تطير من تحت الاقدام احيانـــا وتزقزق مضطربة خافقة بأجنحتها . «ستهاجر قريبـا . مع سقوط اول ثلج ، تجتمع اسرابا وتهاجر» . قال يديغي فى نفسه متصورا للحظة الثلـــج المتساقط والطيور المهاجرة فى تلك الغشاوة الثلجية . ولا يدرى لماذا تذكر من جديد ذلك الثعلب الذى ركض فى الليل صوب السكة الحديد . وحتى انه تلفت خلسة فيمـا حواليه لعله يراه متعقبا اثره . وفكر مرة اخرى بالصاروخ النارى الذى انطلق الليلة فى ساروزيكى نحو الفضاء ، لكنه ارغم نفسه ان ينسى ذلك رغم ذهوله من افكاره الغريبة هذه . ليس الآن وقت هذه الافكار وان كانت الطريق طويلة . . .

سار يديغي البورانى فى المقدمة معتليا قره نار وهو يدل على اتجاه الطريق المؤدية الى آنا – باييت ، وقره نار يخطو تحته خطوات واسعة متعودا اكثر فاكثر لايقاع الطريق . وكان هذا الجمل يبدو للخبير بشئون الابل متناسقـا فـى حركته اقصى تناسق ، ورشيقا ، فراسه الشامخ المرتكز على الرقبة المقوسة يبدو وكأنه يسبح فوق الامواج دون ان يأتى بحراك تقريبا . اما قوائمه الطويلة الطنباء فكانت تشق الريح وتذرع الارض بخطوات لا تكل . وجلس يديغي بين سنامية جلسة ثابتة ومريحة وواثقة ، راضيا من ان قره نار لا يستدعى الحث ، ويسير بخفة ودقة منفذا توجيهات صاحبه . وكانت الاوسمة والمداليات على صدر يديغي ترن رنينا خافتا اثنـاء السير وتلمع تحت اشعة الشمس ، بيد ان هذا الامر لم يكن يزعجه .

اعقب يديغي الجرار والعربة الملحقة به ، وكان ثابت جان يجلس فى قمرة التراكتور الى جانب سائقه الشاب قالى بك . بالامس جرع ثابت جان كمية لا يستهان بها من الفودكا مسليا البورانليين بشتى الخزعبلات عن الناس الموجهين بالراديـــو ومختلف السفاسف الاخرى اما الآن فتراه مقموعا ساكنا تترنح راسه حتى ان يديغي توجس خيفة لئلا تنكسر نظارته . وجلس فى العربة الملحقة الى جانب جثمـــان قازانغاب قرين آى زاده مكتئبا . كان يضيق عينيه فى الشمس ونادرا ما يتلفت يمنة او يسرة . هذا السكير الذى لا نفع فيه اظهر نفسه ، فى هذه المرة ، على احسن حالها . فلم يذق قطرة من الخمر وحاول تقديم العون فى الاعمال كلها ، وقد اجتهد اجتهادا خاصا اثناء اخراج جثمان المرحوم وساهم فى حمل جنازته على كتفه . وعندما اقترح عليه يديغي ان يركب وراءه على ظهر الجمل رفض وقال : «كلا ، ساجلس الى جانب حماى . وسأرافقه حتى ايداعه القبر» . لقد استحسن يديغي والبورانليون جميعهم الرأى . وحين انطلقوا من البيت كان هو يبكى اكثر من الكل جالسا فى العربة الملحقة ساندا جثمان المرحوم الملفوف باللباد . وقال يديغي فى نفسه مؤملا : «ماذا لو يتعقل الانسان فجاة ويترك الشرب ؟ اية سعادة تكون لآى زاده والاطفال !»

وسارت حفارة من نوع «بلاروس» يستقل قمرتها عادل باى وجمعة على فى آخر هذا الموكب الصغير والغريب الذى يتقدمه راكب بعير ، البس بعيره جلا ذا شرائط ، فى هذه البرارى المقفرة . وكان جمعة على الاسود كزنجى جالسا وراء عجلة قيادة هذه الحفارة التى تستعمل عادة لتأدية شتى اعمال الصيانة . ولقد جاء سائقها الى بورانلى-بورانى منذ فتـرة قصيرة نسبيا . ومن المتعذر ان يقول المرء ان كان سيتحمل البقـاء طويلا فى المنطقة . بينما كان عادل باى الطويل يجلس الى جانبه ويزيده طولا براس كامل . وكانا الاثنان طول الطريق يتحدثان بحيوية فى موضوع ما .

ينبغى ان نقدر عثمان مدير المفرق حق قدره ، فهو الذى خصص لموكب الجنازة مجموعة من الآلات والمكائن . ولقد افتى المدير الشاب افتاء صحيحا فى الموضوع ، اذ قال ، انهم ، اذا

ما قطعوا هذه المسافة الطويلة ، ومن ثم حفروا القبر بأيديهم ، فمن غير المحتمل ان يفلحوا فى العودة عند المساء ، ذلك لان القبر يجب ان يكون عميقا جدا ذا شق فى وسطه وشقين فى جانبيه على طريقة مسلمى آسيا الوسطى .

هذا الاقتراح ، اربك فى البدء يديغي البورانى بعض الشىء ، اذ لم يخطر بباله ان يحفر قبرا بحفارة وليس بيديه . وكان فى تلك الاثناء يجلس امام عثمان مقطبا جبينه مستغرقا فى التفكير حافلا قلبه بالشكوك . لكن عثمان وجد مخرجا للموضوع واقنع العجوز :

– يا يديغي ، اننى اقول لكم الصحيح . ولكى لا يحيركم شىء ، ابداوا اولا الحفر بالايدى . ولنقل بضع مجارف . ثم تكمله الحفارة بسرعة . التربة فى ساروزيكى صلبة كالحجر ، وتعرف ذلك بنفسك . وبامكانكم فيما بعد تعميق القبر بالحفارة قدر ما تريدون . فى النهاية تعملون بالايدى ايضا وتنهون بذلك الاعمال التكميلية ، كما يقال . انكم بهذا ستختصرون الوقت وتراعون جميع الاصول المتبعة . . .

وكلما توغلوا فى عمق ساروزيكى وجد يديغي نصيحة عثمان معقولة تماما ومقبولة . وحتى انه تعجب كيف لم يخطر هذا بباله هو . اجل ، هكذا سيتصرفون ، اذا وصلوا آنا – بابيت ان شاء الله : سيختارون مكانا مناسبا فى المقبرة حتى يضعوا رأس المرحوم باتجاه القبلة ، ويبداون اولا بالرفوش والمعازق التى يحملونها معهم فى العربة الملحقة ، وبعد ان يحفروا قليلا ، يتركون مهمة الحفر عميقا للحفارة ، اما الشق الوسطانى والشقين الجانبيين فسيحفرونها بالايدى . وهذا سيكون اسرع واوثق .

هذه كانت غاية رحلتهم فى تلك الساعة عندما كانوا يقطعون برارى ساروزيكى وهم يلوحون على التلال تارة ويختفون اخرى فى المراعى الواسعة ثم يظهرون من جديد فى السهوب القصية يتقدمهم يديغي البورانى على جمله ، يتبعه الجرار بعربته الملحقة ، الذى كانت الحفارة «بيلاروس» تسير وراءه كجمل هامد مفتوح الذراعين .

لم يلاحظ يديغي ، ولفرط دهشته ، الا الآن ، عندما تلفت للمرة الاخيرة الى المفرق الذى بقى فى الوراء ، ان الكلب الاشقر

جولبارس يركض خببا وبهمة الى جانبهم . متى افلح فى اقتفاء اثرهم ؟ يا للعجب ! اثناء الرحيل من بورانلى – بورانى ، على الاغلب ، لم يره . لو عرف انه سيمزح هذه المزحة لاركبه مربوطا . يا له من حيال ! فما ان يلاحظ ان يديغي يسافر الى مكان ما على قره نار الا وينتهز الفرصة ليتعقب أثره . وها هو فى هذه المرة كان الارض انشقت عنه وخرج منها . وقرر يديغي ان يدعه وشانه ، لان الوقت قد فات لاجباره على العودة من حيث اتى . ثم لم يكن الأمر يستحق ان يضيع وقته فى سبيل كلب ، فتركه وشانه . وركض جولبارس مسابقا الجرار ، كانه خمن افكار سيده ، واتخذ لنفسه مكانا متقدما الى جنب قره نار . هدده يديغي بالسوط الا انه لم يعر له بالا ، وكانه كان يقول بذلك : لقد فاتك وقت التهديد . ثم ما وجه السوء فيه لكى لا يسمح له بمرافقتهم : فهو عريض الصدر وذو رقبة شعثاء واذنان مقطوعتان وعينان هادئتان ذكيتان . باختصار ، كان الكلب الاشقر جولبارس جميلا وجذابا على طريقته .

فى هذه الاثناء قدحت شتى الافكار براس يديغي وهو فى طريقه الى آنا-بابيت . وتذكر ، متطلعا كيف ترتفع الشمس فوق الافق تقيس مجرى الزمن ، بعض المشاغل الحياتية . وعادت به الذكرى الى تلك الايام حين كان هو وقازانغاب شابين وفى عز قواهما ، وكانا يعتبران ، طالما جرى الحديث عنهما ، العاملين الدائمين الرئيسيين فى المفرق . والآخرون لم يواصلوا العمل فترة طويلة فى بورانلى-بورانى ، فكانوا يذهبون مثلما يأتون ، اما هو وقازانغاب ، فالوقت لا يكفيهما لكى يستردا انفاسهما . لانهما ، سواء أشاءا ام ابيا يضطران لان يحسبا حساب اى شىء ويزديان كل الاعمال التى تدعو الحاجة اليها فى المفرق . الآن ليس من اللائق ان يتذكر ذلك بصوت مسموع . الشباب سيضحكون : عجوزان غبيان اهلكا نفسيهما ، ولماذا ؟ اجل ، فى سبيل ماذا بالفعل ؟ يعنى كان ثمة شىء ضحيا من اجله .

ذات مرة ، اثناء تراكم الثلوج ، بذلا جهودا مضنية فى عمل متواصل ليومين كاملين منظفين الطريق من الثلج . فى الليل جلبوا قاطرة لكى تضىء المنطقة بمصابيحها . اما الثلج فكان يواصل سقوطه والريح تعصف وتدوم . وهما ما ان ينظفا

الطريق من طرف الا وتتكدس عليه الكثبان الثلجية من طرف آخر . اما عن البرد فحدث ولاحرج . اذ كان وجهاهما ويداهما تتورم فيدخلان القاطرة للتدفؤ مدة خمس دقائق ، ثم يعودان من جديد الى هذا العمل الساروزيكى المهلك . حتى القاطرة نفسها غمرت بالثلج الى مستوى عجلاتها . ثلاثة من العمال القادمين الجدد غادروا فى اليوم الثانى . وصبوا اقذع الشتائم على الحياة الساروزيكية . قالوا ، نحن لسنا معتقلين ، وحتى المعتقلون يسمح لهم بالتمتع بقسطهم الكافي من النوم . بهذه الكلمات عادوا ادراجهم . لكن فى الصباح عندما مرت القطارات صرخوا فى وجهيهما مودعين :

– اى ، يا مجانين ، جهودكم ستضيع سدى !

لكن ليس لان هؤلاء الشباب القادمين زجروهما ، بل حدث ان تخاصما ، هو وقازانغاب ، فى اثناء تلك العاصفة الثلجية . اجل لقد حدث ذلك فى الليل عندما بلغ العمل حدا لا يطاق . تساقط ثلج جديد ونفخت الريح من جميع الجهات وراحت تهجم عليهما ككلب مسعور ، وليس من مكان يلتجئون اليه منها . القاطرة تنفث دخانا ، والدخان ينشر الضباب ليس الا ، والمصابيح بالكاد تتمكن من اضاءة العتمة . وحين ذهب هؤلاء الثلاثة اخذ يديغي وقازانغاب ينقلان الثلج بجردل يجره بعيران . لكن المخلوقين كانا لا يسيران لانهما أيضا يشعران بالبرد والغثيان فى هذه الدوامة . الثلج على جانبى الطريق يصل الصدر . جر قازانغاب البعيرين من مقوديهما لكى يسيرا وراءه . اما يديغي فكان يحثهما من الوراء بالسوط . هكذا صارعا حتى منتصف الليل . بعد ذلك سقط البعيران فى الثلج ، واخيرا انهارت قواهما . ما العمل ؟ فاضطرا لترك العمل الى ان تسكن العاصفة . ووقفا قرب القاطرة يحتميان من الريح .

– يكفى يا قازانغاب ، ولندخل القاطرة ، وننتظر تغير الطقس – قال يديغي ضاربا قفازيه المتجمدين واحدا بالآخر .

– الطقس يبقى مثلما هو عليه . وفى كل الاحوال ان عملنا هو تنظيف الطريق . هيا بالرفوش ، ولا يحق لنا الوقوف .

– ألسنا نحن من بنى آدم ؟ ماذا تقول ؟

– غير من بنى آدم اختفوا فى جحورهم منذ زمن .

– يا لك من شنيع ! – قال يديغي – اذا أردت ان تنفق فانفق انت بنفسك هنا ! – ولطمه على خده وتشابكا ليدميا وجه بعضهما البعض ، لكن لحسن الحظ قفز الوقاد من القاطرة وفرق بينهما فى الوقت المناسب .

هكذا كان قازانغاب . وبالطبع ، لن تجد اناسا من امثاله حاليا . فلم يعد لهم من وجود . وها هو آخر رجل من هؤلاء يوسد التراب . ولم يبق امام يديغي الا ان يودعه اللحد بكلمات الوداع الاخيرة ، ويقرأ عليه السلام .

مفكرا بذلك ، كرر يديغي فى نفسه صلوات كان قد نسيها تقريبا ، لكى يعيد ترتيب كلماتها ويسترجع فى ذاكرته على نحو ادق منطقية الافكار فى مخاطبة الله ومناجاته ، لان الله وحده قادر على ان يوالف بين قطبى الحياة والموت المتنافرين فى وعى الانسان . ولهذا الامر ، على اغلب الظن ، فرضت الصلوات على الانسان ، لانه ليس بامكانه أن يصرخ ، لكى يسمعه الله ، او يسأله لماذا خلق الكون على هذا النحو ، لكى يولد ويموت ! ويعيش الانسان منذ ذلك الوقت الذى خلق الله فيه العالم فى حالة من الرفض والمساومة ، وهذه الصلوات هى الاخرى لم تتغير منذ تلك الايام ، وظلت تدعو الانسان الى الشيء نفسه ، لكى لا يتذمر ويواسى نفسه . هذه الكلمات قد صيغت منذ آلاف السنين . ها هى آخر الكلمات التى ينبغى للحى ان يتلوها على الميت وهى كسبيكة ذهب . هكذا هى التقاليد .

وفكر ايضا ، انه بصرف النظر عن وجود الله او عدم وجوده قطعا فان السواد الاعظم من الناس يفكر عنه على نسق واحد عندما تستدعى الضرورة . مع انه لا يجوز ان يتصرف هكذا . ولعله لهذا السبب قيل ان الملحد لا يذكر اسم الله ان لم يؤلمه راسه . سواء كان الامر هكذا او لم يكن ، لا بد ان يعرف المرء الصلاة .

متأملا رفقاء الطريق الشباب على الجرار والحفارة تحسر يديغي البورانى وتأسف أسفا صادقا ، ذلك ان احدا منهم لم يكن يعرف اى صلاة . كيف سيدفنون بعضهم بعضا؟ باى كلمات اخيرة سيودعون الانسان لدى انتقاله من الدنيا الى الآخرة ؟ «وداعا يا رفيق سنتذكرك ؟» او اى هراء آخر ؟

ذات مرة حدث وان ذهب يديغي البورانى لتشييع جنازة فى مركز احد الاقضية . فتعجب اذ راى فى المقبرة نفس ما يراه فى الاجتماعات . وقد تلا الخطباء امام جثمان المرحوم خطبا مكتوبة تحدث فيها جميعهم عن الشيء نفسه : ماذا عمل واى المسؤوليات تحمل ، وكيف اشتغل ، ومن خدم ، وكيف خدم ، ثم عزفت موسيقى واغرقوا القبر بالزهور . ولم يتفرغ احدهم ليقول اى شيء عن الموت كما يجرى الكلام عنه فى الصلوات التى تتوج وعى الناس منذ غابر الازمان فى تلك السلسلة من احداث الحياة وكانما لم يمت احد فى العالم قبل ذلك الشخص ، ولا ينبغى ان يموت احد بعده . وكان هؤلاء المساكين خالدون ! هكذا صرح الناس خلافا لما هو بديهى . «خلد اسمه !»

كان يديغي يعرف المكان جيدا . فضلا عن ذلك فانه كان يرى وهو على ظهر قره نار البورانى كل شيء امامه من مسافة بعيدة . واجتهد ان يلزم طريقا مستقيما قدر المستطاع فى ساروزيكى صوب آنا-بايت ، مستسلما فقط للتعرجات ، وذلك لكى يتجاوز الجرار والحفارة حفر الطريق .

وسار كل شيء ، كما خطط له . ليس سريعا ، وليس بطيئا ، لكنهم اجتازوا ثلث الطريق . . . كان قره نار البورانى يسير خببا بخطوات لا تكل ، منصاعا بدقة لتوجيهات صاحبه . وكان يتبعه الجرار والعربة الملحقة به هادرا . وسارت الحفارة «بيلاروس» وراء الجرار .

بيد ان ظروفا طارئة واستثنائية كانت تنتظرهم . وهذه الظروف مهما كانت غير محتملة فانها بشكل او بآخر ، كانت ذات صلة بما كان يجرى فى المطار الفضائى فى ساري-اوزيك . . .

كانت حاملة الطائرات «كونفينتسيا» فى ذلك الوقت عائمة فى مكانها ، فى المنطقة نفسها من المحيط الهادى ، الى الجنوب من جزر الوشن ، وفى نقطة تنتصف المسافة بين فلاديفوستوك وسان-فرانسيسكو .

لم يطرأ اى تغير على الجو فى المحيط . وظلت الشمس فى النصف الاول من النهار تشع بسطوع يعشى الابصار على المساحات الشاسعة من المياه المتلالئة بلا حد . ولا شيء فى الافق ينبئ بأى تغير فى الطقس .

اما على متن حاملة الطائرات فقد خيم التوتر على جميع مرافقها . ووضعت على اهبة الاستعداد بما فى ذلك اجنحة الطيران ، ومجموعة الأمن الداخلى ، مع انه لم يكن ثمة اسباب محددة لذلك فى المحيط الواقعى . كانت الاسباب تكمن ما وراء حدود الفضاء الخارجى . ان الاخبار الواردة الى «كونفينتسيا» عبر المحطة المدارية «ترامبلين» من رائدى الفضاء المتكافئين المتواجدين فى كوكب الصدر الغابى قد اثارت القلق والاضطراب فى قيادة اوبتسينوبر واعضاء اللجنة ذات التخويل الخاص . كانت البلبلة شديدة لدرجة ان كلا الجانبين قررا فى البدء عقد اجتماعات منفصلة لمناقشة الوضع الناجم ، وقبل كل شيء انطلاقا من مصالحهما ومواقفهما الخاصة على ان يجتمعا بعد ذلك فقط للمناقشة العامة .

كان العالم لا يعرف بعد فى تاريخ البشرية اكتشافا لا سابقة له كهذا ، عن وجود حضارة غير ارضية على كوكب الصدر الغابى . حتى ان حكومتى الجانبين بعد ان احيطتا علما بما حدث بطريقة بالغة السرية ، كانتا لا تملكان اية معلومات عن التطور اللاحق للاحداث . كانتا تنتظران وجهة نظر موحدة من اللجنتين المختصتين واقرّ على متن حاملة الطائرات كله نظام صارم . اذ منع على الجميع ، بما فى ذلك اجنحة الطيران ، حق ترك اماكنهم . ولم يكن ، بموجب ذلك ، يحق لأحد ، ولاى سبب كان ، ترك السفينة ، كما لم تتمكن اية سفينة اخرى الاقتراب من «كونفينتسيا» ضمن دائرة نصف قطرها خمسون كيلومترا . وغيرت الطائرات التى كانت تمر فى اجواء المنطقة خطوط رحلاتها حتى لا تقترب اكثر من ثلاثمائة كيلومتر من موقع تواجد حاملة الطائرات .

وهكذا ، انقطع الاجتماع المشترك للجانبين ، وراحت كل لجنة تجتمع لوحدها ومع مشرفيها على برنامج «ديميورغ» لمناقشة الاخبار الواردة من رائدى الفضاء المتكافئين ١-٢ و٢-١ ، التى ارسلاها من كوكب الصدر الغابى المجهول بالنسبة للعلم . وكانت كلماتهما تخترق ابعادا كونية غير قابلة للتصديق .

«اسمعوا ، اسمعوا !

اننا نقوم بالارسال للارض عبر المجرة ! من المستحيل

توضيح اشياء لا تحمل اسماء على الارض بعد ، لكن ثمة امور كثيرة مشتركة بيننا .

انهم مخلوقات شبيهة بالبشر اى اناس مثلنا ايضا ! عاش التطور العالمى ! لقد ابتدع التطور هنا موديلا للمخلوقات البشرية على اسس عامة ! وهى نماذج رائعة من المخلوقات البشرية الساكنة فى كوكب آخر ! جلدهم اسمر ، شعرهم ازرق فاتح ، عيونهم خضراء ليلكية وحواجبهم بيضاء زغبية .

لقد رأيناهم فى بدلات لرجال الفضاء شفافة تماما ، عندما التحموا بمحطتنا المدارية . كانوا يبتسمون من متن السفينة داعين ايانا اليهم .

وخطونا نحن من حضارة الى حضارة .

واقلع الجهاز الطائر اولبيا وبسرعة الضوء ولم نكن نشعر بها ابدا داخل السفينة عمليا ، وانطلقنا مجتازين سيل الزمن الى الكون . ان اول ما لفت انتباهنا وجعلنا نشعر بيسر مفاجئ هو فقدان حالة انعدام الوزن . اما كيف تمكنوا من بلوغ هذا فنحن غير قادرين لحد الآن على تفسيره . وخاطبونا بالكلمات الاولى فى مزيج من اللغتين الروسية والانكليزية : «ويل كام ناش زفيزدا !» * عندئذ ادركنا انه عند ابداء درجة معينة من الاهتمام يكون بامكاننا ان نتبادل الافكار . وهذه المخلوقات ذات الشعر الازرق طويلة القامة ، يبلغ طولها نحو مترين . وكانوا خمسة : اربعة رجال وامراة واحدة . ولم تكن امراة تتميز بطولها ، وانما بقوامها الانثوى وجلدها الاكثر ضربا الى البياض . ان جميع سكنة الصدر الغابى ذوى الشعر الازرق سمر للغاية وهم اشبه بعربنا الشماليين . ولقد شعرنا معهم منذ الوهلة الاولى بالثقة والطمانينة .

ثلاثة منهم سواق الجهاز الطائر . اما الرجل الرابع والمراة فهما خبراء بلغات الارض . وهما اول من درس ونظم عن طريق الالتقاط الاذاعى فى الفضاء الخارجى الكلمات الانكليزية والروسية وألفا قاموسا للكلمات الارضية . وحتى لحظة لقائنا كانا يعرفان معانى اكثر من الالفين والخمسمائة كلمة ومصطلح . وبمساعدة

* اهلا وسهلا بكم فى كوكبنا ! **الناشر** .

هذا الاحتياطى اللغوى بدأ تعاملنا معهم . هم يتكلمون بلغة ، بالطبع ، غير مفهومة لنا ، لكنها تشبه بنبرتها اللغة الاسبانية .

بعد مرور احدى عشرة ساعة على انطلاقنا من «باريتيت» خرجنا الى ما وراء حدود المنظومة الشمسية .

تم هذا الانتقال من نظامنا النجمى الى آخر بشكل غير منظور ، ودون ان يتميز بشىء على نحو خاص . ومادة الكون واحدة فى كل مكان . ولكن كانت تشع فى الامام على خط طيراننا بشكل تدريجى هالة حمراء (يبدو انه هكذا كان فى تلك اللحظة موضع الاجسام فى المنظومة الاخرى) . وكبرت هذه الهالة ، وتحركت فى البعد فى فضاء ملون لا حدود له . فى هذه الاثناء كنا قد اجتزنا فى طريقنا عدة كواكب كانت مظلمة فى تلك الساعة من احد الجوانب ومضيئة من جانب آخر . ورأينا عددا كبيرا من الشموس والاقمار فى الفضاء .

وكاننا انتقلنا من الليل الى النهار . وفجأة حلقنا فى ضوء غامر ساطع يعشي العيون منبعث من شمس عظيمة وجبارة فى سماء غير مرئية .

– نحن فى مجرتنا ! ها هو «حاملنا» يضىء ! قريبا سيظهر صدرنا الغابى ! – قالت المراة المختصة باللغة .

وبالفعل رأينا فى العلاء ما لا يقاس من الامتداد الفضائى الجديد لشمس جديدة بالنسبة لنا ، تسمى «بالحامل» . وهذا «الحامل» يفوق شمسنا بقوة اشعاعه وحجمه . بالمناسبة تقول اننا نميل الى شرح عدد كامل من الفوارق الجيوبيولوجية بين هذا العالم وعالمنا بالاعتماد على هذه الميزة «للحامل» وعلى كون اليوم الكامل فى الصدر الغابى يتالف من ثمان وعشرين ساعة .

لكننا سنحاول ان نخبركم عن هذا كله فى المرة القادمة ، او حين عودتنا الى «باريتيت» ، اما الآن فنقدم لكم بالمناسبة بعض المعلومات القيمة . يشبه كوكب الصدر الغابى من العلو ارضنا ، وهو محاط بغيوم جوية مماثلة . قام الصدرغابيون على مسافة قريبة من سطح الكوكب – خمسة او ستة آلاف متر – بتحليق اطلاعى خاص لنا . وكان منظرا جميلا يعجز عن الوصف : جبال ، سلاسل متموجة ، وهضاب مغطاة بالاخضر الساطع ،

بينها انهار وبحار وبحيرات ، اما فى بعض مناطق الكوكب ، ولا سيما فى الاطراف والقطبين ، فمساحات شاسعة من الصحارى الميتة تعج بالعواصف الترابية . بيد ان المدن والقرى تركت انطباعا عميقا فى نفوسنا . هذه الجزر ذات الابنية المصممة بين المناظر الطبيعية تتفوق بمعمارها على فن الهندسة المعمارية الامريكية المعاصرة .

ان الصدرغابيين ، من وجهة نظرنا ، هم ظاهرة شاذة وفريدة من بين المخلوقات العاقلة فى الكون . فترة الحمل هى احد عشر شهرا صدرغابيا . الحياة طويلة الديمومة ، رغم انهم يعتبرون ان المشكلة الرئيسية للمجتمع ومغزى الوجود هو اطالة العمر . انهم يعيشون كمعدل بين مئة وثلاثين عاما ومئة وخمسين عاما ، وحتى ان بعضهم يعيش الى عمر المئتين ! وتعداد نفوس سكان الكوكب يناهز عشرة مليارات نسمة .

اننا الآن لسنا فى وضع يتيح لنا ان نقدم لكم كل شىء مصنفا فيما يخص نمط حياة الصدرغابيين ومنجزات حضارتهم . ولهذا نرسل اليكم تقارير تتضمن مقاطع عما يدهشنا اكثر من سواه فى هذا العالم .

انهم يعرفون كيفية الحصول على الطاقة الشمسية او بالاحرى «الحاملية» محولين اياها الى طاقة حرارية وكهربائية ذات محصل قوة عالية يفوق وسائلنا الهيدروتقنية ، وكذلك من المهم بشكل استثنائى انهم ينتجون الطاقة من فرق درجات الحرارة الجوية النهارية والليلية .

لقد تعلموا اخضاع الظروف الجوية لارادتهم . عندما كنا نقوم بتحليق اطلاعى فوق الكوكب ، بدد الجهاز الطائر بواسطة الاشعاع وبسرعة خارقة الضباب والغيوم فى اماكن احتشادها . وعلمنا ان بمقدرتهم التاثير على حركة اللجج الطائرة والتيارات المائية فى البحار والمحيطات . وبالوسائل نفسها ينظمون عملية الترطيب والنظام الحرارى على سطح الكوكب ، والاكثر من ذلك انهم يستطيعون توجيه الجاذبية ، وهذا ما يساعدهم فى الطيران بين النجوم .

بيد ان مشكلة فى غاية الاهمية تواجههم ، بينما نحن ، على حد علمنا ، لم نواجه مثل هذه المشكلة على الارض بعد . انهم

لا يعانون من الجفاف ، ذلك لان بامكانهم توجيه الطقس . وانهم حتى الآن لا يعرفون النقص فى انتاج المواد الغذائية . هذا كله فى ظل هذا العدد الهائل من السكان الذى يزيد بمرتين عن عدد سكان الارض . غير ان القسم الاكبر من الكوكب يغدو تدريجيا غير صالح للحياة . فى مثل هذه المناطق يموت كل ما هو حى . هذه هى ظاهرة ما يسمى بالجفاف الداخلى . ولقد رأينا اثناء تحليقنا الاستطلاعى عواصف ترابية فى الجنوب الشرقى من الصدر الغابى . وبنتيجة بعض التفاعلات الرهيبة فى بواطن الكوكب ، ربما تشبه هذه العمليات البركانية عندنا ، لكنها ، قد تكون فى الغالب ، شكلا من اشكال التبدد البطىء لانفجار بركان اشعاعى ، تتهدم التربة السطحية وتفقد بنيتها وتحترق فيها جميع المواد المشكلة للتربة . فى هذا الجزء من الكوكب تزحف صحارى بمساحة الصحراء الكبرى سنة بعد اخرى على المساحات الخضراء للسكان ذوى الشعر الازرق . ويعتبر هذا بالنسبة لهم من اكبر الكوارث . انهم لم يتعلموا بعد توجيه العمليات الجارية فى بواطن الكوكب . لقد وظفوا احسن القوى ووسائل مادية وعلمية هائلة لمكافحة هذه الظاهرة الرهيبة من الجفاف والتصحر . لا قمر فى مجرتهم ، لكنهم يعرفون عن قمرنا ولقد زاروه . انهم يفترضون ان قمرنا قد عانى من نفس الظواهر . واذ عرفنا بذلك استرسلنا فى التفكير ، ذلك ان القمر ليس جد بعيد عن الارض . فهل نحن مستعدون لهذا اللقاء؟ وماذا ستكون العواقب على الصعيدين الداخلى والخارجى ؟ الا يفكر الناس انهم اضاعوا كثيرا فى تطورهم الذهنى بسبب الاخفاقات الدائمة على الارض ؟

تجرى فى الوقت الحاضر فى الاوساط العلمية الصدرغابية نقاشات على نطاق عموم الكوكب :هل يستدعى الأمر بذل الجهود سعيا الى فك اسرار الجفاف الداخلى والبحث عن طرق ايقاف هذه الكارثة المحتملة ام انه يتطلب ايجاد كوكب آخر فى الكون سلفا يستجيب لمتطلبات حياتهم والبدء مع مرور الزمن بالانتقال الجماعى الى المكان الجديد للمعيشة من اجل نقل وانبعاث الحضارة الصدرغابية مجددا . ليس واضحا للآن الى اى كوكب جديد تتوجه انظارهم . على اية حال بامكانهم ان يعيشوا على كوكبهم

ملايين اخرى من السنين ، غير انه من المدهش انهم منذ الآن يفكرون بمستقبلهم البعيد جدا ويعملون بحيوية ونشاط وكان هذه المشكلة تتعلق مباشرة بالسكان الحاليين . هل يعقل انه لا تخطر ببال احد فكرة : «فليكن بعدى الطوفان !» لقد شعرنا بالخجل – لان تفكيرنا بهذا الشأن كان مماثلا – عندما عرفنا ان القسم الاكبر من اجمالى النتاج ينفق لصالح برنامج منع وقوع الجفاف الداخلى . انهم يسعون الى اقامة حاجز يمتد آلاف الكيلومترات على طول حدود الصحارى الزاحفة ، وذلك عن طريق حفر آبار ارتوازية عميقة جدا وادخال مواد معدلة بقوة التأثير لفترات طويلة الامد فى اعماق الارض ، وهذه المواد ، كما يتوقعون ، سيكون لها التأثير المطلوب على التفاعلات فى باطن الكوكب .

بالطبع ، انهم يعانون وينبغى ان يعيشوا مشاكل معيشية ، وهذه المشاكل التى هى من النوع الاخلاقى والمعنوى والذهنى تجعل العقل يجترح الآلام حاملا صليبه الثقيل . ومن البديهى تماما ان تكون معقدة حياة ما يزيد عن عشرة مليارات نسمة مهما بلغوا من الرقى واليسر . لكن الأمر الاكثر مثيرا للعجب فى هذا كله هو انهم لا يعرفون الدولة كما هى عليه ولا يعرفون الاسلحة ولا يعرفون للحرب معنى . ويصعب علينا القول ، انه ربما فى الماضى السحيق دارت عندهم حروب وكانت ثمة دول ونقود وكل ما رافق المرحلة كلها من العلاقات الاجتماعية ، بيد انهم فى الوقت الحاضر لا يملكون اى تصور عن مؤسسات قمعية كالسلطة واشكال النضال كالحرب . واذا ما اضطررنا ان نشرح لهم كنه حروبنا الدائمة على الارض الا تبدو لهم سخيفة ولا معنى لها ، او اكثر من ذلك ، طريقة بربرية لحل المشاكل ؟

ان حياتهم باكملها منظمة على اسس مغايرة تماما غير مفهومة كليا لنا وصعبة المنال بالنسبة للتفكير الدارج على وجه الارض .

لقد بلغوا هذا المستوى من الوعى الجماعى المنظم الذى يستثنى قطعيا الحرب باعتبارها وسيلة نضال ، حيث لا يبقى امامنا الا ان نفترض ان هذا الشكل من الحضارة ، فى اغلب الظن ، هو الاكثر تقدما فى اطار الابعاد التى يمكننا ان نتصورها

فى البيئة الكونية . ولعلهم نالوا هذه الدرجة من التقدم العلمى عندما اصبحت عملية انسنة الزمان والمكان مدلولا رئيسيا لحياة المخلوقات العاقلة ، وبهذا تكمن مواصلة تطور العالم فى طوره الجديد السامى الابدى .

اننا لا ننوى مقارنة الاشياء التى لا تقارن . مع مرور الزمن سيبلغ الناس على ارضنا ايضا هذا المبلغ العظيم من التقدم ، ولدينا منذ الآن ما نفتخر به ، لكن رغم ذلك ثمة فكرة ثقيلة تلاحقنا : ماذا لو بقيت البشرية على الارض فى ضلال مميت ، مقنعة نفسها بما معناه ان التاريخ هو تاريخ الحروب ؟ ماذا لو اتضح ان طريق التطور هذا كان منذ البداية طريقا خاطئا مسدودا ؟ فى مثل هذه الحال الى اين نذهب نحن والى اين يؤدى بنا هذا الطريق ؟ واذا كان الأمر على هذه الشاكلة ، فهل ستوفق البشرية فى ايجاد الجراة فى نفسها لتعترف بذلك ثم تتفادى الطوفان الشامل ؟ واذ وجدنا ان ارادة القدر ارتأت ان نكون الشهود الاوائل على الحياة الاجتماعية اللاارضية نحس بمشاعر غامضة : الخوف على مستقبل سكان الارض والأمل ، فثمة فى العالم مثال للحياة المشتركة العظيمة التى لا يعود سير تقدمها الى تلك الاشكال المتناقضة التى تحلها الحروب . . .

الصدرغابيون يعرفون عن وجود الارض فى مسافات بمنتهى البعد بالنسبة لحدودهم الكونية . وانهم مفعمون بالرغبة لتكوين علاقات مع سكان الارض ليس بدافع الفضول الطبيعى ، بل كما يخيل اليهم ، قبل كل شىء ، من اجل انتصار فذاذة العقل ، من اجل تبادل التجارب الحضارية ، من اجل عصر جديد من تطور الفكر وروح الكائنات العاقلة فى الكون .

وانهم يتوقعون من هذا كله اكثر بكثير مما يمكن تصوره . وان اهتمامهم بسكان الارض ناتج ايضا من ايمانهم بان توحيد الجهود المشتركة لهذين الفرعين من العقل العالمى هو الطريق الرئيسى لضمان استمرارية الحياة اللامتناهية فى الطبيعة ، وهم بذلك يقصدون ، ان الطاقة ، ايا كانت ، تتعرض للانقراض الحتمى وان الكواكب ، اية كانت ، محكوم عليها بالفناء . . . انهم قلقون بصدد مسالة «نهاية العالم» التى قد تحدث بعد مليارات السنين ، ويعدّون من الآن تصاميم علمية كونية

لتأسيس مراكـــز جديدة للعيش لجميـــع الكائنات الحية فى الكون . . .

ونظرا لحوزتهم على اجهزة طائرة تبلغ سرعتها سرعة الضوء فبامكانهم ان يزوروا الارض الآن . لكنهم لا يريدون ان يفعلوا ذلك دون موافقة من سكـــان الارض ودعوتهم لهم . لانهم لا يرغبون باقتحام الارض كغرباء طارئين . فضلا عن ذلك فقد لمحوا لنا بانهم كانوا يبحثون منذ زمن عن حجة للتعارف . ومنذ ان تحولت محطاتنا الفضائية الى محطات مقيمة فى المدار لاماد طويلة اتضح لهم ان موعد اللقاء بيننا يقترب وان عليهـم ان يبدوا المبادرة . وكانوا قد استعدوا استعدادا دقيقا ، وانتظروا فرصة مؤاتية . وصادف ان وقعت هذه الفرصة على عاتقنا طالما وجدنا انفسنا فى محيط يقع بين كوكبهـــم والارض ، فى المحطـة المدارية . . .

ومن الواضح تماما ان زيارتنا لكوكبهـــم اثارت ضجة لا تصدق . وارتباطا بذلك فتح فى الأثير نظام الاتصالات الرؤيوى الشامل الذى يستخدم فقط فى الاعياد الكبيرة . ورأينا فى الهواء المضاء حولنا ، كما نرى فى الحقيقة ، الى جانب وجوه واشياء تقع على مبعدة آلاف الكيلومترات عنا ، وفى الوقت نفسه كان بامكاننا ان نتعامل معهم عن كثب : مثلا ان ننظر فى وجوه بعضنا البعض ، ونبتســـم ، ونشد على الايدى ، ونتحدث ، ونفـرح ونندهش ونضحك عاليـــا وكان كل هذا يحدث فى العلاقات المباشرة . الصدرغابيون جميلون واى جمال ! ومتباينون تباينا كليا ، فحتى لون الشعر الازرق يتغيـــر من الازرق الغامق الى الازرق اللازوردى ، اما الشيوخ فيشيبون ، كما يظهر ، مثلنا ايضا . والانماط الانثروبولوجيـــة ايضا متباينة لانهم يمثلون مجموعات سلالية مختلفة .

عن هذا كله والكثير الكثير غيره مما يفوقه دهشة سنحدثكم بعد عودتنا الى «باريتيت» او الى الارض . والآن نحدثكـم عن الاهم : الصدرغابيون يرجوننـــا ان نبلغكم عبر نظام الاتصال «باريتيت» عن رغبتهم بزيارة كوكبنا فى اى وقت يراه سكان الارض ملائما . والى ان يتم ذلك فانهم يقترحون الاتفاق على برنامج لاقامة محطة وسطية بين النجوم ، وستكون هذه المحطة فى البدء

مكان اللقاءات التمهيدية الاولى ، ثم تصبح فى المستقبل مركزا دائما على طريق الرحلات المتبادلة . لقد وعدناهم بايصال هذه المقترحات الى اسماع اهل الارض . بيد ان ما يقلقنا فى هذا المجال هو امر آخر .

هل نحن ، اهـــل الارض ، مستعدون لمثل هذا النوع من اللقاءات البينكونية ، وهل اننا ناضجون بمـا فيه الكفاية لهذا اللقاء ونحن فى هذه المرحلة من التطور الذهنى ؟ هل سنتمكن ونحن نعانى من التشتت ووجود التناقضات فيما بيننا من الوقوف امامهم موحدين ومخولين انفسنا باسم الجنس البشرى كله وباسم الارض برمتها ؟ اننا نتوسل اليكم ان تتفادوا اثـارة منافسات جديدة والنضال من اجل اسبقية كاذبة وان لا تعرضوا حل هذه المشكلة الا فى هيئة الامم المتحدة . واثناء القيام بذلك نرجوكم ان لا تسيئوا استخدام حق النقض (الفيتو) ، بل بالامكان فى هذه المرة ، كاستثناء ان تلغوا هذا الحق . يعز علينا ويصعب ان نفكر بمثل هذه الاشياء ونحن موجودان خارج الابعاد الفضائية لكننا نحن من سكنة الارض ونعرف بمـا فيه الكفاية اخلاقيات سكان كوكبنا الارض .

واخيرا نعود ونحدثكم عن انفسنا وعن سلوكنا . اننا نقر بالارباك الذى احدثناه ، والاجراءات الاستثنائية التى اضطررتم الى العمل بها عقب اختفائنا من المحطة المدارية . ونحن نعرب عن عميق الاسف لهذا القلق الذى كنا سببه . بيد ان هذه كانت تلك الصدفة الفريدة فى الممارسة العالمية بحيث لم نتمكن ، ولم يكن يحق لنا ان نرفض هذا العمل العظيم . ونظرا لكوننا من اناس يتبعون نظاما صارما كان يتوجب علينا من اجل هذا الهدف ان نتصرف خلافا لهذا النظام .

فلتبق هذه القضية تثقل ضميرنا ، ولنتحمل فيما بعد العقوبة المترتبة . لكن لتنسوا مؤقتا هذا الأمر . استجيبوا لنا رجاء ! لقد اعطيناكم اشارة من الكون ، اننا نعطيكم الاشارة من مجرة مجهولة : كوكب «الحامل» . الصدرغابيون ذوو الشعر الازرق هم اصحاب اسمى حضارة معاصرة . وان لقاءهم يمكن ان يؤدى الى تغيرات عميقة فى حياتنا وفى مصير الجنس البشرى . هل نتجرأ على هذا مراعين ، قبل كل شىء ، بالطبع ، مصالح الارض ؟

سكنة الكوكب الجديد لا يشكلون اى خطر علينا فى اقل تقدير ، هذا ما نعتقد به . لكن باقتباس تجربتهم نتمكن من احداث تغير كبير فى حياتنا بدءا من طريقة الحصول على الطاقة من العالم المادى المحيط بنا الى تعلم الحياة بلا اسلحة وبلا عنف ، بلا حروب . ان هذه الاخيرة تبدو لكم غريبة حتى بالاسم ، لكننا نشهد شهادة حق ان حياة هذه المخلوقات العاقلة فى كوكبهم نظمت على هذا النحو لا غيره ، وانهم بلغوا هذا الكنز الكمالى عن طريق استيطان المسكن الجيوبيولوجى الذى تساوى كتلته كتلة الارض . وباعتبارهم حملة نمط التفكير عالى التطور فى الكون فهم مستعدون لاقامة علاقات مفتوحة مع اخوانهم فى التفكير ، مع سكان الارض ، وبالاشكال التى تستجيب لمطالب وكرامة كلا الطرفين .

على الرغم من ولعنا وانصعاقنا باكتشافات الحضارة غير الارضية ، نحن نتوق للعودة سريعا ولكى ننقل للناس كل ما كنا شهودا عليه فيما وراء مجرتنا ، فى احد كواكب منظومة «الحامل» .

اننا ننوى ان نرجع الادبار الى «باريتيت» بعد ثمان وعشرين ساعة ، اى بالضبط بعد يوم كامل – حسب النظام الصدرغابى – من هذا البث . وما ان نصل «باريتيت» حتى نضع انفسنا تحت تصرف «اوبتسينوبر» .

والآن الى اللقاء . وقبل التحليق صوب المنظومة الشمسية سنخبركم عن موعد وصولنا الى «باريتيت» .

وبهذا نختتم تقريرنا الاول من الكوكب الصدر الغابى ، الى لقاء قريب . نرجوكم رجاء حارا ان تبلغوا عائلتينا لئلا يساورهما القلق بشأننا . . .

رائد الفضاء – المتكافئ ١–٢
رائد الفضاء – المتكافئ ٢–١»

اختتمت الجلستان المنفصلتان للجنتين المخولتين بمهام خاصة على متن حاملة الطائرات «كونفينتسيا» المجتمعتين للبحث فى الحادث الاستثنائى على المحطة المدارية «باريتيت» بتوجه كلا

اللجنتين باعضائهما الكاملين بالطائرة للتشاور مع المراجع العليا . وطارت احدى الطائرات متوجهة صوب سان فرنسيسكو ، اما الطائرة الثانية فقد طارت بعد عدة دقائق فى الاتجاه المعاكس ، صوب فلاديفوستوك .

وكانت حاملة الطائرات «كونفينتسيا» لا تزال فى نفس موقعها الدائم ، فى جنوب جزر الوشن فى المحيط الهادى . . . وفرض عليها نظام صارم . واتخذ كل واحد موقعه فى العمل وكان على اهبة الاستعداد . . . والجميع يلزمون الصمت . . .

كانت القطارات فى هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق .

وعلى جانبى خط السكة الحديد كانت تمتد مساحات شاسعة من الاراضى الصحراوية – سارى اوزيكى ، الاراضى الوسطى من البرارى الصفراء . . .

وكانوا قد قطعوا ثلث الطريق الى آنا-بابيت . وتوقفت الشمس التى ارتفعت فى البدء بسرعة فوق الارض فى نقطة واحدة هى السمت فوق ساروزيكى . وهذا يعنى ان النهار قد انتصف . واخذت الشمس تصلى بنارها المعروفة عنها فى وقت الظهيرة .

كان يديغي البورانى وهو ينظر تارة الى ساعته وتارة الى الشمس ، واخرى الى البرارى الشاسعة يخمن فى نفسه ان كل شىء يسير على ما يرام . ومشى كالسابق خببا الى امام على ظهر بعيره يتعقب اثره التراكتور والعربة الملحقة به ، ثم تتبعهما الحفارة «بيلاروس» . اما الكلب الاشقر جولبارس فكان يركض الى جنبهم على مبعدة خطوات .

«يظهر انه ليس فى وسع رأس الانسان ان ينقطع عن التفكير لحظة . وذلك ما خلق وجبل عليه هذا الراس الاحمق . وسواء اردت ام لم ترد فان افكارا تنبثق من اخرى ، ولا تنقطع ما لم يمت الانسان !» لقد توصل يديغي الى هذا الاكتشاف المضحك بعد ان وجد نفسه يفكر باستمرار فى مختلف الامور اثناء الطريق . كانت الافكار تعقب الافكار مثلما تتعاقب الامواج فى

البحر . فى صغره كان يتابع لساعات كيف تظهر فى موقع بعيد من بحر آرال امواج اثناء هبوب رياح عاتية وكيف تقترب بأعراف مزبدة فوارة متوالدة من بعضها البعض . كانت تجرى فى تلك الحركة ولادة واختفاء الامواج فى آن ، ثم تولد وتختفى من جديد . عند ذاك ، فى صباه ، كان يود لو يتحول الى طائر نورس ويطير فوق الامواج وفوق رذاذ الماء المتلألئ حتى يرى من اعلى كيف تعيش المياه العظيمة .

كانت ساروزيكى ابان مقتبل الخريف بريحها البليل وانبساطها الكئيب ، ووقع أخفاف البعير السائر خببا تحث يديغي على التفكير اثناء الطريق ، وكان يستسلم له دون مقاومة ، ولحسن الحظ كان الطريق فى الامام طويلا ، ولم يكن ثمة شيء يعوق سيرهم . وتحمى قره نار اثناء السير كعادته فى المسافات الطويلة واخذت تفوح منه رائحة المسك الحادة . فلذعت هذه الرائحة المنبعثة من عرف وعنق البعير انف صاحبه . وابتسم فى نفسه بارتياح : «يعنى انك غارق فى العرق ! حتى ما بين فخذيك ! يا لك من وحش صغير ! انت شنيع ! شنيع !»

وفكر يديغي بالايام الخوالى ، بالاعمال والاحداث عندما كان قازانغاب لا يزال قويا ومعافى ، وفى تلك السلسلة من الذكريات باغته حنين وشجن غائر فى اعماق الماضى . حتى الصلوات لم تسعفه . وراح يتمتم بها بصوت مجهور ويكررها عدة مرات لكى يبعد عن نفسه هذا الالم المداهم ويصرف باله عنه ويلوذ منه باذيال النسيان نفسه . لكن نفسه لم تهدأ فتكدر وراح يسوط البعير السائر خببا بلا داع تارة على هذا الجنب وتارة على ذاك ، فنزلت سدارته على عينيه ، ولم يعد يلتفت الى التراكتور السائر وراءه . فليتبعونه ، لن يتخلفوا ، ثم ما شان هؤلاء الشباب اليافعين بتلك القصة التى لم يتحدث عنها حتى مع زوجته بكلمة واحدة ، لكن قازانغاب حكم فى القضية بتعقل ونزاهة كما فى كل مرة . وما كان فى وسع احد ان يبت فيها الآن ، والا لكان يديغي قد ترك مفرق بورانلى – بورانى منذ زمن بعيد . . .

فى ذلك العام ، وهو العام الحادى والخمسون ، ومع انقضاء الشتاء تقريبا ، وصلت المفرق عائلة متكونة من الزوج والزوجة

وولديهما . الابن الاكبر داول فى حدود الخامسة من عمره ، اما الاصغر ففى الثالثة ، وكان اسمه ايرميك . وكان رب الاسرة ابو طالب قطبايف نفسه تربا ليديغي . ولقد كان قبل الحرب شابا وعمل معلما لسنة واحدة فى مدرسة الأوول ، وفى صيف العام الحادى والاربعين كان من اوائل الذين سوقوا الى الجبهة . ويبدو انه تزوج ظريفة فى نهاية الحرب او بعدها مباشرة . وهى ايضا كانت الى ما قبل نزوحهما معلمة الصفوف الابتدائية ، وها قد ارغمهما المصير المقدر ودفعهما الى ساروزيكى فى بورانلى – بورانى .

واصبح جليا منذ اللحظة الاولى ان قدومهما للعيش فى ساروزيكى المقفرة له اسبابه الاضطرارية . وكان فى وسع ابى طالب وظريفة ان يجدا لنفسيهما عملا فى اماكن اخرى ، وبسهولة . لكن ، كما يظهر ، حتمت هذا الظروف ولم يبق فى يديهما اى حل آخر . فى البدء فكر البورانليون انهم لن يطيلوا مكوثهم ، لانهم لا يصمدون ، وسرعان ما سوف يفرون الى اى مكان تسعى بهم اقدامهم اليه . ذلك ان اناسا ليسوا حتى بمستواهم قدموا الى بورانلى-بورانى ثم غادروها . وكان يديغي وقازانغاب ايضا يؤيدان هذا الرأى . بيد ان العلاقة بأسرة ابى طالب اصبحت مع ذلك علاقة احترام ، فقد كانوا اناسا مستقيمين ومثقفين . لكنهم تعرضوا لفاجعة . وعمل كلاهما ، الزوج والزوجة ، كالجميع ، فقد تقلا العوارض على ظهريهما وتعرضا للبرد ايام العواصف الثلجية . وكانا يعملان ذلك العمل الذى يقوم به جميع عمال الصيانة على السكك الحديد ، ولا بد من القول ان تلك العائلة كانت عائلة طيبة ومتفاهمة وودود ، رغم انها كانت تعيسة لأن ابا طالب ، على ما اتضح ، كان أسيرا عند الالمان . فى ذلك الوقت كان حماس سنوات الحرب قد هدأ ولم يعد الناس يعاملون الاسرى السابقين معاملة الخونة والاعداء . اما بخصوص البورانليين فلم يتعبوا انفسهم ، ولم يهتموا لكون الرجل كان أسيرا سابقا ، فالحرب تكللت بالنصر ، والناس قد اضطروا لتجرع الكثير من المآسى الفظيعة فى هذا الحدث العالمى الجلل والنكبة النكباء . وكان الكثيرون منهم حتى ذلك الوقت يجوبون الدنيا غير مستقرين . وشبح الحرب لا يزال

يلاحقهم . . . ولهذا لم يشأ البورانليون امطار القادمين بالاسئلة الخاصة ، على اساس قولهم : لماذا نسمم قلوب الناس ، وهم بدون هذا ، قد تجرعوا العلقم بما فيه الكفاية .

وحدث ليديغي ، مع مرور الزمن ، ان صادق ابا طالب بشكل عفوي . وكان ابو طالب رجلا ذكيا . ومن الأمور التي جعلت يديغي ينجذب نحوه هو ان ابا طالب رغم حالته المؤلمة لم يكن ذليلا . كان حسن السلوك وموقرا ، ولا يتشكى من مصيره عبثا . وكان ياخذ بعين الاعتبار كل شؤون الحياة . ويظهر انه ادرك ان هذا المصير هو مصيره المقدر ، ولعل هذا ايضا قد تسلل الى وعي ظريفة . واذ ارتضيا في اعماقهما هذا الجزاء المحتوم ، اصبحا يجدان معنى الحياة في حساسية فريدة وتقاربا من بعضهما البعض . وكما فهم يديغي فيما بعد فان هذا كان زادهما ، وبهذا دافعا عن نفسيهما وذادا عن طفليهما رياح الزمن القاسية . ولا سيما ابو طالب . فلم يكن يقوى على العيش يوما واحدا في غير كنف عائلته . وكان ولداه يعنيان كل شيء بالنسبة له . ويصرف عليهما كل دقيقة من فراغه . يعلمهما القراءة والكتابة ويختلق لهما مختلف الحكايات والأحاجي ويبتدع لهما العابا بنفسه . وعندما بدا هو وزوجته بالعمل مكث الطفلان اول الأمر في البيت لوحدهما لكن اوق بالا لم تستطيع الوقوف مكتوفة الايدي حيال هذا ، فراحت تاخذ الولدين الى بيتها . كان بيتهم ادفا واتفق ان تكون معيشتهم في ذلك الوقت افضل من القادمين الجدد . وهذا الأمر قرّب بين العائلتين . ذلك ان اطفال يديغي ايضا كانوا يترعرعون ، وبالمناسبة كانت بنتاه في نفس عمر الولدين .

وذات مرة اقترح ابو طالب عندما جاء لأخذ ولديه :

— اسمح لي يا يديغي ان اعلم بنتيك سوية مع ولدي . ذلك انني لا اشغل نفسي مع الاولاد قتلا للوقت فقط . لقد عقد اطفالنا اواصر الصداقة بينهم واخذوا يلعبون سوية . وليكونوا في النهار عندكم وفي المساء عندنا . اما لماذا اقول هذا كله ؟ ان الحياة هنا في منطقة نائية ، بالطبع ، حقيرة ، وهذا ما يستوجب تعليمهم اكثر . سيأتي زمن تكون المعرفة فيه ضرورية منذ الطفولة . ان الانسان الصغير في عصرنا الحاضر ينبغي ان

يعرف منذ نعومة اظفاره اكثر مما كان يعرف شاب راشد في السابق . والا فكيف يشق المرء طريقه نحو المعرفة .

ومرة اخرى ادرك يديغي البوراني مغزى الكلام الغريب لابي طالب متاخرا ، عندما وقعت المصيبة . آنذاك فقط فهم ان ذلك كان الشيء الوحيد الذي يستطيعه ابو طالب ، في وضعه الحالي ، بالنسبة لاطفاله في الظروف البورانلية . فقد كان عجولا في منحهم المزيد من المعارف قدر الامكان ، وكأنه كان يريد بهذه الطريقة ان ينطبع في ذاكرتهم ، فيعيش من جديد في ابنائه . وفي الامسيات عندما كان ابو طالب ياتي من العمل ينظم هو وظريفة ما يشبه المدرسة او روضة الاطفال لابنائه وبنات يديغي . وكان الاطفال يتعلمون الحروف والمقاطع ، ويلعبون ويرسمون ويتسابقون ويستمعون الى محتوى الكتب التي كان الوالدان يقرآنها لهم ، وحتى انهم تعلموا سوية مختلف الاغاني . واتضح ان هذا عمل ممتع جدا حتى ان يديغي نفسه اخذ يتردد اليهم ويشاهد حسن توفيقهم فيه . واوق بالا ايضا غالبا ما هرعت الى هناك متظاهرة بوجود عمل ما ، لكنها في الواقع كانت تريد ان تلقي نظرة على بناتها وما يفعلن هناك . وحنا فؤاد يديغي البوراني عليهم ، ورق لهم قلبه . تلك اذن اهمية الناس المتعلمين ، اهمية المعلمين !

يطيب للمرء ان يرى معاملتهم الاطفال ، وكيف بوسعهم ان يكونوا كالاطفال الصغار على كونهم كبارا . في مثل تلك الامسيات كان يديغي يبذل جهده لئلا يزعجهم فينتحى جانبا بهدوء . وما ان كان يدخل البيت حتى يخلع قبعته من العتبة ويقول :

— مساء الخير ! ها هو تلميذكم الخامس قد جاء الى روضة الاطفال .

واعتاد الاطفال زياراته . فكانت ابنتاه تشعران بالسعادة من ذلك . وكانتا تحاولان اظهار مواهبهما امام والدهما . وكان يديغي واوق بالا يشعلان المدفئة لكي يعم الدفء البيت الخشبي في الامسيات .

واستقرت هذه العائلة في بورانلي-بوراني تلك السنة ، لكن

الغريب ان مثل هؤلاء الناس لا يوفقون عادة ولا يحظون فى الحياة بنصيب حسن .

كانت مأساة ابى طالب قطبايف لا تقتصر على سابق تواجده فى الأسر الألمانى ، بل ، لعل هذا لحسن طالعه ام لسوئه ، انه هرب مع مجموعة من اسرى الحرب من معسكر الاعتقال من جنوب بافاريا ووجد نفسه فى العام الثالث والاربعين فى صفوف الانصار اليوغوسلاف . وحارب ابو طالب فى جيش التحرير اليوغوسلافى حتى نهاية الحرب . وهناك جرح وعولج ، ومنح اوسمة حرب يوغوسلافية ، وكتب عنه فى جريدة الانصار ونشرت فيها صورته . ولقد ساعده هذا كله مساعدة كبيرة عندما درسوا قضيته فى لجنة التفتيش والمراقبة بعد عودته الى الوطن فى العام الخامس والاربعين . بقى على قيد الحياة من بين اولئك الذين هربوا من معسكر الاعتقال اربعة افراد من مجموع اثنى عشر . ولقد حالف الحظ هؤلاء الاربعة وساعدهم ، اذ زارت لجنة التفتيش والمراقبة السوفيتية مباشرة وحدات جيش التحرير اليوغوسلافى وقدم القادة العسكريون اليوغسلاف لها رسائل شكر مكتوبة عن الخصال العسكرية والاخلاقية لهؤلاء الأسرى السوفييت السابقين ومساهمتهم فى نضال الانصار ضد الفاشية .

على العموم ، بعد مرور شهرين ، وبعد الكثير من التحقيقات والاستجوابات ومواجهة الشهود والانتظارات والآمال والاخفاقات عاد ابو طالب قطبايف الى قازاخستان بدون فرض اى قيود على حقوقه ، ولكن ايضا بدون اية امتيازات من التى يتمتع بها المسرحون . ولم يشعر ابو طالب قطبايف من هذا باستياء ، فعاد من جديد الى عمله السابق الذى كان يمارسه قبل الحرب وهو معلم الجغرافية فى المدرسة . وهنا فى مدرسة بواحد من مراكز الاقضية التقى بظريفة معلمة الصفوف الابتدائية . وان كانت مثل هذه الحالات للسعادة المشتركة نادرة لكنها تصدف ، والحياة لا تخلو منها .

وشهدت تلك الفترة خفوت ضجة سنوات النصر الاولى . وكانت تلوح عقب الانتصارات والافراح فى الهواء الندف الاولى من «الحرب الباردة» ، ثم اشتدت . وتقلصت نوابض وعى ما

بعد الحرب فى مختلف انحاء العالم ، وفى مختلف المواضع الحساسة . . .

فى احد دروس الجغرافية عملت هذه القوة الخفية . وكان يجب ان يحدث ذلك عاجلا ام آجلا ، بهذه الطريقة او تلك ، هنا او فى مكان آخر ، وان لم يكن معه فمع شخص آخر مثله .

عندما كان يتحدث ابو طالب لتلاميذ الصف الثامن عن القسم الاوروبى من العالم نوه بانهم ذات مرة اخذوهم من معسكر الاعتقال الى جبال الالب بجنوب بافاريا الى مقلع الحجارة ، وكيف تسنى لهم ان يهربوا من هناك بعد ان نزعوا سلاح الحراس متوجهين صوب الانصار اليوغوسلافيين ، وحدثهم انه قطع نصف اوروبا اثناء الحرب ، وزار شواطئ الادرياتيك والبحر الابيض المتوسط ، وانه يعرف جيدا طبيعة تلك المناطق وحياة سكانها المحليين ، وانه من المتعذر وصف هذا كله فى الكتاب المدرسى . واعتقد المعلم انه بهذه الطريقة يثرى المادة بالمشاهدات العيانية الحية .

ومرر عصاه على خارطة اوربا الملونة بالوان زرقاء وخضراء وبنية ، والمعلقة على سبورة الصف . وتتبع بعصاه الجبال والانهار ، وهو لا ينفك يمس تلك المناطق التى كان ولا يزال يحلم بها فى الليالى ، حيث دارت المعارك من يوم لآخر فى العديد من فصول الصيف والشتاء وربما مرت عصاه فوق تلك النقاط غير المتميزة التى اراق فيها دمه عندما لعلعت من الجانب صلية رشاش للعدو وتدحرج هو ببطء من فوق المنحدر تاركا خيطا من الدم على العشب والاحجار ، ذلك الدم القانى الذى كان ممكنا ان يلون الخريطة الدراسية كلها ، وحتى خيل اليه لهنيهة ان الدم القانى يسيل على الخارطة ، وتصور كيف داخ رأسه آنذاك واسودت الدنيا فى عينيه ، وكيف بدا له وكان الجبال اخذت تنهار عاليها سافلها المنقلبة وكيف صرخ مستغيثا ومستنجدا بصديقه البولندى الذى هرب معه فى الصيف الماضى من مقلع الحجارة ببافاريا «كازيمير» ! «كازيمير !» بيد ان ذاك لم يسمعه ، لانه تراءى له فقط انه يصرخ بأعلى صوته ، بينما هو فى الحقيقة لم ينبس بأى صوت ، ولم يثب الى رشده الا فى مستشفى الانصار بعد نقل الدم اليه .

كان ابو طالب قطبايف وهو يحدث الاطفال عن القسم الاوروبى من اراضى العالم يتعجب من نفسه لكونه يستطيع بعد كل ما عاناه ان يتحدث بنبرة عملية وحيادية فقط عما يتعلق بموضوع درس الجغرافية .

وفى هذه الاثناء قاطعته يد ارتفعت فجأة فى الصف :

– يا معلم ، اذن فقد كنت أسيرا ؟

وتطلعت اليه عينان صارمتان بنظرة باردة جامدة . كان وجه الفتى مرفوعا قليلا ، وكان يقف وقفة استعداد . وظل ابو طالب طول حياته ولسبب ما يتذكر اسنانه وكان يتذكر الصف الاسفل منها بارزا فوق الاسنان العليا .

– نعم ، ثم ماذا ؟

– لماذا لم تطلق النار على نفسك ؟

– لماذا كان يجب ان اقتل نفسى ؟ بلا هذا كنت جريحا .

– لانه لا يجوز الوقوع فى اسر العدو . هناك امر بذلك !

– امر ممن ؟

– من السلطات العليا .

– من اين تعرف ذلك ؟

– انا اعرف كل شىء . ياتى الى عندنا اناس من الما – آتا وحتى من موسكو . يعنى انك لم تلتزم بتنفيذ امر السلطات العليا ؟

– هل كان والدك فى الحرب ؟

– كلا ، كان يعمل فى التجنيد .

– اذن من الصعب ان نتفاهم . وكل ما يوسعنى هو قولى انه لم يكن امامى اى مخرج آخر .

– مع ذلك كان يتوجب عليك ان تنفذ الأمر .

– لماذا تتعنت هكذا ؟ – قام تلميذ آخر من مكانه – لقد قاتل معلمنا الى جانب الانصار اليوغسلاف . ماذا تريد بعد ؟

– مع ذلك كان يتوجب عليه ان ينفذ امر السلطات العليا !

– كرر ذلك بلهجة قاطعة .

وفى هذه الاثناء انفجر الصمت المخيم وعلا الضجيج فى الصف : «كان يتوجب عليه» ، «لم يكن يتوجب عليه» ، «كان

بامكانه» ، «لم يكن بامكانه» ، «صحيح» ، «غير صحيح» . ضرب المعلم بقبضته على الطاولة :

– كفوا عن الكلام والضجيج نحن الآن فى درس الجغرافية ! اما كيف حاربت انا وماذا حدث لى فيعرفه من يجب ان يعرفوا . والآن نعود الى خارطتنا !

مرة اخرى لم ير أحد من تلاميذ الصف تلك النقطة صعبة التمييز على الخارطة حيث لعلعت من جديد صلية الرشاش من الجانب ، وكيف تدحرج المعلم الواقف عند السبورة بعصاه على المنحدر على مهل غامرا خارطة اوروبا بالوانها الزرقاء والخضراء والبنية بدمه القانى . . .

وعقب مرور بضعة ايام استدعي الى مركز المنطقة . وهناك طلب من قطبايف دون كلام كثير ان يقدم طلبا لتسريحه من العمل بناءا على طلبه الخاص اذ ان أسير الحرب السابق لم يكن ليملك الحق الاخلاقى فى تعليم وتربية الجيل الفتي الطالع .

واضطر ابو طالب قطبايف للانتقال برفقة زوجته ظريفة وابنه البكر داول الى قضاء آخر بعيد عن مركز المحافظة . والتحقا هناك للعمل بمدرسة الأوول . وحسبوا انهم قد تاقلموا ، وتوفقوا فى الحصول على السكن ، واصبحت ظريفة المعلمة الشابة القديرة رئيسة لقسم التعليم . لكن فى تلك الآونة انفجرت احداث العام الثامن والاربعين ، المتعلقة بيوغوسلافيا . واخذوا ينظرون الى ابى طالب قطبايف ليس كاسير حرب سابق ، بل كشخصية مشكوك فيها ، قضى وقتا طويلا خارج البلاد. ومع انه كان يؤكد انه لم يشارك الا فى حرب الانصار اليوغوسلافيين فانهم لم يعيروا له بالا . كان الجميع يفهمونه ، وحتى كانوا يشاطرونه المشاعر ، لكن احدا لم يتجرأ ان يتحمل اية مسؤولية فى هذا المجال . واستدعي قطبايف من جديد الى مركز القضاء وتكررت ايضا قصة طلب الاستقالة بناءا على الرغبة الشخصية . . .

وبعد ان انتقلت عائلة ابى طالب قطبايف مرات كثيرة من مكان الى مكان حطت الرحال والقت عصا الترحال اخيرا أواخر العام الحادى والخمسين ، فى عزّ الشتاء ، بمنطقة ساروزيكى ، فى مفرق بورانلى – بورانى .

كان صيف العام الثانى والخمسين قائظا فوق العادة . فجفت الارض ، وتوقدت لدرجة ان حراذين ساروزيكى لم تكن تجد مكانا تتوارى فيه ، فكانت تهرع دون ان تخاف الناس الى عتبات البيوت خافقة بلاعمها باسى وفاغرة افواهها ، لكى تتوارى عن الشمس اينما كان . اما النسور فكانت تحلق عاليا فى السماء بحثا عن البرودة وكان من المتعذر رؤيتها بالعين المجردة . كما انها لم تكن تشعر بوجودها الا بصيحات وبزعقات منفردة حادة ، ثم كانت تسكت طويلا فى السراب المتموج .

بيد ان الواجب هـــو الواجب . وظلت القطارات تسير منطلقة من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق . وكم من القطارات تفرقت فى مفرق بورانلى-بورانى . وكان الحر مهما بلغ مبلغه عاجزا عن التاثير على حركة المواصلات فى الطريق الحكومى الكبير .

وسار كل شىء فى أوانه . واضطروا الى العمل فى السكة الحديد مرتدين القفافيز ، اذ كان من المتعذر مس اى حجر بأيد مجردة ، ناهيك عن الحديد . وكانت الشمس تصلى فوق الرؤوس كالمجمرة . وكان الماء يجلب كالعادة بالصهاريج ، واثناء نقله يكاد يصل الى درجة الغليـــان . والملابس كانت تكاد تحترق وتتخرق على الاكتاف فى ظرف يومين . ان اشد الايام الصقيعية فى الشتاء كانت اخفّ وقعا على المرء من تلك الحرارة اللاهبة .

حاول يديغي البورانى فى تلك الايام ان يستنهض همة ابى طالب .

– ليس الصيف عندنا دائما هكذا . كل ما فى الأمر هو ان هذه السنة حارة للغايـــة – كان يديغي يعتذر وكأنه هو المذنب – بعد خمسة عشر او عشرين يوما كاقصى حد ستخف الحرارة ، عليها اللعنة فلقد عذبت الجميع وحملتهم من امرهم رهقا . ويحدث احيانا فى ساروزيكى ان يعتدل الطقس بشكل مفاجئ عند نهاية الصيف . عندئذ سنعيش فى غبطة طول الخريف حتى مجىء الشتاء . يميل الجو الى البرودة وتسمن الحيوانات . ويبدو لى ان علائم ذلك ماثلة ، وسيتغير الجو مثل هذا التغير . تحمل قليلا ، سيكون الخريف لطيفا .

– معنى هذا انك تضمن ذلك ؟ – كان ابو طالب يقول مبتسما وفاهما يديغي .

– تقريبا

– شكرا لك على هذا . وها اننى احس كما لو كنت فى حمام ساخن لكنى لست اخاف على نفسى ، فانا وظريفة نتحمل ، لاننا تحملنا ما هو اقسى . اننى اراف بحال الاطفال . . . لا اقوى على النظر اليهم . . .

كان اطفال البورانليين يعانون الضنى ويكابدون العناء كـل العناء وغدت وجوههم كالحة ، ولم يكن ثمة من مكان يمكن سترهم فيه من الهواء الخانـــق للانفاس والقيظ المنهك لقوى الناس ، وما من شجرة حواليهم او ساقية مما هو ضرورى لعالم الاطفال . اما عند حلول فصل الربيـــع اذ تنتعش ساروزيكى وتخضر اطراف المراعى فقد كان الاطفال يجدون امامهم مجالا رحبا للتنزه واللعب . فكانوا يلعبون الكرة ولعبة الاستخفـاء (الاستغماية) ويتراكضون متقافزين فى البرية ويطاردون السوالق . وكان الانسان يخالجه الفرح لدى سماعه اصواتهم تصدح من بعيد .

حطم الصيف كل شىء . والحرارة المفرطة اضنت الاولاد كثيرى الحركة . وكانوا يخفون هربا من الحر الى الفىء جنب حيطان البيوت غير مبتعدين عنها الا عندما كان يمر قطار . كان هذا ولعهم ، تعداد القطارات المارة فى هذا الاتجاه او فى ذاك وكم من عرباتهـــا كانت عربات لنقل المسافرين او عربات البضاعة والحمولة . وحين كانت قطارات المسافرين تعبر من المفرق مخفضة سرعتها كان الاطفال اذ يتراءى لهم ان هذا القطار قد توقف ، يهرعون نحوه محاولين اللحاق به لاهثين محتمين من الشمس باكفهم وبايديهم ، وربما كان يداعب نفوسهم امـــل ساذج بالارتحال عن هذا الجحيم ، وكان من الصعب رؤية الشعور غير الطفولى من الحسد والحزن الذى كان يراود افئدة الاطفال البورانليين وهم يتابعون مودعين بنظراتهم الأسيفة تلك العربات المغادرة . كان المسافرون فى تلك العربات المفتوحة الابواب والشبابيك على مصاريعها يكادون يفقدون عقولهم بتأثير الهواء الخانق والنتانة والذباب ، لكن هؤلاء على الاقل كانوا على ثقة

ويقين بانهم سوف يصلون بعد يومين او ثلاثة ايام الى حيث تجرى انهار منعشة وتتماوج غابات خضراء .

لقد تاثر من اجل الاطفال فى ذلك الصيف الجميع . الآباء والامهات ، اما بخصوص ما كان يكلف هذا ابا طالب فلم يفهمه احد سوى ظريفة ، ولربما يديغي وحده ، ايضا . وبالمناسبة لقد جرى الحديث الاول عن ذلك مع ظريفة . وذلك الحديث كشف ايضا اشياء اخرى من حياة هذين الزوجين .

كانوا فى ذلك اليـــوم يعملون على خط السكة الحديد ، يجددون الحصى على متنها . كانوا ينثرون الحصباء ويدسونها تحت العوارض والقضبان ، وبهذا كانوا يقوون السدة ويحفظونها من الانهيال بتاثير الاهتزازات ، كان ينبغى القيام بذلك من حين الى آخر فى الفترات التى تتخلل مرور القطارات . وكان فـى القيام بعمل كهذا فى مثل ذلك الحر ولفترة طويلة منتهى الأذى . وحوالى الظهر تناول ابو طالب الصفيحة وذهب على حد قوله ، لجلب الماء الحار من الصهريج فى العطفة المسدودة ، وفى نفس الوقت سيلقى نظرة ليرى كيف هى حال الاولاد .

سار بموازاة العوارض بسرعة مع ان الشمس كانت تصلى باشعتها الحارقة . كان يستعجل الوصول بسرعة الى اطفاله ، ولم يفكر بنفسه . وكان يرتدى قميصا حائل اللون يبدو كالمعلق على كتفيه الناتئتين ، ويعتمر قبعة رثة من القش وبنطلونـــه يرتخى على جسده الضامـــر ويحتذى جزمة عمالية متهرئة بلا قيطان . كان يسير خافقا كعبى حذائيه بالعوارض دون ان يعير اهتماما لاى شىء . حتى انه لم يلتفت عندما ظهر قطار خلفه ، فصاح به يديغي :

– ايه يا ابا طالب . ابتعد عن الخط ! هل طرشت ؟

بيد انه لم يسمع . ولم ينزل من السدة الا بعد ان صفر القطار وحتى بعد ذلك لم يلتفت نحو القطار المـار العابر من جنبه . ولم يشاهد سائقه الذى كان يهدده بقبضته متوعدا .

هذا الرجل لم يكن يعانى من وخط الشيب فى الحرب ، وفى الأسر ، بالطبع كان آنذاك صغيرا ، اذ غادر الى الجبهـــة وهو فى سن التاسعة عشرة من عمره ، برتبة ملازم . اما فى ذلك الصيف فقد لفع الشيب راسه . انه كان شيب ساروزيكى .

زد على ذلك انه سرعان ما لاح هذا البياض الذى حل قبل اوانه هنا وهناك فى شعره الكثيف ، واصبح يحمل الشيب على صدغيه . لو كان هذا فى ازمنة سعيدة لكان رجلا جميلا ومعتبرا . وكان ابو طالب عريض الجبهة ذا انف مقوس وجوزة عنق بارزة وفم متين وعينين مبسوطتين ، ومديد القامة فارعها . وكانت ظريفة تقول له مازحة ومداعبة : «لم يحالفك الحظ يا ابا طالب ، كان ينبغى لك ان تلعب دور عطيل على المسرح» وكان ابو طالب يمزح قائلا : «عندئذ لكنت خنقتك بيدى فى حماقة ، فما حاجتك لهذا !»

ساور يديغي القلق الشديد لرد فعل ابى طالب البطىء على القطار القادم من ورائه ، فقال لظريفة معاتبا :

– حبذا لو طلبت منه الاقلاع عن امثال هذا الفعل اذ ان سائق القطار غير مسؤول ، لانه لا يجوز له السير على السكة . وحتى بدون هذا . لماذا يخاطر ويجازف بحياته ؟

جذبت ظريفة نفسا عميقا ماسحة العرق بكمها عن وجههـــا الملوح بالسواد من جراء لفح الشمس وقالت :

– انى اخشى عليه كل الخشية .

– ولماذا ؟

انى خائفة عليه يا يديغي . ما من شىء عندنا نحرص على اخفائه على علمك . انه يؤنب نفسه من اجلى ومن اجل الاطفال . لاننى عندما تزوجته لم اسمع كلام أهلى . اخى الاكبر ، خرج عن اطواره وراح يصرخ : «ستندمين طول عمرك يا غبية ! انت لا تقدمين على الزواج ، بل على التعاسة ، وحتى اطفالك واطفال اطفالك حكم عليهم بالتعاسة قبل ان يولدوا . وخطيبك ايضا ، لو عنده عقل ، لشنق نفسه ولما فكر بان يتأهل . فهذا هو احسن مخرج بالنسبة له !» «لكننا عملنا كما اردنا ، وفكرنـا انه طالما انتهت الحرب فاى حساب للاحياء والاموات ؟ وعشنا بعيدين عن الجميع ، عن اقاربه واقاربى . وتصور ان اخى فى المرة الاخيرة كتب بنفسه عريضة يقول فيها انه نبهنى ووقف ضد زواجنا ، وانه لا يمت بصلة اليّ ، ولا سيما الى شخصية قضت ردحا طويلا من الزمن فى الخارج كأبى طالب قطبايف . لكن بعد هذا بدأت المشاكل من جديد . اينما ولينا وجهنا راينا

الابواب مسدودة . وها اننا الآن هنا . ولم يبق اى مكان آخر امامنا .

وسكتت وهى تجرف بعنف الحصباء المتكسرة تحت العوارض . ولاح فى الامام قطار قادم آخر . ابتعدا عن الخط حاملين معهما الرفوش والحمالات .

وشعر يديغي ان من الواجب عليه ان يقدم المساعدة الطويلة عندما يكون الناس فى مثل هذا الوضع . ولكن لم يكن بوسعه ان يغير شيئا ، ذلك ان المصيبة كانت بعيدة جدا عن حدود ساروزيكى ، وقال يديغي محدقا فى وجه ظريفة :

– اننا نعيش هنا منذ سنوات طويلة . وانتم ايضا ستعتادون وتتكيفون . ثم انه لا بد من العيش .

واستغرق فى التفكير : «اجل ان خبز ساروزيكى مر . عندما جاؤوا الى ساروزيكى شتاء كانت ظريفة لا تزال بيضاء الوجه ، اما الآن فقد اصبح وجهها اسمر بسمرة الارض – كان يتذكر ويتأسف لجمالها المتلاشى امام عينيه – اما اى شعر كان لها ، لقد بهت لونه ، حتى رموشها لفحت ، وتشققت شفتاها . ما اسوأ حالها . انها غير معتادة على مثل هذه الحياة . الا انها تقاوم ولا تتراجع . والى اين تتراجع : فهى ام لطفلين . مع كل ذلك فانها شاطرة . . .»

فى هذه الاثناء مرق قطار عاصفا الهواء الساكن وملعلعا مثل صلية رشاش . رفعا عدتهما من جديد الى السدة وواصلا عملهما .

وقال يديغي محاولا تقوية عزيمتها بشكل ما وجعلها ترتضى الواقع :

– اسمعى يا ظريفة . الحال هنا بالنسبة للاطفال ، بالطبع ، صعبة ، دون نقاش . وانا نفسى عندما انظر الى اطفالنا يتلوع قلبى . لكن هذا الحر لن يبقى هكذا الى الابد . سيزول . ثم اذا ما فكرنا فى الموضوع فانتما لستما لوحدكما . ثمة فى ساروزيكى اناس اخرون يحيطون بكم ، فى اسوأ الاحتمالات ، نحن موجودون . وليس من المعقول ان يموت المرء طالما حدث له هذا فى الحياة .

– انا ايضا اقول له الشىء نفسه يا يديغي . واننى حريصة على عدم النطق بكلمة واحدة زائدة . اننى افهم حاله .

– انت تتصرفين تصرفا صحيحا . اننى وددت ان اتحدث اليك عن هذا يا ظريفة . وكنت انتظر فرصة . وانت تعرفين كل شىء . مجرد ان الشىء بالشىء يذكر . سامحينى .

– يحدث احيانا ان يخرج الأمر عن حدود طاقة المرء . اننى اتأسف على نفسى وعليه ، اما على الاطفال فاكثر . مع انه ليس مذنبا بشىء لكنه يشعر بالذنب لانه جاء بنا الى هنا . ولا يقدر على تغيير اى شىء . لا لزوم للقول بان الحياة مغايرة تماما فى منطقتنا ، بين جبال وانهار الاتاو والمناخ يختلف كليا . نود ان نرسل الاطفال ولو لفترة الصيف الى هناك . لكن عند من ؟ ليس لنا اهل ، لقد ماتوا مبكرا . يبقى الاخوان والاخوات والاقارب . . . من الصعب ان نحكم عليهم ، لان هذا الحكم يكون باطلا فى حقهم . فى السابق كانوا يتحاشوننا اما الآن فيتهربون منا كليا . ما حاجتهم لاطفالنا ؟ وهكذا فاننا نتعذب ونخاف ان نبقى هنا طول العمر ، مع اننا لا نتحدث عن هذا بصوت مسموع . لكننى أرى ما هى احواله . . . اما ماذا ينتظرنا مستقبلا فلا يعرفه الا الله . . .

كانا يلوذان بالصمت بصعوبة . بعد ذلك كانا لا يعاودان فتح هذا الحديث . فيعملان ويسمحان للقطارات بالمرور على الخط حين كانت تأتى ثم يعودان للعمل من جديد . ماذا كان قد تبقى امامهما ؟ وكيف ايضا كان عليه ان يبعث فيهما الصبر والسلوى ويساعدهما فى مصيبتهما ؟ وفكر يديغي : «بالطبع ، لن يشحذا . وسيعيشان على عملهما المشترك . لم يرغمهما أحد على العيش فى هذا المكان . لكن فى نفس الوقت ليس لهما اى منفذ آخر لترك المنطقة ، لا غدا ولا بعد غد» .

علاوة على ذلك كان يديغي يندهش من نفسه ، ومن شعوره بالاستياء والحزن على هذه العائلة وكان مشكلتهم تخصه مباشرة . من هم بالنسبة له ؟ وكان يمكن ان يقول لنفسه ان هذه القضية ليست قضيته ، ما شأنه بها ؟ ومن يكون هو حتى يقاضى ويحكم على اشياء لا يحق له الحكم فيها ؟ انه شغيل وابن البرارى ، عدد امثاله لا يحصى فى العالم ، أيحق لـه الاستياء والامتعاض وان

يشغل باله بمسألة ما اذا كان هذا عادلا ام غير عادل فى الحياة . وفى اغلب الاحتمال لابد انهـــم هناك ، حيث يحدث هذا كله يعرفون خيرا الف مرة اكثر من يديغي البورانى . وهناك يرون المشكلة افضل مما يراهـــا وهو فى ساروزيكى . وهل هذه المشاغل من اهتماماته ؟ ورغم ذلك لـــم يتمكن أن يركن الى الهدوء . ولا يدرى لماذا كان يكابد اكثر من اجل ظريفة ، لقد أدهشته بوفائها وصبرها ورباطة جاشها وصراعها المستميت بوجه المصائب . وكانت تشبه طيرا طائرا يحاول ان يحمى بجناحيه العش من الرياح . لو كانت امراة اخرى فـــى مكانها لبكت مدة معينة وثم اذعنت لأهلها وركعت امامهم . بينما هى كانت تدفع ثمن الحرب الماضية على قدم المساواة مع زوجها . وهذا الوضع بالذات كان يشغل بال يديغي اكثر من اى شىء آخر لانه لم يكن بامكانه ان يدافع عن اطفالها وزوجها باى شىء . . . وصادفت بعد ذلك اوقات كان يتاسف فيها بمرارة لأن المصير ارتأى ان ياتى بهذه العائلة الى يورانلى-بورانى . مـــا حاجته الى كل هذا التاثير ؟ لو لم يعرف هذه المشكلة ولم يراها بام عينيه لعاش بهدوء وسكينة كما فى السابق . . .

الفصـــل السادس

عند النصف الثانى من النهار اضطربت الامواج فى المحيط الهادى ، جنوب جزر الوشن . اشتدت الرياح الجنوبية-الشرقية الهابة من القارة الامريكية رويدا رويدا ، وقوّت من اتجاهها . وشرعت المياه بالحركة فى الارجاء الشاسعة المترامية متهادية بثقل مطرطشة ومكونة الامواج المتراصة اكثر فاكثر . وكان هذه ينبئ بعاصفة بل على اقل تقدير باضطراب طويل الامد .

مثل هذه الامواج على سطح المحيط ، لم تكن تشكل اية خطورة على حاملة الطائرات «كونفينتسيا» ولما كانت قد فكرت بتغيير موضعها لولا توقعها بين لحظة واخرى ان تهبط الى متنها الطائرتان وفيهمـــا اعضاء اللجنتين الخاصتين بعد التشاور مع

المراجع العليا ، ولذلك ارتأت حاملة الطائرات ان تستدير ضد الريح لكى تقلل من تلاعب الامواج بها من الجانب . وجرى كل شىء على ما يرام . فى البـــدء هبطت الطائرة القادمة من سان فرنسيسكو ثم الاخرى القادمة من فلاديفوستوك .

عادت اللجنتان بكامل اعضائهما وكلتاهمـــا تلزمان الصمت نفسه وتبديان الاهتمام عينه . وبعد ربع ساعة جلسوا وراء طاولة الاجتماع المغلق . وبعد خمس دقائق من عمل اللجنتين ارسلت الى متن المحطة المدارية «باريتيت» فى الفضاء برقيـــة لاسلكية مكتوبة بالشفـــرة الى رائدى الفضاء المتكافئين ١–٢ و٢–١ فى منظومة كوكب «الحامل» : «الى رائدى الفضاء المفتشين ١–٢ و٢–١ فى المحطة المدارية «باريتيت» . حذرا رائدى الفضاء المتكافئين ١–٢ و٢–١ الموجودين خارج حدود المنظومة الشمسية ان لا يقدما على اى عمل . وان يبقيا فى مكانهما حتى صـــدور الاوامر الخاصة لاوبتسينوبر» .

بعد ذلك بدأت اللجنتان المخولتان بالمهمات الخاصة ، دون ان تضيعا دقيقة واحدة بعرض موقفيهما واقتراحاتهما بخصوص حل هذه الازمة الفضائية . . .

كانت حاملة الطائرات «كونفينتسيا» واقفة ضد الريح وسط الامواج المتلاطمة للمحيط الهادى . ولم يعرف احد فى العالم انه فى ذلك الوقت كان يقرر مصير الكون على نحو شامل . . .

كانت القطارات فى هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق .

وعلى جانبى خط السكة الحديد كانت تمتد مساحات شاسعة من الاراضى الصحراوية — سارى اوزيكى ، الاراضى الوسطـــى من البرارى الصفراء . . .

وفى هذه الانحاء كانت المسافات تقاس نسبة الى خط السكك وكانه خط غرينيتش . . .

اما القطارات فواصلت سيرهـــا من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق . . .

كان قد تبقى حوالى ساعتين حتى مقبرة آنا — بابيت . وكان موكب التشييع يسير فى سارووزيكى على نفس منواله يهديـــه

يديغي البورانى راكبا بعيره . وكان قره ناره كالسابق يسير في المقدمة سيرا حثيثا بلا كلل ، يتبعه فى الارض البكر التراكتور والعربة المقطورة التى كان يجلس فيها وحيدا وصابرا الى جانب جثمان المرحوم قازانغاب صهره ، زوج آى‌زادى ، وتسير وراءه الحفارة «بيلاروس» ، وفى الجانب كان يركض الكلب الاشقر جولبارس واثقا من نفسه تارة يتقدم الموكب وتارة يتاخر عنه وتارة يتوقف لسبب ما مهم .

لفحت الشمس مرتفعة الى السمت . تركوا فى الخلف القسم الاكبر من المسافة . وكانت تُرى فى ساروزيكى العظيمة بعد كل مرتفع ارض صحراوية جديدة ممتدة فى كل مرة حتى حدود الافق . تلك الرحابة البرية كانت عظيمة . فى زمن ما كان يعيش فى هذه المناطق الجوانجوانيون السيئو الذكر ، الغرباء الذين احتلوا لآماد طويلة منطقة ساروزيكى برمتها تقريبا . عاشت فى هذه المناطق شعوب رحل اخرى . وكانت تنشب بينهم حروب دائمة على المراتع والابار ، تارة كان ينتصر هذا الطرف وتارة ذاك . بيد ان المنتصرين والخاسرين كانوا يبقون فى نفس المنطقة ، بعضهم متضايقين وبعضهم موسعين مساحاتهم . قال يليزاروف ان ساروزيكى باعتبارها مجالا حيويا كانت تستحق هذا النضال . عند ذاك كانت الامطار تسقط على هذه المناطق بكميات اكبر منها فى الربيع والخريف . وكان العشب يكفى الكثير من قطعان الماشية على اختلاف انواعها . فى ذلك الوقت كان يأتى التجارة الى المنطقة وتتم فيها عمليات البيع والشراء . بيد ان الجوقد تغير فيهما بعد ، واقلعت الامطار عن السقوط وجفت الآبار ، وزال عشب المراعى . وتفرقت الشعوب والقبائل القادمة الى ساروزيكى كل واحد منها الى حيثما اتفق ، اما الجوانجوانيون فقد انقرضوا نهائيا . فتوجهوا نحو ايديل – هكذا كان يسمى نهر الفولغا فى ذلك الوقت – وانقطعت اخبارهم فى تلك الجهة واطواهم النسيان . ولم يكن احد يعرف من اين جاؤوا والى اين ذهبوا . يقال ان اللعنة نزلت عليهم – عندما كانوا يجتازون جميعا نهر ايديل شتاء انشق الجليد المتجمد على النهر فجأة وغرقوا جميعهم بقطعانهم وامتعتهم تحت الجليد . . .

اما الساروزيكيون الاصليون – وهم النوماديون القازاخيون –

فانهم حتى فى تلك الازمنة لم يهجروا منطقتهم ، واستقروا فى الاماكن التى كانوا فيها يوفقون فى الحصول على الماء من الآبار المحفورة مجددا . بيد ان الوقت الاكثر نشاطا بالنسبة لساروزيكى توافق مع سنوات ما بعد الحرب . وظهرت آنذاك السيارات الصهاريج ، وكان فى وسع سائق واحد ، فيما اذا عرف ذلك السائق المناطق جيدا ، ان يقدم الخدمات لثلاثة او اربعة محاط متنقلة لرعاة الماشية . وفكر مستأجرو المراعى فى ساروزيكى – كلخوزات وسوفخوزات المحافظات المتآخمة – بانشاء مراكز ساروزيكية دائمة للمواشى الرعوية . وكانوا قد خمنوا وحددوا كيف سيتم مثل هذا البناء وكم سيكلف . ولحسن الحظ فانهم لم يسرعوا . اذ ظهرت فى ضواحى آنا-بابيت بغتة ودون ان يشعر بها احد مدينة بلا اسم – صندوق البريد . وهكذا بالضبط كان الناس يقولون : ذهب الى صندوق البريد ، كان فى صندوق البريد ، اشترى فى صندوق البريد ورأى فى صندوق البريد . . . وكانت المدينة – «صندوق البريد» – تتوسع وتبنى وتغلق بوجه الغرباء . وكان طريق معبد يربطها من طرف بالمطار الفضائى ومن طرف آخر بمحطة السكة الحديد . ومن ذلك الزمن ابتدأ التأهل الجديد والتطور الصناعى للمنطقة . ولم يبق من الماضى كله فى هذه المنطقة الا مقبرة آنا-بابيت على تلتين متجاورتين مثل سنامى بعير ، وهى ايغير – تيوبا من الاماكن المفضلة والمعتبرة لدفن الموتى فى منطقة ساروزيكى . فى الازمنة الغابرة كانوا يجلبون الموتى لدفنهم هنا من ارجاء بعيدة جدا حتى ان اناس كانوا يضطرون للمبيت فى البرية . لكن ، بالمقابل كان خلف المدفونين فى آنا-بابيت يفتخرون بكونهم قدموا لذكرى سلفهم واجدادهم شرفا ساميا . وكانوا يدفنون هنا الناس الاكثر اعتبارا وشهرة والمعمرين وواسعى الاطلاع والمستحقين مجدا ساميا بالاعمال والاقوال . كان يليزاروف يعرف كل شىء ، وقد سمى هذه المنطقة بمدفن عظماء الامة فى ساروزيكى .

والى هذا المدفن كان يقترب فى ذلك اليوم من مفرق بورانلى-بورانى للسكك الحديد موكب جنائزى غريب مؤلف من بعير وتراكتورين ويرافقه كلب . . .

ولمقبرة آنا-بابيت حكايتها الخاصة . وتبدأ الحكايـــة بان الجوانجوانيين الذين احتلوا ساروزيكى فى القرون الماضية كانوا يعاملون المحاربين الاسرى بوحشية فظيعة . وكان يصدف ان يبيعوهم كعبيد فى المناطق المجاورة . وفى مثل هذه الاحوال كان ذلك يعتبر نهاية سعيدة للاسير ، اذ كان بامكان العبد المباع الهرب ، عاجلا ام آجلا ، الى وطنه . اما اولئك الذين يحتفظ الجوانجوانيون بهم عبيدا لديهم فكان ينتظرهم مصير مفزع . فقد كانوا يمحون ذاكرة العبد بتعذيب وحشى ، بعد ان لبسوا راس الضحية «شيرى» . وكان مثل هذا المصير ينتظر الاسرى الشباب عادة : فى البدء تحلق رؤوسهم حتى لا يبقى فيها أثر لشعرة ، ثم تقلع بدقة كل شعرة من نصلها ، وفى تلك الاثناء يكـــون الجزارون الجوانجوانيون المحنكون قد ذبحوا بالقرب منهم جملا قويا ، وملسوا فى البدء الجزء المرصوص الثخين ، الذى يكسو الرقبة ، من جلده المسلوخ . وبعد تقطيعه اوصالا ، يلبسونه مباشرة وبالقـــوة على راس الاسير الحليق ، فيلصق به فورا كاللصقة – وهذه العملية تعنى الباس الاسير «الشيرى» . وكان كل من يتعرض لهذه العمليـــة يفارق الحيـاة دون ان يصمد للتعذيب ، او يفقد ذاكرته طيلة حياته ، ويتحول الى مانكورت اى عبد لا يتذكر ماضيه . وكان جلد رقبة جمل واحد يكفى لخمسة او ستة «شيريات» . بعد إلباس «الشيرى» يوضـــع على عنق المحكوم عليه ، نير خشبى لكى لا يتمكن من حك راسه بالارض . ومن ثم ينقل الاسرى وهم بهذه الهيئة بعيدا عن الاماكن المأهولة كيلا تتناهى اليها صرخاتهم المفجعة . وهناك فى البرارى يرمونهم مشدودى الايدى والارجل ، تحت الشمس المحرقة ، بدون ماء وبدون غذاء . ويستمر هذا التعذيب عدة ايام . وكانت دوريات مشددة تحرس الطرق المؤدية الى هذه المناطق اذا ما حاول افراد قبيلة الاسرى انقاذهم طالما هم احياء . بيد ان مثل هذه المحاولات نادرا ما كانت تحدث ، لان اقل حركة فى تلك البرارى الواسعة تلفت الانتباه وسرعان ما تنكشف . واذا ما شاع ، فيما بعد ، ان اسيرا ما ، حوّله الجوانجوانيون الى مانكورت ، فان اقرب الناس اليه لا يفكرون بانقاذه او شرائـه ، لان ذلك كان يعنى استعادة جثة محنطة لانسان سابق . غير ان اماً نايمانية واحدة

فقط ، تحدثنا عنها الاساطير ، وتدعى نايمان-آنا ، لم تقبل بمثل هذا المصير لابنها . ومن الحكاية الساروزيكية هذه ، التى تروى عنها ، جاء اسم مقبره آنا – بابيت وتعنى راحة الام الابدية .

وغالبية الاسرى المتروكين فى البرارى كان يلتهمهم عذاب اليم ، فيموتون تحت شمس ساروزيكية محرقة ، ولا يسلم من كل خمسة او ستة منهم غير واحد او اثنين . ولم يكن الجوع ، ولا حتى العطش سببا لموتهم ، انما عدم تحملهم الألم الفظيع ، اللاانسانى ، المتولـــد من تيبس وانكمـــاش جلد الجمل غير المدبوغ ، على رؤوسهـم الحليقـــة . ذلك ان «الشيرى» كان يتقلص ، من دون رحمة ، تحت اشعة الشمس اللافحة ضاغطا وعاصرا راس العبد الحليق مثل طوق حديدى . وفى اليوم الثانى يبدا شعر الاسير الحليق ، المعذب ، بالنمو . وفى بعض الاحيان كانت هذه الشعرات الخشنة المستقيمة تغرز فى جلد الجمل غير المدبوغ وتنفذ من خلاله ، بيد انها ، فى اغلب الاحيان ، لم تكن لتجد مثل هذا المنفذ ، فتلتوى ، وتدخل نهاياتها من جديد فى جلد الراس مسببة آلاما اكبر وافظع . ومع الايام الاخيرة كان عقل الاسيـر يختل نهائيـــا . وفى اليوم الخامس فقط يأتـى الجوانجوانيون ليتاكدوا هل بقى منهم احد على قيد الحياة . فان عثروا على واحد حيا اعتبروا ذلك بلوغـــا للهدف المنشود ، فيقدم له الماء ، ويحرر من قيوده ، وتعـــاد اليه قوته رويدا رويدا ، الى ان يتمكن من حمل جسده على رجليه . وهذا العبد الحى هو المانكورت الذى فقد ذاكرته قسرا ، ولهذا فهو كبير القيمة ويساوى عشرة عبيد عاديين اصحاء . وظهرت فى حينه قاعدة فلو حدث ان قُتل عبد-مانكـورت فى احدى المعارك بين القبائل فان الفدية التى كانت تعطى مقابل هذه الخسارة ، تزيد بثلاث مرات عما يعطى لقاء حياة ابن القبيلة الحر .

لم يكن المانكورت يعرف من هو ، والى اى فخذ او قبيلة ينتمى ، ولا يعرف اسمه ، ولا يتذكر طفولته ، امه ، ابـاه ، باختصار ، كان لا يدرك انه انسان . اما من وجهة نظر سيده فقد كان المانكورت ، ذلك الانسان الذى انتزعت منه «انا» الخاصة ، يتمتع بالعديد من المزايا . فهو مخلوق ابكم ، ولهذا تراه دائما مطيعا ، غير خطر على الاطلاق ، ولا يفكر يوما بالهرب من سيده .

واكثر ما يخيف السادة ، ايا كانوا ، هو انتفاضة العبيد . اذ ان كل عبد يحمل فى داخله روحا متمردة . بينما كان المانكورت حالة استثنائية من نوعها ، فقد قطعت عنه كل جذور ودوافع التمرد والعصيان ، فهو لا يعيش مثل هذه المعاناة ، لذلك لم تكن ثمة ضرورة تستدعى المراقبة عليه ، او حراسته ولا سيما التشكك من نواياه ومآربه الخفية .

كان كالكلب بالضبط يعترف فقط بصاحبه ولا يتعامل ابدا مع الاخرين . جل همه منصب على اشباع بطنه ولا يعرف الهموم الاخرى . وبالمقابل ينفذ العمل الموكل اليه بطاعة عمياء وبجد ومن دون انحراف . وعادة يرغم المانكورت على اداء اقذر الاعمال واقساها وافظعها ، وتسند اليه ايضا الاعمال المملة والمضجرة للغاية ، والتى تتطلب صبرا وتجلدا مطلقا . ولم يكن ثمة احد غير المانكورت يتحمل الوحدة ، ماكثا فى مجاهل ساروزيكى الشاسعة الموحشة المقفرة ، فى رعى اذواد الابل . فقد كان لوحده ، فى هذا البعد النائى ، يعوض عن عدد كبير من العاملين ولا يحتاج الا الى التزود بالمؤونة حينئذ يواظب على عمله صيفا وشتاء غير متبرم من الوحشة ، غير متشكك من الفاقة ، منقيدا بأوامر سيده ، ولا يطلب شيئا عدا الأكل والثياب الرثة القديمة . . .

ان قطع راس الاسير ، او الحاق اى اذى آخر به لتخويفه ، اسهل بكثير من محو ذاكرته وسلبه عقله وقلع جذور الشىء الذى يحمله الانسان حتى النفس الاخير والذى يزول معه وهو بعيد المنال للاخرين ابدا . غير ان الجوانجوانيين الرحل الذين ابتدعوا خلال تاريخهم الاسود اعمالا بربرية فى منتهى الشراسة تطاولوا حتى على الجوهر الخفى للانسان ، وابتكروا تلك الوسيلة التى تسلب العبد ذاكرته الحية ، ملحقين بالسجية الانسانية اقسى انواع التعذيب وحشية ، والمعقولة منها وغير المعقولة . اذ ليس من قبيل الصدفة ان نايمان-آنا قالت فى رثاء ابنها الذى حولوه الى مانكورت ، فى شدة حزنها وتأثرها :

«عندما سلبوا ذاكرتك ، وضغطوا على راسك يا بنى ، كما تضغط الكسارة على الجوز ، وعصروا قحف جمجمتك رويدا رويدا بقبعة من جلد الجمل المتيبس ، عندما ادخلوا راسك فى

طوق لم تره عيناك وهما جاحظتان مليئتان بسائل الخوف المفزع عندما عذبك العطش القاتل ، فى موقد ساروزيكى محترق من دون نار ، ولم تمطر قطرة من الماء على شفتيك ، هل اصبحت الشمس الواهبة الحياة للجميع تضىء بالنسبة لك بحقد نورا اعمى ، اشد سوادا من كل سواد فى العالم ؟

عندما دوى زعيقك العالى وسط الصحارى ، عندما كنت تصرخ وتتململ ، وتدعو الله ، ليالىَ وايامًا ، عندما كنت تنتظر الغوث من السماء الجائرة ، عندما كنت تختنق فى القىء الذى يخرج من جسدك المتعذب وانت تتضور فى الغائط النازف من جسدك المتشنج المبروم ، عندما خمدت انفاسك وانت فى تلك الرائحة الكريهة فاقدا عقلك وقد اصبحت فريسة لسحابة من الذباب ، هل لعنت الله بما تبقى لديك من قوة لانه خلقنا جميعا فى العالم الذى تركه هونفسه بلامبالاة ؟

«عندما احتل الغسق بوشاحه الخافت للابد عقلك المشوه جراء التعذيب ، عندما فقدت ذاكرتك المشتتة ، المسلوبة بالقوة ، التصاقها بالماضى ، عندما كنت تنسى نظرة امك وانت تتململ فى اسر آلام وكنت تنسى هدير النهر قرب الجبال حيث كنت تلعب ايام الصيف ، عندما أضعت اسمك واسم ابيك فى وعى مهشوم ، عندما غابت وجوه الناس الذين ترعرعت بينهم من امام ناظريك ، وعندما اختبأ عنك اسم الفتاة التى ابتسمت لك بحياء مرة ، الم تلعن وانت فى لجة فقدان الذاكرة امك اشنع اللعنات لانها تجرأت على حملك فى بطنها ، وجعلتك ترى نور الحياة لهذا اليوم ؟ . . .»

يعود تاريخ هذه الحكاية الى تلك العصور عندما تسنى طرد الرحل الجوانجوانيين من المناطق الجنوبية لآسيا وتدفقوا نحو الشمال . وفى فترة سيطرتهم على براري ساروزيكى ، الطويلة الامد ، شنوا حروبا متواصلة بهدف توسيع سيطرتهم والحصول على عبيد . لجأ الجوانجوانيون ، فى البدء ، الى شن هجمات مباغتة على الاراضى المتاخمة لساروزيكى ، واسروا الكثيرين ، بمن فيهم النساء والاطفال . وجعلوا منهم جميعا عبيدا . على انه مع ازدياد مقاومة المحتلين بدأت الاشتباكات الطاحنة . ولم يرد الجوانجوانيون التخلى عن ساروزيكى ، بل

بالعكس كانوا يطمعون الى تكريس احتلالهم وتوسيعه وصولا الى المناطق الرعوية من السهول . اما القبائل المحلية ، الساكنة فى تلك الاراضى ، فلم ترض هى الاخرى عن سلب اراضيها ، وكانت تعتبر من حقها ، بل ومن واجبها ، عاجلا ام آجلا ، طرد المحتلين وكانت المصادمات بين الطرفين صغيرة كانت او كبيرة ، تنتهى عادة بنجاحات متبادلة غير ان ثمة فترات سكينة كانت تتخلل هذه الحروب المضنية .

وفى احدى فترات السكينة هذه ، وفى جلسة حول مائدة الشاى ، قال التجار ، المارون مع قوافلهم المحملة بالبضاعة فى الاراضى النايمانية انهم عبروا برارى ساروزيكى من دون عوائق عند الابار من جانب الجوانجوانيين ، وذكروا انهم صادفوا فى ساروزيكى احد الرعاة الشباب يقود اذوادا كبيرة من الابل ، ولما فاتحوه بالحديث تبين انه مانكورت . كان منظره الخارجى طبيعيا ولا يجعلك تفكر ابدا بان مصيبة مثل هذه قد حلت به ، وحسب رايهم ، لم يكن يختلف بشىء عن الناس الآخرين حتما . فكان فى زمن ما فطنا وطلق اللسان . وهذا المانكورت لما يزل شابا بعد ، وذا وجه مقبول ، بدا ينبت له ، توا ، شاربان . غير ان المسكين كان يخطىء فى الكلام وكانه ولد بالامس ، لا يتذكر اى شىء ولا يعرف اسمه ، ولا اسم ابيه ولا اسم امه ، ولا ما فعل معه الجوانجوانيون ، ولا يعرف ايضا لاية قبيلة ينتمى ، وحين تطرح عليه اى سؤال تراه يظل ساكتا ، وقد يجيب بنعم او لا لا غير . ويمسك دائما بيديه قبعته التى يعتمر بها باحكام . ومع انه من الاثم ان يسخر المرء من اصحاب العاهات ، فقد ضحك التجار من هؤلاء المانكورتيين الذين يلتصق عند بعضهم جلد الجمل بعدة مناطق من راسهم الى الابد . ان حالة امثال هذا المانكورت اسوأ من اى اعدام . اذا ما قلت له مازحا ، هيا يا عزيزى دعنى انزع جلد الجمل من راسك بالماء المغلى ، فسيخاف كانك تعتزم قتله ، فيضطرب وينفعل ولا يسمح لك ان تمس راسه . ان امثاله لا ينزعون قبعاتهم ليل نهار وينامون وهم معتمرون بها . . وواصل الضيوف حديثهم : مع ان المانكورت غبى جدا ، الا انه يؤدى عمله بدقة ، فكان يتابع القافلة باهتمام الى ان ابتعدت بما فيه الكفاية عن

ذلك المكان حيث كانت تسرح ابله وقبل ان نودعه مازحه احد افراد القافلة وقال له :

ـ امامنا طريق طويلة ، قل لمن نبلغ تحيتك ، لاية امراة حسناء وفى اى طريق ؟ تحدث ، لا تستر عنا شيئا ، اتسمع ؟ لمن نهدى منديلك ؟

سكت المانكورت طويلا وهو يحدق فى ذلك التاجر ثم نطق :

ـ انا انظر كل يوم الى القمر ، والقمر ينظر الىّ ايضا ولكن لا يسمع احدنا الآخر . . ثمة شخص يجلس هناك . .

اثناء هذا الحديث كانت ثمة امراة موجودة فى اليورتا * تسكب الشاى للتجار ، تلك كانت نايما-آنا . وتحت هذا الاسم بقيت هى فى الاسطورة الساروزيكية .

سيطرت نايمان-آنا على نفسها امام الضيوف . ولم ينتبه احد كيف اذهلها هذا الخبر ، بشكل فجائى وغريب ، وكيف تغيرت اسارير وجهها . كانت تود طرح عشرات الاسئلة التفصيلية عن ذلك المانكورت الشاب ، لكنها لم تفعل خوفا من ان تعرف عنه اكثر مما قيل . وتمكنت من التزام الصمت كاتمة فى نفسها فزعا شديدا كانها خنقت طيرا جريحا يصيح . . . فى تلك الاثناء دارت الاحاديث عن اشياء اخرى وقد ابتعدت عن المانكورت البائس . وما اكثر الحوادث التى تصادف الانسان ! اما نايمان-آنا فكانت تحاول السيطرة على الخوف الذى احتل كيانها ووقف اهتزاز يديها ، وكانها بالفعل خنقت فى نفسها صيحة الطائر الجريح تلك . وانزلت وشاح الحداد الاسود ، الذى كانت تلفع به راسها الاشيب ليخفى وجهها جيدا .

مضى بعض الوقت ، ومضت القافلة فى طريقها . وادركت نايمان-آنا فى تلك الليلة المؤرقة انها لن تتمتع بالراحة وهدوء البال مـا لم تبحث فى ساروزيكى عن ذلك الراعى-المانكورت وتجده ، وما لم تتوصل الى قناعة بان ذلك المانكورت ليس ابنها . واعادت هذه الافكار المخيفة ، من جديد ، الى قلب الام شعور الشك الغامض الذى بدأ يخبو نوره منذ زمن ، الشك فى

---

* اليورتا ـ بيت من اللباد للقبائل الرحل فى آسيا الوسطى . الناشر .

ان يكون ابنها وقع قتيلا فى ساحة المعركة . . لو كانت قد دفنته مرتين لكان افضل من تذوق هذا الالم الدائم والخوف الملح والشك المتواصل .

قتل ابنها فى احدى المعارك الدائرة بينهم وبين الجوانجوانيين فى ساروزيكى . واستشهد زوجها قبل ذلك بسنة واحدة وكان زوجها رجلا معروفا ومحمودا بين النايمانيين ، ومن اجل ان يثأر له تطوع الابن فى اول حملة . وكانت العادة المتبعة تمنع ابقاء القتلى فى ساحة القتال . فكان الاقرباء ملزمين بنقل جثة ابنهم الا ان ذلك كان مستحيلا . وقد شاهد الكثيرون عندما اقتربوا من الاعداء عن كثب فى المعركة كيف وقع ابنهم على عرف الحصان ، فجفل الحصان الجامح الخائف من هول المعركة وعدا عدوا سريعا . عندئذ هوى من السرج وتعلقت رجله بالركاب واغمى عليه وهو معلق على جنب الحصان . اما الحصان الذى كان قد جن جنونه اثر ذلك فقد حمل جسده الهامد وانطلق بسرعة اكثر فى البرية . وكانما لم تكن تلك النكاية به كافية له فانطلق الحصان نحو الاعداء . بالرغم من ان رحى المعركة كانت تدور ، وكان يجب ان يكون الجميع فى الاشتباك ، وثب اثنان من ابناء القبيلة للحاق بالمقاتل الشاب وامساك الحصان الجامح المنطلق واعادة جثة القتيل . بيد انه فى هذا الوقت خرج من كمين كان قد نصبه الجوانجوانيون فى واد ضيق ، عدد من حملة القوس والنشاب وسدوا عليهما الطريق وهم يصرخون فوقع الاول قتيلا اثر اصابته بسهم ، وجرح الثانى جرحا بليغا ، وبالكاد تمكن من التراجع ، الالتحاق بفصيلته ، حتى وقع على الارض مغميا عليه . وساعدت هذه الحادثة النايمانيين على اكتشاف فصيلة الجوانجوانيين المترصد لهم والذى كان يستعد لانزال ضربته من الجانب فى اللحظة الحاسمة ، فاسرعوا فى التراجع لاعادة تجميع قواهم والهجوم من جديد . ولم يعد احد يفكر بالطبع ، بما آل اليه مصير مقاتلهم الشاب ، ابن نايمان-آنا . وقال النايمانى الجريح الذى التحق بفصيلته بالكاد انه عندما انطلقا فى اثر الحصان وهو يجر وراءه ابنها اختفى من امام ناظريهما بسرعة فى اتجاه غير معلوم . . .

كان النايمانيون ياتون للبحث عن جثته لعدة ايام على

التوالى ، غير انهم لم يفلحوا فى العثور على جثة القتيل ولا حصانه ولا سلاحه ، ولا اى اثر آخر له . ولم يبق اى شك لدى الجميع فى انه قد مات . وحتى لو كان جريحا لمات خلال هذه المدة فى البرارى من العطش اوالنزيف . حزنوا عليه اياما طويلة ورثوه ، لان مقاتلهم الشاب ظل غير مدفون فى ساروزيكى المقفرة . وكان هذا يكفى ليشعر الجميع بالعار . والنساء المنتحبات النادبات فى يورتا نايمان-آنا كن يلمن ازواجهن واخوتهن على ذلك ويرثينه قائلات :

– تقرته الصقور وتقاسمته بنات آوى فيما بينها ، فكيف تجرأون بعد ذلك على ان تسيروا معتمرين قبعات الرجال !

وطالت على نايمان-آنا ايام فارغة فى الارض التى غدت خالية بالنسبة لها خاوية على عروشها بعد قتل ابنها . كانت تدرك ان الحرب يسقط فيها الناس قتلى . بيد ان التفكير بكون ابنها مرميا فى ساحة الوغى جثة متعفنة لا يواريها التراب ، كان يسلبها راحة نفسها وهدوء بالها . كانت سلسلة الافكار المتواصلة تعذب الام عذابا مريرا مبرحا ، ولم يكن ثمة انسان ما بقربها لتبوح له بما فى صدرها ، ويخفف عنها الحزن ، كما لم يكن لها احد تطلب معونته غير الله . . .

ولكى تطرد عن نفسها مثل هذه الافكار كان يتوجب عليها ان ترى بام عينيها ابنها مفارقا الحياة . ومن بمقدوره التصدى لارادة القدر ؟ واكثر ما كان يحير نايمان-آنا هو اختفاء جواد ابنها دون ان يترك اثرا خلفه . فلم يكن الحصان قد اصيب فى المعركة ، انما انطلق يعدو فى حالة شديدة من الهلع ، وكان حصانا اليفا من قطعانهم ولا بد ان يرجع ، عاجلا ام آجلا ، الى دياره ساحبا وراءه جثة فارسه معلقة بالركاب . وعندئذ ومهما كان مبلغ الاسى وحده اذن لكانت قد بكت واعولت على جثمانه وخدشت وجهها باظافرها ، ونعتت نفسها بمختلف النعوت . . . تعيسة . . لعينة . . الى درجة ان الرب فى السماء لو سمع دعاءها ونحيبها لصعب عليه تحمل امرها . لكنها فى هذه الحال ما كانت لتخزن فى قلبها تلك الشكوك والكانت قد تهيأت لاستقبال الموت بصبر جميل ، فى اية ساعة ، غير متشبثة بالحياة لكى ينعم عليها المولى عمرا اطول . بيد انهم لم يعثروا

على جثة ابنها كما لم يعد الحصان . وبالرغم من ان ابناء القبيلة بدأوا ، على مر الايام ، ينسون تلك الحادثة ، لانه كلما زاد بعد المرء عن العين طواه النسيان فى الذاكرة ، الا ان الام لم تهدأ ولم تنس ولدها . فكانت الشكوك تساور قلبها وتعذبه وجل افكارها تدور فى نفس الحلقة دائما . ماذا حدث للحصان ؟ اين اصبحت عدته ؟ اين ضاع سلاح ابنها ؟ لانه من خلال تلك الاشياء كان يمكن التخمين بشكل غير مباشر ، ماذا يكون قد حل بابنها ، ربما استولى الجوانجوانيون على الحصان فى مكان ما من ساروزيكى بعد ان انهارت قواه واستسلم لهم . حصان سائب مع عدة جيدة لهى غنيمة ايضا . لكن كيف عاملوا ابنها المعلق من الركاب ، هل واروه التراب ام رموه فريسة للوحوش فى البرارى ؟ ماذا لو ظهر فجاة انه لا يزال على قيد الحياة ؟ هل اجهزوا عليه وقطعوا بذلك حبل آلامه ورموا به لكى يلفظ انفاسه الاخيرة فى البرارى المقفرة ؟ ام ؟ . . . ولكن ربما هو ؟ . . .

لم يكن للشكوك ثمة نهايات . وعندما زل لسان التجار وتحدثوا حول مائدة الشاى عن المانكورت الشاب الذى صادفوه فى ساروزيكى ، لم يخطر ببالهم انهم اوقدوا فى قلب نايمان-آنا شرارة تشعرها بان ذلك المانكورت الشاب هو ابنها وتشعل تلك الشرارة قلبها وعقلها بقوة . وادركت نايمان-آنا انها لن تهدأ ما لم تر ذلك المانكورت وتتحدث معه وتتاكد من انه ليس ابنها .

كانت تجرى فى تلك الاراضى النايمانية المتموجة انهر صغيرة كثيرة الحجارة . وظلت نايمان-آنا تتسمع طوال الليل لخرير المياه الجارية . ما الذى اوحت به الى روحها المضطربة ؟ أرادت ان تهدأ ، ان ترتوى من المياه ذات الخرير قبل ان تبدأ سفرها فى ساروزيكى الصامتة المقفرة . كانت الأم تعرف مدى الخطورة والمجازفة فى توجه المرء الى ساروزيكى بمفرده ، ومع ذلك عقدت العزم على زيارة ذلك المانكورت . لم يكن ثمة شخص يفهم كل هذه المعاناة ، وحتى اقرب الناس اليها لم يستحسنوا نيتها . اذ كيف يمكن ان يذهب المرء للبحث عن ابن مقتول منذ زمن ، لا سيما وقد تحول الى مانكورت ان كان قد بقى بالصدفة

على قيد الحياة . واى جدوى من البحث عنه ، وايلام القلب دون جدوى ، طالما المانكورت ليس غير غلاف خارجى او جثة محنطة لانسان !

فى تلك الليلة ، عشية سفرها ، خرجت نايمان-آنا عدة مرات من اليورتا وهى تحدق طويلا حواليها وتصيخ السمع محاولة تحديد وحصر افكارها . كان القمر فى منتصف الليل يقف عاليا فوق راسها فى سماء خالية من الغيوم يغمر الارض بضوئه الحليبى الباهت . وكانت اليورتات الكثيرة المتناثرة هنا وهناك عند اقدام التلال تشبه سربا من طيور كبيرة الحجم نزل الليلة هنا على ضفاف السواقى الهادرة . وكان يسمع هناك ، حيث تقع حظائر الاغنام وعلى مسافة قريبة من القرية وابعد منها فى الوهاد حيث كانت ترعى قطعان الخيول كان يسمع نباح الكلاب واصوات ناس غير مفهومة . وتترك اصوات الفتيات ، المغنيات ، الساهرات عند الحظائر من طرف القرية القريب اثرا كبيرا فى نفسها . تذكرت انها كانت تغنى فى زمن ما ، مثل هذه الاغنيات الليلية . . . كانوا يقضون فى هذه المناطق كل صيف . انها تتذكر كيف جاءوا بها عروسا الى هنا ، وكيف قضت كل حياتها فى هذه المنطقة : زمن كان عدد افراد عائلتهم كبيرا ونصبوا لها اربع يورتات : فواحدة للطبخ ، واخرى للضيوف ، واثنتان للسكن ، وتتذكر ايضا كيف مكثت فيها بعد ذلك وحيدة ، بعد غزو الجوانجوانيين .

وها هى ايضا تغادر الآن يورتاها الوحيدة . . . استعدت للسفر منذ المساء . تزودت بالطعام والماء . وحملت قربتين ، تحسبا لكل الاحتمالات ، قد لا توفق مباشرة فى العثور على بئر فى برارى ساروزيكى . . . ومنذ المساء ايضا كانت الناقة اكماى تقف قرب اليورتا مربوطة الى وتد . . . اكماى ، املها ورفيقة دربها ، هل تتجرأ ان تخطو خطوة فى ساروزيكى ان لم تتكل على قوتها وسرعتها . لقد اصيبت اكماى فى تلك السنة بالعقم بعد انجابها مرتين . وكانت راحلة ممتازة ، خفيفة ، ذات قوائم قوية ، طويلة لها اخفاف مرنة غير متهرئة من كثرة السير وكبر السن . كانت ذات سنامين متينين ورأس مغروس بشكل جميل فى عضلات رقبتها المفتولة ومنخارين متحركين كجناحى

فراشة . كانت الناقة البيضاء اكماى تساوى اكثر من ذود ابل كامل . ويبادل المرء مثل هذه الناقة بعشرات الرؤوس من الابل لكى يحصل منها خلفا فقط . وكانت هذه الناقة آخر كنز ذهبى تبقى لنايمان-آنا . آخر ذكرى لثروتها المبذرة . اما الممتلكات الاخرى فقد اختفت كما يختفى الغبار عن اليد بعد غسلها . كانت مجالس العزاء – الاشات ، تقام اياما عديدة ، فى اربعينية الشهداء او فى ذكراهم السنوية . لقد مر زمن قصير على ذلك اليوم الذى اقيم فيه مجلس عزاء ، حضره حشد كبير من الناس ، جميع النايمانيين القريبين من المنطقة ، فى ذكرى مقتل ابنها ، الذى تستعد للبحث عنه الآن بهاجس قوى وحزن مفرط .

خرجت نايمان-آنا من اليورتا قبيل مطلع الفجر وهى متهيئة للسفر تماما . ولما عبرت العتبة توقفت واتكأت على الباب ، وراودتها افكار كبيرة وهى ترمق بنظرها القرية النائمة قبل ان تغادرها . كانت نايمان-آنا التى ما تزال تحتفظ بقوام ممشوق ، وبسابق جمالها ،متمنطقة كما يتطلب امر المقبل على سفر طويل ، كانت تنتعل جزمة ، وسروالا طويلا ، وصدرية فوق ردائها ، وتضع على كتفيها معطفا خفيفا ، وتعصب راسها بمنديل ابيض معقود الطرفين فى الخلف ، ولسان حال افكارها الليلية يهمس لها انها مادامت تأمل فى رؤية ابنها حيا فلِمَ الحداد ؟ انها ستعصب راسها بمنديل اسود فيما بعد والى الابد ان لم تتحقق آمالها . كان الصباح المظلم فى تلك الساعة المبكرة يخفى شيب شعرها وآثار الحزن العميق على وجهها – تلك التجاعيد العميقة التى حفرت اخاديدها فى جبينها . . . وفى تلك اللحظات دمعت عيناها واخذت نفسا عميقا .

هل فكرت او تثبات بانها ستعانى مثل هذه المعاناة ! ثم استعادت ثقتها بقوتها وتمتمت مع نفسها : «لا اله الا الله ولا حول ولا قوة الا باللـــه» واتجهت نحو الناقة التى كشرت عن اسنانها كالعادة ، واطلقت صيحات قصيرة ثم بركت والصقت كلكلها بالارض . وبعد ان وضعت نايمان-آنا الخرج فوق الرحل ، امتطت ظهر الناقة ، وحثتها فنهضت تلك حاملة صاحبتها عاليا ، وهى قد ادركت ان طريقا طويلا يمتد امامها الآن . . .

لم يعرف احد فى القرية بسفر نايمان-آنا ولا ودعها احد فى

تلك الساعة ، غير عديلتها – الخادمة النعسانة ، اخبرتها امس بانها ستزور اهلها وتحل ضيفة عليهم ، ومن هناك ، اذا ما صادفت حجاجا فستذهب معهم الى كابتشاك لتصلى عند مرقد ياسافى . . .

بكرت نايمان-آنا فى السفر ، لئلا تزعجها استفسارات الناس . وما ان ابتعدت عن القرية حتى استدارت نحو ساروزيكى بالكاد كان يتراءى فى البعد الغامض الذى يمتد امام ناظريها فى البرارى المقفرة الخرساء . . .

كانت القطارات فى هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق .

وعلى جانبى خط السكة الحديد كانت تمتد مساحات شاسعة من الاراضى الصحراوية – سارى اوزيكى ، الاراضى الوسطى من البرارى الصفراء . . .

وفى هذه الانحاء كانت المسافات تقاس نسبة الى خط السكك وكانه خط غرينيتش . . .

اما القطارات فواصلت سيرهـا من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق . . .

ارسلت من متن حاملة الطائرات «كونفينتسيا» برقية لاسلكية مشفرة اخرى الى رائدى الفضاء المفتشين فى المحطة المدارية «باريتيت» . وطلبت هذه البرقية باللهجة المحذرة نفسها ، الا يتصلا برائدى الفضاء المتكافئين ١–٢ و٢–١ الموجودين خارج المجرة الشمسية ، عبر الاتصالات اللاسلكية لغرض مناقشة وقت وامكانية عودتهما الى المحطة المدارية وانتظار اوامر من «اوبتسينوبو» .

كانت عاصفة خفيفة تجتاح المحيط ، وحاملة الطائرات تتمايل على الامواج . وكانت مياه المحيط الهادئ تتلاعب مضطربة على امتداد كوثل السفينة العظيمة . امـا الشمس فكانت على نفس المنوال تضىء سطح البحر الشاسع الممتد الذى كانت حركة الامواج المطرطشة المزبدة تستحوذ عليه بلا انقضاء . وهبت الريح بوتيرة واحدة .

جميع المرافق على متن حاملة الطائرات «كونفينتسيا» بما فى ذلك قسم الطائرات ومجموعات الأمن الدولى ، كانت فى حالة استنفار وعلى اهبة الاستعداد . . .

كانت الناقة البيضاء اكماى تسير منذ ايام عديدة ، وهى تخط اطيطا خفيضا قاطعة مروج وسهول ساروزيكى الواسعة . اما صاحبتها فتحثها على السير وتقودها نحو الاراضى الصحراوية القاحلة . كانتا فى الليل تتوقفان عند بئر شحيحة الماء ، وفى الصباح تبدآن البحث عن اذواد الابل السارحة فى ساروزيكى الشاسعة . هنا ، فى هذا القسم الاوسط من السهوب الصفراء بالذات من ساروزيكى ، وليس بعيدا عن جرف ملكوميتشاب الرملى الاحمر الممتد عدة كيلومترات ، صادف اولئك التجار الراعى-المانكورت ، الذى تبحث عنه نايمان-آنا حاليا . وها هى لليوم الثانى تحوم حول منطقة قريبة من ملكوميتشاب خائفة ان تلتقى بالجوانجوانيين . بيد انها اينما كانت تمعن النظر ، وفى اى اتجاه كانت تسير ، لم تكن ترى غير السهوب الجرداء المقفرة والسراب . وذات مرة ، خدعها مثل هذا السراب ، وقطعت طريقا متعرجة الى المدينة – السراب المعلقة فى الهواء بمساجدها واسوار قلاعها . ربما ابنهـا هناك فى سوق العبيد ؟ لو كان هكذا لأردفته خلفها على الراحلة ، وليحاولوا ، عندئذ ان يلحقوا بهما . . . كانت الصحراء مضنية ، ولهذا كانت تتراءى لها مثل هذه الخيالات .

من الصعوبة ، بالطبع ، العثور على انسان فى ساروزيكى . الانسان هنا مثل حبة رمل ، اما اذا كان يقود اذوادا من الابل تحتل فى المراعى مكانا واسعا ، فلا بد ان تراه عاجلا ام آجلا . سترى فى البداية حيوانا واحدا ، ومن ثم ترى الاخرى ، وبعد ذلك تجد الراعى امام الذود . هكذا كان حسبان نايمان-آنا .

الا انه لم يبد شبح فى اى مكان . وبدأت المخاوف تنتابها . يحتمل ان يكون الذود قد اقتيد الى مكان آخر ، او الانكى من هذا ان يكون قد ارسل الجوانجوانيون تلك الابل ، للبيع فى حيوى او بخارى . وهل سيرجع ذلك الراعى من تلك

المناطق النائية ؟ عندمـا غادرت الام القرية محملة بالشجون والشكوك ، كانت تحلم بشىء واحد هو ان ترى ابنها حيا . حتى ولو كان قد تحول الى مانكورت او اى كان . فيكن انه لا يتذكر اى شىء ولا يعى ، لكن المهم ان يكون ذلك المانكورت ابنها ، ابنها حيا ، حيا فقط . . . وهل هذا قليل ! ؟ ولكن كلما توغلت فى قلب ساروزيكى ، وكلما اقتربت من المكان ، الذى يمكن ان يكون فيه ذلك الراعى الذى التقته قبل فترة قافلة التجار المارة من هنا ، ازداد خوفها ان ترى ابنها كائنا مشوه العقل ، وازدادت وطأة هلعها الشديد وضجرها . حينئذ كانت تتوسل الى الرب ان لا يكون ذلك المانكورت ابنها ، بل بائسا آخر . وكانت مستعدة فى قرارة نفسها بشكل غير قابل للاعتراض ، ان تستسلم لفكرة عدم وجوده بين الاحياء وتعتبر زيارتها هذه لمجرد القاء نظرة على ذلك المانكورت للتأكد من ان الشكوك خامرتها عبثا ومن ثـم تعود ، مقتنعة ومتخلصة من العذاب لتعيش حياتها راضية تمام الرضا عما يؤول اليه مصيرها . . . لكن ما ان تمر لحظات حتى تستسلم لضيقها ورغبتها الشديدة فى البحث فى ساروزيكى لا عن اى شخص كان بل عن ذلك الشخص الذى تريد البحث عنه ، ابنها بالذات . . .

كانت نايمان-آنا لا تزال تنتابها مشاعر متضادة عندما رأت فجأة اعدادا كبيرة من الابل بعد ان اجتازت تلا رمليا ، مئات الرؤوس ترعى بحرية فى الوادى الواسع . كانت الجمل البنية الداكنة البدينة تتجول بين الشيجرات الصغيرة والادغال الشوكية وهى تخضدها وتقضمها . شدت نايمان-آنا وثاق ناقتها وقادتها ، فى البدء ، نحو الابل مباشرة وقلبها يكاد يطير من الفرح لانها عثرت اخيـرا على الذود . لكنهـا ارتعبت بعد ذلك واحست بقشعريرة تجتاح جسدها . وسيطر عليها الخوف من رؤية ابنها قد تحول الى المانكورت . ثم فرحت من جديد ولم تفهم حقيقة شعورها وما الذى يحدث لها .

ها هو الذود يرعى ، فاين الراعى ؟ انه ينبغى ان يكون فى مكان ما هنا . ورأت فى الطرف الآخر من الوادى انسانا كان من الصعب تشخيصه . كان الراعى يقف ماسكا عصا طويلة بيد

ويقبض بالاخرى من الخلف على زمام جمل محمل ، وينظر بهدوء من تحت قبعة مائلة على جبينه اليها وهى تتقدم نحوه .

عندما اقتربت نايمان-آنا منه ، وعرفت فيه ابنها ، لم تدر كيف قفزت من فوق ظهر الناقة . خيل اليها انها وقعت لكن هل كانت تقدر على التفكير بذلك ؟

– يا ولدى ، عزيزى . انـــا ابحث عنك فى كل مكان ! – ارتمت عليه وكان غابة كثيفة تفصل بينهما :

– انا امك !

وفهمت فى الحال كل شىء . وبدات تنتحب بشكـل مخيف ومحزن ضاربة الارض بقدميها وقد ارتجفت شفتاها وتشنجتا فى محاولة منها ان تكف عن البكاء ولكنها فقدت السيطرة على نفسها ولكى تحافظ على توازنها تشبثت بكتفى ولدها الواقف بلامبالاة . بكت ، وبكت ، وصعقت تحت سحابة الحزن المخيمة فوقها منذ زمن ، وتساقط الحزن عليها الآن وغمرها . كانت تتفرس فى ملامح ابنها المعروفة لهـــا جيدا بعينين دامعتين ، ومن خلال خصلات شعر مبللة وخطها الشيب كانت تلتصق على وجهها ، من خلال اصابع مرتجفة تلطخ وجهها بغبار الطريق ، تتفرس فيـه وهى تحاول ان تسرق منه ولو نظرة واحدة ، تنتظر وتامل ان يعرفها . هل ثمة ابسط من ان يعرف الولد امه ! ؟

بيد ان ظهورها لم يحرك فيه ساكنا . وكانها كانت تاتى الى هذا المكان دائما وتزوره كل يوم ، حتى انه لم يسال من هى ولماذا تبكى . وفى لحظة ما ، ازاح الراعى يديها عن كتفيـــه وتخلص منهما واتجه الى الطرف الآخر من الذود جارا وراءه الجمل الرحالة المحمل ، الذى لا ينفصل عنه ، وبدا يتابع بنظره بعض الابل التى كانت قد سرحت بعيدا ترعى .

تسمرت نايمان-آنا فى مكانها . وجلست القرفصاء متشنجة تمسك راسها بيديها . جلست هكذا دون ان ترفع راسها برهة من الوقت ثم جمعت قواها فنهضت وذهبت الى حيث كان يقف ولدها محاولة التزام الهدوء . نظر ابنها المانكورت اليها ببلاهة ولامبالاة من تحت قبعته المائلة على جبينه ، وارتسم على وجهه الهزيل ، المسود ، المخشوشن شىء ما يشبه الابتسامة . الا ان عينيه اللتين كانتـــا تعبران عن لامبالاة مطلقـة باى شىء فى

العالم ، بقيتا كالسابق منقطعتين عنها . قالت نايمان-آنا وهى تجذب نفسا عميقا :

– اجلس ، لنتكلم .

وجلسا على الارض ، سالت الام ابنها :

– هل تعرفنى ؟

هز المانكورت راسه علامة النفى .

– ما اسمك اذن ؟

اجاب :

– مانكورت

– هذا ما تسمى به الآن . لكن أتتذكر اسمك القديـــم السابق ؟ تذكر اسمك الحقيقى .

سكت المانكورت . ورات الام انه يحاول التذكر . وتصببت على ارنبة انفـــه ، من شدة توتره ، قطرات كبيرة من العرق واغرورقت عيناه بضباب مترجرج كانما ارتفع امامه جدار منيع لم يتمكن من اجتيازه .

– هل تتذكر اسم والدك ؟ من انت ، ومن اية قبيلـة ، اين ولدت ؟

كلا ، انه لا يتذكر اى شىء ، ولا يعرف شيئا .

– اه ، ماذا فعلوا بك !

تمتمت الام وبدات شفتاها تتشنجان من جديد دون ارادة منها . وكانت تختنق من الغضب والحزن ، واخذت تنتحب من جديد . حاولت تهدئة روعها ولكن دون جدوى بينما لم يشعر المانكورت ابدا بمصائبها .

قالت نايمان-آنا بصوت مرتفع :

– من الممكن ان تسلب الارض ، تسلب الثروة ، تسلب الحياة . ولكن من يجرؤ على سلب الذاكرة من الانسان ؟ يا الهى ، ان كنت موجودا كيف أوعزت بذلك الى هؤلاء الناس ؟ هل الشر قليل على وجه الارض ؟

آنذاك بدات نايمان-آنـا ، وهى تنظر الى ابنها المانكورت تنشد مقطوعتها المحزنة عن الشمس ، عن الله ، عن نفسها ، تلك البكائية التى لا يزال ينشدها الرعيان كلما دار الحديث عن تاريخ ساروزيكى . .

وبدأت نايمان-آنا رثاءهـــا الذى يتذكره وجهاء القوم حتى اليوم :

مين بوتاسى اولغين بوز يايا ،
تولبين كيليب ايسكيفن . . *

وندت المرثية من قلبها فتحولت الى ولولات طويلة لا سلوان لها وسط ساروزيكى المقفرة الواسعة . . .

ولكنها لم تحرك ساكنا فى نفس ابنها المانكورت .

وآنذاك ايضا قررت نايمان-آنـــا ان تحاول لا من خلال الاستفسارات ، بل بواسطة الايحاء علّه يعرف من هو .

– اسمك جولامان ، هل تسمعنى ؟ انت جولامان . والدك كان يسمى دوننباى . الا تتذكر ذلك ؟ هو علّمك ، فى طفولتك استعمال القوس والنشاب . . انا امك ، انت ابنى ، انت من قبيلة النايمانيين . هل فهمت ؟ انت نايمانى . . .

كان يسمع حديثها بلامبالاة مطلقة . وكان الحديث لا يدور عن اى شىء . وربما بلامبالة نفسها كان يسمع شقشقة جندب فى الاعشاب .

وسالت نايمان-آنا ابنها المانكورت :

– ماذا حصل لك قبل ان تاتى الى هنا ؟

فقال :

– لا شىء .

– هل كان الوقت ليلا ام نهارا عندما جئت الى هنا ؟

– لا ادرى .

– مع من تود ان تتحدث ؟

– مع القمر . لكن احدنا لا يسمع الآخر . ثمة شخص ما يجلس هناك .

– وماذا تريد ؟

– جديلة على راسى مثل التى عند سيدى .

---

* انا الناقة الشكلى ، جئت لاستنشاق جلد صغيرى المحشو بالقش .

ومدت نايمان-آنا يدها :

– دعنى ارى ماذا فعلوا برأسك .

ارتد المانكورت الى الوراء بحدة ، وامسك قبعته بيديه ولم يعد ينظر الى امه . وادركت هى انه لا يجوز ابدا ان تذكره برأسه .

فى هذه الاثناء بان من بعيد شخص قادم نحوهما ممتطيا جملا . فسالت نايمان-آنا :

– من هذا ؟

اجاب ابنها :

– انه يجلب لى الطعام .

اعتراها القلق ، كان ينبغى عليها ان تسرع فى الاختفاء قبل ان يراها الجوانجوانى . ابركت ناقتها وجلست فى الرحل :

– لا تتحدث بشىء . سأعود قريبا .

قالت نايمان-آنا وذهبت . لم يجب ابنها فقد كان سيان عنده ان تعود او لا تعود .

ادركت نايمان-آنا ، وهى تبتعد راكبة مخترقة الذود السارح فى المرعى ، انها اخطأت فى التصرف ، اذ ربما يكون الجوانجوانى القادم نحو القطيع قد رآها وهى ممتطية ظهر ناقة بيضاء . بيد ان الامر قد فاتها . كان يجب المشى والاختفاء بين الابل المنهمكة بالرعى .

وما ان ابتعدت مسافة لا بأس بها عن المرعى حتى اتجهت نحو منحدر سحيق نبتت على جانبيه شجيرات الشيح ، ترجلت هنا وابركت اكماى فى قاع هـــذا المنحدر . ومن هناك بدأت تراقب الموقف . اجل ، مثلما توقعت ، لقد رآهـا . وبعد مضى وقت قصير ظهر الجوانجوانى وهو يقود جمله خببا . كان الرجل مسلحا بالقوس والنشاب ، مرتبكا بشكل ملحوظ ، حائرا ينظر فيما حواليه : اين اختفى راكب الناقة البيضاء التى لمحها مـــن بعيد لتوه ؟ لم يكن الجوانجوانى يعرف فى اى اتجاه ينبغى لـه السير . واخذ يسير فى اتجاه ، ومن ثم الى اتجاه آخر . وفى المرة الاخيرة مر تماما بالقرب من المنحدر . وقد حزرت نايمان-آنا مسبقا ، من حسن حظها ، ان تشـــد المنديل على فم اكماى خوفا من ان تثغو الناقة فى وقت هـــو فى غير اوانه . نظرت

نايمان-آنا ، وهى مختفية وراء شجيرات الشيح فى طرف الوادى الضيق مليا ، وعن كثب ، الى الجوانجوانى . كان يمتطى ظهر جمل أوبر ، وعندما كان يتلفت الى الجانبين ، كان وجهه يبدو ، منتفخا ، متوترا يعتمر قبعةسوداء مثنية الاطراف الى الاعلى ، وهى تشبه القارب ، تتراقص وتلمع خلفه ضفيرة سوداء مجدولة من خصلتين طويلتين من الشعر . نهض الجوانجوانى ، ووقف نصف وقفة على الركاب . وأمسك رمحه بهيئة من يستعد للقتال ، تلفت يمنة ويسرة . هز راسه فالتمعت عيناه ، كان ذلك واحدا من الاعداء الذين احتلوا ساروزيكى واسروا كثيرا من الناس وجعلوهم عبيدا لهم وكانوا سبب مآس كبيرة لعائلتها . ماذا بمقدورها ان تفعل وهى المراة ، غير المسلحة ، ضد هذا المقاتل الجوانجوانى الشرس ؟ لكنها فكرت ، اية حياة ، اية احداث ، جرت هوءلاء الناس الى مثل هذه الوحشية والقساوة ، الى محو ذاكرة العبيد . . .

جاس الجوانجوانى المنطقة من الجهات الاربع ، ثم عاد مسرعا الى الذود .

اقبل المساء . وكانت الشمس قد غابت لتوها . غير ان هالتها ظلت فوق الارض طويلا . ثم هبط الظلام دفعة واحدة ، وحل ليل حالك .

قضت نايمان-آنا تلك الليلة وحيدة فى البرية فى مكان غير بعيد عن ابنها – المانكورت التعيس . ولم تعد اليه خوفا من ان يكون ذلك الجوانجوانى قد مكث الليل بجانب القطيع .

تبادرت الى ذهنها فكرة ان تنقذ ابنها من العبودية وتحاول استصحابه معها لا ليكن مانكورتا . دعه لا يفهم حقيقة الامر غير ان وجوده معها فى البيت ، بيت اهله ، افضل من بقائه لدى الجوانجوانيين فى الصحارى فى ساروزيكى المقفرة . هكذا كان يحدثها قلبها المفعم بحب الام لابنها . ولم تستطع ان ترضخ لما رضخ له الاخرون ، لم تستطع ان تبقى فلذة كبدها فى العبودية ، وظنت انه سوف يعود اليه عقله ، فى موطنه ، فجاة ، ويتذكر طفولته . . .

فى الصباح ، امتطت نايمان-آنا اكماى وقطعت مسالك ملتوية طويلة الى ان وصلت الى القطيع الذى كان قد ابتعد عن

مكانه مسافة غير قصيرة خلال الليل . وما ان بان لها القطيع من بعيد حتى ثبتت نظراتها عليه للتاكد من خلو المكان ، نادت على ابنها باسمه :

– جولامان ، جولامان ! مرحبا !

التفت الابن ، فندت من صدر الام صيحة فرحة . لكنها ادركت فى اللحظة نفسها انه التفت لدى سماع الصوت فحسب .

ومن جديد حاولت نايمان-آنا ان تعيد الى ابنها ذاكرته المفقودة مرددة عليه بتوسل :

– تذكر ما اسمك ، تذكر اسمك ! والدك دوننباى ، الا تعرف ؟ ليس «مانكورت» اسمك بل جولامان * . سميناك به لانك ولدت فى الطريق خلال رحلة النايمانيين الكبيرة . وعندما ولدت ، حططنا رحالنا ثلاثة ايام كاملة . . ثلاثة ايام كاملة احتفلنا بميلادك !

ومع ان كل هذه المحاولات لم تكن لتترك اى اثر على الابن واصلت الام الحاحها بأمل ، غير مجد ، ان يخطر فجاة شىء ما فى وعيه المنطفىء . لكنها كانت تطرق بابا محكم الغلق . ورغم ذلك واصلت الحاحها :

– تذكر ، ما اسمك ؟ كان والدك يدعى دوننباى !

بعد ذلك ، اطعمته وسقته مما كان لديها من طعام وماء احتياطى ، واخذت تنشد له الترانيم التى تنشد للاطفال فى المهد . واعجبته الترانيم جدا . وطاب له سماعها . وبانت على وجهه الجامد الاسمر الى حد السواد ، بعض علائم الدفء والحياة عندئذ بدات الام تقنعه بترك المنطقة ، وان يترك الجوانجوانيين ويعود معها الى موطنه . لم يكن المانكورت يتصور كيف يستطيع ان ينهض ويرحل الى مكان ما ، كيف يمكنه ان يترك ذود الابل ؟ لقد امره سيده ان يكون دائما بجانبه والا يتركه .

حاولت نايمان-آنا مرة تلو الاخرى ان تطرق باب ذاكرته الموصد باحكام ، والحت مجددا :

---

* جولامان : اسم مشتق من كلمتين «جول» الطريق و«امان» السلامة . ويعنى : رافقتك السلامة فى الطريق . **الناشر** .

– تذكر ابن مَنْ انت ؟ ما اسمك ؟ كان والدك يدعى دونتباى !

قضت نايمان-آنا وقتا طويلا الى جانب ولدها . ولم تنتبه كم من الوقت قد مضى الا بعد ان ظهر من جديد ، فى طرف القطيع جوانجوانى يمتطى جملا . كان القادم قد ظهر فى هذه المرة ، اقرب بكثير وهو يسير مسرعا ، ويقود جمله بخطى حثيثة . امتطت نايمان-آنا اكماى وولت هاربة . غير انه ظهر من الطرف الآخر للذود جوانجوانى ثان ممتطيا جمله فقطع عليها الطريق . قادت نايمان-آنا اكماى بسرعة فائقة واندفعت فى اتجاه يتوسط الجوانجوانيين القادمين . حملتها اكماى البيضاء ، المندفعة بسرعة ، فى الوقت المناسب الى امام . تبعها الجوانجوانيان وهما يصيحان ويهزان رمحيهما فى الهواء وانثى لهما ان يلحقا باكماى ! وكل لحظة مرت كانت تجعلهما يتخلفان عنها خطوات وخطوات ، ويبقيان فى المؤخرة مخذوليين على جمليهما الموبرين ، بينما تجمع اكماى انفاسها وتنطلق بسرعة لا يبلغها احد فى ساروزيكى منقذة نايمان-آنا من مطاردة مهلكة . بيد ان نايمان-آنا لم تعرف ان الجوانجوانيين اخذا يضربان المانكورت بعد ان عادا . لكن ماذا يمكن ان يطلبا منه ؟ انه كان يجيب :

– قالت انها امى .

فاخذا يخيفانه ويقولان له :

– انها ليست امك ! ليس لديك ام ! هل تعرف لماذا جاءت ؟ هل تعرف ؟ انها تريد ان تنزع عن راسك قبعتك بصب الماء الساخن عليه !

امتقع لون المانكورت اثر سماعه الكلمات واصبح وجهه الاسود رماديا . انزل راسه الى ما بين كتفيه وامسك بقبعته واصبح يتلفت فيما حوله كوحش .

– لا تخف هكذا ! هاك ، خذ !

وسلمه الجوانجوانى الاكبر سنا قوسا وسهاما .

وقال الجوانجوانى الاصغر سنا :

– هيا . . . سدد !

ورمى قبعته عاليا فى الهواء . فانطلق السهم واخترق القبعة . اندهش صاحب القبعة وقال :

– انظر ! لقد ظلت الذاكرة عندك .

حلقت نايمان-آنا فى اطراف ساروزيكى كطير اجفل فى عشه ، وهى لا تعرف ماذا ينبغى ان تفعل واى مصير ينتظرها . هل يسوق الجوانجوانيان الآن الذود وابنها – المانكورت الى مكان آخر اقرب من منطقة سكناهم يتعذر عليها بلوغه ، ام سيتربصان بها لكى يلقيا القبض عليها ؟ اقتربت ، وهى سارحة فى مثل هذه الافكار ، من المكان وفرحت عندما رأت الجوانجوانيين يتركان الذود ويوليان بعيدا دون التفاتة الى الوراء . تابعتهما نايمان-آنا بنظراتها طويلا الى ان اختفيا . وقررت حينذاك العودة الى ابنها . ينبغى الآن ان تأخذه معها مهما كلف الامر . وليكن فى اى حال فليس هذا ذنبه . هذا ما آل اليه مصيره . لقد سخر الاعداء منه الا ان امه لن تبقيه عبدا . ولتستشط قلوب النايمانيين غضبا ، وهم يرون كيف يشوه الغزاة الاسرى من مقاتليهم ، وكيف يهينونهم ويفقدونهم العقل ! وليمدو ايديهم الى السلاح . فالقضية ليست قضية الارض فحسب ، فالارض تكفى الجميع ، انما شر الجوانجوانيين لا يطاق حتى بالنسبة للجار البعيد . . .

عادت نايمان-آنا الى ابنها وهى نهبة لهذه الافكار واجهدت نفسها فى ايجاد طريقة تكسب بواسطتها ثقته وتقنعه بالهرب فى هذه الليلة .

اقبل المساء . وكان الغسق الارجوانى يتسلل بين المرج والوادى ، ويحط خفية على برارى ساروزيكى الشاسعة . وها قد حلت ليلة اخرى من تلك الليالى الكثيرة ، والماضية والمقبلة . وحملت الناقة البيضاء صاحبتها بخفة وحرية الى اذواد الابل . وكانت اشعة الشمس المتوارية تضىء قامة نايمان-آنا المنتصبة بين السنامين على ظهر الناقة . وكانت نايمان-آنا الحذرة المهمومة ، ممتقعة وصارمة ، تحمل فى رأسها الذى وخطه الشيب افكارا جمة . وعلى جبينها تجاعيد عميقة وفى عينيها ألم لا نهاية له مثل غسق ساروزيكى . . . ها قد وصلت الى القطيع وسارت بين الحيوانات المنهمكة فى الرعى . وبدأت تبحث عن

ابنها . لكنها لم تره . ولم تعرف لماذا كان جمله يرعى بحرية ساحبا وراءه على الارض مقوده . . . ليس ثمة اثر لابنها . ترى ، ماذا حدث له ؟

ونادت نايمان-آنا :

– جولامان ! اين انت يا بنى ، جولامان !

لم يرد احد . ولم يكن ثمة احد لكى يلتفت لندائها .

– جولامان ! اين انت ؟ هذه انا ، والدتك ، اين انت ؟

تلفتت فيما حولها بقلق . ولم تلاحظ ان ابنها المانكورت قد اختفى فى ظل احد الجمال وتهيأ لاطلاق السهم . كان يعوقه لمعان بقايا ضياء الشمس وينتظر اللحظة المناسبة للرمى .

صاحت نايمان-آنا وهى تخشى ان يكون ابنها قد حاق به مكروه :

– يا ولدى جولامان !

واستدارت فرأته ، وما كادت تصرخ «لا تطلق !» وتحث الناقة البيضاء اكماى لتستدير حتى صفر السهم صفيرا قصيرا وهو ينغرز فى جنبها الايسر .

كانت تلك ضربة قاتلة . انحنت نايمان-آنا ، وبدأت تسقط ببطء متشبثة بعنق الناقة . وقبل ان تسقط على الارض انحل المنديل الابيض عن رأسها ، وتحول الى طائر ، وطار يصيح «تذكر ابن مَنْ انت ؟ ما اسمك ؟ والدك دوننباى ! دوننباى ! دوننباى !»

يقال ، انه منذ ذلك الحين يطير فى ساروزيكى ليلا طائر الدوننباى . وكلما صادف هذا الطائر احدا ، حلق بالقرب منه وصاح : «تذكر ، ابن من انت ؟ ابن من انت ؟ ما هو اسمك ؟ اسمك ؟ والدك كان دوننباى ، دوننباى ، دوننباى . . .!»

واصبح المكان الذى دفنت فيه نايمان-آنا يسمى فى ساروزيكى بمقبرة آنا – باييت اى راحة الام الابدية .

وخلفت الناقة البيضاء اكماى ذرية كبيرة . وكانت الاناث من سلالتها شبيهات بها . اصبحت النوق البيضاوات الرؤوس مشهورة فى المنطقة برمتها ، اما الذكور ، فكانوا ، على العكس ، يولدون سود الرؤوس وضخمين مثل قره نار البورانى الحالى .

كان المرحوم قازانغاب الذى جاءوا به الآن لدفنه فى آنا-

باييت يؤكد دائما ان قره نار البورانى ليس من سلالة عادية ، بل من سلالة الناقة البيضاء المشهورة اكماى التى بقيت فى ساروزيكى بعد مصرع نايمان-آنا .

وثق يديغي بقازانغاب كل الثقة وصدق بكلامه . ولِمَ لا ؟ . . كان قره نار البورانى يستحق ذلك . . . وكم من التجارب مرت به فى الايام الطيبة والايام السيئة وكان قره نار دائما ينقذه من المصاعب . . . لكنه يفقد عقله فى موسم السفاد ، ويحدث هذا معه ابان البرد دائما وعندئذ يغتاظ ، فيكون الشتاء قارسا عنيفا . شتاءان دفعة واحدة . وفى مثل هذه الايام لا ينفع معه اى شىء . . . وذات مرة اوقع يديغي فى وضع بالغ الحرج جدا . ولو كان قره‌نار انسانا ، او مخلوقا عاقلا ، لما غفر يديغي البورانى له ابدا تلك الحادثة . لكن ماذا تفعل مع بعير تخبل فى موسم السفاد ، بيد ان جوهر القضية ليس فى الحيوان . فهل يجوز الاستياء من حيوان ! يبدو ان هذا قضاء محتوم ليس الا ! وما شأن قره‌نار البورانى بهذا كله ؟ كان قازانغاب يعرف هذه القصة جيدا ، ولقد افتى فيها افتاء صحيحا ، ولولاه ، فمن يعرف ماذا كان قد حصل .

الفصل السابع

تذكر يديغي البورانى اواخر الصيف واوائل الخريف من عام ١٩٥٢ بشعور خاص سعادة الايام المنصرمة . وتحققت نبوءاته كأنما بفعل السحر . بعد ذلك القيظ الرهيب الذى كانت حتى حراذين ساروزيكى تحتمى منه بعتبات المساكن منقذة نفسها من الحر ، تغير الجو فجأة منذ اواسط آب . انسحب الحر غير المحتمل ، وراحت البرودة تحل شيئا فشيئا ، على الاقل اصبح فى الامكان النوم براحة فى الليالى . يحدث ان تاتى مثل هذه الغبطة فى ساروزيكى ، ليس كل عام ، ولكنها تحدث . اما الشتاءات فهى على شاكلة واحدة ، لا تتغير ، وهى دائما قارسة ،

بينما الصيف فيتساهل احيانا . ويحدث هكذا عندما يطرأ على الطبقات العليا للتيارات الهوائية ، – كما تحدث بذلك يليزاروف ذات مرة – تغيرات في اتجاه الانهر السماوية . وكان يليزاروف شغوفا بالتحدث عن مثل هذه الاشياء . فقال انه تجرى فى الاعالى انهر عظيمة غير مرئية لها ضفافها وفيضاناتها ، وزعم ان هذه الانهر المتواجدة فى دورة متواصلة تغسل الكرة الارضية . وان الارض المحاطة بانواع الرياح تدور حول نفسها ، وهذا الدوران هو ما نسميه بمجرى الزمن . من الشيق سماع يليزاروف ، يندر ان يرى المرء اناسا مثله ، فهو انسان ذو قلب فريد . كان يديغي البورانى يكن الاحترام ليليزاروف ، وهذا الاخير يبادله الاحترام بالمثل . وعلى هذا الاساس ، فان ذلك النهر السماوى الذى يجلب احيانا برودة منعشة لساروزيكى فى اوج القيظ ، لا يدرى لماذا يهبط من ارتفاعه الاقصى ، وخلال ذلك يصطدم بجبال هملايا . وجبال هملايا هذه ، لا يدرى الا الله ما ابعدها ، لكن مع ذلك فهى غير بعيدة من حيث مقاييس الكرة الارضية . مياه النهر الهوائى ترتطم بهملايا وترد على اعقابها ، فلا تصل الى الهند ولا الى باكستان ، فيمكث الحر هناك كما هو عليه ، اما فوق ساروزيكى فتتدفق فى ايابها ، لان ساروزيكى هى مراتع شاسعة خالية من الموانع مثل سطح البحر . . . ويجلب ذلك النهر البرودة من هملايا . . .

لكن مهما كان ، والحق يقال ، فان الوقت الممسر فى تلك السنة جاء فى اواخر الصيف ومطلع الخريف . وان الامطار فى ساروزيكى هى ظاهرة نادرة . وكل زخة مطر تبقى عالقة فى الاذهان لفترة طويلة . بيد ان ذلك المطر تذكره يديغي البورانى طول حياته . فى الاول تلبدت السماء بالغيوم ، حتى انه كان منظرا غير مالوف عندما اختفى عمق السماء الصحراوية الساروزيكية القانظة . واضحى الجو خانقا ، حارا ورطبا ، لدرجة غير محتملة . وكان يديغي فى ذلك اليوم يعمل على قطر العربات . وكانت قد بقيت على خط مفرق السكة الحديد المسدودة ثلاث عربات حمل مسطحة بعد تفريغها من الحصى والعوارض الصنوبرية . وكان قد تم تفريغها فى اليوم السابق . وكما فى كل مرة ، يطلب القيام بذلك باقصى سرعة ، لكن بعد ذلك يتضح

ان الامر لم يكن يقتضى كل هذه العجالة . ومكثت العربات بعد تفريغها واقفة على السكة المسدودة نصف نهار . كانوا جميعا قد انكبوا على التفريغ : قازانغاب وابو طالب وظريفة واوق بالا وبوكيه ، اى زجّ بكل من لم يكن يعمل على الخط فى هذا العمل العاجل . وكانوا مضطرين الى تنفيذ ذلك كله بالايدى . آه من الحر الذى كان فى ذلك اليوم ! ها هى المصيبة ان العربات وصلت فى مثل ذلك الحر . لكن ما دام تفريغها لازما فلا بد من ذلك . وعملوا . فتوعكت اوق بالا وراحت تقيء . لم تتحمل رائحة العوارض الحامية المقطرنة . واضطروا الى ارسالها للبيت . ثم اخلوا سبيل النساء جميعهن لان الاطفال كانوا يضنون من الحر فى البيت . فبقى الرجال وحدهم ، وتعذبوا طويلا لكنهم اكملوا العمل .

وفى اليوم الثانى ، قبل سقوط المطر بالضبط ، كان يجب ان تعود العربات الفارغة مع قطار حمولة عابر الى قمبيل . والى ان قام القطار بالمناورة وقطروا به العربات اختنق يديغي من الحر كما فى حمام الجنود . كان من الافضل ان تصلى الشمس ، اما سائق القاطرة فصادف ان كان بطيئا جدا يجرّ العربات كالسلحفاة ويديغي كان يشتغل منحنى الظهر تحت العربات . وصب يديغي على راس سائق القاطرة سيلا من الشتائم كما ينبغى . فرد عليه ذلك بالمثل . صاعا بصاع بل كال له بالصاع صاعين . وهو لا يحلو له بدوره البقاء عند اتون القاطرة فتخبل كلاهما من الحر وجن جنونهما . والحمد لله اذ غادر قطار الحمولة ساحبا العربات الفارغة . وفى هذه الاثناء زخ وابل المطر وكان السماء قد انشقت واذنت لربها وحقت والارض ارتعشت وانتعشت وغمرتها البرك والمياه بطرفة عين . وهطل المطر فترة طويلة محتدما ومجنونا بعد ان ادخر احتياطى البرودة والرطوبة من سلسلة جبال هملايا نفسها المكللة بالثلوج اذا كان ذلك الحديث صحيحا . . . واما هملايا ، فيا لها من جبال ! ويا لها من قوة ! هرع يديغي الى البيت ، اما لماذا فهو نفسه لا يعرف . هكذا كان . ذلك ان الانسان عندما يجد نفسه تحت المطر يركض دائما الى البيت او يحتمى بأى سقف . هذه عادة . والا لماذا الاختباء من مثل هذا المطر ؟ لقد ادرك ذلك وتوقف

عندما رأى عائلة قطبايف كلها : ابو طالب ، ظريفة ، وابناهما داول وايرميك يتقافزون يرقصون متماسكى الايدى تحت المطر قرب بيتهم . لقد هز هذا المنظر يديغي هزا . وليس لانهم فرحوا ومرحوا بسقوط المطر ، بل لان ابا طالب وظريفة كانا قد تعجلا انتهاء العمل قبل سقوط المطر لكى يعودا الى البيت وسارا بخطوات واسعة عبر طريق السكة الحديد . لقد فهمهما الآن . ارادا ان يكونا سوية مع ولديهما تحت المطر . لم يخطر هذا على بال يديغي . بينما هم كانوا يغتسلون بوابل المطر يرقصون ويضجون مثل الاوز فى بحر آرال ! لقد كان ذلك عيدا ، متنفسا لهم فى السماء لانهم كانوا قد اشتاقوا اشتياقا حارا للمطر فى ساروزيكى . وتملك يديغي الفرح والحزن والضحك فى آن ، وراف بحال هؤلاء المنبوذين المتشبثين بلحظة مشرقة فى مفرق السكة الحديد بورانلى-بورانى .

– يا يديغي ! هيا معنا ! – ناداه ابو طالب عبر شآبيب المطر ولوّح له بيده كما يفعل السياح .

– يا عم يديغى ! – صاح الولدان جذلين بدورهما وانطلقا نحوه .

وركض صوبه الابن الاصغر ايرميك ، محبوبه ، الذى دخل لتوه عامه الثالث ناشرا يديه فاغرا فاه على سعته ، لاهثا من المطر . وكانت عيناه مفعمتين بسعادة لا توصف وبسالة وحماس . تلقفه يديغي ودار به وهو على يديه ، ولا يعرف كيف يتصرف فيما بعد . فانه لم تكن له نية البتة للمشاركة فى هذه اللعبة العائلية . بيد انه فى هذه الاثناء ظهرت بنتا يديغي ساولا وشرابات راكضتين من طرف البيت وزاعقتين بصوت مرتفع . لقد هرعتا على الضجة التى اقامتها عائلة قطبايف . ولقد كانتا سعيدتين ايضا ، فطلبتا من ابيهما : «بابا ، هيا نركض !» ولقد وضع هذا حدا لتردد يديغي . انهم الآن متوحدين مع بعضهم بعضا يمرحون تحت وابل المطر الغزير .

لم ينزل يديغي الطفل ايرميك من حضنه خوفا من ان يسقط فى هذا الهرج والمرج ببركة ويشرق بالماء . فاجلس ابو طالب على ظهره ابنته الصغيرة شرابات وركضا على هذه الحال مسلين الاطفال . كان ايرميك يتراقص فى حضن يديغي ويصرخ بأعلى

صوته ، وعندما يشرق او يغص يدس وجهه المبتل بسرعة عند رقبة يديغي . ولقد كان ذلك مؤثرا جدا وتمكن يديغي ان يتلقف عدة مرات نظرات ابى طالب وظريفة المشعة والممتنة الموجهة اليه ، وكانا مرتاحين من ان الطفل كان يشعر بكل هذه الغبطة مع العم يديغي . غير ان يديغي وابنتيه ايضا كانوا يشعرون بالفرح الشديد فى هذا الهرج والمرج الذى اقامته عائلة قطبايف فى المطر . وانتبه يديغي بلا ارادة منه لجمال طريفة . فقد شعث المطر شعرها الاسود والقى بخصل منه على وجهها ورقبتها وكتفيها ، وقد ابتلت من قمة راسها الى اخمص قدميها ، وسال الماء المتساقط على جسد المرأة المرن الغض مبرزا رقبتها ويديها وفخذيها وبطنى ساقيها العاريتين . بينما تألقت عيناها فرحا وحماسا . ولمعت اسنانها البيضاء معبرة عن السعادة .

المطر بالنسبة لساروزيكى شيء لا نفع فيه . فان الثلج يشبّع التربة بالتدريج ، بينما المطر ، مهما كان غزيرا ، يجرى مثل الزئبق على راحة اليد ، ويسيل فى الوديان والوهاد مع انه منذ لحظة كان يهطل ويهطل .

وبعد دقائق معدودة من ذلك المطر الغزير تدفقت الجداول والسيول قوية سريعة مزبدة . عندئذ أخذ البورانليون يتراكضون ويتقافزون فى السواقى وينزلون الاحواض والطسوت الى الماء . وحتى ان الاولاد الكبار كداول وساولا قد ركبا الطسوت وعاما فوق الماء . واضطروا ان يجلسوا الصغار ايضا فى احواض ليسبحوا . . .

اما المطر فواصل السقوط . ووجد الاطفال الذين كانوا يتمتعون بالسباحة فى الطسوت انفسهم عند خط السكة الحديد ، تحت السدة مباشرة عند طرف المفرق . وفى هذه الاثناء كان يسير عبر بورانلى-بورانى قطار ركاب . واخذ الناس المطلين باجسادهم حتى النصف تقريبا من نوافذ وابواب القطار المفتوحة على مصاريعها ينظرون اليهم ، الى هؤلاء التعساء الغريبى الاطوار . وكانوا يصرخون من القطار : «اى ، احذروا من الغرق !» ويصفرون ويضحكون . ذلك ان منظرهم كان غريبا جدا ، على ما يبدو . والقطار كان يسير مغسولا بالمطر حاملا

معه اولئك الذين سيتحدثون بعـــد يوم او يومين عما راوه للناس لاضحاكهم .

ولما كان يديغي قد فكر بذلك لو لم يخيل اليه ان ظريفة تبكي . عندما تسيل على الوجه مسارب الماء شديدة يصعب على المرء ان يقول هل ان الانسان الذى يراه يبكى ام لا . ومع ذلك كله كانت ظريفـــة تبكى . وكانـــت تتظاهر بالضحك والفرح الشديد ، بينما كانت فى الواقع تبكى متمالكة نشيجها مغطيـــة البكاء بالضحك والصيحات . امسك ابو طالب بيدها قلقا :

ـ ماذا بك ؟ هل تشعرين بسوء ؟ لنذهب الى البيت .

فاجابت ظريفة :

ـ لا ، انه مجرد انفعال .

وشرعا من جديد بتسلية الاطفال مستعجلين فى ارواء انفسهم من هبات المطر المفاجئ . وتملـــك يديغي شعور غير معتاد ، وتصور كيف يكون صعبا عليهما الاعتراف بوجـود حياة اخرى ، مسلوبة منهم ، حيث لا يكـــون سقوط المطر حدثا ، والناس يستحمون ويسبحون بالماء الصافى الرقراق ، حيث توجد ظروف اخرى ، ومرفهات اخرى ، ورعاية اخرى للاطفال . . . ولكـى لا يعكر يديغي من مزاج ابى طالب وظريفة اللذين ابتدعا بالطبـع هذا المرح من اجل ابنيهما واصل دعم تسليتهم . . .

لقد هرج ومرج ولعـــب الصغار والكبار بما فيه الكفاية ، بينما المطر ظل يهطـــل مدرارا . عندئذ غادروا الى بيوتهم . وشيعهم يديغي بعينين مفعمتين بالعطف والحنان وهم يركضون صفا واحدا : الأب ، فالام ، والولدان وكانوا كلهم مبتلين . على الاقل تمتعوا بيوم واحد من السعادة ، فى ساروزيكى .

وظهر يديغي على عتبة البيت حاملا ابنته الصغيـرة وممسكا بيد الكبيرة . فذعرت اوق بالا وضربت كفا بكف .

ـ اوي ، ماذا حدث لكم ؟ من يفعل هذه الفعلة ؟

ـ لا تخافى يا أم ـ طمأنها يديغي واستغرق فى الضحك عندما ينتشى البعير يلعب مع صغاره .

ـ لهذا اراك تتصرف مثل طفل صغير ـ ابتسمت اوق بالا معاتبة ـ اخلعوا ملابسكم ، لا تقفوا مثل دجاجات مبتلة .

اقلع المطر عن السقوط . بيد انه ظل ينهمر فى مكان ما

من اطراف ساروزيكى حتى الفجر استنتاجا مـــن قصف الرعود الخافت القادم من بعيد اثناء الليل . وقد استيقظ يديغي بتاثير ذلك عدة مرات . واندهل . فى بحر آرال كان يحدث ان يزمجر الرعد فوق رأس المرء ، ومع ذلك ينام . هناك الامر مختلف لان الرعود كثيرة التكرار . واذ استيقظ يديغي خمن خلال اجفانـــه المغمضة كيف كان ينعكس فى النوافذ الق ومضات باهتة اللون تومض فى اماكن مختلفة من البرية .

ورأى يديغي البورانى فى حلمه تلك الليلة انه كان فى الجبهة من جديد وراقدا تحت القصف . بيد ان القذائف كانت تسقط بعيدا دون ان تحدث صوتا . والانفجارات بغير جلبة تحلـق عاليا فى الهواء وتتجمد متحولة الى نثار اسود ثم تسقط ببطء وتثاقل . احد هذه الانفجارات اطاره الى اعلى وقذفه فى الهواء ثم راح يسقط على مدى فترة طويلة . كان يسقط بقلب متجمد فى فراغ مرعب . ثم هجم على الاعداء . كان عدد الجنود المرتدين معاطف عسكرية رمادية كبيرا وقد بدأوا بالهجوم . لكنه لم يتمكن من تميز وجوههم ، وتراءى له ان المعاطف وحدها تركض من تلقاء نفسها حاملة الرشاشات بايديها . وعندما هتفت المعـاطف «هورا» لاحت فى الطريق امام يديغي ظريفة المبتلة من المطـر ضاحكة . كان هذا مثيرا للعجب . كانت ظريفة المرتدية فستانا من الشيت بشعرها المشعث البليل وقطرات المطر التى كانت تسيل على وجهها تضحك بلا انقطاع . لم يكن لدى يديغي متسع من الوقت للتوقف ، وتذكر انه ذاهب للهجوم . «لماذا تضحكين هكذا يـا ظريفة ؟ ليس هذا بفاتحة خير» ـ قال يديغي . «انا لا أضحك ، بل ابكى» ، اجابت هى وواصلت الضحك تحت انهمار المطر . . .

فى اليوم التالى اراد ان يقص عليها وعلى ابى طالب عما رآه فى منامه . لكنه عدل عن رأيه لأن الحلم بدا له سيئ التأويل والتفسير ولماذا يكدر الناس زيادة عن اللزوم . . .

بعد ذلك المطر الغزير تقهقر الحر فى ساروزيكى . او كما كان يقول قازانغاب انتهت رشاوى الصيـــف . حلت عدة ايام قائظة ، لكنها كانت محتملة . ومنذ ذلك الوقت بدأت تدريجيـا غبطة ما قبل الخريف الساروزيكية . تخلص الاطفال البورانليون مـــن الحر المضنى . وانتعشوا وصدحت اصواتهم من جديد .

وفي تلك الايام وصلت مفرق السكة الحديد اخبار من قمبيل تقول ان البطيخ والشمام قد نزلت الى المحطة للتوزيع بين العاملين وانه بالامكان ارسال حصة البورانليين اليهم او عليهم الذهاب لاستلام حصتهم ، كما يشاؤون . واستغل يديغي هذا الخبر ، واقنع مدير المفرق انه لا بد «من الذهاب بانفسنا ، والا فقد يرسلون لنا بقايا من بقاياهم غير النافعة» . وافق ذاك وقال : «طيب ، اذهب انت وقطبايف واختاروا النوعيات الافضل منها» . وهذا ما كان يحتاجه يديغي . كان يريد ان يبعد ابا طالب وظريفة والاطفال من بورانلي – بورانى حتى ولو ليوم واحد . اجل ، ولا ضير من تبديل الجو بالنسبة لعائلته ايضا . وغادرت العائلتان ، مع اطفالهما فى الصباح الباكر بقطار عابر الى قمبيل . وكانوا قد لبسوا لباسا حسنا . كان هذا رائعا . وخيّل للاطفال انهم ذاهبون الى بلاد خرافية . فطول الطريق كانوا يبتهجون ويسألون : وهل تنبت الاشجار هناك ؟ تنبت . الحشيش هناك ايضا موجود ؟ موجود . وهل هو اخضر ؟ اخضر ، وحتى توجد هناك الزهور . والبيوت كبيرة والسيارات تمرق فى الشوارع ؟ وهل يمكن الاكل من البطيخ والشمام قدر ما نشاء ؟ وهل يوجد هناك بوظة ؟ البحر موجود هناك ؟

كانت الريح تعصف بعربة الحمولات ويهب تيار لطيف ناعم منها من الابواب المفتوحة المسيجة توقعا لكل الاحتمالات بعوارض خشبية لئلا يسقط منها الاطفال مع ان يديغي وابا طالب جلسا عند الطرف على صناديق فارغة . كانا يتبادلان شتى الاحاديث ويجيبان عن اسئلة الاطفال . وارتاح يديغي البورانى لانهم سافروا معا ، وان الجو لطيف والاطفال مسرورون . لكن اكثر ما كان يفرح يديغي ليس من اجل الاطفال بل من اجل ابى طالب وظريفة . كان وجهاهما يشعان . لقد فرغ الاثنان وتحررا ولو لفترة قصيرة من المشاغل الدائمة والكآبة الداخلية .

وكان يطيب له ان يرى ظريفة واوق بالا يتبادلان اطراف الاحاديث الودية عن مختلف الشؤون الحياتية . وكانتا سعيدتين . وهكذا كان يجب ان يكون الامر ، فماذا يريد الناس اكثر . . . وكان يديغي يود من كل قلبه ان تنسى عائلة قطبايف جميع مصائبها وتتمكن من الاستقرار هنا والتكيف مع

الحياة البورانلية ، ما دام لم يكن امامهما من اختيار آخر . وسرّ يديغي ايضا بجلوس ابى طالب الى جانبه وكتفه يمس كتفه ، وهو يعرف انه يمكن الاعتماد على يديغي ، وانهما يفهمان بعضهما البعض بلا كلمات زائدة ، ودون ان يتطرقا الى مواضيع غير نافعة مما لا ينبغى الحديث عنه . وكان يديغي يقدر فى ابى طالب ذكاءه وتماسكه ، لكن اكثر ما كان يقدره فيه هو تعلقه بعائلته التى عاش ابو طالب من اجلها دون ان يستسلم مغترفا القوة منها . وتوصل يديغي وهو يستمع لكلام ابى طالب الى نتيجة مفادها ان احسن ما يمكن ان يقوم به الانسان بالنسبة للاخرين هى تربية اطفاله تربية جديرة ولائقة وليس بمساعدة احد بل بنفسه ، وان يودع نفسه فيهم يوما بعد يوم وخطوة بعد خطوة ، وان يكون معهم قدر امكانه .

ها هو ثابت جان ، فقد درس ، كما يبدو ، فى اماكن كثيرة . منذ صغره فى المدرسة الداخلية ثم فى المعهد ، ثم فى مختلف دورات التأهيل . وكان قازانغاب المسكين يقدم الى ابنه ثابت جان كل ما يحصله ويتقاضاه لئلا يعيش فى حال اسوأ من الاخرين . وماذا كانت الفائدة ؟ انه يعرف الكثير ، لكن عديم النفع يبقى عديم النفع .

ولهذا فكر يديغي آنذاك فى الطريق عندما سافر مع ابى طالب لجلب البطيخ والشمام من قمبيل ، انه ما دام ليس ثمة من مخرج افضل ، فمن المستحسن لابى طالب قطبايف ان يستقر كما يجب فى بورانى وان ينظم مزرعة له ويربى المواشى ويربى ولديه هنا فى ساروزيكى حسب امكانه وعلى قدر حاله . الحق يقال انه لم يبدأ بتقديم النصائح والارشادات له ، لكنه فهم من الحديث ان ابا طالب يميل الى ذلك وله مثل هذه النوايا . فقد استفسر عن كيفية خزن البطاطس واين يمكن شراء جزم اللباد الشتوية لزوجته واولاده ، بينما قال انه هو نفسه سيبقى بجزمته الحالية . وسأل ايضا ان كانت توجد مكتبة فى قمبيل وهل تعير الكتب لسكنة مفرق السكة الحديد .

مع حلول الليل فى ذلك اليوم نفسه عادوا الى البيت فى قطار حمولات عابر ومعهم البطيخ والشمام المخصص للبورانليين . وبالطبع تعب الاطفال الى ذلك الوقت لكنهم كانوا

مرتاحين جدا اذ تفرجوا على العالم فى قميل واشتروا لعبا ودمى واكلوا البوظة ومختلف انواع الحلويات . اجل ، لقد حدث حادث صغير فى صالون حلاقة المحطة ، عندما ذهب الاولاد للحلاقة . لما جاء دور ايرميك اخذ يصرخ ويصيح بحيث لم تجد معه نصيحة احد . الجميع كانوا يتوسلون اليه لكنه هو كان يخاف وينتفض من الايدى ويصرخ ، وينادى اباه . وكان ابو طالب فى ذلك الاثناء قد ذهب الى مخزن مجاور . وظريفة لم تكن تعرف ماذا تفعل فاحمرت وشحبت خجلا . وراحت تتذرع بكون الولد لم يحلق ولا مرة منذ ولادته لانهم كانوا يحافظون على شعره الجميل المجعد . فى الحقيقة كان شعر ايرميك جميلا كثيفا شبيها بشعر امه ، وبشكل عام كان الولد شبيها بامه . كل مرة بعد غسل شعره ومشطه كان يغدو منظره غاية فى الجمال .

ونظرا لذلك اضطرت اوق بالا ان تسمح بقص شعر ساوله وذلك لتقول ، تفضل انظر ، رغم كونها بنت لا تخاف . ويبدو ان ذلك قد اثر تاثيرا ما . لكن ما ان تناول الحلاق ماكنته بيده حتى بدا صياح ايرميك وبكاؤه . وكان ايرميك ينزع نفسه من بين يدى الحلاق عندما دخل الباب ابو طالب . فانطلق الطفل نحو والده فرفعه والده وحضنه بقوة وادرك انه لا داعى لتعذيب الطفل . وقال للحلاق :

— اعذرنى ، سنمر عليك فى المرة القادمة . سنجمع قوانا وناتيك . . . لا نستعجل هذه المرة . . . سناتيك فى المرة القادمة . . .

خلال الاجتماع الاستثنائى للجنتين المكلفتين بالمهمات الخاصة على متن حاملة الطائرات «كونفينتسيا» وباتفاق مشترك من الطرفين أرسلت برقية لاسلكية اخرى بالشفرة الى المحطة المدارية «باريتيت» مخصصة للبث الى رائدى الفضاء المتكافئين ١-٢ و٢-١ الموجودين فى كوكب الصدر الغابى ، خارج المنظومة الارضية ، وتمنع البرقية عليهما منعا باتا اتخاذ اية اجراءات ، والبقاء فى مكانهما حتى تسلم اوامر خاصة من «اوبتسينوبر» .

استمر الاجتماع كالسابق خلف الابواب المغلقة . وحاملة الطائرات «كونفينتسيا» كالسابق ايضا ظلت عائمة فى موقعها فى المحيط الهادى ، الى الجنوب من جزر ألوشن فى منتصف المسافة تماما بين سان فرنسيسكو وفلاديفوستوك .

وكالسابق ما كان احد فى العالم يعرف ان احداثا هامة وعظيمة وقعت بين المجرات ، اذ تم فى منظومة «الحامل» اكتشاف كوكب حضارى غير ارضى ومخلوقات عاقلة اقترحت اقامة علاقات مع ابناء الارض .

فى الاجتماع الاستثنائى ناقش الجانبان كل النقاط المؤيدة والرافضة اى الجوانب الايجابية والسلبية لهذه القضية غير العادية وغير المتوقعة . وقد وضعت على الطاولة امام كل عضو من اعضاء اللجنتين الى جانب الوثائق الثانوية محفظة تحوى النص الكامل لرسالة رائدى الفضاء المتكافئين ١-٢ و٢-١ . ودرست كل فكرة وكل كلمة واردة فى الوثيقة . وكل تفصيل من تفاصيل حياة سكان الصدر الغابى الواردة كمثال على تنظيم الحياة العاقلة فى هذا الكوكب ، درست قبل كل شىء من وجهة نظر المغبة المحتملة التى تتوافق او لا تتوافق مع التجربة الحضارية للارض ومع مصالح البلدان الرائدة فى العالم . . . اذ لم يسبق لاى انسان على وجه الارض مجابهة مثل هذا النوع من المشاكل . وتطلبت القضية حلا سريعا ناجزا . . .

وكالسابق زوبعت فى المحيط الهادى عاصفة غير شديدة . . .

بعد اجتياز عائلة قطبايف الوقت الافظع من قيظ الصيف فى ساروزيكى ولم تجمع امتعتها يأسا ولم تتحرك من ساروزيكى خطوة الى اى مكان ، لترحل من هذه المنطقة ، ادرك البورانليون ان هذه العائلة سوف تبقى عندهم . وتشجع ابو طالب قطبايف بشكل ملحوظ ، او بالاحرى ، دخل الحياة الروتينية البورانلية . بالطبع ، لقد اعتاد وتكيف مع ظروف الحياة فى مفرق السكة الحديد . وكان يحق له ، كما يحق لكل امرىء ، ايا كان ، ان يقول ان بورانلى هى المكان الاكثر هلكا فى العالم ، اذ لا بد من جلب الماء بالصهاريج على السكة الحديد للشرب وللحاجات الاخرى . اما من يرغب ان يشرب الماء العذب فيتوجب عليه ان

يأخذ القرب على البعير الى البئـــر الواقعة بعيدا جدا ، بحيث لا يتجرأ احد على الذهاب اليها غير يديغي وقازانغاب .

اجل ، هكذا كان الامر حتـــى العام الثاني والخمسين والى الستينات ، عندما نصبت في مفرق السكـــة الحديد مضخة ماء كهربائية هوائية لضخ المياه الجوفية من الآبار الارتوازية ولكن في ذلك الوقت لم يكن ذلك ليـــراود افكارهم حتى في اضغاث الاحلام ورغم ذلك كله فان ابا طالب لم يشتم ولم يصب السب على محطة بورانلي – بورانى ولا منطقة ساروزيكى هذه . لقـــد تقبل الطالح باعتباره طالحا والصالح باعتباره صالحا ، وفي خاتمة المطاف لم تكن تلـــك الارض مذنبة حيال احـــد بأيما شيء . فالانسان نفسه هو الذى ينبغى له ان يقرر ان كان سيعيش هنا ام لا . . .

وعلى هذه الارض كان الناس يسعون الى الاستقرار بصورة مريحة اكثر ما يمكن . حين توصلت عائلة قطبايف الى قناعـــة نهائية بان مكانهم هو هنا في بورانلي – بورانى ، وليس لها من مكان آخر ترتحل اليه ، وانه مـــن الضرورى الاستقرار بصورة ارسخ واوطد ، فلم يعـــد الوقت يكفى للاعمـــال المنزلية . وبالطبع ، كان ينبغى العمل كل يوم ، او كل وردية ، وحتى في وقت الفراغ كانت الاشغال كثيرة . وتصدع راس ابى طالب من كثرة الهموم وتعب جدا حين بدأ بتهيئة البيت للشتاء . اعاد بناء المدفأة واصلح الابواب وقوى اطر النوافذ . كان غير حاذق في مثل هذه الاعمال ، لكن يديغي ساعده بالمواد وعدد العمل ولم يتركه لوحده ، وعندما اخذا يحفران قبوا قرب السقيفة لم يقف حتى قازانغاب مكتوف الايدى . فرتبوا ثلاثتهم سوية قبوا صغيرا وسقفوه بعوارض قديمة وبالقش ثم كسوه بالطين . لقد صنعوا غطاء السقف متينا لئلا تسقط في القبو الماشية . وكان ولدا ابى طالب يدوران حولهم دائما مهما حاول الثلاثة ابعادهما . لكن وان كانا احيانا يعوقانهم عن العمل فان العمل كان على هذا النحـــو امتع والطف . واخذ يديغي وقازانغاب يفكران في كيفية مساعدة ابى طالب على تنظيم مزرعته ، وقد اعد كل منهما بعض الاشياء من اجل ذلك . وقررا ان يخصصا له منـــذ الربيع ناقة حلوبا . ومن المهم هنا حتى تعلم الحلب . ذلك ان الناقة ليست كالبقرة

اذ ينبغى حلبها وقوفا ، وتتبع اثرها في البرية ، لكن الاهم هـــو المحافظة على حُوَارها والسماح له بالرضاع في الوقت المناسب وصده في الوقت المناسب ايضا . ان مشاغل نمو الحوار ليست قليلة . ينبغى للمرء ان يعرف الامور على وجهها الصحيح . . .

بيد ان اكثر ما أدخل الفرح الى قلب يديغي البورانى ونفسه هو ان ابا طالب لم يقتصر على عنايته بتدبيـــر شؤون البيت ، وانشغاله الدائم باطفال العائلتين يعلمهم هـــو وظريفة القراءة والكتابة والرسم ، بل فضلا عـــن ذلك أخذ يهتم ويعنى بنفسه قاهرا ومتغلبا على المنأى البورانلي . ذلك ان ابا طالب قطبايف كان انسانا متعلما ومثقفا . يقرأ الكتـــب ويدون لنفسه بعض الملاحظات . لقد كان ذلك ضروريا بالنسبة له . وكان يديغي يعتز في سره بأن له مثل هذا الصديق ، ولهذا شعر بميـــل نحوه . وحتى مـــع يليزاروف الجيولوجى المختص بساروزيكى الذى كان يتردد كثيرا على هذه المناطق لم تقم صداقته صدفة . كان يديغي يحترم العلماء وذوى الاطلاع . وكان ابو طالب ايضا واسع المعرفة . لكنه كان مقتصدا في سرد افكاره والجهر بها . ولكن جرى بينهما ذات مرة حديث جدى .

كانا راجعين في المساء مـــن العمل على خطوط السكـــك الحديد . في ذلك اليوم نصبوا الالواح المضادة للثلج فـــى الكيلومتر السابع حيث يكثر تساقط الثلوج دائما . وعلى الرغم من ان الخريف كان قد بدأ لتوه ، الا ان الشتاء كان يتطلـــب استعدادا قبل الاوان . اذن ، كانا يعودان الى البيت مشيا . وكان مساء لطيفا مضيئا يستميل المرء لتبادل اطراف الاحاديث . وفي مثل هذه الامسيات تبدو اطراف ساروزيكى للنظر في غســـق الغروب بشكل غير واضح ، مثلما يتراءى قاع بحر آرال مـــن قارب في طقس جيد .

سأل يديغي :

– انني يا ابا طالب كلمـــا مررت في الامسيات من امام بيتكم رايت رأسك بارزا فوق درفة النافذة والى جانبك مصباح ، هل تكتب شيئا على المنضدة ؟

اجاب ابو طالب عن طيب خاطر محولا الرفش من احد كتفيه الى الآخر :

– لا مكتب عندى . لكن ما ان يرقد الشقيان ويغفوان حتى وتنهمك ظريفة فى المطالعة ، بينما اكتب انا بعض الملاحظات ، ما دامت احداث الحرب لا تزال طرية فى ذاكرتى . واهم ذكرياتى تتعلق بالسنوات التى قضيتها فى يوغسلافيا . الزمن يمر والماضى يزداد ابتعادا . – وصمت برهة – اننى افكر دائما بشان ما استطيع فعله لاطفالى . اولا اطعامهم وتربيتهم وهذا واضح . وساتولى انجاز ذلك وفق ما ينبغى على قدر امكانى . لكنى عانيت وكابدت الكثير الكثير بحيث لا يتسنى لانسان آخر ملاقاة مثله فى ظرف مائة عام ، ومن هذا فانا حي ارزق . يبدو انه لم يكن سدى منح القدر لى هذه الفرصة . ربما لكى اقول شيئا ما ، وبالدرجة الاولى لاطفالى . ويتعين علىّ ان اقدم الحساب امامهما عن حياتى كلها ، طالما اننى انجبتهما . هكذا افهم الامر . بالطبع ، هناك حقيقة عامة للجميع ، ولكن ثمة ايضا لكل فرد فهمه . ويجب الاعراب عنه والا سيختفى مع موت المرء . عندما يجتاز المرء حدود ما بين الحياة والموت فى معارك عالمية ، ويكون عرضة للقتل مائة مرة على اقل تقدير ، بينما يبقى حيا ، فهذا يعنى انه مكتوب عليه ان يدرك الكثير عن الخير والشر ، الحقيقة والزور . . .

وقاطعه يديغي مندهشا :

– تمهل ، ثمة ما لست افهمه . لعلك تذكر امورا صائبة ، لكن ولديك لا يزالان صغيرين ويخافان حتى ماكنة الحلاقة . فماذا سيفهمان ؟

– ولماذا اكتب ملاحظاتى اذن؟ . واريد ان احتفظ بها لهما ! لا احد يعرف سلفا كم سابقى على قيد الحياة . وها اننى منذ يومين امعنت فى التفكير وبنتيجة ذلك كدت ادهس مثل اى غبى تحت عجلات القطار . لقد لحق قازانغاب ودفعنى من مكانى ، ثم صب على راسى شتائم مقذعة وقال : «فليركع اطفالك اليوم امام الله وليرفعوا اليه صلوات الشكر والعرفان» .

– صحيح . لقد نبهتك منذ زمن . وظريفة ايضا – امتعض يديغي بدوره واستغل الفرصة لكى يعبر عن مخاوفه : – لماذا تسير على السكة هكذا وكان القاطرة ينبغى ان تحيد عن القضبان وتفسح لك الطريق ؟ انت متعلم ، عليك ان تفهم ،

انت الآن عامل سكة حديد بينما تمشى وكانك فى سوق . احترس والا سيدهسك القطار .

– اذا ما حدث ذلك ساكون انا المذنب . – وافقه عابسا .

– ولكن مع ذلك اسمعنى ومن ثم قل ما تريد .

– قلت هذا دون قصد معين ، واصل كلامك .

– فى الماضى كان الناس يتركون ميراثا لأولادهم وسواء اكان ذلك حسنا ام سيئا ، فانهم يتركون إرثا ، حسب امكانياتهم . وكم من كتب وحكايات ومسرحيات تناولت تلك الازمنة التى كان الناس فيها يتقاسمون هذا الميراث ، وماذا حل بالورثة فيما بعد . لماذا ؟ لأن القسم الاكبر من هذه المواريث كانت غير عادلة وقد جمعت بجهود الاخرين ، وبالحيل ، ولهذا فانها منذ البداية تخفى فى دواخلها الشر والخطيئة والظلم ، وانا اعزى نفسى لكوننا ، والحمد لله ، فى منجى من هذا . وان ميراثى لن يلحق ضررا بأحد . فهو روحى ، اى ان مذكراتى ستحتوى على كل شيء ادركته وخرجت به من الحرب . ليس عندى ثروة اكبر منها لابنائى . لقد توصلت هنا فى صحارى ساروزيكى الى مثل هذه القناعة . وكانت الحياة تزاحمنى دائما وتقودنى الى هنا لكى اضيع واختفى ، بينما ساكتب لهما كل ما افكر به ، ويأتى زمن سيحققان فيه ما أردت انا ان احققه ، وما لم ابلغه انا قد يبلغانه هما . . . وسوف يواجهان حياة اصعب من حياتنا . فليتعلما هذا منذ الصغر . . .

سارا بعض الوقت صامتين ، وكل منهما مشغول بافكاره . احس يديغي بالغرابة لسماعه مثل هذا الكلام . اندهش لانه بالامكان فهم جوهر الحياة على الارض بهذا الشكل . ومع ذلك قرر ان يستوضح ما كان يذهله .

– الجميع يعتقدون ، وتذكر الاذاعة والصحافة ان ابناءنا سيعيشون افضل واسهل بينما يبدو لك انهم سيواجهون حياة أشق من حياتنا . فهل ذلك لان حربا نووية ستنشب ؟

– كلا ، ليس لهذا السبب وحده . الحرب من المحتمل انها لن تنشب . واذا ما نشبت فليس قريبا . ولا يتعلق هذا بالطعام والمنام . كل ما فى الأمر هو ان عجلة الزمن تسارع فى دورانها . وسوف يضطرون ان يقرروا ويحلّوا كل المشاكل

والقضايا بعقولهم على نحو مستقل وان يتحملوا مسؤولية جزء من افعالنا السابقة واماعان الفكر دائما صعب . ولهذا سيواجهون مصاعب اكثر واكبر مما واجهنا .

ولم يحاول يديغي ان يدقق لماذا يعتقد ابو طالب ان التفكير دائما صعب . وعبثا لم يحاول ، اذ انه تأسف على ذلك فيما بعد ، عندما تذكر هذا الحديث . كان ينبغي عليه الاستفسار ومعرفة السبب . . .

واستطرد ابو طالب كانه يجيب عن شكوك يديغي :

– قصدي من هذا ، ان الكبار يبدون دائما للاطفال اذكى واكثر هيبة . وعندما يكبرون يتضح لهم ان معلميهم ، الذين هم نحن ، كانوا لا يعرفون كثيرا ولم يكونوا اذكياء ونابهين الى الحد الذي كان قد تراءى لهم . فيسمحون لانفسهم بالضحك عليهم ، حتى ان مرشدين جديرين يبدون لهم احيانا تافهين . ان عجلة الزمن تدور اسرع فاسرع ، وعلينا نحن ان نقول عن انفسنا الكلمات الاخيرة . وقد حاول اجدادنا ان يفعلوا ذلك في الاساطير والحكايات . وارادوا ان يبينوا للاحفاد اي جبابرة كانوا . ونحكم عليهم نحن الآن حسب الجو المسيطر في هذه الحكايات . واننى ايضا اعمل ما اقدر عليه لولدي الناشئين . ان حكايتي هي سنواتي التي قضيتها في الحرب . اكتب عن حياتي بين الانصار . الواقع كما كان وما رايت وما عانيت سيفيدهما عندما يكبران . ولكن اضافة الى ذلك ، ثمة نوايا اخرى سيضطران ان يعيشا في ساروزيكي . وعندما سيكبران يجب الا يفكرا بانهما عاشا في مكان بلا تاريخ . ولقد دونت اغانينا القديمة ، ذلك انه سيكون من العسير العثور عليها فيما بعد . ان الاغاني حسب فهمي هي اخبار من الماضي . يظهر ان زوجتك اوق بالا تعرف الكثير منها . وقد وعدت ان تتذكر اغاني اخرى ايضا .

– بالطبع . فان اصلها من آرال ! – تباهى يديغي صراحة .

– القازاخيون الارالبون هم من سكنة الشاطئ . والغناء قرب البحر بديع . والبحر يفهم كل شيء . ان كل ما يقوله المرء قرب البحر يخرج من اعماق القلب ويدخل الى القلب .

– كلامك هذا صحيح . لقد اعدت قراءة ما كتبته قبل فترة .

كدنا انا وظريفة نبكي . واي غناء جميل كانوا يتغنون به في الماضي ! كل اغنية تعد قصة كاملة . وفي هذه الاغاني ترى هؤلاء الناس وترغب بان تكون معهم قلبا وقالبا ، وان تحب وتعاني مثلهم . هو ذا الاثر الذي تركوه بعدهم . لقد استدرجت بوكيه زوجة قازانغاب وقلت لها : تذكري اغانيك القرقلباكية وسوف ادونها في دفتر خاص وسيكون لنا دفتر قرقلباكي . . .

وهكذا سارا دون ان يتعجلا على امتداد السكة الحديد . لقد كانت فرصة نادرة . راحت خاتمة النهار الهادئ من ذلك الوقت الذي يمهد للخريف كانها تتنفس الصعداء بارتياح . ليس في ساروزيكي غابات وانهار وحقول ، الا ان الشمس الغاربة كانت تترك انطباعا بان البرية تفيض بالخيرات بفضل حركة الضوء والظلال المتموجة على وجه الارض . وكانت زرقة السماء القاتمة المبهمة من تلك الرحاب المستحوذة على النفس تبهر الذهن وتعلي الافكار وتوحي بحب الحياة وتبعث على امعان الفكر . . .

وقال ابو طالب بعد ان تذكر انه اجل ما كان يجب العودة اليه عند الحاجة :

– اسمع يا يديغي . انني منذ مدة اريد ان اسالك عن طائر الدوننباي . كيف ترى ، انا اعتقد ان مثل هذا الطائر موجود في الطبيعة ويسمى : دوننباي . الم يحدث لك ان صادفت هذا الطائر ؟

– لكن هذه اسطورة .

– افهم ، لكن يحدث احيانا كثيرة ان الواقع يثبت الاسطورة . واليك على سبيل المثال طائر الصفارية التي تغرد في منطقة سيميريتشيه طوال النهار في البساتين الجبلية وهي تسال باستمرار : «اين خطيبي ؟» وهذا مجرد توافق في النغمات . لكن هناك حكاية عن هذا الطائر وسبب غنائه هذا . ولهذا فكرت ، اليس هناك مثل هذا التوافق في هذه القصة ؟ وربما يوجد في البراري طائر يغرد شيئا ما شبيها باسم دوننباي ، ولهذا السبب دخل هذه الاسطورة ؟

– لا ، لا اعرف . ولم اعتقد بان الامر قد يكون هكذا . – اجاب يديغي متشككا – الا اني رغم تجوالي المتواصل في

هذه الأنحاء طولا وعرضا لم اصادف مثل هذا الطائر وعليه فهو غير موجود .

– ربما – اجاب ابو طالب مفكرا .

وسأل يديغي قلقا :

– اذن ، ما دام مثل هذا الطائر لا وجود له فهل يعنى ذلك ان هذا كله غير صحيح ؟

– كلا ، لماذا ؟ بما ان مقبرة آنا – بابيت موجودة هنا اذن لا بد ان شيئا ما كان موجودا . علاوة على ذلك فانا افكر ان مثل هذا الطائر لا بد انه موجود . وان احدا ما قد يصادفه فى زمن ما. وساكتب هكذا للاطفال .

وقال يديغي غير واثق :

– اذا كان هذا للاطفال ، فهو ممكن . . .

يتذكر يديغي البورانى شخصين فقط كانا فى حينهما يسجلان الاسطورة الساروزيكية عن نايمان – آنا على الورق . فى البدء سجلها ابو طالب قطبايف لطفليه لتلك الايام التى سيغدوان فيها كبيرين ، وقد كتبها فى نهاية العام الثانى والخمسين . وضاعت تلك المسودات . وكم من المصائب عانوا بعد ذلك ! أتى لهم ان يهتموا بالمسودات ! وبعد عدة سنوات فى العام السابع والخمسين سجلها ايضا يليزاروف افاناسى ايفانوفيتش . فى الوقت الحاضر لا وجود ليليزاروف . اما تلك المخطوطة ، فمن يعلم ، ربما ، بقيت بين اوراقه فى الما-آتا . . . هذا وذاك سجلاها بصورة عامة من شفتى قازانغاب . وكان يديغي حاضرا اثناء ذلك ، لكن بصفة مذكّر للاحداث ومعلق عليها اكثر من راوية لها .

«ها هى السنوات تمر سراعا هكذا ! يا الهى ، متى كان هذا كله !» – فكر يديغي البورانى مهتزا بين سنامى قره نار المجلّل . اما الآن فكان ينقل قازانغاب الى مقبرة آنا-بابيت . لقد اتصل طرفا الحلقة . كان يجب على راوي الاسطورة نفسه ان يجد راحته الاخيرة ومثواه فى المقبرة التى حفظ تاريخها وبينه للاخرين .

«بقينا نحن فقط : انا وآنا-بابيت . وانا ايضا سأصل قريبا الى هنا ، لاحتل مكانى . الامور تسير نحو هذا» . كان يديغي

يفكر فى الطريق تفكيرا كئيبا وهو يواصل كالسابق قيادته فوق ظهر بعيره الموكب الغريب السائر وراءه فى السهب والذى يضم تراكتورا مع العربة المقطورة ثم حفارة من نوع «بيلاروس» . وكان الكلب الاشقر جولبرس الذى انضم طواعية الى الموكب يسمح لنفسه ان يكون تارة فى المقدمة واخرى فى المؤخرة وتارة بجنب الموكب وتارة اخرى يتركه للحظة . . . وكان الكلب رافعا ذيله بصلابة ويتلفت الى الجانبين بابهة وشموخ . . .

انتصبت الشمس فوق الرؤوس وانتصف النهار . ولم تعد ثمة من مسافة طويلة حتى مقبرة آنا-بابيت . . .

الفصل الثامن

ومع ذلك فقد كانت الاسابيع الاخيرة من العام الثانى والخمسين ، او بتعبير ادق الخريف والشتاء الذى حلّ بعده وان كان متأخرا ، قد انقضت بلا زوابع ثلجية وكانت من احسن الاوقات لتلك المجموعة الصغيرة من الناس القاطنة فى ذلك الوقت بمفرق السكة الحديد بورانلى – بورانى . وكان يديغي فيما بعد كثيرا ما يتذكر تلك الايام ويحن لها .

كان قازانغاب ، العامل الاقدم فى المفرق والرجل الاكثر ادبا واحتراما والذى لم يتدخل ابدا فى شؤون الاخرين ما يزال فى كامل قوته وصحته وولده ثابت جان قد انتسب للدراسة فى المدرسة الداخلية بقمبيل . وكانت عائلة قطبايف قد استقرت حتى ذلك الوقت فى ساروزيكى . فدفأت بيتها الخشبى استقبالا للشتاء وخزنت البطاطس واقتنت جزم اللباد لظريفة والاولاد وجلب يديغي للعائلة كيسا كاملا من الطحين من قسم تموين العمال فى قمبيل على ظهر قره نار الذى بلغ غنفوان قوته فى ذلك الوقت . وكان ابو طالب يعمل كما ينبغى ، ويقضى اوقات فراغه كلها كالسابق مع الاولاد ، بينما يثابر فى الليالى على الكتابة تحت ضوء المصباح عند رف النافذة .

وكان ثمة بضع عوائل لعمال السكك الحديد ، لكن حسب كل التوقعات كان هؤلاء اناسا موقتين فى مفرق السكة الحديد . وآبيلوف مدير المفرق فى ذلك الوقت كان يبدو ايضا انسانا لا بأس به . والبورانليون كلهم كانوا فى صحة جيدة ، والعمل يسير وفق ما يرام . كبر الاطفال . ونفذت جميع اعمال ما قبل الشتاء من تصليح الطرق ووضع الحواجز لحمايتها من الثلج فى موعدها .

كان الجو رائعا بالنسبة للمنطقة ، والخريف بنيا مثل قشارة الخبز ! ثم جاء الشتاء فى أوانه . وفرش الثلج الارض بطبقة سميكة راسا . وغدت الارجاء كلها بيضاء جميلة . وامتدت السكة الحديد كخيط اسود على قماش ابيض . وكانت القطارات تسير عليها دائما . والى جانب هذه الحركة بين تموجات الثلج قبعت قرية صغيرة هى مفرق السكة الحديد بورانلى – بورانى . وهى عبارة عن عدة بيوت وما شابهها . . . وكان المسافرون يرسلون نظرات لامبالية من العربات ، او كانوا يحسون للحظة بشعور خاطف من الرافة على سكان هذا المفرق . . .

ولكن عبثا كان ذلك الشعور الخاطف من الرافة ، اذ كان البورانليون يعيشون سنة جيدة ، اذا لم نحسب قيظ الصيف الغريب . بيد ان ذلك القيظ كان قد انقضى . وعلى العموم كانت الحياة فى مكان تنتظم شيئا فشيئا بعد الحرب : وكانوا ينتظرون عشية راس السنة من جديد تخفيض الاسعار بالنسبة للمواد الغذائية والحاجات الضرورية ، ومع ان الحوانيت كانت تعانى من شحة هذه المواد والحاجات . الا ان الاحوال كانت تتحسن سنة بعد اخرى . . .

كان البورانليون لا يعيرون ، عادة ، اهمية خاصة لراس السنة ، ولا ينتظرون انتصاف الليل بصبر نافد . وكان العمل فى بورانلى – بورانى يجرى بالرغم من كل شىء والقطارات تسير دون ان تحسب حسابا اين ومتى تحل السنة الجديدة فى الطريق . فضلا عن ذلك فان الاشغال المنزلية تزداد فى الشتاء . اذ يتوجب ايقاد المدفاة وزيادة الاعتناء بالماشية فى المرعى وفى الزريبة ، فيكل الانسان من التعب فى النهار ، ويرى ان من الافضل له ان يستريح ويرقد مبكرا . هكذا مضت السنون تباعا . . .

ولكن فى عشية العام الثالث والخمسين غدا راس السنة فى بورانلى – بورانى عيدا حقيقيا ، ونظمت العيد ، بالطبع ، عائلة قطبايف . انضم يديغي الى تحضيرات عيد راس السنة قبل نهايتها . وبدا كل شىء من قيام الزوجين قطبايف بنصب شجرة عيد راس السنة للاطفال ، لكن من اين يمكن الحصول على شجرة فى ساروزيكى . ايسر من ذلك ايجاد بيض الديناصور المتحجر فى هذه البرارى . ذلك ان يليزاروف عشر اثناء تجواله فى الطرق الجيولوجية على بيض الديناصور التى يعود تاريخها الى ملايين السنين ، وقد تحجرت هذه البيوض وكل واحدة منها بحجم بطيخة كبيرة . ونقلت هذه اللقيات الى المتحف فى الما – آتا . وكتبوا عن ذلك فى الجريدة .

واضطر ابو طالب قطبايف الى السفر فى عز الصقيع الى قمبيل ، وتمكن هناك ، فى اللجنة النقابية المحلية ، ان يظفر بواحدة من خمس شجرات وصلت الى هذه المحطة الكبيرة . ولقد ابتدا كل شىء من هذا .

كان يديغى واقفا قرب المستودع يستلم من مدير مفرق السكة الحديد قفازات جديدة للعمل عندما فرمل بقرقعة وتوقف فى الخط الاول قطار حمولة مغطى بالندى من الريح السهبية . وكان القطار طويلا ذا عربات من اربع محاور كلها بالختم . ونزل ابو طالب من الفسحة المفتوحة للعربة الاخيرة الى الارض محركا بصعوبة رجليه المتجمدتين من البرد داخل جزمته المتثلجة . وانشا كمسارى القطار المرافق للرحلة والذى كان يرتدى معطفا كبيرا من فرو الضان ويعتمر قبعة فرائية مشدودة شدا محكما وهو يتحرك بشكل اخرق على الفسحة يناوله شيئا كبير الحجم . خمن يديغى انها شجرة راس السنة وتعجب ايما تعجب .

– ايه يا يديغي ! تعال وساعد ! – ندهه الكمسارى مدليا جسده كله من درج العربة .

هبّ يديغي من مكانه ، وعندما تقدم منه انتابه الفزع على ابى طالب ، اذ كانت الندف الثلجية تغطى جسده كله وحتى حاجبيه ، وقد تخدر من البرد لدرجة ان شفتيه احجمتا عن الحركة . ولم يتمكن ان يحرك يده . بينما كانت تنتصب شجرة

الشوح المشوكة التى كاد يفارق الحياة من اجلها الى جانبه .

وقال الكمسارى ساخطا بصوت مبحوح :

– كيف يسافر الناس عندكم هكذا ! اذ يمكن للمرء ان يفقد روحه من الرياح الهابة من وراء . اردت ان اعطيه معطفى لكنى خفت ان ابرد انا نفسى .

واعتذر ابو طالب وهو بالكاد يحرك شفتيه :

– ارجو المعذرة ، كذا حصل . ساتدفأ الآن . بيتى ليس بعيدا .

تذمر الكمسارى مخاطبا يديغى :

– لقد قلت له اننى فى معطف من فرو الضأن ، وتحت المعطف ملابس مضربة ، واحتذى جزمة من لباد . واعتمر قبعة فرائية ، ومع ذلك فالى ان اصل المحطة القادمة ستجحظ عيناي من البرد . فكيف يسافر هو هكذا !

واحس يديغي بارتباك وحرج :

– طيب ، سنأخذ هذا بعين الاعتبار يا تروفيم ! شكرا ، هيا تحرك فلترافقك السلامة .

تناول يديغي الشجرة ، كانت باردة وتزيد بقليل عن قامة رجل ، واحس برائحة غابة شتائية تفوح من الشوح . فخفق قلبه اذ تذكر غابات جبهات القتال . كان هنالك عدد لا يحصى من مثل هذه الاشجار تسقطها الدبابات وتقتلعها القذائف . لكن لم يطرأ على باله آنذاك ان شم رائحة شوح سيغدو عزيزا عليه ذات يوم .

– لنذهب – قال يديغي مصوبا نظراته الى ابى طالب وملقيا الشجرة على كتفه .

وكان وجه ابى طالب المتعب متجمدا من البرد وقد تثلجت الدموع على خديه لكن عينيه اللامعتين الفرحتين تلألأتا من تحت حاجبيه الابيضين . وداهم الفزع يديغي فجأة : هل سيقدّر الابناء هذا الوفاء الابوى ! ذلك ان الحياة مليئة بما هو العكس فى احيان كثيرة . فيواجه المرء اللامبالاة وحتى الكراهية بدلا من العرفان بالجميل . وفكر يديغى : «اعفاه الله من هذا ، تكفيه المصائب الاخرى» .

كان داول ، الابن الاكبر لابى طالب اول من رأى الشجرة .

فصرخ صرخة ابتهاج عالية وانسل الى باب البيت الخشبى . وخرجت من البيت ظريفة وايرميك راكضين دون ان يرتديا معطفيهما .

صاح داول جذلا وهو يتراقص حولها :

– شجرة راس السنة ! انظروا اية شجرة هى !

ولم يكن حبور ظريفة باقل .

– انك رغم كل شىء حصلت عليها ! ما اروع هذا !

اما ايرميك ، فلم ير أبدا فى حياته شجرة راس السنة . فأخذ ينظر الى ما يحمله العم يديغي بلا انقطاع .

– ماما ، هل هذه شجرة شوح ؟ انها شجرة جيدة ، أليس كذلك ؟ ستعيش عندنا فى البيت ؟

وقال يديغي :

– يا ظريفة بسبب هذه الشجرة كان من الممكن ان تستقبلى زوجا مجمدا . هيا ادخليه الى البيت بسرعة ودفئيه . وقبل كل شىء لا بد من نزع جزمته .

كانت جزمتاه قد تجمدتا . تجهم وجه ابى طالب واطبق بشدة على اسنانه من الالم ، وانّ عندما سعى الجميع متعاونين لنزعهما عن رجليه . وبذل الطفلان جهدهما بوجه خاص ، وكانا يمسكان بيديهما تارة على هذا النحو وتارة على ذاك الجزمتين الثقيلتين المتجمدتين كالحجر من البرد والملتصقتين بساقى والدهما .

حاولت الام ان تطردهما قائلة :

– لا تعوقونى يا اولاد ، اتركونى أنزعها بنفسى . . .

لكن يديغي ارتأى ان يقول لها بصوت خافت :

– اتركيهم يا ظريفة . دعيهم يفعلون .

وكان قلب يديغي قد أوحى له ان اسمى تقدير بالنسبة لابى طالب هو حب الاولاد وعطفهم عليه . اذن فانهم بشر ، وهذا يعنى انهم يفقهون شيئا ما . وكان مؤثرا بشكل خاص ومسليا جدا النظر الى الولد الاصغر . وكان ايرميك لسبب ما يسمى والده بابيكا بدلا من بابا . ولم يصلح له هذا احد لان هذه التسمية كانت صيغته الخاصة لتصغير التحبيب واحدى الكلمات الازلية الاولى التى نطقت بها شفاه البشر .

بابيكا ! بابيكا ! – كان الولد يتململ مهتما محمرا من الجهود عديمة الجدوى التى كان يبذلها . وقد تشعث شعره الاجعد واضطرمت عيناه بالرغبة فى القيام بشىء ضرورى نافع الى اقصى حد ، وكان يبدو جديا لدرجة يثير ضحك المرء دون ارادة منه .

بالطبع كان ينبغى القيام بشىء ما يبلغ الاولاد من خلاله هدفهم ، وقام يديغي بما يلى : كان الصقيع المتجمد على الجزمتين قد بدا بالذوبان واصبح بالامكان نزعهما وبسرعة دون احداث الم يذكر لابى طالب . فقال يديغي :

– هلموا يا اولاد هيا اجلسوا ورائى ! ليسحب احدكم الاخر مثل عربات القطار . داول امسك بى ، وانت يا ايرميك امسك بداول .

ادرك ابو طالب مقصد يديغى فهز راسه مؤيدا ، واغرورقت عيناه المبتسمتان بالدموع لانه تخلص من البرد وشعر بدفء البيت .

وجلس يديغي مقابل ابى طالب ، وجلس الولدان احدهما وراء الاخر ، وبعد الاستعداد للعمل اخذ يديغي ينزع الجزمة قائلا :

– هلموا يا اولاد ، هيا اسحبوا بشكل اقوى ، وسوية ! والا فانا وحدي غير قادر . لا تكفينى قواى . هيا ، هيا يا داول ويا ايرميك . هيا بشكل اقوى !

ولهث الولدان خلفه ، ساعيين الى مساعدته بكل ما لديهما من قوة . بينما راحت ظريفة تشجعهم . تصنع يديغي ان قواه لا تكفيه . عندما نزعوا الجزمة الاولى صرخ الاطفال صرخة الظفر . وهبت ظريفة لتمسح قدم زوجها بمنديل من الصوف لكن يديغي اوقف الجميع :

– هيا يا اولاد ، وهيا انت ايضا يا ظريفة ! كيف يجوز هكذا ! من ينزع الجزمة الثانية ؟ ام نترك الوالد على هذه الشاكلة ورجله الثانية فى الجزمة المتجمدة ؟ هل هذا حسن ؟

وضحك الجميع . ثم راحوا يتشقلبون على الارض بعض الوقت وخاصة الاولاد وابو طالب نفسه . وفيما بعد حين حاول يديغي مرات كثيرة ان يجد حلا للغز الرهيب ، لتلك المصيبة

الفظيعة التى حلت بهم كان يفكر : من يدرى ، ربما ، فى تلك اللحظات بالذات ، وفى مكان ما جد بعيد عن ذلك البيت سُجّل من جديد اسم ابى طالب قطبايف فى الوثائق الرسمية والناس الذين استلموا تلك الوثائق عالجوا على ضوئها القضية التى لم تخطر ببال احد لا فى هذه العائلة ولا فى مفرق السكة الحديد .

وانهالت المصيبة على راسه كما الثلج . بالطبع لو كان يديغي اكثر خبرة فى هذه الامور واكثر دهاء لتسرب القلق الغامض الى نفسه ان لم يكن قد خمن وقوع المصيبة .

وما الذى يمكن ان يثير قلقه ؟ كان مفتش مصلحة السكك ياتى الى المفرق دائما مع نهاية السنة . وكان يطوف بالمحطات وفق الجدول . فيحل فى بورانلى – بورانى يوما او يومين يتفقد سجلات الرواتب وفاتورات المواد وغيرها من الامور ويكتب محضر التفتيش ليوقعه هو ومدير المحطة واحد العمال ثم يغادر فى قطار عابر . لا سيما وان الاعمال لم تكن كثيرة فى هذه المحطة . وكان يحدث ان يوقع يديغي ايضا فى محضر التفتيش . لكن فى هذه المرة مكث المفتش ثلاثة ايام فى بورانلى – بورانى . وكان يبيت فى كوخ الخفير الصغير وهو المقر الرئيسى للمحطة حيث يضم مركز الاتصالات وغرفة المدير التى تسمى بمكتبه . وقد انشغل وهرول آبيلوف مدير المفرق ، جدا ، لانه كان يجلب له الشاى فى الغلاية . وقد عرج يديغي ايضا على المفتش . كان جالسا يدخن وهو منكب فوق الاوراق . وفكر يديغي لعله يكون احد المعارف السابقين ، ولكنه كما اتضح انه شخص اخر غريب . كان متورد الخدين قليل الاسنان ، يضع نظارات على عينيه ، اشيب ، وابتسامة لجوجة غريبة تلوح خطفا فى عينيه .

ثم التقيا فى المساء المتاخر . كان يديغي عائدا من العمل فراى تحت المصباح المفتش يمشى ذهابا وايابا قرب كوخ الخفير ، وقد رفع ياقة معطفه الفرائية ، وقد اعتمر قبعة من فرو الحملان ، ونظاراته على عينيه ، يدخن مفكرا والرمل يخشخش تحت كعبى جزمتيه . فقال يديغي معبرا عن تعاطفه معه :

– مساء الخير ، هل خرجت لتدخن ؟ تعبت من العمل ؟

– تعبت ، بالطبع – اجاب المفتش وهو يبتسم نصف ابتسامة . – ليس الامر سهلا – ومن جديد ابتسم نصف ابتسامته .

– واضح ، طبعا – قال يديغي مجاملا .

وقال المفتش :

– اسافر غدا منذ الصباح . سيأتي القطار رقم ١٧ ويتوقف هنا وسأسافر فيه – ومن جديد ابتسم نصف ابتسامة . وكان صوته مكتوما يدل على تعبه . وقد ضيق عينيه اللتين كانتا تنظران في وجه يديغي باهتمام . وسأل : – اانت يديغي جنح الدين ؟

– نعم ، انا هو .

– لم اخطئ اذن في ظني – ونفث المفتش بثقة الدخان من بين ما تبقى في فمه من اسنان – انت من قدامى المحاربين ، وتعمل في مفرق السكة الحديد منذ العام الرابع والاربعين . وعمال السكك الحديد يدعونك بالبورانى .

– صحيح تماما . – اجاب يديغي في سذاجة . وطاب له ان يعرف المفتش الكثير عنه ، لكن في الوقت نفسه اندهش لماذا وقف على كل هذه المعلومات وتذكرها .

– ذاكرتي جيدة – استطرد المفتش وهو يبتسم نصف ابتسامة وعلى ما يبدو انه خمن ما يفكر فيه يديغي . – انني ايضا اكتب مثلما يفعل زميلكم قطبايف . – واومأ براسه نافثا الدخان صوب النافذة المضاءة التي كان يُرى عبرها قطبايف منكبا كعادته على اوراقه عند الرف . – انني اراقبه لليوم الثالث . انه يكتب ويكتب . انني افهمه ، انا نفسي اكتب ايضا . بيد اني انظم الشعر . وانشر قصائدي في جريدة السكة الحديد كل شهر تقريبا . ولدينا ثمة منتدى ادبي اديره بنفسي . ولقد نشرت قصائدي في جريدة المحافظة ايضا مرة بمناسبة عيد المراة في الثامن من اذار ، واخرى في عيد الاول من ايار هذا العام .

لاذ كلاهما بالصمت . هم يديغي بتوديعه والذهاب ، الا ان المفتش اردف قائلا :

– وهل يكتب عن يوغوسلافيا ؟

اجاب يديغي :

– بصراحة ، انني لا اعرف . لكن هذا ما يبدو لي . لانه شارك في حرب الانصار هناك . وهو يكتب لاطفاله .

– سمعت عن هذا . لقد سالت عنه آبيلوف . يظهر انه كان في الاسر ايضا . ولقد اشتغل في التعليم بضع سنوات . اما الآن فقرر ان يظهر مواهبه من خلال الكتابة . – وقهقه بصوت حاد . – لكن هذا ليس سهلا كما يبدو للبعض . انا ايضا افكر بكتابة مؤلف ضخم عن الجبهة والعمل في المؤخرة لكن الوقت لا يكفيني . معظم اوقاتي اقضيها في ماموريات . . .

وقال يديغي :

– هو ايضا لا يكتب الا في الليالي . وفي اوقات النهار يعمل . – ومن جديد لاذا بالصمت . ولم يلحق يديغي ان يغادر مرة اخرى .

قال المفتش وهو يبتسم نصف ابتسامة ويكشر مصوبا نظراته الى شبح ابي طالب في النافذة :

– ما اكثر ما يكتب ، حتى انه لا يرفع راسه .

فاجابه يديغي :

– لا بد للمرء ان يشغل نفسه بشيء ما . ان الرجل مثقف . لا احد ولا شيء حواليه . لهذا يشغل نفسه بالكتابة .

دمدم المفتش وهو يضيق عينيه مفكرا في شيء ما :

– صحيح ، فكرة صائبة . لا احد ولا شيء حواليه وهو يشعر بانه حر ، لا احد ولا شيء حواليه . . فكرة صائبة . . . يشعر بانه حر .

ثم تواردعا . وفي الايام التي تلت كانت تخطر ببال يديغي بين الحين والحين فكرة ان لا ينسى اخبار ابي طالب عما جرى من حديث بينه وبين المفتش ، لكن لم يحصل ذلك لسبب ما ، ونسيه فيما بعد تماما .

كانت الاعمال عشية الشتاء كثيرة . والاهم ان قره نار قد بلغ عنفوانه وكم من المشاكل حمل الى صاحبه واي انزعاج ! وكان قره نار اليافع قد بلغ سن النضج قبل عامين . غير انه في ماتين السنتين لم يكن يبدي رغباته بشكل عارم وكان بالامكان اخضاعه واخافته وتطويعه بصيحة صارمة . علاوة على

ذلك قان الذكر العجوز فى ذود ابل القرية – جمل قازانغاب القديم – لم يكن يسمح له بالسيطرة . فكان يرفسه ويعضه ويطرده بعيدا عن الاناث . لكن البرية واسعة . فاذا ما طرده من هذا الطرف فانه كان ياتى من الطرف الآخر . وهكذا فقد كان الجمل العجوز يطارده طوال اليوم ، ثم تخور قواه . وعند ذاك كان قره‌نار الفتى المتوقد الريّض يبلغ مرامه ويحقق مراده .

ولكن فى الموسم الجديد ، مع حلول برد الشتاء ، عندما استفاق فى دماء الابل نداء الطبيعة الابدى وجد قره‌نار نفسه الاقوى فى ذود ابل بورانلى . وبلغ قره‌نار حد العظمة ، بلغ قوته الماحقة . وراح بكل سهولة يطارد الجمل العجوز حتى ساقه تحت الجرف ، فرفسه فى البرية المقفرة ، ثم داس عليه وعضه حتى كاد يقتله لانه لم يكن ثمة احد يفرق بينهما . وكان هذا الامر منطقيا وفق قانون الطبيعة ، اذ كان قد آن اوان قره‌نار ليخلف سلالته .

غير انه على هذا الاساس تشاجر يديغي وقازانغاب للمرة الاولى . اذ لم يتحمل قازانغاب عند رؤية هذا المنظر المؤسف : راى بعيره مضروبا تحت الجرف ، وعاد من المرعى حزينا وانهال على يديغي :

– لماذا تسمح بأن يحدث ما حدث ؟ انهما حيوانان لكن السنا انا وانت آدميين ! كاد قره‌نار يقتل جملى . وانت تتركه طليقا فى البرية !

– لم أتركه يا قازانغاب . لقد ذهب بنفسه . كيف تريد ان اقيده ؟ بالسلاسل ؟ سيقطع السلاسل وانت تعرف نفسك انه ليس سدى قولهم منذ القدم : «كيوش اتاصن تانيمايدى *» لقد آن أوانه .

– انت مسرور . لكن مشاكل كبيرة تنتظرك . انت ترحمه ولا تريد ان تخرم منخره لتعليق الشيش ** . لكنك ستندم عندما تطارده . ان هذا الجمل لا يكتفى بذود واحد ، بل سيجوب

* القوة لا تعترف بوالدها (وردت بالقازاخية) . **الناشر** .
** شوكة من الخشب تلظم فى الشفة العليا للجمل . **الناشر** .

ساروزيكى كلها فى سبيل غايته ، ولن يوقفه شىء . ستتذكر حينئذ كلماتى هذه . . .

لم يشأ يديغي ان يوغر قلب قازانغاب ، لانه كان يحترمه ، وعلى العموم كان قازانغاب محقا . وتمتم مستسلما :

– لقد اهديته لي بنفسك وهو فصيل ، اما الآن فتؤنبنى . طيب سأفكر وافعل شيئا ما لكى اتمكن من السيطرة عليه .

لكن يديغي لم تطاوعه يداه على تشويه هذا الجمل الرائع بنخر منخريه وتعليق الشيش الخشبى فيهما . وكم من مرة تذكر بالفعل فيما بعد كلمات قازانغاب ، وكم من مرة ، وهو فى سورة الغضب كان يقسم انه لن يعبأ بأى شىء ، لكنه مع ذلك لم يمس البعير . وفكر فى احدى المرات ان يخصيه ، بيد انه لم يتجرأ ايضا ، ولم يتغلب على نفسه . كانت السنوات تمر وكل مرة مع حلول برد الشتاء كانت تبدأ هموم البحث عن قره‌نار الذى لا يكلّ فى سعيه وراء رغباته .

ولقد بدأ كل شىء من ذلك الشتاء . ولا تزال تلك الاحداث طرية فى ذهنه . حل عيد راس السنة اثناء انشغاله بتهدئة قره‌نار وصنع الزريبة ، لكى يسد عليه الباب سدا محكما . كانت عائلة قطبايف قد نصبت الشجرة . وكان ذلك حدثا كبيرا لجميع اطفال البورانليين . ويمكن ان نقول ان اوق‌بالا مع ابنتيها قد انتقلن الى بيت عائلة قطبايف الخشبى ، حيث كانوا طول النهار منشغلين باعداد وتزيين شجرة راس السنة . ويديغي ايضا كان اول شىء يقوم به وهو ذاهب الى العمل او قادم منه ان يعرج على آل قطبايف ليلقى نظرة على الشجرة . وغدت الشجرة اجمل وابهى وقد تزينت بالشرائط واللعب البيتية الصنع لا بد من تقدير جهود ظريفة واوق‌بالا ارفع تقدير اذ انهما اظهرتا فى صنع اللعب كل مهارتهما للترويح عن نفوس الاطفال . ولم يكن الامر متعلقا بشجرة راس السنة بقدر ما كان فى آمال راس السنة ، اذ كان الجميع ينتظرون غريزيا تغيرات مقبلة سعيدة .

لم يكتف ابو طالب بهذا ، فاخذ الاطفال الى الفناء وشرعوا هناك يصنعون دمية كبيرة من الثلج . فى اول الامر تصور يديغي انهم يتسلون فقط ، لكنه اعجب فيما بعد بهذه البدعة .

اذ راى دمية كبيرة من الثلج ، بقامة انسان تقريبا ، ومضحكة بعينيها وحاجبيها السوداوين ، وانفها الاحمر وفمها المبتسم ، وعلى راسها قبعة قازانغاب الفرائية القديمة واقفة فى طرف البلدة تستقبل القطارات . وكانت فتاة الثلج تمسك فى احدى يديها علم السكك الحديد الاخضر الذى يعنى ان الطريق مفتوحة وفى اليد الثانية لوحة كرتون كتب عليها : «نهنئكم بعام ١٩٥٣ الجديد !» وما كان اروعها من دمية ! لقد بقيت فتاة الثلج هذه فترة طويلة بعد الاول من كانون الثانى . . .

ولعب الاطفال البورانليون نهار يوم الحادى والثلاثين حتى المساء حول الشجرة وفى الفناء . وانشغل الكبار الذين انهوا نوبات خفارتهم ايضا هناك . وكان ابو طالب قد حدّث يديغي فى الصباح كيف جاء الاطفال مبكرين الى فراشه وهم يهرجون ويمرحون فى حين تظاهر هو بالنوم .

– استيقظ ، استيقظ يا بابيكا ! – ايقظنى ايرميك . – قريبا سياتى بابا نويل ، لنذهب لاستقباله .

قلت : – طيب ، سانهض الآن ، فاغسل وجهى والبس ملابسى ثم اذهب . لقد وعد بالمجيء فعلا .

– بأى قطار ؟ – سالنى الاكبر .

قلت : – بأى كان ، كل القطارات تتوقف لبابا نويل فى مفرقنا .

– اذن لا بد من النهوض بسرعة !

وبدانا نستعد للخروج بمهابة وجدية . فسال داول :

– وماما ؟ هى ايضا تريد ان ترى بابا نويل ؟

قلت : – بالطبع ، وكيف لا . نادوها .

وخرجنا سوية من البيت . هرع الاولاد صوب كشك الخفارة ، ونحن نسير وراءهم . حام الاولاد حول الكشك فلم يجدوا بابا نويل .

– بابيكا ، اين هو بابا نويل ؟

وايرميك ، انت تعرف ، كثيرا ما يرمش بعينيه .

قلت : – لا تسرعوا . سأسأل الخفير .

ودخلت كشك الخفارة حيث كنت قد اخفيت هناك منذ مساء

امس وريقة من بابانويل وكيسا فيه هدايا . وما ان خرجت الا وهرعوا نحوى :

– ما الخبر يا بابيكا ؟

قلت : – يبدو ان بابانويل ترك لكم وريقة ، ها هى : ايها العزيزان داول وايرميك ! لقد زرت محطتكم الشهيرة فى الساعة الخامسة من الصباح الباكر . ولقد كنتما نائمين ، والجو كان شديد البرودة . ثم اننى انا شخصيا بارد ولحيتى هى عبارة عن صوف صقيعى . بينما القطار توقف لدقيقتين . ولقد افلحت فى هاتين الدقيقتين ان اترك لكما هنا هذه الوريقة وبعض الهدايا . فى الكيس هدايا لجميع اطفال محطتكم ، لكل واحد تفاحة وجوزتان . لا تزعلوا فانى مشغول جدا . وسأذهب لزيارة اطفال آخرين ، انهم ينتظروننى ايضا . سازوركم فى العام الجديد القادم لكى نلتقى . والآن مع السلامة . التوقيع : بابا نويل اياز – اتا ، مهلا ، مهلا ، ثمة حاشية هنا ، كتبت بسرعة وبخط غير واضح . اعتقد ان القطار كان قد تحرك . ها ، اننى تمكنت من قراءتها : «يا داول لا تضرب كلبك . لقد سمعت كيف انه اعول عندما ضربته بخفك . لكنى بعد هذا لم اسمع شيئا من هذا القبيل . اعتقد انك صرت تعامله معاملة افضل . هذا كل ما اردت ان اقول لكم اياز – اتا» . مهلا ، مهلا ، ها هى ذى ملحوظة ثانية ها . . . فهمت ما هى : «فتاة الثلج جميلة جدا . عفارم . لقد صافحتها وهنأتها» .

وبالطبع ، لقد سُرّا سرورا عظيما وصدقا بوريقة بابا نويل راسا ولم يزعلا . غير انهما شرعا يتجادلان حول من ينبغى ان يحمل كيس الهدايا ، الا ان امهما حكمت بينهما بالعدل :

– «فى البدء يحمله داول عشر خطوات ، فهو الاخ الاكبر . ثم عشر خطوات اخرى تحمله انت يا ايرميك ، فانت الاصغر .»

وضحك يديغي من اعماق قلبه : «بالطبع ، لو كنت انا فى مكانهما لصدقت ايضا .»

وبالمقابل كان العم يديغي فى النهار من احب الناس لدى الاطفال . اذ نظم لهم التزحلق بالزلاقة . وكان لقازانغاب زلاقة قديمة ، فقرنوا بها ايضا جمله الهادئ الذى يسير طائعا بنير على صدره . وبالطبع ، كان لا يجوز السماح لقره‌نار بتأدية مثل

هذه المهمة . انطلقت الزلاقة بالاولاد . وكم احدثوا من ضجة ! وجلس يديغي فى محل الحوذى . تقاطر الاطفال حوله كل يريد ان يجلس بجانبه ، ويطلب : «هيا اسرع ، اسرع !» ، وابو طالب وظريفة كانا يسيران الى جانب الزلاقة تارة ويركضان تارة اخرى ، غير انهما فى المنحدرات كانا يجلسان على طرف الزلاقة . ابتعدت الزلاقة بمسافة كيلومترين تقريبا عن المفرق ثم استدارت على الرابية واخذت تنزل منها . اخذ البعير المقرون يلهث . وكان لا بد من الاستراحة .

كان الطقس لطيفا ذلك اليوم . وقد اطبق صمت ابدى على ساروزيكى المغطاة بالثلج على امتداد البصر . وانبسطت فى كل الارجاء السهول والتلال التى تبدو ساحرة فى لفاعها الثلجى وشعت السماء بلونا حليبى ساطع وخيمت دعة انتصاف النهار الدافئة . وكانت نسمات الريح اللطيفة تهب بخفة . اما فى الامام فكان يسير على السكة قطار طويل احمر ، تجره قاطرتان سوداوان نافثتين الدخان من مدخنتين . وكان الدخان يبقى معلقا فى الهواء ثم يعوم على شكل حلقات ويتلاشى متبددا واعطت القاطرة المتقدمة اشارة عند اقترابها من السيمافور . وكانت الاشارة عبارة عن صفير طويل قوى . ثم تكرر هذا الصفير مرتين معلنا وصول القطار . كان القطار عابرا ، فاجتاز بورانلى – بورانى بضجة دون ان يخفف السرعة مارقا من جنب السيمافورات والبيوت القليلة التى كانت ملتصقة بالسكة تقريبا ، رغم ان مساحة فسيحة كانت تمتد حواليها . ومن جديد هدأ كل شىء وتجمد ولم تكن ثمة اية حركة سوى حلقات دخان زرقاء ارتفعت فوق سطوح البيوت ولاذ الجميع بالصمت . حتى ان الاطفال الذين هيجتهم الرحلة هدأوا فى تلك الدقائق . وقالت ظريفة لزوجها بصوت خافت :

– ما اجمل هذا الصمت وما افظعه !

– انت على حق – اجاب ابو طالب بصوت خافت ايضا .

رمقهما يديغي خلسة بطرف عينيه دون ان يدير براسه . كانا واقفين يشابه احدهما الآخر شبها كبيرا . وبعث كلام ظريفة الخافت ، لكنه واضح الأسى فى قلب يديغي مع ان هذا الكلام لم يكن موجها له . لقد ادرك فجاة بأى حنين وفزع كانت ظريفة

تنظر الى هذه البيوت الصغيرة النافثة الدخان . لكن لم يكن بمستطاع يديغي ان يساعدهما بشىء ، ولا بأى شكل من الاشكال ، لان البيوت القليلة المبنية عند السكة الحديد كانت الملجأ الوحيد لهم جميعا .

حث يديغي البعير المقرون ، وضربه بالسوط . فانزلقت الزلاقة عائدة الى مفرق السكة الحديد . . .

فى الساعة العاشرة من صباح الخامس من كانون الثانى عام ١٩٥٢ توقف فى مفرق السكة الحديد بورانلى-بورانى قطار ركاب على الرغم من ان جميع الطرق امامه كانت مفتوحة ، وكان فى وسعه ، كالمعتاد ، ان يواصل السير بلا توقف . توقف القطار لدقيقة ونصف الدقيقة فقط . وكان هذا الوقت ، على ما يبدو كافيا تماما . نزل ثلاثة من درج احدى العربات وهم يحتذون جزمات من جلد الكروم الاسود وتوجهوا مباشرة الى غرفة الخفير . ساروا صامتين بثقة دون ان يلتفتوا فيما حواليهم ، لكنهم توقفوا للحظة عند فتاة الثلج . ونظروا ساكتين الى السطر المكتوب على لوحة الكرتون الذى يحييهم ، والقوا نظرة على قبعة قازانغاب الفرائية القديمة الرثة على راس فتاة الثلج . ثم ساروا الى غرفة الخفارة .

بعد مضى فترة قصيرة خرج بسرعة من الغرفة آبيلوف مدير المحطة ، وكاد يصطدم بفتاة الثلج . اطلق بعض المسبات وذهب ، وهو يركض تقريبا ، الامر الذى لا يحدث معه ابدا . بعد عشر دقائق عاد ادراجه لاهثا مصطحبا ابا طالب قطبايف الذى سرعان ما وجده فى العمل . كان ابو طالب شاحبا ويمسك قبعته فى يده . ودخل مع آبيلوف غرفة الخفارة . بيد انه خرج من هناك بعد لحظات برفقة اثنين من هؤلاء القادمين المحتذين جزما من جلد الكروم . وتوجهوا جميعهم الى البيت الذى كان يعيش فيه ابو طالب ثم سرعان ما عادوا من هناك ايضا ، وكان ابو طالب من جديد برفقة الاثنين اللذين حملا اوراقا ما ، ثم العثور عليها فى بيته .

ثم هدأ كل شىء ، لم يدخل احد غرفة الخفارة او يخرج منها . عرف يديغي عما حدث من اوق‌بالا . فقد هرعت بتوصية

من آبيلوف الى الكيلومتر الرابع حيث كانت تجرى فى ذلك اليوم اعمال تصليح . انتحت به جانبا :

– انهم يستجوبون ابا طالب .

– من يستجوبه ؟

– لا اعرف . اناس غرباء . طلب منى آبيلوف ان اخبرك ، ان لم يسألوك فلا تقل اننا كنا فى عيد رأس السنة مع ابى طالب وظريفة .

– وماذا فى الامر ؟

– لا اعرف . هكذا طلب ان اخبرك . واوصى بان تكون عند الساعة الثانية فى غرفة الخفارة . انهم يريدون ان يسألوك بعض الاسئلة ايضا ويستعلمون منك بشان ابى طالب .

– وماذا يريدون ان يستعلموا ؟

– من اين لى ان اعرف . جاء آبيلوف خائفا وقال كذا وكيت ، فهرعت اليك مباشرة .

كان يديغي عادة يذهب عند الساعة الثانية الى البيت لتناول وجبة الغداء . وحاول طول الطريق وفى البيت ايضا ان يفهم ما الامر وماذا حدث ، لكنه لم يجد جوابا شافيا . هل بسبب الماضى ، ام بسبب الأسر ؟ لقد حققوا فى الامر منذ زمن طويل ، وماذا بعد ؟ شعر بالقلق والانزعاج . اغترف ملعقتين من الحساء وتركه جانبا . نظر الى ساعته . الثانية الا خمس دقائق . بما انهم قالوا فى الثانية ، يعنى يجب ان يكون عندهم فى الثانية . وخرج من البيت . وكان آبيلوف يذرع الارض جيئة وذهابا على مقربة من كوخ الخفارة .

– ماذا حصل ؟

– مصيبة ، مصيبة يا يديغي – قال آبيلوف ناظرا الى الباب بوجل ، وشفتاه ترتعشان قليلا – حبسوا قطبايف .

– لماذا ؟

– لقد عثروا فى بيته على بعض الكتابات الممنوعة . كان يكتبها كل مساء . الجميع يعرفون هذا . هذا جزاء ما كتبه .

– لا ادرى ، لا ادرى لمن . انا لا اعرف شيئا ، اذهب ، انهم ينتظرونك .

كان ينتظره فى غرفة مدير المفرق التى كانت تسمى

بالمكتب رجل فى حوالى عمره او اصغر منه بقليل ، فى نحو الثلاثين ، مرصوص البنيان ، كبير الراس ، حلق شعره قصيرا ، كان بدينا وانفه منتفخ عريض المنخرين وهو متصبب بالعرق من شدة التفكير ، وكان يقرأ شيئا ما . مسح انفه بمنديل وقطب جبينه العالى ، ثم على امتداد زمن حديثهما كان لا ينى يمسح العرق عن انفه . واخرج من علبة سجائر «كازبيك» الموضوعة على الطاولة سيجارة طويلة ، وادارها بين اصابعه ثم ارثها ، ونظر الى يديغي الواقف فى الباب بعينين واضحتين وصفراوين كعينى سنقر ثم قال باختصار :

– اجلس .

جلس يديغي على كرسي بلا مسند الى الطاولة .

– اذن ، لئلا يخامرك اى شك ، – قال سنقرى العينين ، واخرج من جيب الصدر لسترته المدنية الرسمية بطاقة بنية وفتحها ، لكنه سرعان ما سدها وضمها متمتما اثناء ذلك اما «تنسيق بايف» او «تيسق بايف» ، ومع ذلك لم يتذكر يديغي اسم عائلته وسأل سنقرى العينين :

– مفهوم ؟

اضطر يديغي ان يقول :

– مفهوم .

– اذن فى هذه الحال نبدأ بالعمل . يقال انك من أقرب اصدقاء قطبايف ؟

– ربما صحيح .

– ربما صحيح – كرر سنقرى العينين ساحبا نفسا من سيجارته وكأنه يستوضح ما سمعه . – ربما صحيح ، لنفترض ان الامر على هذا النحو . اذن كل شيء واضح . – ثم سأل فجأة وابتسامة ساخرة غير متوقعة ترتسم على شفتيه ، وسرور من ينتظر لذة يلمع فى عينيه الصافيتين كالبلور . – اذن نكتب ايها الصديق العزيز ، اليس كذلك ؟

ارتبك يديغي :

– ماذا نكتب ؟

– هذا ما اريد ان اعرفه انا .

– انا لا افهم عمّ يجرى الحديث .

– معقول ؟ ها ؟ هيا فكر !
– انا لا افهم عمّ يجرى الحديث .
– ماذا يكتب قطبايف ؟
– لا اعرف .
– كيف لا تعرف ؟ الكل يعرفون وانت لا تعرف ؟
– اعرف انه يكتب شيئا ما . اما ماذا بالذات ، فمن اين لى ان اعرف . ثم ما شأنى انا ؟ اذا كان الرجل يريد ان يكتب فليكتب . ما شأن الآخرين به ؟
– انت ترى ان الآخرين لا شأن لهم به ؟ كيف هذا ؟ – انتفض سنقرى العينين دهشا مصوبا نحوه نظرات حادة ثاقبة كالطلقة . – يعنى فليكتب كلّ ما يشاء ؟ هل هو الذى اقنعك بذلك ؟
– انه لم يقنعنى بشيء .
لكن سنقرى العينين لم يهتم بجوابه . كان مستاءا فقال :
– هذه هى نتيجة الدعاية المعادية ! هل تفكر ماذا يحدث اذا بدأ كل واحد بالكتابة كما يشاء ؟ هل تفكر ماذا يحدث ؟ ثم يبدأ كل واحد ويقول كما يدور فى راسه ! أهذا معقول ؟ من اين تأتيك هذه الافكار الغريبة ؟ كلا ، يا عزيزى ، لن نسمح بهذا . ولن تفلح هذه الثورة المعادية !
لزم يديغي الصمت وقد سحقته هذه العبارات . وتعجب جدا من ان شيئا لم يتغير فيما حواليه . وكأن لا شيء يحدث . ورأى عبر النافذة كيف مرّ خطفا القطار المغادر الى طشقند وتخيل للحظة ان الناس المسافرين فى العربات لتادية شئونهم يرتشفون الآن الشاى او الفودكا ويتبادلون الاحاديث ولا شأن لأحد به هو الجالس فى ذلك الوقت فى بورانلى – بورانى امام نكرة سنقرى العينين ، لا احد يدرى من اين هوى على راسه . واحس برغبة تشبه الألم الممض فى الهرب من غرفة الخفارة واللحاق بالقطار المغادر والرحيل حتى وان كان صوب اقصى الدنيا ، لئلا يبقى هنا فقط .
– ماذا اذن ؟ هل فهمت جوهر القضية ؟ – أوغل سنقرى العينين فى استفساراته .
اجاب يديغي :

– فهمت ، فهمت ، لكنى اود ان اعرف شيئا واحدا فقط . ما السيء فى ان يكتب مذكراته لأطفاله . ويكتب عما حدث له ، على سبيل المثال ، فى الجبهة ، فى الاسر ، فى فصيلة الانصار ؟
– لأطفاله ! – صرخ المحقق بصوت مرتفع . – من يصدقه ؟
من يكتب لاطفاله الذين لم يجف الحليب على شفاههم بعد ! حكايات ! هكذا بالضبط يفعل العدو المحنك ! لقد اختفى فى هذا المكان النائى المنعزل حيث لا احد ولا شيء حواليه ، وحيث لا احد يراقبه ، وبدأ يكتب مذكراته !
عارضه يديغي :
– لكن الرجل ، حسب اعتقادى أراد ان يقول رأيه الخاص ، شيئا ما من عنده ، افكارا ما ، لكى يقراها اطفاله ذات يوم عندما يكبرون .
– اى رأى خاص ! ما معنى هذا ؟ – تنهد سنقرى العينين وهز راسه معاتبا . – اى افكار من عندياته ، ما معنى رأيه الخاص ؟ هل يعنى هذا عقيدة خاصة ؟ افكاره الخاصة ؟ لا ينبغى ان تكون هناك اى اراء خاصة . ان كل ما سطر على الورق لا يعد رأيا خاصا . لا ينقصنا الا ان يعبّر كل واحد عن رأيه الخاص ! سيتجاوز هذا كل الحدود ! ها هى ما تسمى «دفاتر الانصار» التى كتبها . يقول فى العنوان الثانى : «ايام وليال فى يوغسلافيا» هى ذى ! – ورمى على الطاولة ثلاثة دفاتر سميكة فى أغلفة من المشمع . – شناعة ! وانت تريد هنا ان تستر صاحبك . لكننا نحن فضحناه !
– كيف ؟
تململ سنقرى العينين وابتسامة ساخرة غير متوقعة ترتسم من جديد على شفتيه ، ابتسامة من ينتظر لذة ، وهو يصوب عينيه الواضحتين الشفافتين نحو يديغي متلذذا بتأثير كلامه :
– هذا شأننا نحن ، ونعرف كيف وماذا . هذا شأننا ولن نبوح به لكل من هب ودب .
قال يديغي فى ارتباك :
– اذا كان الامر هكذا فلا حيلة لى .

وقال سنقرى العينين :

– سينال لقاء مذكراته المعادية ما يستحقه . – وانشأ يكتب شيئا ما بسرعة وهو يتحدث : – تصورتك أعقل ، واعتقدتك واحدا من رجالنا باعتبارك عاملا طليعيا ومحاربا سابقا يساعدنا فى كشف العدو .

عبس يديغي وقال بصوت خفيض لكنه واضح دون ان يدع مجالا للشك :

– انا لن اوقع شيئا . وهذا ما اقوله لكم بصراحة .

رماه سنقرى العينين بنظرة ساحقة :

– لسنا بحاجة الى توقيعك . انك تعتقد انه اذا لم توقع فان القضية ستنتهى ؟ انك مخطئ . عندنا ما يكفى من الوثائق لكى نحيله الى القضاء وبدون توقيعك .

سكت يديغي شاعرا بذل وتحطم . وفى الوقت نفسه تعاظم غضبه وسخطه ورفضه لما يحدث مثل تعاظم الامواج فى بحر آزال . واحس فجاة برغبة فى خنق هذا السنقرى العينين مثل كلب مسعور ، وكان يدرى انه بامكانه ان يفعل ذلك . فكم كانت عضلية وقوية رقبة ذلك الفاشى الذى اضطر ان يخنقه بيديه . ولم يكن امامه من مفر . لقد التقيا وجها لوجه فى الخندق عندما طردوا العدو من الموضع . هاجموا جناح العدو وقذفوا القنابل اليدوية فى الخندق ثم رشوا الممرات بصليات من نيران الرشاشات ، وكانوا قد نظفوا الموضع من الاعداء وانطلقوا لمواصلة القتال عندما اصطدموا بهذا الفاشى . ويظهر ان ذلك الالمانى كان قناصا راميا بالرشاش وظل يطلق النار حتى آخر اطلاقة . وكان من الافضل اسره . ولقد خطرت هذه الفكرة فى ذهن يديغي . لكن ذاك سرعان ما رفع السكين فوق راسه . ونطحه يديغي بالخوذة فى وجهه ، فسقط كلاهما على الارض . ولم يبق لديه من منفذ آخر سوى ان يمسك بخناقه . اما الالمانى فكان يتلوى ويجشر ويفتش باصابعه فى كل الجهات محاولا ايجاد السكين الذى سقط من يده . وكان يديغي يتوقع كل لحظة ان ينغرز السكين فى ظهره ، ولهذا ضغط بقوة وحشية لا تكل مزمجرا على العنق الغضروفية للعدو المكشر المسود . وعندما انقطعت انفاس ذاك وفاحت رائحة بول عطنة فك اصابعه

المتشنجة وتقيأ فى الحال ، وتمكن ان يزحف بعيدا وهو يتقيأ ويئن وغشاوة تطبق على عينيه . ولم يتحدث عن هذا لأحد فى ذلك الوقت ولا بعده . وراحت فيما بعد كوابيس هذا الحادث تتراءى له فى منامه احيانا . وفى اليوم الثانى وجد نفسه فى ضيق وكره الحياة . . . وتذكر يديغي هذا الحادث الآن بارتعاش وتقزز . الا انه كان يعى ان سنقرى العينين يستخدم الحيلة والتفوق العقلى . وجرح هذا احاسيسه . وبينما كان سنقرى العينين يكتب حاول يديغي ان يجد نقطة ضعف فى ادلته . من كل الافكار التى أدلى بها سنقرى العينين ادهشت يديغي فكرة واحدة بلامنطقيتها الغريبة الا وهى : كيف يمكن اتهام المرء بأن «مذكراته معادية» ؟ أمن المعقول ان تكون المذكرات معادية او غير معادية ، فالمذكرات هى ما حدث فى وقت ما ، ما لم يعد له وجود ، ما حدث فى الماضى . اذن يتذكر الانسان ما حدث له فى الواقع .

– اريد ان اعرف – قال يديغي شاعرا ببيوسة فى حلقه من الاضطراب ، لكنه ارغم نفسه ان ينطق الكلمات بهدوء : – ها انت تقول . . . – وخاطبه يديغي بصيغة المفرد متعمدا لكى يفهم ذاك ان يديغي لا يجامله ولا يخاف شيئا اذ ليس ثمة مكان ابعد من ساروزيكى ليرسل اليه . – ها انت تقول : مذكرات معادية . ماذا يفهم من هذا الكلام ؟ أمن المعقول ان تكون المذكرات معادية او غير معادية ؟ اعتقد ان الرجل يتذكر ما حدث وكيف حدث فى زمن ما ، اى ما ليس له وجود منذ زمن . او يظهر من كلامك انه اذا كانت الوقائع جيدة علينا ان نتذكرها واذا كانت سيئة فلا ينبغى ان نتذكرها ، بل ان ننساها ؟ كأن شيئا لم يحدث ابدا . او اذا رأى المرء حلما لطيفا فى منامه ، على المرء ان يتذكره ؟ اما اذا كان الحلم فظيعا غير مرغوب فيه من قبل احد ؟ فماذا يجب ان نعمل ؟

– يا لك من رجل ! اخذك الشيطان ! – تعجب سنقرى العينين – تحب المجادلة ، تريد ان تناقش . يبدو انك هنا فيلسوف محلى ، ليكن . هيا نتناقش . – توقف لحظة ، وكانه تاهب واستعد وقال برزانة ورصانة : – قد يحدث فى الحياة كل شىء ، اقصد الاحداث التاريخية . لكن هل من المهم ما حدث

او كيف حدث ! المهم أن تصور الماضي سواء شفهيا او بالاحرى خطيا كما يتطلب الامر الآن ، كما نحن بحاجة اليه الآن . وكل ما ليس في صالحنا لا يجب تذكره . وان كنت لا تؤيد هذا ، يعني قمت باعمال معادية .

قال يديغي :

– لست موافقا ، هذا غير جائز .

– لا احد بحاجة الى موافقتك . هذا بالمناسبة . انت تسأل وانا اشرح لك بطيبتي . وعلى العموم فانا غير ملزم بأن ادخل معك في مثل هذه النقاشات . طيب ، هيا ننتقل من الكلام الى العمل . قل ألم يذكر قطبايف امامك سواء في الاحاديث المتبادلة الصريحة او مثلا اثناء الشرب اسماء انكليزية ؟

دهش يديغي بصدق :

– لاي سبب ؟

– وهاك السبب – فتح سنقرى العينين دفترا من «دفاتر الانصار» لابي طالب ، وقرأ في موضع مؤشر تحت سطوره بالقلم الاحمر : «في السابع والعشرين من ايلول وصلت مقرنا بعثة انكليزية تتألف من عقيد وراندين . مررنا من امامهم كما في استعراض ، وقد ردّوا لنا التحية . ثم كان الغداء المشترك في الخيمة لدى القادة ، ودعي الى هذا الغداء بعض الانصار الاجانب الموجودين في يوغسلافيا . وعندما عرفوني على العقيد شد على يدي بمودة ، وظل يلقي علي الاسئلة عبر المترجم من اين انا وكيف وصلت الى هنا . اجبته باختصار . صبوا لي الخمر ولقد شربت ايضا معهم . ثم استمرت الاحاديث بيننا طويلا . لقد اعجبتني في الانكليز بساطتهم وصراحتهم . قال العقيد ان السعادة العظيمة او كما عبر هو ، ان العناية الآلهية ساعدتنا جميعنا نحن سكان اوربا ان نتحد ضد الفاشيين . ولكان النضال ضد هتلر بدون هذا اصعب ، ولربما انتهت الحرب نهاية مأساوية بالنسبة للشعوب المتفرقة» وهلم جرا . – وبعد ان انتهى سنقرى العينين من قراءة المقطع وضع الدفتر جانبا ، ودخن سيجارة اخرى وبعد ان صمت برهة وراح ينفث الدخان استطرد يقول : – يظهر ان قطبايف لم يقل للعقيد الانكليزي ان النصر كان مستحيلا بدون عبقرية ستالين ، ومهما اشتركوا هناك في

اوربا في حرب الانصار او في شيء مماثل . يعني انه حتى لم يفكر بالرفيق ستالين ! هل تفهم هذا ؟

وحاول يديغي ان يدافع عن ابي طالب :

– لعله قال هذا ، لكنه نسي ان يسجله في مذكراته .

– اين يذكر هذا ؟ اثبت لي ! علاوة على ذلك اننا قابلنا هذه المذكرات بشهادة قطبايف في العام الخامس والاربعين عندما احيل على لجنة المراقبة والتفتيش بعد ان رجع من فصيلة الانصار اليوغوسلاف . وليس هناك اي ذكر لحادثة البعثة الانكليزية . وهذا يعني ان ثمة شائبة هنا . من يضمن بانه لم يكن على علاقة مع المخابرات البريطانية ؟ !

ومن جديد احس يديغي بالألم في نفسه والثقل على قلبه ولم يكن يفهم ما يحدث ، وماذا يقصد سنقرى العينين .

– تذكر ، ألم يحدثك قطبايف حول الموضوع او ربما سمى لك اسماء انكليزية ؟ من المهم لنا ان نعرف من كان هؤلاء الاعضاء في البعثة الانكليزية .

– كيف تكون اسماء الانكليز ؟

– على سبيل المثال جون ، كلارك ، سميث ، جيك . . .

– لم اسمع بمثل هذه الاسماء في حياتي قط .

فكر سنقرى العينين ، وتكدر ، اذ ان بعض الاشياء في اللقاء مع يديغي لم تعجبه اغلب الظن ، ثم قال :

– هل فتح هنا مدرسة لتعليم الاطفال ؟

– اية مدرسة ! – وضحك يديغي بلا ارادة منه – عنده هو ولدان وعندي انا ابنتان . وهؤلاء هم المدرسة كلها . اكبرهم في الخامسة واصغرهم في الثالثة . وليس لدينا مكان يلتجئ اليه الاطفال ، كل الارجاء هنا سهوب ، وهو معلم سابق ، وزوجته ايضا فيهتمان باطفالنا ويقرآن بعض الشيء ويرسمان ، ثم يعلمانهم القراءة والحساب والكتابة . هذه هي المدرسة كلها .

– ما هي الاغاني التي كانوا يغنونها ؟

– مختلف الاغاني ، اغاني الاطفال ، لا اتذكرها .

– ماذا علمهم ؟ وماذا كتبوا ؟

– الحروف ، وبعض الكلمات العادية .

– اية كلمات ، على سبيل المثال ؟

– لا اتذكر .

– هذه ! – ووجد سنقرى العينين بين الاوراق وريقة من دفتر مدرسى فيها شخبطات اطفال : – هذه هى الكلمات الاولى . – وكان قد كتب على الوريقة بخط طفل : «بيتنا» ارايت ، ان الكلمة الاولى التى يكتبها الطفل – «بيتنا» . لماذا ليس «نصرنا» ؟ اية كلمة ينبغى ان تكون الآن على كل شفة ولسان . هيا فكر ؟ ينبغى ان تكون «نصرنا» اليس كذلك ؟ لماذا لم يخطر هذا فى ذهنه ؟ ان النصر وستالين لا ينفصمان .

احتار يديغي . وشعر بنفسه مهانا لدرجة كبيرة واحس بالرافة على ابى طالب وظريفة اللذين بذلا كل هذه الجهود وانفقا كل هذا الوقت على الاطفال العبيطين ، وتملكه الغيظ بحيث تجاسر وقال :

– اذا كان الامر هكذا ، فكان يجب قبل كل شىء ان يكتب : «لينيننا» وذلك ان لينين يحتل المكانة الاولى .

كتم سنقرى العينين انفاسه من هول المباغتة ثم راح ينفث الدخان من صدره لفترة طويلة . ونهض من مكانه ، على ما يبدو كان يحتاج الى التمشى ، لكن لم يكن ثمة من مجال فى الغرفة الصغيرة .

– اننا عندما نقول ستالين نعنى بذلك لينين ! – قال بصوت قاطع شادّا على كل كلمة ، ثم تنفس الصعداء كمن يتنفس بعد عدو سريع واضاف مهادنا : – طيب ، فلنعتبر ان هذا الحديث لم يدر بيننا .

وجلس الرجل ، وقد اكتسى وجهه من جديد بمسحة من البرود واللامبالاة ، بينما ظلت عيناه تشعان ضوءا اصفر صافيا كعينى سنقر .

– لدينا معلومات تؤكد ان قطبايف عارض تعليم الاطفال فى المدرسة الداخلية . لقد كنت شاهدا على ذلك ، فماذا تقول ؟

– من اين لكم مثل هذه المعلومات ؟ من اعطاكم هذه المعلومات ؟ – قال يديغي بدهشة وخمن فورا ان آبيلوف مدير مفرق السكة الحديد هو المذنب فى كل شىء . لقد اوصل هو اليهم هذا الكلام ، لانه قد جرى بحضوره .

أثار سؤال يديغى سخط سنقرى العينين الشديد :

– اسمع ، لقد افهمتك : من اين جاءت لنا المعلومات ، وكيف كان ذلك هو من شاننا نحن وفى صلب اهتمامنا . ولا نتحاسب عنه امام احد . تذكر هذا ، وهيا ادلِ بما تعرفه . ماذا كان يقول ؟

– لا بد من تذكر ما كان يقول . فى الحقيقة ان ابن قازانغاب ، العامل الاقدم فى المحطة يدرس فى المدرسة الداخلية فى محطة قمبيل . ويعربد الولد قليلا بالطبع ، ويحدث ان يخاتل احيانا . مع حلول الاول من ايلول بدأ الاهل يهيئون ثابت جان للسنة الدراسية الجديدة ، واخذه والده الى هناك على ظهر البعير . اما زوجة قازانغاب ، بوكيه ، فاخذت تندب وتتشكى : مصيبة ، منذ ان ذهب الى المدرسة الداخلية تغير وكانه اصبح غريبا . انه لم يعد ذلك الذى كان يتعلق بالبيت وبامه وابيه كالسابق . بالطبع انها امراة شبه اميّة ، لابد من تعليم الولد والى جانب ذلك فهو بعيد عن الاهل دائما . . .

– طيب ، – قاطعه سنقرى العينين . – وماذا قال قطبايف اثناء ذلك ؟

– قطبايف ايضا كان بيننا . وقال ان قلب الام لا يخطئ فى الهواجس . لان الظروف تجبرنا على ارسال اطفالنا الى المدرسة الداخلية التى تفصل بين الولد والعائلة ، لا ، لا تفصل بل تبعد الولد عن العائلة ، عن امه وابيه . وقال ان هذه المسالة فى غاية الصعوبة ، للجميع وله ايضا وللاخرين . لكن ما باليد حيلة طالما ليس ثمة من امكانيات اخرى . انا متفق معه . اطفالنا ايضا يكبرون ومنذ الآن ضميرى يؤنبنى ، ماذا سيحدث وكيف ستجرى الامور . بالطبع من السيىء ان . . .

– هذا فيما بعد . – اوقفه سنقرى العينين مقاطعا . – يعنى انه قال ان المدرسة الداخلية السوفيتية سيئة ؟

– انه لم يقل «السوفيتية» ، بل قال المدرسة الداخلية فقط . مدرستنا الداخلية فى قمبيل . وانا اقول انها «سيئة» .

– هذا غير مهم . قمبيل تقع فى الاتحاد السوفيتى .

– كيف ليس مهما ! – وخرج يديغي عن اطواره اذ شعر كيف يشوش عليه الامر . – لماذا تنسب الى الرجل ما لم يقله ؟ انا ايضا هكذا افكر . فلو عشت فى مكان آخر ، ليس فى هذا

المفرق ، لما ارسلت اطفالى ، مهما كان الى اية مدرسة داخلية . هكذا بالضبط . هكذا افكر انا . ماذا تتصور ؟

– فكر ، فكر – قال سنقرى العينين واضعا نهاية للحديث . لكنه بعد ان صمت قليلا استطرد : – يعنى ، علينا ان نخرج باستنتاجاتنا . يعنى انه ضد التربية الجماعية ، اليس كذلك ؟

– انه ليس ضدها ! – لم يتمالك يديغي . – لماذا تنسب اليه تهمة كاذبة ! كيف يجوز هذا ؟

– لا داعي ، لا داعي ، كفى . – وقال سنقرى العينين فى اهمال ، معتبرا انه لا داعي لتقديم اية شروح وتفاسير – والآن قل لى ما هذا الدفتر المسمى : «طائر الدوننباى» ؟ يؤكد قطبايف انه كتبه عن لسان قازانغاب ولسانك بعض الشيء . اليس كذلك ؟

– هكذا بالضبط – تحمس يديغي – ثمة حكاية او اسطورة بهذا الاسم فى ساروزيكى . وتقع على مقربة هنا مقبرة نايمان . فى زمن ما كانت تسمى مقبرة نايمان ، اما الآن فهى مقبرة عمومية وتسمى آنا – بايت ، وفى هذه المقبرة ترقد نايمان – آنا التى قتلها ابنها المانكورت . . .

– يكفى ، سنقرأ هذه الحكاية ونرى ماذا يعنى بهذا الطائر . – قال سنقرى العينين وانشأ يقلب صفحات الدفتر ، مناجيا نفسه بصوت مسموع ومعبرا عن رأيه : – الطائر دوننباى ، احم ، ما هذا الاسم الغريب ، طائر يحمل اسم انسان . يا له من كاتب ! مختار عويضوف * جديد ! ! اى كاتب هذا الذى يتحدث عن العهد البائد ؟ الطائر دوننباى ، احم ، يظن اننا لن ندرك المسألة . . . لقد انهمك هنا بالكتابة سرا ويتظاهر انه يكتب للاطفال . وما هذا اذن ؟ هل هذا للاطفال ايضا ؟ – قرّب سنقرى العينين دفترا آخر فى غلاف من المشمع من وجه يديغي .

لم يفهم يديغي :

– وما هذا ؟

---

* مختار عويضوف (١٨٩٧–١٩٦١) كاتب قازاخى مشهور ، من مؤسسى الادب القازاخى السوفيتى . **الناشر** .

– ماذا ؟ ينبغى لك ان تعرف . هاك العنوان : «رسالة رحيم الله اغا الى اخيه عبد الخان» .

– صحيح ، هذه ايضا اسطورة . هذه حكاية ، والشيوخ يعرفون جيدا هذه الحكاية . . .

– لا تقلق ، فانا ايضا اعرفها – قاطعه سنقرى العينين : لقد سمعت شيئا عنها . عجوز مخرف يقع فى حب فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها . اين وجه الحسن فى كل هذا ؟ قطبايف هذا ليس شخصا معاديا فحسب ، بل يظهر انه رجل منحط الاخلاق ايضا . الا ترى جهوده فى كتابة هذا الهراء بالتفصيل .

احمر يديغي ، لكن ليس خجلا ، انما افعم قلبه الغضب ذلك انه كان من المستحيل ان يغمط انسان آخر بحق ابى طالب اكثر من هذا . وقال متمالكا نفسه :

– انا لا ادرى ما هو منصبك ، لكن لا تمسه فى هذا الصدد . حبذا لوكان كل رجل ابا وزوجا مثله ، وبامكانك ان تسأل الجميع اى انسان هو . عددنا لا يتراوح اصابع اليد وكلنا نعرف بعضنا البعض جيدا .

اجاب سنقرى العينين :

– طيب ، طيب ، اهدأ . لقد سلب عقولكم . ان العدو يتظاهر دائما ، بينما نحن سنفضحه . كفى . انت حر .

نهض يديغي . وتوقف محتارا وهو يرتدى قبعته .

– والآن ماذا سيكون مصيره ؟ هل بسبب هذه الكتابات فقط سيودع السجن ؟ امعقول هذا ؟

رفع سنقرى العينين قامته قليلا من وراء الطاولة : – اسمع ، اننى اكرر عليك مرة اخرى : هذا ليس شانك ! اننا نحن نعرف لاى سبب نظلم العدو وكيف نعامله ، وباية عقوبة نعاقبه . لا تحشر انفك فى الامر . اعمل عملك واذهب !

فى ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم نفسه توقف فى بورانلى – بورانى قطار ركاب . غير ان القطار فى هذه المرة كان يسير فى الاتجاه المعاكس ، وتوقف لاجل قصير لا يزيد عن ثلاث دقائق .

وقف نفس هؤلاء الثلاثة الذين كانوا يرتدون جزما من الكروم منتظرين فى العتمة وصول القطار عند الخط الاول ، وهم

يحجبون ابا طالب بظهورهم عن البورانيين الواقفين جانبا : ظريفة واطفالها ويديغي واوق بالا ومدير المحطة آبيلوف كان بينهم ، يتخطى جيئة وذهابا ويهرول فى مذلة ، لأن القطار تاخر عن موعده المقرر فى جدول المواعيد بنصف ساعة . ما ذنبه هـو ؟ ليس عليه الا ان يقف مكانه هادئا . بينمـا قازانغاب الذى تعرض ايضا للاستجواب بشأن الاساطير المنحوسة التى تم العثور عليها عند ابى طالب كان فى ذلك الوقت فى المحوّلة . وكان عليه ان يسيرّ القطار بيده على ذلك الخط الذى ينبغى لهـم ان يأخذوا عليه ابا طالب بعيدا عن ساروزيكى . وكانت بوكيه قد بقيت فى البيت مع بنات يديغي .

كان هؤلاء الثلاثة فى الجزم وذوو الياقات المرفوعة من الريح يفصلون ابا طالب بظهورهم ، صامتين صمتا مشوبا بالحذر . وكان الناس الذين يتركهم ابو طالب صامتين ايضا .

ريح ثلجية هبت بخفيف وصفير يكاد لا يسمع . يبدو ان عاصفة ثلجية كانت تتاهب للبدء . فانتفخ الظلام البارد وتكاثف فى سماء ساروزيكى الحالكة . وكان القمر عبارة عن بقعة وحيدة باهتة يضيء بمشقة ساكبا نورا غريبا حزينا باردا . والصقيع يخدد الخدود .

بكت ظريفة بصوت خافت ماسكة بيدها صرة فيها اكـل وملابس كانت تريد تسليمها لزوجها . وكانت حلقات البخار مـن فم اوق‌بالا تنم عن تنهدات عميقة ثقيلة . وقد اخفت داول فـى طرف معطفها الفرائى . ويظهر ان هاجسا ما كان يخامر داول ، فلزم صمتا مشوبا بالقلق والتصق بالعمة اوق‌بالا . لكن اصعب ما كان فى الامر تهدئة ايرميك الذى كان يديغي يحملـه بين ذراعيه وهو يحميه بجسده من الريح . فهذا الصغير لم يكـن يخامره اى هاجس فكان ينادى والده :

– بابيكا ، بابيكا ! تعال هنا ، الينا . نحن ايضا سنذهب معك !

كان ابو طالب يرتعش عند سماع صوته ويحاول ان يستدير بلا ارادة منه ويجيب على الطفل بشيء ما ، الا انهم لم يسمحوا له بالالتفات . احد هؤلاء الثلاثة لم يتحمل ، فقال :

– لا تقفوا هنا ! أتسمعون ؟ اذهبوا من هنا .

واضطروا الى التراجع .

لاحت من بعيد اضواء القاطرة ، فتململ الجميع وراوحوا فى مكانهم . لم تتحمل ظريفة ، فانخرطت فى النشيج . وبكـت اوق‌بالا معها . كان القطار يجلب مع قدومه الفراق . وكان يخترق باضوائه الامامية الظلام الصقيعى الكثيف المغلق فى الهـواء وكانت الاضواء تقترب والقطار يتقدم من الضباب مثل كتلة قاتلة صاخبة مخيفة . مع اقتراب القطار كانت اضواؤه ترتفع اعلى فاعلى فوق الارض وتصبح الدوامة الثلجية اوضح فاوضح بين خطوط السكة الحديد فى شرائط الضوء ، وتعالى اكثر فاكثر ضجيـج الكرانك والمكابس حاملا معه القلق المتزايد . وها هى معالـم القطار قد اصبحت مرئية وواضحة .

– بابيكا ، بابيكا ! انظر القطار قادم ! – صاح ايرميـك وسكت مصعوقا لعدم رد الاب عليه . وحاول من جديد ان يثير انتباهه . – بابيكا ، بابيكا !

ودنا مدير المحطة آبيلوف المهرول هنا وهناك مقتربا مـن اولئك الثلاثة وقال لهم :

– ستكون عربة البريد فى مقدمة القطار . ارجوكـم ان تتفضلوا نحو الامام . الى هناك .

وتحرك الجميع صوب الاتجاه المومىّ اليه ، بخطى سريعة نوعا ما . وكان القطار قد لحق بهم . سار سنقرى العينين فـى المقدمة لا يتلفت حاملا مخفظته . ومشى مساعداه الاثنـان ذوا الاكتاف العريضة يرافقان ابا طالب فى الخلف . وعلى مبعـدة خطوات حثت ظريفة الخطى فى اثرهم ، تتبعها اوق‌بالا وهى تقود داول من يده . وسار يديغي فى جانب الطريق متخلفا عنهم قليلا حاملا ايرميك على ذراعيه . ولم يكن يديغي ليسمح لنفسـه بالبكاء امام النساء والاطفال . وبينما كانوا يسيـرون كان هو يصارع نفسه محاولا السيطرة على الغصة الثقيلة فى حنجرته .

– انت ولد ذكى ، يا ايرميك ، انت ذكى اليس كذلـك ؟ انت ذكى ، ولن تبكى ، طيب ؟ – تمتم بكلام متشتت وهو يضم الطفل الى صدره .

وفى هذه الاثناء كان القطار يبطئ سيره مقتربا من المحطة وحين توازى القطار مع يديغي وايرميك وسبقهما قليـلا وحين

نفثت القاطرة البخار وصفر الكمسارى صفيرا حادا ارتعش الطفل فى حضن يديغي مذعورا .

قال يديغي :

– لا تخف ، لا تخف شيئا عندما اكون معك . وسأكون معك دائما .

توقف القطار بصرير ثقيل وطويل ، وتوقفت العربات المتندية من الصقيع وغبار الثلج بزجاج نوافذها المغطاة بالجليد . وساد هدوء . بيد ان القاطرة سرعان ما نفثت البخار بأزيز متهيئة للانطلاق فى السير من جديد . كانت عربة البريد تلى عربة الحقائب بعد القاطرة . وكانت نوافذ عربة البريد مسدودة بقضبان مشبكة ، اما الباب ذو المصراعين فكان يقع فى الوسط . انفتح الباب من الداخل . واطل منه رجل وامراة وهما فى قبعتى بريد رسميتين وبنطلونين قطنيين وقمصلتين مبطنتين . كانت المراة بدينة وعريضة الصدر تحمل مصباحا ، يبدو انها كانت رئيسة فرقة العمال ، فقالت ماسكة المصباح فوق راسها لكى تنوّر الجميع :

– انتم ؟ نحن بانتظاركم . المكان جاهز .

صعد سنقرى العينين حاملا محفظته الكبيرة فى الاول . واخذ مساعداه يستعجلان ابا طالب :

– هيا ، هيا لا تتاخر .

– ساعود قريبا ! لا بد ان هناك سوء فهم ! – تحدث ابو طالب بعجلة . – ساعود قريبا . انتظرونى .

اوق‌بالا لم تتحمل ، فاجهشت بالبكاء عندما اخذ ابو طالب يودع الاطفال . فضمهما بكل ما اوتى من قوة الى صدره وقبلهما وقال لهما شيئا ما وهما مذعوران لا يفهمان شيئا . وكانت القاطرة تنفث البخار متهيئة للسير . وحدث كل هذا فى ضوء مصباح يدوى . وفى هذه الاثناء دوى صفير حاد يجرح القلب متراكضا على طول القطار مثل شرارة كهربائية .

– كفى ، هيا اصعد ! – جر الاثنان ابا طالب الى سلم العربة .

ولحق يديغي وابو طالب فى آخر الامر ان يحتضنا بعضهما بعضا بقوة ، وتجمدا على هذه الحال المحظات مدركين كل شىء

بعقليهما وقلبيهما ، وكل كيانيهما ، حين ضم احدهما خده المبللة بالدموع خشنة اللحية على خد الآخر .

– حدثهم عن البحر – همس ابو طالب .

وتلك كانت كلماته الاخيرة . فهم يديغي ، ان الأب طلب منه ان يحدث ابناءه عن بحر أرال .

وفرّقهما المساعدان :

– كفاكما ، هيا ، هيا اصعد بسرعة !

ودفعا ابا طالب الى العربة وهما يسندانه باكتافهما من الخلف وفى هذه الاثناء فقط بلغ مدارك الاولاد الجوهر الفظيع للفراق . فبكيا بكاء عاليا وصرخا .

– بابيكا ! بابا ! بابيكا ، بابا !

وانطلق يديغي حاملا ايرميك صوب العربة .

– الى اين ؟ الى اين ؟ ماذا تفعل ! – دفعته المراة حاملة المصباح من صدره بغضب ، حاجبة مدخل الباب بكتفيها العريضين .

بيد ان احدا لم يفهم فى تلك اللحظة ان يديغى كان مستعدا ، ما دامت الامور قد سارت على هذا النحو للسفر بدلا من ابى طالب لكى يخنق بيديه فى الطريق ذا العينين السنقريتين ، لانه احس بالم لا يطاق حين صرخ الاولاد .

– لا تقفوا هنا ! اذهبوا من هنا ، اذهبوا ! – صرخت المراة حاملة المصباح . وانطلق البخار من فمها مشبعا برائحة التبغ والبصل القوية الى وجه يديغى .

تذكرت ظريفة الصرة .

– هاك ، سلميه له ، هذا اكل ! – ورمت الصرة فى العربة . وصفقت باب عربة البريد . ولف الصمت كل شىء . اطلقت القاطرة صفيرا وتحركت . واخذت عجلاتها تدور بصرير مسرعة سيرها فى الصقيع شيئا فشيئا .

وسار المودعون لاراديا وراء القطار المغادر ، الى جانب عربة مسدودة سدا محكما . وكانت اوق‌بالا اول من ثاب الى رشده . فامسكت بظريفة وضمتها الى صدرها ولم تخل سبيلها .

– داول ، لا تذهب ! قف ، قف هنا ! امسك بيد ماما ! –

أمرته اوق‌بالا بصوت يفوق فى قوته ضجيج الطلقات المتسارعة للعجلات .

اما يديغي فظل يركض باتجاه سير القطار وهو يحمل ايرميك ، ولم يتوقف الا عندما مرت من امامه خطفا العربة الاخيرة . وغادر القطار آخذا معه الضجيج والعجيج المتخافت لحركته والاضواء المتوردة الخابية . . . وتناهى الى السمع آخر صفير ممدود . . .

مال يديغي الى الخلف ، ولم يتمكن من تهدئة الطفل الباكى فترة طويلة . . .

فى البيت حين كان يديغي جالسا كالمصعوق عند المدفأة ، تذكر فى عمق الليل ، آبيلوف . فنهض بهدوء وارتدى ملابسه . فخمنت اوق‌بالا مقصده راسا .

– الى اين ؟ – أمسكت زوجها . – لا تمسه ، لا تتجرأ ان تمسه بيدك ! زوجته حامل . ثم ليس لك حق . كيف تثبت ؟

– لا تقلقي . – أجاب يديغي بهدوء . – لن أمسه ، لكن ينبغى له ان يعرف انه من الافضل له ان يغادر الى مكان آخر . أعدك بان لا تسقط من راسه شعرة . صدقينى ! – وانتزع يده وخرج من البيت .

كانت نوافذ بيت آبيلوف مضاءة . يعنى ، انهم غير نيام . تقدم يديغى من الباب عبر الدرب والثلج يصر تحت اقدامه ، ثم طرق طرقات قوية . فتح آبيلوف الباب .

– ها ، يديغي ، تفضل تفضل . – قال آبيلوف خائفا وتراجع الى الوراء شاحبا .

ودخل يديغي صامتا ترافقه غيوم من الضباب . توقف على العتبة وسد الباب وراءه .

– لماذا يتّمت هؤلاء المساكين ؟ – قال يديغي محاولا ان يكون قدر الامكان متمالكا نفسه .

ركع آبيلوف امامه ، وزحف على الارض ممسكا باطراف معطف يديغي .

– والله يا يديغي ، لست انا ! عسى ان لا تلد زوجتي ان كنت انا صاحب الفعلة . – اقسم قسمه الرهيب وهو يلتفت نحو الزوجة الحامل المتسمرة من الخوف ، وتحدث بعجالة وارتباك : –

قسما بالله يا يديغي ، لست انا ! كيف كنت سأتجرأ على هذا ! انه ذلك المفتش ! تذكر . فهو كان يستقصى ويسأل عما يكتب ولماذايكتب . انه هو ذلك المفتش ! كيف أستطيع انا ! عسى زوجتى لا تلد ! حتى اننى قبل قليل عند القطار لم اكن اعرف اين اوجه وجهتى ، كنت مستعدا ان اموت حتى لا ارى ! ذلك المفتش ظل يلح بأحاديثه واسئلته عن كل شيء . من اين لى ان اعرف . . . لو كنت اعرف . . . – قاطعه يديغي :

– طيب . انهض لنتحدث كالرجال . وأمام زوجتك . وليكن التوفيق فى عونها . لكنى انا جئت لغرض آخر ، حتى لو لم تكن انت مذنبا . اقول ، بالنسبة لك ، سواء اين تعيش . اما نحن ، فنبقى هنا ، ولربما ، طول الحياة ، وعلى هذا عليك ان تفكر . اعتقد ينبغي لك ان تجد عملا فى مكان آخر . هذه نصيحتى لك . وعلى ان لا نعود لهذا الحديث ابدا . هذا كل ما اردت ان اقوله ، لا غير . . . – وخرج يديغي سادّا الباب وراءه .

الفصل التاسع

كان النهار قد انتصف منذ أمد فى المحيط الهادئ ، الى الجنوب من جزر الوشن . والعاصفة ايضا ظلت تهب بنصف قوتها كالسابق ، والامواج هى الاخرى كذلك راحت تتدحرج افواجا افواجا فوّارة تتبع بعضها البعض على طول المسافات المرئية ، مشكلة مساحة واسعة الارجاء لحركة الماء من الافق الى الافق . وكانت حاملة الطائرات «كونفينتسيا» تتمايل قليلا فوق الامواج ، وتقف فى مكانها السابق فى نقطة تنتصف المسافة بين سان فرنسيسكو وفلاديفوستوك . وكانت جميع الاقسام فى السفينة المعدة لتنفيذ البرنامج . العلمى الدولى فى حالة من التوتر وعلى استعداد تام لتأدية ما يطلب منها ، وحتى ذلك الوقت كان قد انتهى على متن حاملة الطائرات الاجتماع الطارئ للجنتين المخولتين بالمهمة الخاصة بالتحقيق فى الوضع غير العادى الناجم بنتيجة الكشف عن حضارة لاارضية فى منظومة «الحامل» .

وكان رائدا الفضـــاء المتكافئان ١-٢ و٢-١ اللذان غـــادرا سفينتهما الفضائية بدون اى اذن برفقة سكان كوكب غير ارضى لا يزالان فى كوكب الصدر الغابى ، وقد تم تحذيرهما من قبـل اوبتسينوبر عبر الاتصالات اللاسلكية فى المحطة المداريـــة «باريتيت» بان لا يتخذا اية خطوة مهما كان الامر دون استلام اوامر خاصة من اوبتسينوبر .

وكانت هذه المطالب القطعية من اوبتسينوبر لا تعكس فـى حقيقتها بلبلة العقول فحسب ، بل ذلك الوضع الاستثنائى المعقد والمتفاقم الى اقصى حد ، ذلك الهيجان فى اختلاف الاراء بالنسبة للطرفين مما يهدد بايقاف التعاون ، بل والاكثر من ذلك بالمجابهة المباشرة . وتراجع برنامج «ديميورغ» ، الذى كان حتى وقـت قريب يقرّب الطرفين لصالح اكمال السطوة العلمية-التقنيـة للدولتين الاعظم ليشغل المقام الثانى من الاهمية ، وفَقَد رأسا اهميته السابقة امام القضية فوق العادة التى برزت بغتـة باكتشاف حضارة غير ارضية . وكان اعضاء اللجنتين يدركون بجلاء امرا واحدا ، الا وهو ان هذا الاكتشاف الذى لا سابقـة له ، كان امتحانا جذريا لاسس الاسرة الدولية المعاصرة ، كان امتحانا لكل شىء مما كانت تروج له الدعاية ويجرى ترسيخه فى اذهان الناس ، من قرن الى قرن ، كان امتحانا لمبادئ الحياة كلها جملة وتفصيلا . مَنْ كان يتجاسر على مثل هذه الخطـوة الخطيرة ، ناهيـك عن التصورات الشاملـة لأمن الكرة الارضية !

وفى حل هذه القضية كما يحدث عادة فى اللحظات الحرجـة من التاريخ اميط اللثام عـن التناقضـات الجذريـة للنظامين الاجتماعيين السياسيين المختلفين على الارض .

وانقلبت مناقشة الموضوع الى مناظرة حادة ، واتخذ التفاوت فى وجهات النظر والاختلاف فى طرق معالجة الموضوع اكثر فاكثر طابع المواقف الحازمة غير القابلة للمهادنـة . وسارت الامور بسرعة جامحة نحو التصادم وتبادل التهديدات ، نحو تلـك النزاعات التى كان ممكنا ، فى حالة خروجها من تحت السيطرة ، ان تؤدى حتما الى وقوع حرب عالمية . ولهذا فان كل جانب كان يحاول تجنب التطرف ازاء الاخطار الشاملة المحدقة لمثـل هذا

النوع من تطور الاحداث بيد ان العامل الاكبـر للردع كان عدم الرغبة ، او بتعبير ادق الخوف من انفجار الوعـى البشرى الذى كان من الممكن ان يحدث عفويا فيما لو اصبح خبر اكتشـاف حضارة غير ارضية حقيقة معروفة . . . ولم يكن فى امكان احد ان يضمن عواقب مثل هذا المجرى للامور . . .

واخيرا رجحت كفة العقل ، وتوصل الطرفان الى حل وسط ، اضطرا القبول به على نفس اسس الموازنة الدقيقـة . وبهذه المناسبة ارسل اوبتسينوبر الى المحطة المدارية «باريتيـت» برقية لاسلكية مشفرة بالمضمون الآتى :

«الى رائدى الفضاء المراقبين ١-٢ و٢-١ . ويتحتم عليكما ان تجريا اتصالا لاسلكيا عاجلا بمساعدة انظمة الارسال العاملة على متن «باريتيت» مع رائدى الفضـاء المتكافئين ١-٢ و٢-١ الموجودين خارج المجرة الشمسية ، فى ما يسمى بمنظومـة «الحامل» ، على كوكب الصدر الغابى . من الضرورى ان تحيطاهما علما على الفور ، بانه وفق الاتفاقية الموقعة من اللجنتين اللتين درستا المعلومات الواردة عن الحضارة اللاارضية التى اكتشفها رائدا الفضاء المتكافئان ١-٢ و٢-١ اتخذ الاوبتسينوبر قرارا غير قابل لاعادة النظر ، ويتلخص فيما يلى :

ا) عدم السمـاح بعودة رائدى الفضاء المتكافئين السابقين ١-٢ و٢-١ الى المحطة المدارية «باريتيت» ، وكذلك الى الارض باعتبارهما من الشخصيات غير المرغـوب فيهـا فى الحضارة الارضية .

ب) اشعار سكان الكوكب المسمى بالصدر الغابى عن رفضنا الدخول معهم فى اى نوع من انواع العلاقات بسبب مناقاة ذلـك للخبرة التاريخية والمصالح الحيوية ، وخصوصيات التطور الحالى للمجتمع البشرى على الارض .

ج) تحذير رائدى الفضاء المتكافئين السابقين ١-٢ و٢-١ وكذلك سكنة الكوكب الآخر ذوى الصلة بهما من مغبة القيـام بمحاولة للاتصال بسكان الارض ، ولا سيما التسلل الى المجال الجوى القريب من الارض ، مثلما حدث عند زيارة سكان الكوكب الآخر للمحطة المدارية «باريتيت» فى مدار «ترامبلين» .

د) لغرض عزل المجال الجوى القريب من الارض عن احتمال

دخول الاجهزة الطائرة لسكان الكواكب الاخرى يعلن اوبتسينوبر انشاء النظام الفضائى الاستثنائى الشامل بصورة عاجلة وتحت عنوان عملية «اوبروتش» مبرمجا سلسلة من التحليقات لصواريخ روبوتات فى المدارات المقررة بغية القضاء بالاشعاعات النووية الليزرية على الاجهزة او الاجرام التى تقترب الى الفضاء الكونى من الكرة الارضية .

هـ) ابلاغ رائدى الفضاء المتكافئين السابقين اللذين أجريا بلا اذن اتصالات مع مخلوقات من كوكب آخر انه لاغراض الأمن والحفاظ على استقرار التركيب الجغرافى السياسى المتشكل لسكان الارض تستثنى امكانية عقد اية صلات معهما . بعد ذلك ستتخذ جميع الاجراءات التى تؤدى الى الكتمان الشديد للاحداث الواقعة واجراءات اخرى تحول دون تجديد اقامة الصلات . ولهذا الغرض يتم فورا تغيير مدار المحطة المدارية «باريتيت» . اما قنوات الاتصالات اللاسلكية فستنظم وفق شفرات اخرى جديدة .

و) تحذير سكان الكوكب الآخر مرة ثانية من خطورة الاقتراب من مناطق «اوبروتش» حول الكرة الارضية .

اوبتسينوبر . متن حاملة الطائرات «كونفينتسيا» .

بعد التجاء اوبتسينوبر الى هذه الاجراءات الوقائية اصبح مضطرا لتجميد برنامج «ديميورغ» باكمله فى غزو كوكب اكس لفترة غير محددة . وكان عليه ان يحوّل المحطة المدارية «باريتيت» الى بارامترات تدوير اخرى واستخدامها للمراقبة الفضائية الجارية . واتخذ قرارا بتسليم حاملة الطائرات «كونفينتسيا» المشتركة والمتخصصة فى الابحاث العلمية الى فئلندا المحايدة لحفظها . بعد اطلاق نظام «اوبروتش» الى الفضاء النائى تعين على جميع المسؤولين المتكافئين وجميع العاملين فى المجالات الادارية والعلمية وجميع المستخدمين المساعدين ان يكفوا عن عملهم ويقطعوا على انفسهم تعهدات صارمة بعدم البوح حتى الموت باسباب تجميد نشاط اوبتسينوبر .

وكان 'يفترض ان يعلن للاوساط الاجتماعية الواسعة ان عمل برنامج «ديميورغ» يتوقف لفترة غير محددة لضرورات القيام بابحاث شاملة واصلاحات كلية على كوكب اكس .

لقد تم ترتيب كل شىء بعد دراسة عميقة ، وتوجب ان يتم

هذا كله مباشرة بعد اطلاق «اوبروتش» العاجل حول الكرة الارضية .

قبل ذلك ، وبعد انتهاء الاجتماع المشترك للجنتين مباشرة تم اتلاف جميع الوثائق والشفرات وجميع المعلومات المرسلة من قبل رائدى الفضاء المتكافئين السابقين ، وجميع المحاضر والافلام والاوراق التى كان لها علاقة من قريب او بعيد بهذه القصة المؤسفة .

كان الوقت فى المحيط الهادئ ، الى الجنوب من جزر ألوشن يميل الى الغروب . والجو كان على حاله ايضا مقبولا نسبيا . لكن مع ذلك كان يزداد اضطراب المحيط . واصبح هدير الامواج الفوارة مسموعا فى كل مكان .

كانت مصلحة الطيران فى حاملة الطائرات تترقب بتوتر لحظة انفضاض الاجتماع وخروج اعضاء اللجنتين المخولتين بمسؤوليات فوق العادة وتوجههم نحو الطائرتين المنتظرتين . وها هم قد خرجوا جميعهم وتوادعوا . توجه نصفهم صوب الطائرة الاولى ، بينما توجه النصف الثانى صوب الطائرة الثانية .

تم الاقلاع على أروع ما يكون ، بغض النظر عن الاهتزاز ، وتوجهت احدى الطائرتين الى سان فرنسيسكو والاخرى نحو الجهة المعاكسة ، الى فلاديفوستوك .

وحامت الارض حول نفسها فى دورانها الابدى منفوحة بالرياح الهابة . حامت الارض . . . وهى تشبه ذرة رملية صغيرة فى الكون اللانهائى . ان مثل هذه الاحجار فى العالم كانت لا تعد ولا تحصى . ولكن على هذه الذرة الرملية ، على كوكب الارض وحدها ، عاش البشر . عاشوا كيفما استطاعوا وحسب امكانهم ، واحيانا يهيجهم الفضول فيحاولون ان يجتلوا لانفسهم ان كان يعيش فى كواكب اخرى مخلوقات من امثالهم . فراحوا يتناقشون ويبنون الفرضيات وينزلون على القمر ويرسلون الاجهزة المؤتمتة الى الاجرام السماوية الاخرى . وفى كل مرة يتحققون بمرارة انه لا وجود لاحد ولاى شىء شبيه بهم ، ولا اية حياة عموما فى أطراف المنظومة الشمسية . ثم ينسون هذا ، لكثرة اشغالهم ، ولصعوبة التوافق فيما بينهم ، ثم كان عليهم ان يعملوا للحصول على قوت

العيش وخبز الكفاف . . . كما ان الكثيرين منهم كانوا يعتبرون ان لا شأن لهم بهذه القضية وحامت الارض فى الكون فى دورانها الابدى . . .

كان كانون الثانى ، ذلك الشهر كله ، شديد الصقيع ومظلما . من اين جاء هذا القدر من البرد القارس الى ساروزيكى ! وسارت القطارات مغطاة بطبقة بيضاء من الزمهرير الجليدى . وكان من المستغرب رؤية سلسلة من صهاريج النفط السوداء متوقفة فى محطة المفرق وهى بيضاء تماما ملفعة بالثلوج . وكذلك لم يكن سهلا على القطارات ان تتحرك من اماكن وقوفها . فكانت القاطرات المقنطرة ازواجا تتحرك ساحبة العربات برجات طويلة وكانها كانت تنتزع العجلات الملتصقة بالقضبان . كان يُسمع صليل العربات المقتلعة الحاد نتيجة الجهود المبذولة من القاطرات بعيدا فى اطراف المنطقة ، حتى ان اطفال البورانليين كانوا يستفيقون مذعورين من هذه الفرقعات .

وفى هذه الفترة تراكمت الثلوج على الخطوط . فزادت فى الطين بلة . ثم اخذت الرياح تشتد ، ووجدت فى ساروزيكى متسعا ومجالا رحبا من المساحة لها ، فلا يدرى المرء من اى طرف تهب الاعاصير . وخيل للبورانليين ان الرياح تسعى جهدها فى تكديس اكوام الثلج على قضبان السكك الحديد بالذات .

وانشغل يديغي وقازانغاب وثلاثة اخرون من عمال السكك فى تنظيف القضبان ضمن المسافة الواقعة بين محطتين من الثلج وكانوا تارة يعملون فى هذا الجزء وتارة فى ذاك ، ثم يعودون الى نفس المكان . وكان اللوح المركب بالعرض يجره بعيران يساعدهم فى العمل ، اذ كانوا يزيحون الطبقة الثقيلة العليا من الثلوج بواسطته عن السكة الى جانبى الطريق . اما الباقى فكانوا ينقلونه بالايدى . ولم يرأف يديغي بحال قره‌نار ، وكان مسرورا لتوفر الامكانية لانهاكه واخماد روحه الجامحة ، فقرنه مع بعير آخر يساويه ويعادله بالقوة واخذ يحثهما بالسوط ناقلا الثلج بواسطة هذا اللوح وهو واقف على طرف اللوح الثانى

المثبت بالاول ليثقل الوزن . لم يكن ثمة اجهزة ملائمة اخرى فى ذلك الوقت . كان يقال ان المعامل انتجت مكائن خاصة لتنظيف السكك من الثلج ، قاطرات تدفع ركم الثلج نحو الجانبين . وقطعت الوعود بارسالها فى القريب العاجل ، بيد ان تلك الوعود ظلت حبرا على ورق .

اذا كانت الدنيا تصلي فى الصيف حتى الجنون ، فانه من الصعب ، بل ومن المفزع الآن فيها استنشاق الهواء الصقيعى ، حتى بدا ان الرئتين تكادان تتمزقان ومع ذلك سارت القطارات وتطلبت الاعمال التنفيذ . فطالت لحية يديغي المرسلة التى بدأ لاول مرة فى ذلك الشتاء يظهر فيها وخط الشيب هنا وهناك وانتفخت عيناه من قلة النوم ، اما وجهه فاصبح التحديق فيه فى المرآة مقرفا ، فقد اصبح مثل الحديد الزهر . وكان لا ينزع معطفه الفرائى القصير ويرتدى دائما فوقه ممطرا من المشمع ذى قلنسوة ، ويحتذى جزمة من اللباد .

لكن ابان اى عمل كان يؤديه يديغي ، ومهما كان يعانى من مشقات ، لم تكن تفارق ذاكرته ابدا حكاية ابى طالب قطبايف فقد هزت نفسه هزا مؤلما وغالبا ما كان هو وقازانغاب يقلبان الامور على مختلف اوجهها : كيف وقع هذا كله وماذا ستكون نهايته . كان قازانغاب يزداد صمتا ، ويقطب ، ويفكر متوترا بشيء ما خاص به . لكنه ذات مرة قال :

– هذا ما كان دائما ، معالجة القضية تتطلب الوقت ، اذ ليس سدى ان قيل فى القدم : «الخان ليس إلها وهو ليس دائما يعرف ما يفعله افراد حاشيته ، وهم لا يعرفون من الذى يبتز الاموال فى السوق .» هذا ما كان دائما .

– ما هذا الكلام ! يا لك من حكيم ! – سخر منه يديغي بعدم رضا – لقد طردنا الخانات من زمان ، وهل القضية تكمن فى هذا ؟

– اين تكمن اذن ؟ – سأل قازانغاب سؤالا معقولا .

– اين ، اين ! – غمغم يديغي مستاءا ، لكنه لم يجب . وظل هذا السؤال مستعصيا عليه ، دون ان يجد له جوابا .

من القول المأثور ان المصيبة لا تاتى بمفردها . فقد استبرد داول ، ابن قطبايف الاكبر ، ومرض . وسقط فى فراشه يعانى

من الحمى والهذيان ويسعل ويعانى آلام الحنجرة . قالت ظريفة انه اصيب بالتهاب اللوزتين . وعالجته بشتى اقراص الدواء ، لكنها لم تستطع ان تلازم الاطفال على الدوام ، ذلك انها كانت تعمل محوّلة لتوفر متطلبات المعيشة . وكانت تذهب الى الخفارة تارة فى النهار واخرى فى الليل . واضطرت اوق‌بالا ان تتولى على عاتقها هذه الاهتمامات . فكان لديها طفلتان ، ولظريفة ولدان ، هكذا اخذت تدبر شؤون اربعة اطفال مدركة اى وضع صعب ، لا مخرج له ، تعيش فيه عائلة ابى طالب . ويديغي ايضا كان يساعدها قدر استطاعته . فى الصباح الباكر كان يزود بيتهم الخشبى بالفحم من السقيفة الصغيرة ، واذا ما لحق أوقد المدفأة ، ذلك الفحم الحجرى يتطلب معرفة وحذاقة فى الايقاد . فكان يسكب فى المدفأة سطلا ونصف سطل من الفحم لكى يبقى البيت دافئا طول اليوم للاطفال . وهو ايضا كان يجلب الماء من الصهريج الواقف فى الخط المسدود ، ويقطع الحطب لاشعال النار . اذ ان القيام بذلك كله لم يكن يكلفه شيئا . . . بيد ان الصعوبة كانت تنحصر فى أمر آخر ، الا وهو تعذر النظر فى عيون اطفال ابى طالب والاجابة عن اسئلتهم ، والألم الذى كان يعانيه من جراء ذلك . الاكبر يرقد مريضا ، وكان بطبيعته متماسكا للنفس بعض الشيء الا ان الاصغر ايرميك كان يشبه امه ، فهو حيوى ونشيط وحنون وحساس جدا ، وكان التعامل معه صعبا . عندما كان يديغي يجلب الفحم فى الصباح ويوقد المدفأة كان يحاول ألا يوقظ الاولاد . بيد انه نادرا ما كان يتوقف فى مغادرة البيت دون ان يلاحظاه . اذ كان ايرميك ذو الشعر الاسود المجعد يلحظه مباشرة . وكان سؤاله الاول ما ان يستيقظ :

– يا عم يديغي ، هل يأتى بابا اليوم ؟

وكان الولد يهرع اليه بملابسه الداخلية ، حافيا والأمل لا يفارق عينيه ، وكان أباه سيرجع ما ان يقول يديغي «نعم» وسيكون معهم فى البيت من جديد . كان يديغي يتلقفه فى حضنه ، ويتحسس جسده النحيل الدافئ ويضعه من جديد فى فراشه ، ويتحدث معه كما لو كان من الكبار :

– اليوم ، لا أدرى يا ايرميك ، هل سيأتى والدك ام لا ،

لكن ينبغي ان يخبرونا من المحطة بالهاتف بأى قطار سيعود ، ذلك ان قطارات الركاب لا تتوقف عندنا ، وانت تعرف هذا . ولا تتوقف الا بأمر من رئيس قسم الحركة على الخطوط . واعتقد انه يجب ان يصلنا الخبر بشأنه فى الايام القريبة القادمة . عندئذ سنذهب انا وانت وداول فيما اذا تعافى حتى ذلك الوقت الى القطار لاستقباله .

– سنقول ، يا بابيكا ، ها قد جئناك !

– بالطبع ! هذا ما سنقول – أيده يديغي بلهجة متشجعة . غير انه ليس سهلا خداع ولد حصيف .

– يا عم يديغي ، تعال كما فى المرة السابقة نجلس فى قطار حمولات ونذهب الى مدير قسم الحركة نفسه ونطلب اليه ان يوقف عندنا القطار الذى سيأتى فيه بابيكا .

واضطر يديغي ان يتملص .

فى تلك المرة كان الوقت صيفا والدنيا دافئة . اما الآن فمن غير الممكن السفر فى قطار حمولات . الجو شديد البرودة والرياح عاتية . أترى كيف تجمدت النافذة . لن يكون فى وسعنا الوصول الى هناك ، سنتجمد فى الطريق مثل قطعة جليد . كلا ، ان هذا لخطر جدا .

ولزم الولد الصمت بحزن .

– ارقد انت الآن ، اما انا فالقى نظرة الى داول – وجد يديغي عذرا وتقدم من فراش المريض ووضع يده الثقيلة المجعدة على جبين الولد الحار . . . وكان ذاك يفتح عينيه بصعوبة ويبتسم ابتسامة ضعيفة بشفتيه المصطليتين من الحرارة . وكانت حرارته لا تزال مرتفعة .

– لا تزح اللحاف عنك . انت متعرق . أتسمعنى يا داول ؟ ستستبرد اكثر . وانت يا ايرميك اجلب له القصرية عندما يريد ان يبول . أتسمعنى ؟ لئلا يتحرك من فراشه . قريبا ستأتى والدتكما من الخفارة . اما العمة اوق‌بالا فستأتى الآن لاطعامكما . وعندما يتعافى داول ستأتيان الى عندنا وتلعبان مع ساولا وشرابات . لقد حان وقت ذهابى الى العمل ، والا فان القطارات ستتوقف لان الثلج غزير –

قال يديغي للولدين قبل مغادرته .

لكن ايرميك كان لا يلين ، فقال ليديغي عندما بلغ هذا الاخير العتبة :

– يا عم يديغي ، اذا كان الثلج غزيرا عند مجيء قطار بابيكا ، سأذهب انا لتنظيف السكة من الثلج . فانا عندى رفش ايضا .

وخرج يديغي من بيتهم مثقل القلب ضيق الصدر . وشعر بألم ممض من الاساءة والعجز والحسرة . كان مغتاظا آنذاك من العالم كله . وافشى غيظه فى الثلج والريح والعاصفة والجمال التى لم يراف بها ولم يشفق عليها فى العمل ولم يرق لها قلبه وعمل بكل قوة ، وكانه كان فى وسعه ان يوقف لوحده جميع العواصف الثلجية فى ساروزيكى . . .

وسارت الايام مثل قطرات متساقطة برتابة محتومة واحدة بعد اخرى . وها قد انقضى كانون الثانى وشرع البرد يتراجع قليلا . ولم تصل من ابى طالب قطايف اية اخبار . وراح يديغي وقازانغاب يضربان اخماسا باسداس ويقلبان الامر على عواهنه وشتى وجوهه . وكانت جميع الافتراضات تشير الى انهم يجب ان يفرجوا عنه قريبا ، لانه لم يفعل امرا فظيعا ، ذلك انه كتب شيئا ما لنفسه وليس لأى انسان آخر . كانا يعيشان على هذا الأمل ويوحيان به قدر استطاعتهما الى ظريفة لكى تصمد ولا تخور عزيمتها . وكانت هى نفسها تدرك ان عليها ان تكون بصلابة الحجر وجساوته من اجل الاطفال على الاقل . ولقد اصبحت بالفعل كالحجر . انطوت على نفسها ، وانغلقت عليها ولم تنبس ببنت شفة ، بيد ان عينيها راحتا تشعان بقلق ، من يدرى كم من الوقت كانت ستتحمل الصمود .

كان يديغي البورانى ذات مرة فارغا من العمل . فقرر ان يتجول في البرية ليرى كيف يرعى ذود الابل ، والاهم كيف يتصرف قره نار . ألم يعض بعيرا آخر فى الذود ؟ وهل انتهى جنونه بعد انقضاء هذه المدة . وذهب متزحلقا على عصا الايسكى . كان الموقع غير بعيد . وعاد فى الوقت المحدد وكان يستعد لاخبار قازانغاب بان كل شيء هناك على ما يرام ، وان الابل ترعى فى الغابة فهناك لا يحس للثلج بوجود تقريبا

والريح تهب ، ولهذا فان عشب المراعى مكشوف ، ولا شيء يستدعى القلق . وآثر يديغي ان يعرج على البيت لوضع الايسكى فيه . فاطلت ابنته الكبرى ساولا من الباب مذعورة :

– بابا ، ماما تبكى ! – واختفت .

وضع يديغي الايسكى والقلق يخامره ، ثم ولج البيت مسرعا . كانت اوق بالا تبكى الى درجة جعلت نفس يديغي تشعر راسا بالضيق .

– ماذا ؟ ماذا حدث ؟

– اللعنة على كل شيء فى هذا العالم – قالت اوق بالا وهى تندب وتبكى .

لم ير يديغي ابدا زوجته فى مثل هذه الحال . كانت اوق بالا امراة قوية النفس صافية الذهن .

– هذا انت ، انت المذنب فى كل شيء !

– فى ماذا ؟ فى ماذا انا المذنب ؟ – اندهش يديغي .

– لفقت للاولاد المساكين قصة طويلة . ومنذ فترة وجيزة توقف قطار ركاب لان قطارا آخر كان يتقدم على نفس الخط فى الامام ليفسح له فى المجال . ولا ادرى من اين جاءا الى مفرقنا ؟ اما ولدا ابن طالب فما ان لمحا ان قطار الركاب قد توقف الا وهرعا صائحين : «بابيكا ! بابيكا ! جاء بابيكا !» وتوجها نحو القطار . فلاحقتهما انا . كانا يتنقلان من امام عربة لاخرى وهما يناديان : «بابيكا ، بابيكا ، اين بابيكا ؟» خشيت ان يدهسهما القطار . لم ينفتح لهما اى من الابواب فظلا يواصلان الركض على طول القطار الطويل ، الى ان لحقتهما وامسكت بالصغير ، ومن ثم افلحت فى امساك الثانى ، وفى هذه الاثناء تحرك القطار وغادر . بينما هما ينتفضان ويحاولان التملص والافلات من يدى : «بابيكا هناك ، لم يلحق فى النزول من القطار !» وارتفع بكاء لا يحتمل . انخلع قلبى وظننت اننى ساجن بسبب بكائهما وصراخهما . ايرميك لا يزال فى حالة سيئة ! اذهب وهدئ من روعه ! اذهب ! انت الذى قلت لهما ان اباهما سيرجع عندما يتوقف قطار الركاب فى مفرقنا . لو انك رايت ماذا اصابهما حين غادر القطار ولم يطل منه والدهما ! آه لو انك رايت ! لماذا رتبت الامور على هذه الشاكلة فى

الحياة ؟ لماذا يتعلق الاب باطفاله والاطفال بأبيهم بهذه القوة ؟ لماذا كل هذه الآلام ؟

وذهب يديغي اليهما بشعور الذاهب الى مقصلة . وهو يسأل الله فقط ان يقبل رجاءه ويسامحه قبل الاعداء على هذا الخداع الاضطرارى لهاتين النفسين البريئتين الصادقتين . ذلك انه لم يرد لهما سوءا . فماذا عليه ان يقول وكيف يجيب ؟

ومع ظهوره صرخ ايرميك وداول بعينيهما المغرورقتين بالدموع ووجهيهما المنتفخين المتغيرين ، بقوة جديدة محاولين ان يشرحا له منافسين احدهما الآخر ان القطار توقف في المفرق ، لكن الوالد لم يلحق فى النزول منه ، وليعمل هو ، العم يديغي ، على ايقاف القطار . . .

– ساغيندیم بابيكا مدى! * ساغيندیم ! – كان ايرميك يصرخ متوسلا اليه بكل هيئته وثقته وأمله وحزنه .

– سأستعلم الآن عن كل شيء . هدوءا ، هدوءا ، لا تبكيا – حاول يديغي ان يفهم ويطمئن بشكل من الاشكال الولدين المنخرطين فى البكاء . والاصعب من ذلك كان عليه هو ان يصمد وان يسيطر على نفسه وان يبقى وجهه هادئا لئلا يرى الاطفال فيه رجلا ضعيفا عاجزا – سنذهب الآن . سنذهب ! – «الى اين نذهب ؟ الى اين؟ عند من نذهب ؟ وماذا نعمل ؟ ما العمل ؟» – فكر هو اثناء ذلك – سنذهب الآن وهنالك نفكر ، ونتحدث – وعدهم يديغي بشيء غير محدد متمتما بكلام غير مترابط . وتقدم من ظريفة . كانت مستلقية على السرير بلا حراك دافنة راسها فى المخدة .

– ظريفة ، ظريفة ! – وهزها يديغي من كتفيها ، الا انها لم تحرك ساكنا ولم تبد حراكا ولم تند عنها نأمة .

– سنذهب الآن لنتجول قليلا ، ومن ثم نعرج على بيتنا – قال لها – اننى آخذ الاولاد معى .

وكان هذا هو الشيء الوحيد الذى كان بوسعه فعله لكى يهدئ الاطفال ويصرفهم عن التفكير فى ابيهم ويستجمع هو بنفسه افكاره . فحمل ايرميك على ظهره ، بينما امسك بيد

* اشتقت لابى . (بالقازاخية فى الاصل) . **الناشر** .

داول ، ومشوا بلا هدف مع امتداد السكة الحديد . ولم يشعر يديغي ابدا فى حياته بمثل هذه المعاناة لمصيبة الآخرين . كان ايرميك الجالس على ظهره لا يزال ينشج بالبكاء وينحب ويتأوه بمرارة على قفاه . لقد التصق به هذا المخلوق الصغير الذى اضناه الحنين وتعلق بكتفيه فى ثقة تامة ، اما الثانى ، المخلوق المماثل ، فقد امسك هو الآخر بيده واثقا ، وفى تلك اللحظات كانت الرغبة تنازع يديغي فى ان يصرخ من الألم والأسف عليهما .

هكذا ساروا مع امتداد السكة الحديد وسط صحراء ساروزيكى ، والقطارات وحدها كانت تمر بهم مزمجرة تارة فى هذا الاتجاه واخرى فى ذاك . . . كانت القطارات تأتى وتذهب . . .

ومن جديد اضطر يديغي ان يكذب على الاطفال . وقال انهم اخطأوا ، وان هذا القطار الذى توقف صدفة فى المفرق ذهب فى اتجاه آخر اما والدهما فينبغى ان يأتى من اتجاه مغاير . لكنه قد يعود ليس قريبا جدا ، ويبدو انهم أرسلوه ليعمل بحارا فى احد البحار النائية ، وما ان ترسو السفينة عائدة من رحلتها الطويلة الا ويعود مسرعا الى البيت . لا بد الآن من الانتظار . وحسب فهمه ان هذا الكذب ينبغى ان يساعدهما على الثبات فترة ومن ثم يصبح الكذب حقيقة . كان يديغي لا يشك بعودة ابى طالب قطبايف . سيمضى بعض الوقت ، ويبت فى الامر فيعود . ولن يتأخر لحظة واحدة بعد ان يطلقوا سراحه . ان الاب الذى يحب اولاده لهذه الدرجة لن يماطل لحظة ولن يتأخر فى العودة . . . ولهذا كان يديغي يكذب . . . وكان يديغي وهو الذى يعرف ابا طالب معرفة تامة وكافية يتصور حالة هذا الانسان فى فراقه مع عائلته . ولو كان رجلا آخر ، فربما لما تألم او عانى مثل هذه المعاناة القاسية لهذا الفراق الموقت ، حتى وان لم يكن بارادته ، لكن يحدوه الأمل بانه سيرجع قريبا الى البيت . ولم يكن يخامر يديغي ادنى شك بان هذا الامر كان يعادل بالنسبة لابى طالب اقصى العقوبات . وكان يديغي يخاف عليه ، هل سيصمد ويحتمل الى ان يجرى التحقيق فى قضيته . . .

والى ذلك الوقت كانت ظريفة قد ارسلت عدة رسائل الى الدوائر المسؤولة تستفسر فيها عن زوجها وتطلب اخبارها ان كان بامكانها مواجهته ، ولم تستلم اى جواب حتى الآن . قازانغاب ويديغى ايضا اتعبا راسيهما ، وكانا يميلان الى تعليل ذلك برده الى عدم وجود اتصالات بريدية مباشرة فى بورانلى- بورانى . وكان لا بد من ارسال الرسائل عبر احد ما او ايصالها من قبل صاحبها الى محطة قمبيل ، واستلام البريد ايضا يتم عبر قمبيل وايضا بواسطة اصدقاء او معارف . . . ومثل هذه الطريقة فى الاتصال ليست دائما هى الطريقة الاسرع .

وهذا ما حدث ذات مرة . . .

فى الايام الاخيرة من شباط سافر قازانغاب الى قمبيل لزيارة ابنه ثابت جان فى المدرسة الداخلية . وكان قد سافر على ظهر بعير . اذ ان الرحلة فى قطارات الحمولات شتاء تكون شديدة البرد ، لان الدخول فى العربات ممنوع ، والوقوف فى العربة المسطحة يعرض المرء الى رياح باردة غير محتملة . اما على ظهر البعير ، فالسفر ممكن اذا ارتدى المرء ملابس دافئة ، وقد يقطع الطريق ذهابا وايابا فى يوم واحد ويفلح فى تادية اشغاله فى البلدة .

عاد قازانغاب فى ذلك اليوم مع حلول المساء . واذ رآه يديغي مترجلا فكر انه منحرف المزاج وحزين جدا ، وظن ، ان ابنه قد عربد وثم انه قد تعب من الطريق .

صاح يديغي :

– كيف سفرتك ؟

– لا بأس ، – اجاب قازانغاب بصوت خفيض وهو منشغل بحمولته ، ثم تلفت وقال بعد مهلة : – هل ستبقى فى البيت ؟

– نعم ، سابقى .

– عندى شغل معك . سأمر عليك بعد قليل .

– تفضل .

لم يتاخر قازانغاب ، وسرعان ما جاء برفقة زوجته بوكيه . كان هو يسير فى الامام وهى تتبعه . وكان كلاهما يبدو قلقا جدا ، علاوة على ذلك كانت علائم التعب تلوح على قازانغاب ، وهذا ما جعل رقبته تطول وكتفيه يتهدلان وشارباه يتدليان . وبوكيه

البدينة تتنفس لاهثة بصعوبة كان قلبها كان يخفق بشدة فلا تستطيع التنفس بصورة طبيعية .

– ماذا حدث ، الم تتخاصما ؟ – قالت اوق‌بالا ضاحكة – هل جئتما لتتصالحا ؟ اجلسا اذن .

– حبذا لو تخاصمنا – قالت بوكيه بصوت متهدج وهى تلهث لهاثا متقطعا عسيرا .

وسال قازانغاب متلفتا فيما حواليه :

– واين بنتاكما ؟

– البنتان تلعبان عند ظريفة مع ولديها . – اجاب يديغي – ما شانك بهما ؟

– عندى اخبار سيئة – قال قازانغاب محدقا فى يديغي واوق بالا . – الافضل ان لا يعرف الاطفال بها الآن . انها مصيبة كبرى . لقد توفي ابو طالب !

– ماذا تقول ؟ ! – وثب يديغى من مكانه ، اما اوق بالا فندت عنها صيحة وسدت فمها بكفها وصار لونها ابيض بلون الحائط .

– مات ! مات ! يا لاطفاله المساكين ! يا لهم من يتامى تعساء ! – ندبت بوكيه بصوت اجش وهامس قليلا .

– كيف مات ؟ – واقترب يديغي من قازانغاب منذعر وهو غير مصدق للآن ما سمعه .

– وصلت ورقة بهذا الخصوص الى المحطة .

ولاذ الجميع بالصمت فجاة دون ان ينظروا الى وجوه بعضهم البعض .

– يا للمصيبة ! يا للمصيبة ! – امسكت اوق‌بالا راسها بيديها واثنت وهى تتمايل من جنب الى جنب . . .

– اين هذه الورقة ؟ – سال يديغي اخيرا .

– الورقة فى المحطة – شرع قازانغاب يتكلم – بعد ان زرت المدرسة الداخلية خطر ببالى ان اعرج على المخزن الذى يقع فى قاعة الانتظار بالمحطة ، اذ كانت بوكيه قد اوصتنى بشراء الصابون . فما ان وصلت الباب حتى صادفت مدير المحطة تشيرنوف وجها لوجه . واذ تبادلنا التحية . . . وقد تعرفنا على بعضنا البعض منذ زمن ، قال لى : «ان لقاءنا فرصة مؤاتية ،

تعال الى المكتب ، ثمة رسالة تاخذها معك الى المفرق» . وفتح باب مكتبه وولجناه كلانا . تناول من الطاولة مظروفا عليه حروف مطبوعة وقال : «هل كان ابو طالب قطبايف يعمل عندكم فـــى المفرق ؟» قلت : «نعم عندنا ، وماذا حدث ؟» «لقد وصلت هذه الورقة منذ ثلاثة ايام وليس من احد لارسلها معه الى بورانـلى-بورانى . خذها وسلمها لزوجته . انها تتضمن جوابا عـــن استفسارها . لقد توفي ، كما كتب هنا» . وقال كلمة غير مفهومة بالنسبة لى : «توفي بالاحتشاء» فقلت له ، ما معنى الاحتشـاء فاجاب : «يعنى بالجلطة القلبية» أرايت ماذا حدث : انفجـــر قلبه . مكثت جالسا فى مكانى مصعوقا . فى البدء لم اصدق ، فتناولت تلك الورقة بيدى . وقرات فيها : على مدير محطة قمبيل اشعار مفرق بورانلى – بورانى بالجواب الرسمي الى المواطنـة فلانة بنت فلان جوابا على استفسارها والى آخره ، ان المحقق معه ابو طالب قطبايف كذا وكيت ، قد توفى بنوبة قلبية . هذا مـا ورد فيها بالضبط . وبعد ان قرات الورقة نظرت اليه وانا لا ادرى ماذا افعل . فقال تشيرنوف : «هذه هى القضية . خذ الورقة وسلمها لها» . وفتح يديه كمن لا حيلة له . قلت : لا ، هذا غير جائز عندنا . لا اريد ان اكون بشير سوء ! ان اطفالـه لا يزالون صغارا فكيف اتجرا على تحطيم نفوسهم . قلت ، اننا نحن البورانليين سنتشاور فى الأمر بيننا هناك اولا ، ثم نتخذ قرارا . اما سياتى احدنا خصيصا لاستلام هذه الورقة ونقلها كما يتوجب نقل مثل هذا الخبر الصاعق ، لان الميت انسان وليس عصفورا فى آخر الامر . او على الارجح ان زوجته ظريفة قطبايفا هى التـى ستاتى وتستلم الورقة من يديك مباشرة . عند ذاك ستشرح لها بنفسك الموضوع وتحدثها كيف حدث ذلك كلـــه . فقال لى : «الامر منوط بك ، وكيفما تشاء . لكن ليكن فى علمـــك ان لا شيء عندى اوضحه او اشرحه . وانا لا اعرف اية تفاصيل . مهمتى تقتصر على ايصال هذه الورقة الى العنوان وهذا هو كل ما فـــى الامر» . لكنى انا اعتذرت وقلت : فلتبق الورقـة عندك الآن . سأوصل الخبر شفهيا ونتشاور هناك فى الموضوع . فقال : «كما ترى وانت ادرى» وبهذا خرجت من عنده ، ورحت طول الطريق اسرع بالبعير وقلبى يوجعنى : ماذا نعمل ؟ مَنْ منا تكفيـــه

الشجاعة لينقل اليهم مثل هذا الخبر ؟

وسكت قازانغاب ، انحنى يديغي كثيرا كما لو ان جبلا جثم على كتفيه .

– ماذا سيكون الآن ؟ – قال قازانغاب ، لكن احدا لم يحر جوابا .

هز يديغي راسه باسى :

– هذا ما كنت اتوقعه . لم يحتمل فراق اطفاله . وهذا ما كنت اخافه اكثر من اى شيء آخر . لم يصبر عـلى الفراق . ان الحنين لشيء رهيب . ان ولديه يشتاقان له حتى ان المرء لا يقوى على النظر اليهما . لو كان انسانا آخر ، ولنفترض انهـم حكموا عليه لاى سبب كان ، وحتى لو حكموا عليه لقضى سنـة او سنتين ، او اية فترة اخرى فى السجن ومن ثم عاد الى بيته . اذ سبق له ان كان فى الاسر الالمانى ، وكم احتمل فى معسكرات الاعتقال ، ثم عانى ما عاناه فى قوات الانصار وحارب طيلة هذه السنوات فى مناطق غريبة ولم ينهزم ، هذا كله لانه كان آنذاك وحيدا ، سيد نفسه ، ولم يكن متزوجا ، اما الآن ، فقد انتزع من اعز شيء اليه ، من اطفاله . وها قد وقعت الواقعة وحلـــت المصيبة . . .

أيده قازانغاب :

– بلى ، اننى ايضا افكر على هذا النحو . لم أكن اصدق بان الانسان يمكن ان يموت من الفراق . والا فانه كان شابـا وذكيا ومثقفا ولكان قد انتظر الى ان يُبَتّ بأمره ويطلق سراحه . ذلك انه لم يكن مذنبا بشيء . يبدو انه كان يفهم هذا بعقله ، لكن قلبه لم يحتمل . . .

ثم جلسوا فترة طويلة من الوقت يدرسون الوضع ، وارادوا ان يختلقوا طريقة يهيئون بها ذهن ظريفة لهذا الخبر ، لكن مهما فكروا وخمنوا فان كل الاراء كانت تلتقى فى نقطة واحدة ، وهـى ان العائلة حرمت من الاب والاطفال تيتموا وظريفة ترملت ، ولا شيء اكثر او اقـــل . ومع ذلك كان الاقتراح الاذكـــى من اوق بالا :

– لتستلم ظريفة بنفسها تلك الورقة فى المحطة ولتواجه هذه الصدمة هناك وليس هنا بين الاطفال . ولتقرر هناك ، فـى

المحطة ، وفى طريق عودتها ، حيث سيكون لها وقت كاف للتفكير ، كيف عليها ان تتصرف : أينبغى ان يعلم الاطفال بذلك ام لا داعى اليه الآن . وربما ستقرر الانتظار الى ان يكبرا قليلا وينسيا اباهما ولو قليلا . من الصعب البت فى هذا . . .

فايدها يديغي :

– كلامك صحيح . هى ام ، ولتقرر بنفسها ان كانت ستخبرهما بموت والدهما ام لا . انا شخصيا لا استطيع . . . – واستعصى الكلام على يديغي ، فلم يطاوعه لسانه ، وسعل لكى يخفف من الغصة المطبقة على حنجرته .

واضافت اوق‌بالا عندما توصلوا الى رأى موحد :

– ينبغى عليك يا قازانغاب ان تخبر ظريفة ان ثمة رسالة موجهة اليها موجودة عند مدير المحطة . على اساس انها تتضمن اجوبة عن استفساراتها . وطلب حضورها شخصيا ، باعتبار ان ذلك لا بد منه – واستطردت اوق‌بالا – ثانيا ، لا يجوز ذهاب ظريفة لوحدها فى مثل هذا اليوم . اذ ليس لهم هنا اقارب او اهل . من الافظع على المرء ان يواجه الحزن وحيدا . انت يا يديغى اذهب معها وكن الى جانبها فى تلك الساعة . قد يحدث كل شىء فى هذا المصاب الجلل . قل انه يتوجب عليك ايضا الذهاب الى المحطة لقضاء بعض الاشغال واصطحبها معك . اما الاطفال فليبقوا عندنا .

أيد يديغي حجج زوجته :

– طيب ، غدا اخبر آبيلوف ان الأمر يتطلب اخذ ظريفة الى المستشفى فى المحطة . فليوقف قطارا عابرا للحظة .

هذا ما اتفقوا عليه ، ولكن لم يوفق يديغي وظريفة فى السفر الى قمبيل الا بعد يومين ، وفى قطار عابر توقف على الخط بطلب من مدير المفرق . كان ذلك فى الخامس من اذار . ويديغي البورانى يحفظ ذلك اليوم فى ذاكرته الى الابد .

استقلا عربة عمومية ، كان يسافر فيها جمع غفير من الناس برفقة عوائلهم واطفالهم وامتعة الطريق المعهودة ، ورائحة العرق البيتى ، والسير المضطرب فى العربة ، ولعب الورق الى حد الانبهات واعترافات النساء لبعضهن البعض عن المعيشة الصعبة ، وعن ادمان الرجال على الخمر ، وعن الطلاق والزواج والدفن . . .

كان الناس يرتحلون الى مكان بعيد ترافقهم جميع مستلزمات حياتهم اليومية . . .

وانضمت ظريفة بصاحبها يديغي البورانى الى هؤلاء لفترة قصيرة بمصيبتها واساها .

بالطبع كانت ظريفة على غير عادتها ، صامتة طول الطريق تفكر متجهمة ، ربما ، بالاجوبة التى تنتظرها عند مدير المحطة . ويديغي ايضا كان اكثر الوقت ملتزما بالصمت .

ثمة اناس فى العالم مرهفو الاحساس ورؤوفون ، يلحظون من النظرة الاولى ما فى نفس الانسان . حين نهضت ظريفة من مكانها وسارت فى العربة متوجهة نحو مدخلها لتقف عند النافذة قالت عجوز روسية جالسة على المقعد مقابل يديغي متطلعة بعينيها الطيبتين الزرقاوين فى زمن ما ، والباهتتين حاليا من الكبر :

– هل ان زوجتك مريضة يا ولدى ؟

انتفض يديغي فى مكانه .

– انها ليست زوجتى ، بل اختى يا امى . اننى اصاحبها الآن الى المستشفى .

– اراها تتالم كثيرا . وهى فى حال سيئة جدا . عيناها داجيتان من المصائب . وترتاب فى اعماقها . ترتاب ان يكتشفوا فيها مرضا خطيرا . آه من عيشتنا ، ما اصعبها ! فان لم يولد المرء لن يرى نور الحياة ، وان ولد يكد ويشقى . هكذا هى الحياة . ابعد الله عنها كل مكروه ، لا تزال شابة ، وستتعافى – قالت العجوز مدركة بشكل من الاشكال القلق والأسى اللذين كانا يتملكان ظريفة اقوى فاقوى مع الاقتراب من المحطة .

تستغرق الرحلة الى قمبيل ساعة ونصف ساعة تقريبا . وكان سواء على مسافرى القطار باية مناطق يمرون فى ذلك اليوم اذ لم يسألوا الا عن المحطة القادمة . اما صحارى ساروزيكى العظيمة فكانت راقدة تحت الثلج ، فى عالم حليبى غير متناه من الرحاب القفراء ، لكن ، كانت ثمة تباشير على تقهقر الشتاء ، تلوح هنا وهناك ، اذ اسودت بعض البقع الجرداء على السفوح ، ونزّت الحواف المتعرجة للجروف ، وبانت بقع من الارض على الروابى الصغيرة ، وشرع الثلج فى كل مكان يقل من الرطوبة والريح

الندية المذوّبة للثلوج التى تستفيق فى السهوب مع حلـــول آذار . بيد ان الشمس كانت لا تزال منزوية وراء سحب منخفضة كثيفة ، معتمة ومنذرة بهطول المطر حتى من مظهرها . ومع ذلك كان الشتاء لا يزال مكينا ومتمكنا وبدا ان فى وسع الثلج الندي ان يتساقط ، وحتى الزوبعة ايضا ان تهب كمسك الختام . . .

ويديغي المتطلع الى النافذة بين الحين والآخر مكث فى مكانه مقابل العجوز الحنون ، التى نادرا ما كان يتحدث معها . لكنه لم يشأ ان يقترب من ظريفة . فارتأى ان يتركها لوحدها ، تقـــف عند نافذة العربة تتأمل وضعها . ولعل هاجسا سيوحى لهـــا بأمر ما . وقد تتذكر تلك الرحلة فى بداية الخريف مـن العام الفائت عندما استقلت العائلتان معا برفقة الاطفال قطار حمولات وسافروا جميعا الى قمبيل لجلب البطيخ والشمام فى جو مـــن البهجة والمرح ، وكانت الرحلة للاطفال عيدا لا ينسى . ويخيل احيانا ان ذلك قد حدث بالامس القريب . وكان يديغي وابـــو طالب حينئذ جالسين عند باب العربة المفتوح فى مهب الريـــح يتبادلان مختلف الاحاديث والاطفال يحومون حولهما ، وينظرون الى الارض المندفعة قربهم الى الخلف اما زوجتاهما ظريفة واوق بالا فكانتا منشغلتين بأحاديث ودية خاصة بهما . ثم ذهبوا الى المحال التجارية وتمشوا فى ساحة المحطة ، ودخلوا السينما ، واخيرا كانوا عند الحلاق ، واكل الاطفال البوظة ، لكن الموقف الاكثر هزلا واضحاكا كان عندما اخفق الجميع فى اقناع ايرميك ليحلق شعره ، اذ كان يخاف ان تمس ماكنة الحلاقة رأسه . وتذكـــر يديغي كيف دخل فى تلك اللحظة ابو طالب باب صالون الحلاقة وكيف اندفع الابن الصغير نحوه ، بينما تلقفه الاب وضمه الى صدره وكأنه يدافع عنه من الحلاق ، وقال انهم سيشدون مـن عزمهم ويأتون للحلاقة مرة اخرى . ويطول شعر ايرميك الاسود المتجعد الذى لم يقص منذ ولادته للآن ، لكن الولد اصبح حاليا بلا اب . . .

وحاول يديغي غير مرة ان يدرك ويفطن ويعلل لنفسه لماذا توفى ابو طالب قطبايف دون ان ينتظر حل قضيته . ولم يتوصل مرة اخرى الا الى نتيجة وحيدة قابلة للتأويل ، وهى ان لوعة الحنين العارم لاطفاله هو الذى مزق قلبه . ان الفراق وحده الذى

ليس فى متناول كل واحد ان يفهم وطأته والاحساس المرير بان اولاده – الذين بدونهم لم يكن ليتصور ليس فقط العيش بـل والتنفس الذى لولاه ولو للحظة لانقطع جذر الحياة نفسها – بقوا منقطعين مرميين امام مصير مجهول فـــى المفرق الواقع وسط ساروزيكى المقفرة المحرومة من الحياة ، ان هذا الاحساس هـو الذى قتله . . .

كان يديغي يدور فى نفس دوامة التفكير اثناء جلوسه على المصطبة فى الحديقة الصغيرة امام مبنى المحطة منتظرا ظريفة . لقد اتفقا ان ينتظرها على هذه المصطبة الى ان تذهب لاستلام الاوراق من مدير المحطة .

انتصف النهار ، الا ان الجو ظلّ رديئا ولم تصح السمـــاء الغائمة المنخفضة واخذ يتساقط لماما على الوجوه شىء مـــا شبيه اما بندف الثلج او بقطرات المطر . والريح شرعت تنفح من طرف السهوب ندية معبقة برائحة الثلج الذى بدأ ذوبانه . واحس يديغي بشىء من البرودة وعدم الراحة . وعادة كان يحب فى مثل هذه الحال ان يتدافع بين الناس فى ملمة المحطـــة وجلبتها ، لانه ليس له من مكان آخر يذهب اليه او شىء ينشغل به ، بينما فى المحطة يستمتع بمشاهدة القطارات وكيف ينزل المسافرون ويسيرون على الارصفة رواحا ومجيئا مدخلين فى هذا المنظر شيئا شبيها بالسينما .

فى هذه المرة لم يكترث يديغي بهذا كله . بل انشأ يتعجب من وجوه الناس الجامدة ، وفقدانهم للصفات المتميزة بهم ، ومن لاباليتهم وتعبهم ونأيهم عن بعضهم البعض . . . فضلا عـــن ذلك فان الموسيقى المذاعة من سماعة الراديو بصوت مبحوح اجش فى الساحة امام مبنى المحطة اثارت عنده الحزن والاسى بنغماتها المتكررة الرتيبة . اية موسيقى هذه ؟ ولم تكن تسمع اصوات المذيعين الجهورية ، لماذا تذاع الموسيقى لوحدها !

لقد انقضت عشرون دقيقة ، ولربما اكثر ، منذ ان توارت ظريفة فى مبنى المحطة . تملك يديغي القلق ، ومع انهما قـــد اتفقا اتفاقا مؤكدا بان ينتظرها على هذه المصطبة ، بالذات حيث جلسوا فى المرة الماضية برفقة الاطفال وابى طالب واكلـــوا

البوظة ، ارتأى ان يذهب فى اثرها ليرى ماذا حلّ بها .

فى هذه الاثناء رآها فى الباب فانتفض لاراديا . ولفتت ظريفة انظاره بين حشد الداخلين والخارجين بانعزالها عن كل ما حولها . كان وجهها شاحبا شحوب الموت وهى تسير دون ان تلتفت الى اية جهة ، كالنائمة ، وكان لا وجود لشىء حواليها ، تسير كما لو انها فى صحراء ، مثل عمياء ، رافعة راسها فى أسى وزامّة شفتيها بشدة . ونهض يديغي يستقبلها فخيل اليه انها تقترب ببطء شديد كالنائمة ايضا . وكان اقترابها المتمهل بعينيها الخاويتين مفزعا لدرجة كبيرة . ولعله قد انصرم دهر كامل من انتظار لا يُحتمل الى حين وقفت ظريفة ماسكة فى يدها تلك الورقة فى مظروف مغلق وحروف مطبوعة كما قال قازانغاب ، ومع دنوها قالت محركة شفتيها :

– اكنت تعرف ؟

طاطا يديغي راسه بتوانٍ .

تهالكت ظريفة فى المصطبة وانخرطت فى بكاء مرير حاجبة وجهها بيديها وضاغطة بقوة على راسها وكانما كان فى وسع راسها ان يتحطم ويتطاير شذر مذر ، وهى غاصة فى اعماق ذاتها فى المها وخسارتها . كانت تبكى منكمشة فى كتلة مرتعشة متعذبة وهى تبتعد وتغوص اكثر فاكثر فى اعماق نفسها ، فى آلامها الهائلة ، بينما هو مكث جالسا الى جانبها ، وكان مستعدا ، كما فى تلك المرة حين اخذوا ابا طالب ، لان يذهب بدلا عنه وان يتحمل بلا تردد اية عذابات وذلك لكى يذود عن هذه المراة وينقذها من الصدمة . وكان يدرك اثناء ذلك ان لا شىء باستطاعته ان يواسيها به ويهدئ من روعها ما لم تسكن الموجة الصاعقة الاولى لمصيبتها .

وهكذا كانا جالسين على المصطبة فى الحديقة امام مبنى المحطة وكانت ظريفة تبكى وتنشج مجهشة مرتعدة ، وفى لحظة من اللحظات رمت بالمظروف المكمش والرسالة المنحوسة فى داخله بعيدا عنها دون ان ترفع راسها . فاى نفع الآن فى تلك الورقة طالما لم يبق هو على قيد الحياة ؟ بيد ان يديغي رفع المظروف ووضعه فى جيبه . ثم تناول منديل جيب وارغم ظريفة بالقوة ، بعد ان فك يدها ، ان تمسح دموعها . لكن هذا

لم يجد نفعا .

اما الموسيقى فظلت تنساب من الراديو شجية ، اليمة ، جنائزية . كانها كانت تعرف مصيبتها . وسماء شهر اذار تخيم فوق الراس مكفهرة رطبة ، والريح تضنى النفس بهبوبها . وكان المارة يسترقون النظر الى ظريفة ويديغي ، ويفكرون فى انفسهم ، بالطبع ، انهما قد تخاصما ، قد أساء الرجل اليها اساءة قوية . . . لكن ، على ما يبدو ، لم يعتقد الجميع ذلك ، اذ رن الى جانبهما فجاة صوت مؤسّاة :

– ابكوا ، ايها الناس الطيبون . . . ابكوا ، لقد فقدنا ابانا المحبوب ! ماذا سنفعل ؟

رفع يديغي راسه فراى امراة فى معطف عسكرى رث تمر من امامهما على عكازين . وكانت احدى رجليها مبتورة حتى الفخذ . كان يديغي يعرف هذه المراة : جبهوية سابقة تعمل حاليا فى شباك التذاكر فى المحطة . وكانت امينة الصندوق هذه مغرورقة بالدموع وتبكى وتسير وهى تقول : «ابكوا . ابكوا ، ماذا سنفعل ؟» ابتعدت ذارفة الدمع منتحبة ناقلة عكازيها بطرقات مكتومة كالمعتاد تحت كتفيها المرفوعين قليلا على نحو غير طبيعى خافقة بعد كل طرقتين من عكازيها كعب رجلها الوحيدة المحتذية جزمة عسكرية قديمة . . .

ولم يدرك يديغي مغزى كلماتها الا بعد ان راى كيف احتشد الناس فجاة امام مدخل المحطة ، رافعين رؤوسهم شاخصين الى عدة رجال نصبوا سلما وانشاوا يعلقون فى مكان بارز فوق الباب صورة عسكرية كبيرة لستالين فى اطار اسود جنائزى .

وفهم يديغي لماذا صدحت تلك الموسيقى الحزينة فى الراديو . ولو كان قد وقع هذا فى وقت آخر لنهض يديغي من مكانه ووقف بين الناس واستفسر كيف وماذا حدث لهذا الانسان العظيم ، الذى لم يكن احد يتصور كيف تسير امور الدنيا بدونه لكنه الآن كان عنده ما يكفيه من المصيبة . فلم ينبس ببنت شفة . اما ظريفة فقد كانت فى واد والدنيا من حولها فى واد . . .

واما القطارات فواصلت سيرها مهما كانت احداث الدنيا . وبعد نصف ساعة كان ينبغى ان يمر على الخط فى المحطة قطار

المسافات الطويلة رقم ١٧ . ومثل بقية قطارات الركاب كان هذا القطار لا يتوقف فى مفارق كبورانلى-بورانى . ولقد بدا القطار رحلته وفق جدول الحركة هذا . ولم يخطر ببال احد ان القطار رقم ١٧ سيتوقف فى هذه المرة فى مفرق بورانلى-بورانى . بيد ان يديغي كان مقتنعا قناعة اكيدة بانه سيتوقف ، فقال لظريفة :

– علينا ان نعود قريبا يا ظريفة . ولم يبق امامنا الا نصف ساعة . ينبغى لك الآن ان تفكرى كيف يجب ان تتصرفى هل ستخبرين الاطفال بوفاة والدهم ام ستتريثين قليلا . اننى لن اهدئك ولن القنك ، انت حرة فى اتخاذ القرار . لانك الآن تقومين مقام الاب والام بالنسبة لهم . لكن عليك ان تفكرى بذلك عندما نكون فى الطريق . فاذا اتخذت قرارا بعدم اخبارهم تمالكى نفسك ، ولا تسكبى الدموع امامهم . هل تتمكنين من ذلك وتكفيك الشجاعة ؟ ونحن ايضا يجب ان نعرف كيف نتصرف امامهم . أتفهمين ؟ تلك هى القضية .

– طيب ، انا فاهمة – اجابت ظريفة من خلال الدموع – والى ان نصل سأستجمع افكارى واقول كيف علينا ان نتصرف . واحاول الآن ان اتمالك نفسى . الآن ، . .

كانت الحال فى القطار ، فى طريق العودة كما هى من الاول . المسافرون جموع محتشدة فى دخان السيجاير ، وكالسابق يقطعون ارض البلاد العظيمة المترامية الاطراف من اقصاها الى اقصاها .

ووجد يديغي وظريفة نفسيهما فى عربة ذات مقصورات وكان عدد المسافرين فيها اقل ، واتخذوا مكانا لهما عند النافذة فى اقصى طرف من الممر لئلا يعوقا الاخرين ولكى يتحدثا فى شؤونهما . جلس يديغي على مقعد قلاّبى فى الممر ، اما ظريفة فقد وقفت الى جانبه تنظر عبر النافذة ، مع انه كان قد عرض عليها مكانه ، الا انها قالت :

– هكذا سيكون افضل بالنسبة لى .

وراحت بعد ذلك تحاول تركيز افكارها وان ظلت تنشج بين الفينة والاخرى ، متغلبة على نفسها ، ومصارعة المصيبة التى وقعت على كاهلها . وكانت تنظر فى النافذة وتحاول ان تفكر فى حياتها الجديدة ، حياة الأرملة . فاذا كان فى السابق ثمة أمل

فى ان ينتهى هذا الوضع ذات يوم فجاة مثل حاسم كابوسى ، ويرجع ابو طالب عاجلا ام آجلا ، اذ لا يمكن ان لا يُبَت بسوء الفهم مثل هذا ، وتعيش العائلة من جديد تحت سقف واحد ، وتعود المياه الى مجاريها ، وانهما لوجدا وسيلة للعيش مهما كانت الحياة صعبة ، والصمود وتربية اطفالهما ، فان مثل هذا الأمل الآن غير موجود . كان عندها ما تشغل به فكرها . . .

نفس المواضيع كانت تشغل يديغي البورانى طالما لم يتمكن الا يقلق ويهتم بمصير هذه العائلة . لقد اتفق ان يحدث ما حدث . بيد انه كان يعتقد انه يتحتم عليه الآن ، اكثر من اى وقت مضى ، ان يكون متمالكا لنفسه وهادئا ، لعله بذلك يوحى بالثبات الى روحها . ولم يستعجلها ، وكان مصيبا فى تصرفه ، اذ انها هى التى شرعت بالحديث بعد ان كفكفت دموعها .

– يتعين علىّ اخفاء الامر عن الاولاد – قالت ظريفة ناشجة بصوت متقطع فى محاولة للسيطرة على نفسها والكف عن البكاء – لا استطيع الآن ان اقول لهما ان اباهما غير موجود . ولا سيما ايرميك . . . لماذا يشعر بهذا التعلق ، هذا لا يطاق . . . كيف احرمهما من احلامهما ؟ ماذا سيحل بهما ؟ ذلك انهما يعيشان على هذا الامل . . . ينتظران كل يوم ، بل كل دقيقة . . . لا بد من الانتقال من هنا الى مكان آخر مع مرور الزمن . . ليكبرا قليلا . اننى اخاف جدا على ايرميك . ليكبر ولو قليلا . . عندئذ ساخبرهما ، وسيخمنان بنفسيهما ذلك . اما الآن ، فلا ، لا اقوى على ذلك . . ساكتب رسائل الى اخوانى واخواتى ولاقارب ابى طالب . ما الذى بقى فينا ليخيفهم منا الآن ؟ آمل ان يستجيبوا ويساعدونا فى الرحيل من هنا . . . ومن ثم ستتبين الامور . . لم يبق لى الا ان اربى اطفال ابى طالب ، طالما لم يعد له هو من وجود . . .

هكذا تصدت ظريفة للامر ، اما يديغي البورانى فكان يصغى لها صامتا مدركا ومستوعبا مغزى كل كلمة من كلماتها ، عارفا بلا ريب ان هذا ليس الا النزر اليسير من ذلك الاعصار الذى واجهته وتواجهه افكارها . . من المستحيل قول كل شىء فى مثل هذه الحال ولهذا قال يديغي ساعيا الى عدم توسيع افاق الحديث :

– من المحتمل انك على حق يا ظريفة . . ان لم اعرف انا

هذين الولدين لكنت قد ابديت شكوكى . لكن لو كنت فى مكانك لما تجرات انا ايضا ان انقل لهما خبرا كهذا . لا بد من التريث قليلا . والى ان يستجيب اقرباؤك لندائك نكون نحن عونا لك ، ولا تترددى بشىء فيما يتعلق بنا . سنبقى كما كنا من قبل نتمسك بعضنا ببعض . اعملى كالسابق ، واطفالك سيبقون مع اطفالنا عندنا . وتعرفين بنفسك ان اوق بالا تحبهم مثل حبها اطفالها . وستتضح بقية الامور فيما بعد . . .

وقالت ظريفة ايضا متنهدة تنهيدة عميقة فى اثناء ذلك الحديث :

– هو ذا ما يحدث فى الحياة احيانا . يا لها من اشياء فظيعة وحكيمة ومترابطة فيما بينها . نهاية ، بداية ، استمرار . . . لو لم يكن لى اطفال ، بشرفى يا يديغي ، لما ارتضيت البقاء على قيد الحياة . ولكنت اقدمت حتى على هذا . ما جدوى ان اعيش ؟ لكن الاطفال يفرضون علىّ ذلك ، الاطفال يرغموننى ، ويردعوننى . فى هذا اجد نجاتى ، واستمرار الحياة . انه استمرار مرير ، قاس ولكن برغم كل ذلك هو استمرار للحياة . . . وافكر الآن بفزع ليس حتى بذلك الوقت الذى سيقفون فيه على الحقيقة ، فلا مفر من هذا ، بل بما سيكون عليه الامر مستقبلا . ان ما حدث لوالدهم سيجعلهم يقطرون دما . وفى كل الاحوال مع هذا اللقب لن تسير امورهم على ما يرام فى اى مكان ، سواء عند الانتساب لمؤسسة دراسية او الالتحاق بعمل ، او عند اظهار مواهبهم فى المجتمع . . . وعندما افكر بهذا يخيل لى انه ثمة وجود لموانع غير قاهرة بالنسبة لنا . كنا ، انا وابو طالب ، نتجنب مثل هذه الاحاديث . كنت انا ابقى عليه وهو علىّ . معه كنت واثقة من ان ولدينا سيترعرعان ويصبحان انسانين كاملى القيمة . . . وهذا ما كان يقينا من الخراب ، من النكبات . . . اما الآن فلا اعرف . . . لا استطيع ان اكون فى محله امامهما . . . ولو كان هو لكان هو . . . ولكان قد ظفر بكل شىء . ولقد اراد ان ينتقل او يتجسد فى اطفاله . وتوفى لانهم ابعدوه عن ولديه . . .

واصغى لها يديغي بانتباه . وهذه الافكار المكنونة التى صرحت بها ظريفة له ، باعتباره انسانا قريبا ، اثارت عنده رغبة

صادقة فى التجاوب معها وحمايتها ومساعدتها ، الا ان عجزه ارهقه واثار عنده قرفا مبهما مكتوما .

كانت يقتربان من مفرق بورانلى – بورانى ، وراح القطار يسير فى مناطق مألوفة ، وفى مسافات من خطوط السكة الحديد كان يديغى البورانى نفسه قد عمل فيها سنوات طويلة . . .

وقال يديغي لظريفة :

– استعدى ، ها اننا نوشك على الوصول . يعنى انك قررت بشكل نهائى ان لا تخبرى الاطفال شيئا . طيب ، سنكون على علم بذلك . وحاولى يا ظريفة ان لا تفضحى ما فى نفسك . اما الآن فرتبى نفسك ، واخرجى الى مدخل العربة ، وقفى عند الباب . فعندما يتوقف القطار انزلى من العربة بهدوء وانتظرينى . سانزل انا الآخر ونذهب سوية .

– ماذا تريد ان تفعل ؟

– لا شىء . دعى هذا لى . فى كل الاحوال ، لك الحق فى النزول من القطار .

كعادته دائما كان قطار الركاب رقم ١٧ يسير على طول منطقة المفرق مخففا سرعته عند السيمافور . وفى هذه اللحظة بالذات ، اثناء دخوله المفرق ، توقف القطار فجاة بقرقعة وصرير فظيع . نهض جميع المسافرين من اماكنهم مذعورين . وتعالت الصيحات والصفير فى القطار كله .

– ماذا حدث ؟

– شدوا مقبض الفرملة الاضطرارية !

– من ؟

– اين ؟

– فى عربة المقصورات !

وفى هذه الاثناء فتح يديغي الباب لظريفة ، فنزلت من القطار . اما هو فانتظر فى مدخل العربة حيث اقتحمها كمساريان .

– قف ! من شد مقبض الفرامل ؟

– انا – اجاب يديغي البورانى .

– ومن انت ؟ وبأي حق ؟

– لزمنى ذلك .

– كيف لزمك ذلك ؟ هل تريد ان تحاكم ؟

– لا يهم . اكتبوا فى المحضر الذى تريدون تقديمه الى المحكمة او الى اى مكان آخر . هذه بطاقتى ، اكتبوا ان المحارب السابق وعامل السكك الحديد حاليا يديغي جانغيلدين خلع وشد مقبض الفرامل واوقف القطار فى بورانلى – بورانى حدادا فى يوم وفاة الرفيق ستالين .

– كيف ؟ وهل توفي ستالين ؟

– نعم ، لقد اعلنوا ذلك بالراديو . كان ينبغى ان تسمعوا .

– اذن ، هذا شأن آخر . – ذهل الكمساريان ولم يوقفا يديغي . – اذهب ، طالما حدث ما حدث .

وبعد عدة دقائق واصل القطار رقم ١٧ سيره . . .

وكانت القطارات تسير من جديد من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق .

وعلى جانبى خط السكة الحديد فى هذه الانحاء كانت تمتد مساحات شاسعة من الاراضى الصحراوية العذراء – سارى اوزيكى ، الاراضى الوسطى من البرارى الصفراء . . .

ولم يكن عند ذلك اى اثر للمطار الفضائى سارى – اوزيك – ١ فى هذه المنطقة ، ولربما كان مرسوما فقط فى خطط مبتكرى الرحلات الفضائية للمستقبل .

اما القطارات فسارت على نفس المنوال من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق . . .

كان صيف العام الثالث والخمسين وخريفه من اشد الفترات عذابا فى حياة يديغي البورانى . ولم يجابه يديغي او يتحمل آلاما بهذه الدرجة من الشدة والعمق لا قبل ذلك ولا بعده ، حتى ولا اثناء حدوث تراكمات ثلجية على السكة ولا بتأثير قيظ ساروزيكى وجفافها ، ولا من مصائب وويلات اخرى ، ولا حتى ابان الحرب ، مع انه وصل الى كينغسبيرغ ، وكان من الممكن ان يقتل ويجرح ويشوه ، مثلما تحمل فى تلك الايام . . .

شرح افاناسى ايفانوفيتش يليزاروف ذات مرة ليديغي البورانى سبب وقوع الانهيالات . وقال ان هذه الانهيالات فظيعة

ومخيفة وتحدث عندما تهيل سفوح باكملها من مكانها ، وقد يحدث ان يميل جبل كامل على جنبه محدثا شقا كبيرا فى الارض ، كاشفا عن خفايا باطنها ويصيب الناس الهلع من المصيبة التى كانت كامنة تحت اقدامهم . وتكمن خطورة الانهيالات فى ان الكارثة تصبح وشيكة الوقوع بشكل غير ملحوظ رويدا رويدا ، لان المياه الجوفية تجرف من الداخل تدريجيا قاعدة الصخور ، وتكون اية هزة ارضية خفيفة يحدثها الرعد او وابل المطر كافية لابتداء الجبل بالانهيال البطيء والميل جانبا . ان الانهيار العادى يحدث فجاة ودفعة واحدة . اما الانهيال فيسير سيرا مخيفا وليس ثمة من قوة تتمكن من ايقافه . . .

ان شيئا شبيها بهذا يمكن ان يحدث للانسان عندما يبقى وحده مواجها لتناقضاته التى لا تقهر ، وعندما يتعذب متدهورا روحيا غير متجرئ على التصريح بذلك لاحد اذ لا احد فى العالم قادر على مساعدته او فهمه . انه يعرف بذلك ، وهذا ما يخيفه . ويجثم هذا الموقف فوقه . . .

وواجه يديغي مثل هذا الانزياح للمرة الاولى وادرك بجلاء ماذا يعنى هذا عندما سافر الى قمبيل لقضاء بعض الاشغال بعد شهرين من تلك السفرة التى رافق فيها ظريفة . وقد وعد ظريفة ان يعرج على البريد ويستعلم ان كانت وصلت لها رسائل ، وفى حالة عدم وصولها ، عليه ان يرسل ثلاث برقيات الى ثلاثة عناوين سلمتها له . ذلك ان ظريفة لم تستلم الى ذلك الوقت اى جواب على اية رسالة من رسائلها الى اقربائها ، وارادت ان تعرف على الاقل بتسلمهم اياها . وقد كتبت فى البرقيات تقول : ارجوكم رجاء ملحا ان تخبرونى بنعم او لا هل استلمتم الرسائل ، والجواب عليها غير ملزم . واتضح ان الاخوان والاخوات لم يرغبوا ان يعقدوا اية صلة بعائلة ابى طالب حتى بالبريد .

وغادر يديغي على ظهر قره نار من الصباح بأمل الرجوع عند المساء . بالطبع ، حين يسافر لوحده ، بلا امتعة ، كان أي سائق قطار من معارفه يأخذه معه بسرور ، فيكون بعد ساعة ونصف ساعة فى قمبيل . بيد انه اصبح يحترس من مثل هذه الرحلات فى القطارات العابرة من اجل اولاد ابى طالب . فقد كان كلاهما ، الصغير والكبير ، يترقبان كل يوم عودة ابيهما وينتظران عند

السكة الحديد ، كان انتظار الوالد جوهر حياتهما ، فيجسدانه في العابهما واحاديثهما وتخميناتهما ورسوماتهما ، وجميع تصرفاتهما الحياتية البسيطة . وبلا شك ، كان العم يديغي الذى يعتقدان انه ينبغى ان يعرف كل شىء ويساعدهما ، الشخصية الاكثر هيبة ونفوذا بالنسبة لهما .

ويديغي كان يعلم بنفسه ان الاولاد بدونه سيعيشون حياة اشقى واضنى ، ولهذا كان يحاول ان يصرف معظم وقت فراغه معهما ، ويشغلهما تدريجيا عن الانتظار غير المجدى . وتلبية لوصية ابى طالب بان يتحدث للاولاد عن البحر كان يتذكر تفاصيل جديدة وجديدة من طفولته وشبابه عندما كان صيادا ، ومختلف الحكايات الواقعية وغير الواقعية عن بحر أرال ، ويكيف هذه القصص على قدر امكانيته للاطفال . لكنه فى كل مرة كان يندهش لموهبتهما فى تذكر المواقف والتأثر بها وفطانتهما . وارتاح يديغي ارتياحا بالغا لظهور اثر تربية الوالد فيهما . وكان يديغي اثناء حديثه يركز فى المقام الاول على الصغير ايرميك . مع ان الصغير لم يكن اقل اهتماما من الكبير ، وكان بالنسبة ليديغي من بين المستمعين الاربعة – اطفال العائلتين – الاقرب ، رغم ان يديغي لم يسع الى ابرازه . واتضح ان ايرميك هو المستمع الاكثر اهتماما واحسن مفسر لحكاياته . ومهما كانت الاحاديث عن اى شىء ، واية احداث ، وايا كان التحول فى الحدث لا بد ان يربطه بابيه . كان الوالد بالنسبة له حاضرا فى كل شىء وكل مكان ، فعلى سبيل المثال يجرى مثل هذا الحديث :

– ثمة بحيرات بالقرب من شواطئ بحر أرال ينبت قصب كثيف على ضفافها . وفى ذلك القصب يتخفى الصيادون حاملين بنادقهم ويعود البط فى الربيع الى بحر أرال بعد ان عاش فى الشتاء فى بحار اخرى حيث كان الدفء ، وما ان يذوب الجليد فى بحر أرال حتى وتعود الطيور المهاجرة بسرعة ليلا ونهارا لانها تكون قد اشتاقت الى هذه المناطق . تطير باسراب كبيرة راغبة فى العوم على سطح الماء والسباحة والتشقلب ، فتطير أدنى فأدنى من الساحل ، وفى هذه الاثناء تنطلق الاطلاقات المصحوبة بالدخان من القصب . طراخ ! طراخ ! وبالطبع ان الصيادين هم الذين يطلقون النار . وتسقط البطات فى الماء متصايحات

زاعقات . بينما تطير الاخريات مذعورات الى عرض البحر وهى لا تعرف ماذا تفعل وكيف تعيش . وتحوم هناك فوق الامواج وتتصايح . ذلك انها اعتادت السباحة عند الساحل ، لكنها الآن تخاف الاقتراب من الشواطئ .

– يا عم يديغي ، لكن بطة واحدة عادت مباشرة الى المكان الذى طارت منه .

– لماذا عادت الى هناك ؟

– كيف لماذا ، ان بابيكا يعمل بحارا هناك ، وهو يبحر على متن سفينة كبيرة . ولقد اخبرتنى انت بذلك يا عم يديغي .

– نعم ، صحيح – يتذكر يديغي بعد ان تنطلى عليه الحيلة . – وماذا حدث بعد ذلك ؟

– طارت هذه البطة وقالت لبابيكا ان الصيادين اختفوا فى القصب واطلقوا النار عليها ، وما من مكان لتعيش فيه !

– بلى ، هذا صحيح .

– وقال بابيكا لتلك البطة انه سيعود قريبا ، وان له فى المفرق ولدين : داول وايرميك ، وصديقه العم يديغي . وعندما ياتى نذهب معا الى بحر أرال ونطرد من القصب الصيادين الذين يطلقون النار على البطات . فتعيش عيشة جيدة فى بحر أرال . . . وستعوم فى الماء وتتشقلب هكذا على راسها . . .

حين تستنفد الحكايات يلتجئ يديغي البورانى الى قراءة البخت وكشف الطالع بالحصى . وصار يديغي يحمل معه دائما احدى واربعين حصاة كل منها بحجم حبة حمص كبيرة . وكان لهذه الطريقة القديمة فى قراءة البخت رموزها المعقدة ومصطلحاتها الخاصة بها . عندما كان يديغي يرتب الحصى مرددا ومناشدا ان تجيب جوابا صحيحا وصادقا هل ان رجلا باسم ابى طالب حي ، واين هو ، وان كان سيلزم الطريق قريبا ، وماذا 'قدّر' له ، وبماذا يفكر فى اعماقه ، كان الاولاد يلزمون الصمت مركزين انتباههم متابعين كيف جاء ترتيب الحصى . وسمع يديغي ذات مرة حديثا هامسا فى الركن ، تلفت بحذر ، فرأى ولدى ابى طالب ، وكان ايرميك يفتح الفال بالحصى ، يرتبها كما يتسنى له ، واثناء ذلك يقرّب كل حصاة من جبينه وشفتيه ويقول لها :

– وانت ايضا احبك . انت جد ذكية ، حصاة جيدة . انت لا تخطئين ولا تزّلين ، قولى بصراحة كما تقول حصى العم يديغي . – ثم اخذ يفسر لاخيه الاكبر مغزى ترتيب الحصى مرددا كلام يديغي : – ها انك ترى يا داول ان الوضع العام غير سيئ غير سيئ تماما . هذا هو الطريق . الطريق مبهم قليلا ، وملفع بالضباب . لكن لا يهم . العم يديغي يقول : هذه صعوبات الطريق والطريق لا يخلو منها . الوالد يستعد للسفر دائما . انه يريد ان يجلس على السرج ، لكن حزام السرج ارتخى قليلا . ها هو الحزام ، كما ترى ، غير مشدود . لا بد من شده اقوى . اذن ، ثمة شيء آخر يؤخر عودة الوالد يا داول . لا مفر من الانتظار . اما الآن فلننظر ماذا فى الضلع الايسر وماذا فى الضلع الايمن . الضلعان سليمان . هذا جيد . وماذا على جبينه ؟ ثمة عبوس على جبينه . وانه يقلق قلقا عظيما علينا يا داول . أترى هذه على صدره ، اذن هو يشعر بالألم فى صدره وبالحنين الينا . ولقد اشتاق جدا الى البيت . هل سيلزم الطريق قريبا ؟ قريبا . لكن حدوة واحدة تتأرجح فى الحافر الخلفى ، اذن يجب اعادة البيطرة . ونضطر للانتظار فترة اخرى . وماذا فى الخرج ؟ اوه ، فى الخرج مشتريات من السوق ! اما الآن هل سيحالفه الحظ مع نجمه ؟ أترى هذه النجمة ، انها المربط الذهبى . ومنها اكتشفنا اثره . والاثر هذا ليس جليا بشكل تام . اذن سيضطر الى فك رباط الفرس ، والسفر . . .

ابتعد يديغي البورانى دون ان يلاحظه احد تائر العواطف ، مغموما ومندهشا من هذا كله . ومنذ ذلك اليوم اخذ يتهرب من فتح الفال بالحصى . . .

لكن الاطفال هم الاطفال ، وينبغى تسليتهم وتشجيعهم ، وحتى اذا اقتضى الامر فيمكن ان يضع المرء على عاتقه خطيئة خداعهم لفترة معينة . لكن فكرة هى غمامة اخرى لفعت قلب يديغي البورانى . فى تلك الظروف وفى تلك السلسلة من الاحداث كان لا بد ان يقع مثل ذلك الانهيال ، وكان ينبغى ان تتحرك السفوح من مكانها ، ولم يستطع يديغي ان يوقفها . . .

كان يديغي يعانى اقسى المعاناة من اجل ظريفة . رغم انهما لم يتبادلا اية احاديث اخرى ما خلا الاحاديث اليومية العادية ،

ورغم انها لم تهيئ له اية ذريعة ابدا ، كان يديغي يفكر فيها دائما . لكنه لم يراف لحالها فقط ، ويعطف عليها مثل اى واحد ، ولم يشفق عليها لمجرد انه رأى وعرف كل شيء فى حياتها واية نكبات لحقت بها ، والا لما استحق الامر ان نتخذه حديثا . فقد فكر فيها بحب وبتفكير ملح واستعداد داخلى لان يصبح بالنسبة لها انسانا تستطيع ان تتكل عليه فى كل شيء يتعلق بحياتها ، ولكان هو سعيدا فيما لو عرف انها ، تعتقد بان يديغي البورانى هو احب انسان الى قلبها فى العالم .

وكان ذلك معذبا ، ان يتظاهر بانه لا يشعر تجاهها بأى شعور خاص ، ولا يمكن ان يكون بينهما شيء ، ولا ينبغى !

فى طريقه الى قمبيل كان هذا التفكير يشغل باله طول الوقت . ولبث يقلب الامر على مختلف وجوهه حتى أضناه التفكير . وكان يشعر بوضع روحى متقلب غريب كمن يكون بانتظار عيد قريب او مرض محتم . وخيّل اليه احيانا ، وهو على هذه الحال ، انه مقيم فى البحر من جديد . فى البحر يتملك الانسان احساس آخر ، ليس كالذى يتملكه وهو على الارض ، حتى وان كان الهدوء يخيم حواليه ، ويتراءى له ان لا شيء يهدد امنه . مهما كان المرء مغتبطا ، او متنعما احيانا حين يجوب البحار ، وان كان ذلك اثناء ادائه اعمالا ضرورية ، ومهما كان جميلا انعكاس الغروب وانبلاج الفجر على سطح الماء ، فلا بد من العودة سواء الى هذا الشاطئ او ذاك ، اذ لا يمكن ان يبقى المرء فى البحر الى الابد . وعلى الشاطئ تنتظره حياة مغايرة تماما . البحر موقت واليابسة دائمة . واذا كان القاء المرساة على الشاطئ مفزعا فلا بد من ايجاد جزيرة والنزول عليها ، وعليك ان تعرف ان مكانك ههنا وههنا يجب عليك ان تكون دائما . وقد خيل اليه انه لو شاء القدر لعثر على مثل هذه الجزيرة ، وصحب ظريفة والاطفال اليها فعاشوا فيها . وتعوّد الاولاد على البحر ، ولقضى هو بقية حياته على الجزيرة وسط البحر مبتهجا بمصيره وغير نادم عليه البتة . لو كان يعرف انه فى وسعه ان يراها فى اي وقت يريد ويكون انسانا تحتاج اليه وترغب فيه ، وتعزّه . . .

لكنه فى الوقت نفسه انزوى حياءا من هذه الرغبات ،

وتضرج وجهه خجلا ، مع انه لم يكن من وجود لشبح انسان على مبعدة مئات الكيلومترات منه . لقد استرسل فى الاحلام مثل صبى ، وتمنى لو عاش فى جزيرة ، فهل سأل نفسه لماذا وبأية مناسبة ؟ وكيف تجرأ ان يطلق العنان لاحلامه هكذا ، هو المقيد من يديه ورجليه طول الحياة بالعائلة والاطفال والعمل والسكك الحديد ، واخيرا بساروزيكى التى تعلق بها تعلقا شديدا قلبا وقالبا دون ان يلاحظ ذلك بنفسه . . . ثم ما حاجة ظريفة اليه ، وان كانت حالتها سيئة ، لكن لماذا يقدر نفسه كل هذا التقدير ، ولماذا ينبغى ان ينال حظوتها ؟ بخصوص الاولاد لم يخامره ادنى شك ، اذ انه شغف بهم حبا بقدر انجذابهم هم اليه . اما ظريفة فاى نازع يحدوها لتقبل على ذلك ؟ ثمّ وهل يحق له ان يفكر على هذا النحو والحياة قد استقرت به وطيدا منذ زمن بعيد ، حيث يتحتم عليه ان يمكث ، على الارجح ، حتى ايامه الاخيرة . . .

سار قره‌نار البورانى فى درب مألوف سبق ان قطعه غير مرة . واذ قدر المسافة التى عليه ان يقطعها من الطريق اسرع بخطواته دون اي اكراه من لدن صاحبه وراح يجرى وهو يهرر ويئن انينا ثقيلا فى عدوه قاطعا بخطواته السراع مسافات ساروزيكى اللامتناهية ، بهضابها ومراتعها بالقرب من البحيرة المالحة المتيبسة منذ زمن بعيد اما يديغي فكان وهو يعتلى ظهر بعيره يتألم ويعانى مشغول البال بنفسه . . . وكانت هذه المشاعر المتناقضة تتملكه لدرجة انه لم يقر له قرار من القلق ، ولم تجد روحه ملاذا تلتجئ اليه فى برارى ساروزيكى الشاسعة . . . لقد كان الامر فوق طاقته الى درجة قصوى . . .

بلغ قمبيل وهو بهذه الحالة النفسية . وبالطبع ودّ لو وصلت اجابات عن رسائل ظريفة الى اهلها وذويها ، لكن عند التفكير بان الاقارب قد يأتون فى طلب العائلة الثكلى ويأخذونها الى منطقتهم او يدعونها اليهم كان يديغي يشعر بسوء حالته كليا . وفى دائرة البريد عند شباك حفظ الرسائل حتى الطلب اخبروه بعدم وصول اية رسالة معنونة باسم ظريفة قطبايفا . ولقد سر بالخبر على غير انتظار من نفسه . حتى وخطرت بذهنه فكرة غريبة سيئة على الضد من ضميره : «لحسن الحظ لم

تصل» . ثم نفذ تكليفها بنزاهة فارسل ثلاث برقيات الى ثلاثة عناوين . هذا وادبر مع حلول المساء . . .

ارتدى الربيع فى ذلك الوقت لبوس الصيف . وبرارى ساروزيكى تيبست واحترقت . واختفت الحشائش والاعشاب . واصبحت السهوب صفراء مرة اخرى . تلظى الجو ، واخذ موسم الحر يدنو يوما اثر آخر . ومع ذلك لم يصل من اقارب عائلة قطبايف خبر ولا لمح لهم خيال او اثر . لم يجيبوا على الرسائل ولا على البرقيات . اما القطارات فظلت تسير فى الاتجاهين عبر مفرق بورانلى – بورانى ، ومضت الحياة تجرى فى مجراها المعهود . . .

ولم تعد ظريفة تنتظر الاجوبة ، فقد ادركت انه ليس لها ان تضع فى حسابها الاتكال على عون الاقارب ، ولا داعى للاتقال عليهم بمزيد من الرسائل وطلب المساعدة منهم . . . واذ اقتنعت بهذا استسلمت ليأس صامت الى اين عليها ان تدير وجهها الآن ؟ . . كيف تخبر اولادها عن ابيهم ومن اين تبدأ ، وكيف تغير حياتها المحطمة ؟ ولم تجد الى ذلك الوقت اي جواب . . .

ولعل يديغي كان يتألم من اجلهم لا اقل من ظريفة نفسها . والبورانليون ايضا كانوا يعانون فى سبيلهم ، لكن يديغى كان يعرف كيف انقلبت مصيبة هذه العائلة الى مصيبة شخصية له . فلم يعد يستطيع ان يفصل نفسه عنهم . وبات يعيش من يوم لآخر مشكلة هذين الولدين وظريفة . وهو الآخر كان يشوب انتظاره توتر ، ويفكر ماذا سيحل بهم ، واستسلم ايضا الى يأس صامت . لكن الى جانب هذا كله كان يفكر باستمرار ، يفكر بالم طول الوقت : ماذا يفعل هو بنفسه ، وكيف يتمالك زمام أمره ويكبح فى نفسه تلك الصرخة التى تناديه اليها ؟ وهو ايضا لم يجد لنفسه اي جواب . . . ولم يكن يفترض ابدا انه سيواجه فى حياته مثل هذا الامر . . .

نوى يديغي غير مرة ان يعترف لها ويخبرها بصراحة انه يحبها حبا جما وعلى استعداد لتحمل اعبائها على كاهله لانه لا يتصور نفسه بمعزل عنهم . لكن كيف كان له ان يفعل ذلك ؟ بأية صورة ؟ ثم هل ستفهمه ؟ ذلك ان الامرأة فى حلٍ من هذا

تماما ، لا سيما وان مثل هذه المصائب نزلت على رأسها ، بينما هو ينوى ان يحدثها عن مشاعره ! هل من نفع فى هذا ؟ كان يديغي يتلبد ويضطرب وهو يفكر باستمرار فى هذا الامر ، علاوة على ذلك كان بحاجة الى بذل جهود مكثفة لكى يبقى بمظهره كما اعتاد ان يكون بين الناس .

لكن ذات مرة ، مع ذلك ، اوما لها بذلك . اثناء عودته من التطواف على السكة لاحظ من بعيد ظريفة تحمل سطلين ذاهبة لجلب الماء من الصهريج . فدفعه قلبه نحوها ، فذهب . ليس لانها كانت فرصة مؤاتية ، كان يمكن له ان يتذرع بحمل السطل ، فانهما كانا يعملان يوميا او بين يوم وآخر تقريبا سوية على السكك وكان فى وسعهما ان يتحدثا قدر ما يشاءان . بل ان يديغي فى تلك اللحظة بالذات شعر برغبة لا تكبح لان يقترب منها راسا ويقول لها انه ليس فى استطاعته ان يكتم سره اكثر . وحتى انه فكر فى انفعال ان ذلك قد يكون افضل ، لان قلبه سيهدا والمه سيخف وان عجزت عن فهمه ، وان رفضته . . . لم تلحظ ظريفة اقترابه منها ولم تسمع وقع خطواته . كانت تقف مولية له ظهرها فاتحة صنبور الصهريج . وقد ملأت احد السطلين ووضعته جانبا بينما تركت الآخر تحت الصنبور المفتوح حتى آخره وكان السطل يطفح بالماء . ازبد الماء وتغطى بالفقاقيع وطرطش ، ثم سال حول السطل . اما هى فكمن لا يلاحظ شيئا كانت تقف منكسة الراس مسندة كتفها الى الصهريج . كانت ظريفة ترتدى فستان الشيت ، الذى رقصت فيه فى الصيف الماضى تحت وابل المطر . ورأى يديغي خصلات شعرها المجعد النازلة على صدغيها ووراء اذنها ، اذ ان ايرميك كان اجعد الشعر على شاكلتها ، ووجهها الضامر وجيدها الرقيق وكتفها النازلة ويدها المتدلية على فخذها . يكون خرير الماء قد سحرها مذكرا اياها بالانهر والسواقى الجبلية لمنطقة سيميريتشيه ، ام انها قد غاصت فى اعماق نفسها وقد داهمتها فى تلك اللحظة افكار مريرة ؟ الله يعلم . بيد ان يديغي شعر بضيق لا يحتمل فى صدره عند رؤيتها لان كل شيء فيها كان عزيزا واليفا الى قلبه ، ومن الرغبة المستعرة فيه لملاطفتها واحاطتها والذود عنها من كل جور . لكن كان من المستحيل القيام

بذلك . وكل ما فعله عندئذ هو انه أدار صمام الصنبور بصمت فتوقف الماء عن الانصباب . نظرت ظريفة اليه غير مستغربة بعينين زائغتين ، وكأنه لم يكن واقفا بالقرب منها ، بل فى مكان ناء جدا .

— ماذا دهاك ؟ ماذا بك ؟ — قال يديغي متعاطفا . لم تنبس ظريفة بكلمة ، سوى ان ابتسامة ارتسمت على طرفى شفتيها ، ورفعت حاجبيها فوق عينيها اللتين كانت تعود اليهما صفاوتهما كأنها تقول بذلك : لا بأس . . .

فسأل يديغي مجددا :

— أتشعرين بسوء ؟

— نعم ، حالتى سيئة . — اعترفت وتنهدت عميقا .

هز يديغي كتفيه مرتبكا ، وقال معاتبا :

— لماذا تضنين نفسك هكذا ؟ — مع انه أراد ان يتحدث ليس عن هذا البتة . — كم يمكن ان يطول هذا ؟ انك بذلك لن تسعفى نفسك . وسيكون من الصعب علينا (اراد ان يقول علي) ان ننظر اليك وانت بهذه الحال ، وعلى الاطفال ايضا . ارجوك ان تفهمى هذا . لا يجوز . لا بد من عمل شيء ما . — كان يتحدث محاولا انتقاء تلك الكلمات التى ، باعتقاده ، كان ينبغي ان تقول لها انه هو بالذات يتألم من أجلها ويحبها اكثر من اي احد كان فى العالم . — فكرى بنفسك . لهم الله ان لم يردوا على رسائلك ، فلن نضيع . ذلك اننا (اراد ان يقول اننى) معك جميعا مثل اهلك . فلا تثبطي عزيمتك . اعملى واصمدى . اما الاولاد فسينشأون هنا بيننا ومعنا (اراد ان يقول معى) . وستجرى الامور على ما يرام بالتدريج . ما حاجتك للرحيل الى مكان آخر ؟ اننا جميعا مثل اهلك . وانا ، كما تعرفين ، لا اقدر على العيش يوما واحدا بدون اطفالك . — وتوقف لانه كشف عما فى داخله بقدر ما سمح له الوضع .

اجابت ظريفة :

— افهم كل شيء يا يديغي . وبالطبع ليس علىّ الا ان اشكرك وانا اعرف انني لن اكون فى عوز واحتياج ، ولكن ينبغي لنا ان نرحل من هنا . لكى ينسى الاطفال كل ما حدث هنا وكيف حدث . عندئذ يتوجب علىّ ان اعترف لك بالحقيقة . وأنت تعلم

ان الوضع لا يمكن ان يستمر طويلا . . . وها انا افكر كيف ينبغي ان اتصرف . . .

– كذا هو الامر الى حد ما – اضطر يديغي ان يوافقها . – لكن لا تتسرعي . فكري بعضا آخر من الوقت . الى اين سترحلين بصحبة هذين الصغيرين وكيف تدبرين ؟ بينما انا ، عندما افكر في رحيلكم اشعر بالوحشة هنا بدونكم . . .

وبالفعل كان يديغي يخاف عليهم ، عليها وعلى الاولاد . ولذلك لم يحاول ان يفكر في ابعد من يوم الغد ، رغم ادراكه ايضا ان الامور لن تستمر على هذا النحو طويلا . وبعد مرور بضعة ايام على ذلك الحديث وقعت ثمة صدفة اخرى حين فضح نفسه كل الفضح ثم ندم على فعلته تلك امدا طويلا وتعذب دون ان يجد لنفسه مسوغا يبرر ذلك .

لقد مضى على تلك الرحلة المشهودة الى قمبيل ، حين تخوف ايرميك من الحلاق ، ولم يسمح بقص شعره شهورا طويلة . وظل الولد دون حلاقة شعره الاسود المجعد ، ورغم ان تموجات شعره كانت تزينه ، لكن كان قد حان الاوان لقص شعر هذا الخوّاف العنيد . وكان يديغي في الفرص المؤاتية لا ينى يدس انفه في يافوخ الولد المنفوش ، يقبله ويتشمم رائحته الطفولية . بيد ان الشعر كان طويلا يصل الى كتفيه ويعوقه عن اللعب والركض . وكانت ضرورة هذه العملية ، كما يبدو ، غير مفهومة وغير مألوفة وغريبة بالنسبة له . ولذلك لم يذعن لاحد . بينما قازانغاب ، حين رأى ان الامر يسير على هذه الشاكلة ، تمكن من اقناعه ، وحتى انه اخافه قليلا ، اذ قال ان الجداء لا تحب ذوى الشعر الطويل وتنطحهم .

وتحدثت ظريفة فيما بعد كيف حلقوا راس ايرميك . واضطر قازانغاب ان يستخدم قوته بالفعل . فامسكه بين ساقيه وقص له شعره بماكنة حلاقة ، في حين ملأ ايرميك محطة المفرق كلها بصراخه . وعندما انتهوا من حلاقته قدمت بوكيه الطيبة مرآة ، تريد بذلك ان تقول : خذ ، وانظر الى نفسك ما اجمل ما اصبحت عليه . فنظر الطفل في المرآة ولم يتعرف على نفسه ، وراح يصرخ اعلى واقوى من جراء ذلك . وهو في هذه الحال يصرخ بكل

ما اوتي من قوة قادته ظريفة من حوش قازانغاب حين التقيا في الدرب يديغي .

وكان ايرميك المقصوص الشعر حتى الصفر لا يشبه نفسه تماما برقبته الرفيعة العارية واذنيه الناتئتين ، وعينيه الدامعتين افلت من بين يدى امه وهرع الى يديغي باكيا :

– انظر يا عم يديغي ماذا فعلوا بي !

لو قيل ليديغي البورانى مسبقا انه سيحدث له ما حدث لما صدق ابدا . تلقف الولد في حضنه وفهم بكل حواسه مصيبته وضعفه وشكواه وثقته به ضاما اياه الى صدره وكان ذلك كله حدث معه هو فراح يمطره بالقبلات ويردد بصوت متقطع من المرارة والتحبب ، دون ان يفهم بجلاء مغزى كلماته :

– امدا يا عزيزى ! لا تبك . لن اسمح لاحد ان يسيء اليك وساكون لك بمثابة الاب ! ساحبك كاب لكنى ارجوك فقط ان تكف عن البكاء ! – واذ تطلع يديغي في هذه الاثناء الى ظريفة التي تسمرت امامه قلقة ايما قلق ادرك انه قد تخطى حدا محظورا فارتبك واسرع مبتعدا عنها حاملا الطفل على ذراعه متمتما بحيرة نفس العبارات : – لا تبك ! وقازانغاب هذا ساوبخه الآن ، الآن اوبخه ! ساوبخ قازانغاب هذا ، ايما توبيخ ! الآن ، الانَ اوبخه ! . . .

وظل يديغي لعدة ايام عقب ذلك يتهرب من ظريفة . وهي ايضا ، كما اتضح له ، كانت تتجنب لقاءه . وندم يديغي البورانى لانه افشى سره عن غير مقصد وعلى نحو سخيف وكدّر امراة غير مذنبة بشيء ، ولها من المشاغل والهموم ما يكفي بلا هذا . وكم من آلام اضاف الى اشجانها ! ولم يتمكن ان يجد كلمات الاعتذار والتبرير المناسبة . وبقيت تلك اللحظات التي احس فيها يديغي بكيانه كله كيف يلتصق به الولد المسكين المهان ، وكيف تاثر قلبه من المرارة والتحبب ، وكيف تطلعت اليه ظريفة مصعوقة بهذا المشهد وكيف رمت اليه نظرة مفعمة بصرخة الفاجعة الخرساء ، بقيت عالقة في ذاكرته لسنوات طويلة . ولربما سيحتفظ بذكراها حتى النفس الاخير ايضا .

هدا يديغي البورانى لفترة بعد هذا الحادث ، وراح يمنح اطفالها كل ما اضطر ان يخفيه في داخله تجاهها ويكبحه . ذلك

انه لم يجد من وسيلة اخرى ، فكان يشغل نفسه معهم كل مرة وجد لنفسه من الوقت فراغا ويواصل قص القصص عليهم مكررا بعض الحكايات ومتذكرا الجديد منها عن البحر . لان ذلك كان الموضوع المفضل لديهم . فحكى لهم عن النوارس والاسماك والطيور المهاجرة وجزر بحر ارال ، التى لا تزال تعيش فيها حيوانات نادرة انقرضت فى مناطق اخرى . بيد ان يديغي فى هذه الحكايات والاحاديث للاولاد كان يتذكر اكثر فاكثر وباصرار حكايته الخاصة فى بحر ارال ، الحكاية الوحيدة التى كان يفضل ان لا يقصها لاحد . لكن تلك الحكاية لم تكن قط شانا من شئون الاطفال . فلم يكن يعرف عنها الا اثنان ، هو واوق‌بالا . وهما ايضا لم يتطرقا اليها فيما بينهما ، لانها كانت ذات صلة بابنهما البكر المتوفى . لو عاش ذلك الولد الصغير لكان الآن اكبر عمرا من اولاد البورانليين ، وحتى اكبر بنحو سنتين من ثابت جان ابن قازانغاب . لكنه لم يعش ، غير ان الناس يترقبون ولادة الطفل ويأملون ان يعيش طويلا ، طويلا جدا من الصعب ان يتصور المرء كم من السنين . وإلا فهل كانوا سيلدون الاطفال ؟ . .

عندما كان صياد اسماك ، فى سنوات شبابه تلك ، قبيل الحرب بفترة قصيرة ابتلى وزوجته اوق‌بالا بحادثة عجيبة . وقد يحدث مثيل ذلك مرة واحدة فقط ولا يتكرر فيما بعد ابدا .

منذ ان تزوجا كان يديغي ينزع دائما الى العودة من البحر الى البيت باسرع ما يكون . لانه كان يحب اوق‌بالا ويعرف انها ايضا تنتظره . ولم يكن له امراة اعز منها آنذاك . واحيانا كان يخيل اليه انه يعيش لمجرد ان يفكر فيها دائما ، ويختزن قوة البحر والشمس فى نفسه ، ثم يهبها لها ، لزوجته التى تنتظره ، ومن هذا العطاء انبثقت السعادة المتبادلة ، جوهر السعادة . اما كل شىء آخر ما عدا ذلك ، كل شىء خارجى فليس سوى اضافات او تتمات تثرى سعادتهما ولذتهما المشتركة بما وهبته له الشمس والبحر . وحين شعرت ان تغيرا ما طرأ عليها ، وحبلت ، وستصبح عن قريب اما اضيف ترقب الوليد المقبل الى انتظارها الدائم للقائه اثر عودته من البحر . وكانت تلك فترة صافية صاحية ، غير مشوبة بالغيوم ، فى حياتهما . فى وقت متاخر من الخريف ، وتحديدا قبيل مقدم الشتاء ، ظهرت

على وجه اوق‌بالا بقع صغيرة بنية يميزها الناظر بانتباه . وكان بطنها قد برز واستدار . وذات مرة سالته عن سمكة «التين ميكريه» . «لقد سمعت عنها لكنى لم ارها ابدا فى حياتى» . قال لها ان هذه السمكة نادرة جدا ، وتنتمى الى فئة الزجور : كبيرة الجثة ، تعيش فى المياه العميقة ، بيد ان قيمتها تكمن اكثر فى جمالها ، فهى زرقاء مبقعة يافوخها وزعانفها ومشطها الغضروفى على الظهر – من الراس وحتى طرف الذيل – فكانها من الذهب الخالص ويشع باشعاع بديع كوميض لذهب تماما . ولهذا تسمى بسمكة الميكريه الذهبية .

فى المرة الثانية قالت اوق‌بالا انها رات فى الحلم سمكة الميكريه الذهبية ، كانت السمكة تسبح حولها وهى تحاول اصطيادها . وتملكتها رغبة شديدة فى اصطياد تلك السمكة ثم اخلاء سبيلها . وذلك من اجل ان تمسك السمكة بيدها وتحس ببدنها الذهبى وقد ارادت فى الحلم ان تمسك بتلك السمكة وطاردتها . اما السمكة فلم تستسلم ولن تقع فى يدها . وبعد ان استيقظت اوق‌بالا تعذر عليها الركون الى الهدوء فترة طويلة وشعرت بحزن غريب ، وكانها بالفعل لم تستطع بلوغ غاية بالغة الاهمية . ضحكت اوق‌بالا من نفسها لكن حتى فى صحوها ودت بنفس الالحاح ان تصطاد سمكة الميكريه الذهبية .

اما يديغي فادرك مغزى حلمها وفكر به وهو يخرج الشبكة من البحر ، وكما اتضح فيما بعد ، انه فسر مغزى رغبة زوجته فى الحلم والتى لم تختف فى صحوها تفسيرا صحيحا . لقد ادرك انه يتعين عليه ان يصطاد سمكة الميكريه الذهبية ، لان ما شعرت المراة الحامل كان هو الوحام . والنساء الحوامل كثيرا ما يشعرن اثناء الحمل بعدم الارتياح فيتوحمن باكل شىء ما حامض او مالح او حريف جدا او مر . وبعضهن يرغبن باللحم المقلى لحيوان غير داجن او طير . ولم يندهش يديغي من رغبة زوجته اذ كان ينبغى لزوجة صياد سمك ان تشتهى ما له علاقة بحرفة زوجها . فالله نفسه اراد ان تشعر برغبة لرؤية السمكة الذهبية بام عينيها ولمسها بيديها . كان يديغي قد سمع انه اذا لم تلب شهية المراة المتوحمة فسوف تكون عاقبة ذلك وخيمة على الجنين فى بطن امه .

وبدا هذا التوحم لاوق‌بالا أمرا شاذا للغاية بحيث لم تتجرأ ان تعترف به على مسامع الاخرين . اما يديغي فما أراد التدقيق ولا حاول طرح الاسئلة ، لانه كان لا يعرف هل سيتمكن من اصطياد مثل هذه السمكة النادرة ام لا . فقرر فى الاول اصطياد السمكة ومن ثم ان يستجلى ان كانت تلك رغبتها .

وفى ذلك الوقت كان موسم صيد الاسماك فى بحر أرال الذى يبلغ أوجه من تموز وحتى تشرين الثانى على وشك الانتهاء . وكان الشتاء يطرق الابواب . وكانت الجماعة التعاونية تستعد لموسم الشتاء ، اى صيد الاسماك تحت الجليد حين يتغطى البحر كله بطبقة سميكة من الجليد ويتحتم حفر ثغرات كبيرة فيه وانزال شبكة مثقلة وسحبها من داخل البحر من هذه الثغرة الى ثغرة اخرى بواسطة طارة تجرها الجمال ، هذه الحيوانات التى لا بديل عنها فى السهوب . . . وتعصف الريح ولا تفلح الاسماك الواقعة فى الشبكة ان تتحرك ، حتى ترفع الى الاعلى ، فتتجمد فى الحال وتتغطى بصدف من الجليد فى صقيع آرال القارس . . ومهما كانت كمية الاسماك التى اصطادها يديغي مع الجماعة التعاونية صيفا وشتاء ، ومن الاصناف النادرة وغير النادرة ، الا انه لا يتذكر مرة واحدة وقعت فيها سمكة الميكريه الذهبية فى الشباك . وكان نادرا ما يتسنى اصطياد هذه السمكة بالشص العادى او بالصنارة الملعقية ، وحتى ذلك يصبح حدثا مشهودا بين الصيادين . فيتحدثون عنه فيما بعد ، ويقولون ان فلانا قد حالفه الحظ وساعفه حسن الطالع فى اصطياد سمكة الميكريه الذهبية .

توجه فى ذلك الصباح الباكر الى البحر قائلا لزوجته انه سيصطاد السمك للاستعمال البيتى طالما لم يتجمد البحر بعد . وارادت اوق‌بالا عشية ذلك اليوم ان تثنيه عن عزمه فقالت :

– بيتنا غاص بمختلف انواع الاسماك . فهل ثمة من داع لذهابك ؟ والجو قد برد .

بيد ان يديغي اصر على رايه وقال :

– ان ما هو موجود فى البيت يبقى فيه . وانت بنفسك تقولين ان العمة ساغين لزمت الفراش . وان حساء السمك الطازج هو انجع دواء . فمن يصيد السمك لهذه العجوز ؟

وخرج يديغي فى الصباح الباكر متذرعا بذلك لصيد الميكريه الذهبية . وكان قد جهز نفسه بجميع العدد والادوات الضرورية واعدّها مسبقا . وقد وضعها فى مقدمة القارب . وارتدى ملابس ثخينة ومدفئة ، ثم لبس ممطرا ذا قلنسوة من المشمع فوقها وأبحر .

كان يوما باهتا غير مستقر بين الخريف والشتاء . جذّف يديغي وهو يجتاز الامواج فى خط منحرف موجّها قاربه صوب عرض البحر ، حيث ، كما كان يخمن ينبغى ان تقع المواضع التى تعيش فيها أسماك الميكريه الذهبية . وبالطبع كان كل شىء متوقفا على الحظ وحسن التوفيق ، لانه ليس ثمة ما هو اصعب على الفهم فى اعمال الصيد من صيد أسماك بحرية بالشص . على اليابسة ، مهما كان الامر ، فان الانسان وطريدته موجودان فى بيئة واحدة ، فالصياد يمكنه ان يتعقب الحيوان ، يتقرب منه ويترصد له ويتربص به وينتظره ، ثم يهاجمه . اما تحت الماء فالصياد محروم من كل هذه الفرص . اذ عليه بعد رمى الشص الانتظار لحين ظهور السمك واذا ما ظهرت يترقب ان كانت ستنقض على الطعم وتلقمه .

كان يديغي شديد الرغبة فى داخله بان يحالفه الحظ لانه ركب البحر لا بحثا عن صيد وفير ، بل لتلبية الرغبة السامية لزوجته الحامل .

كان يديغي الشاب قويا ومتينا فى التجذيف . يقود القارب فى البحر وسط الامواج المضطربة دافعا الماء الجارى باتزان وهمة . ويسمى صيادو آرال مثل هذه الامواج امواجا معقوفة الجانب . وهى عادة تنذر بوقوع عاصفة . لكن الامواج نفسها غير خطرة ، وكان بالامكان التوغل فى عنق البحر دون خوف .

وكلما ابتعد عن الارض صغر الساحل تدريجيا بجرفه الترابى شديد الانحدار وجزئه الاسفل الصخرى الملاصق للماء ، وأضحى صعب التمييز ، وسرعان ما فقد وضوحه ، حتى ان معالمه راحت تختفى من حين لآخر . وكانت السحب معلقة فى السماء بلا حراك . اما فى الاسفل فكانت تهب ريح ملحوظة محدثة تموجات خفيفة على سطح الماء .

بعد حوال ساعتين اوقف يديغي القارب ورفع مجذافيه ،

ورمى المرساة ، وراح يجهز عدته التى كانت عبارة عن بكرتين مزودتين بخيطين متينين وجهاز بسيط الصنع للامساك بالخيط . ركّب واحدة منهما على مؤخرة القارب واغطس الخيط مع ثقالته عبر حربة ذات طرفين فى الماء قرابة مائة متر ، وابقى لديه للاحتياط نحو عشرين مترا . ونصب العدة الثانية بنفس الطريقة على مقدمة القارب . ثم تناول المجذافين فى يديه ، وذلك لكى يبقى القارب تحت سيطرته ويحافظ عليه فى الوضع المطلوب من التيارات المائية والريح . والاهم حتى لا تتشابك الخيوط ببعضها البعض .

ولبث ماكثا على هذه الحال ينتظر . حسب توقعاته كان يمكن ان تعيش هذه السمكة النادرة فى هذه المناطق بالذات . لم يكن لديه اية اثباتات ، وكانت ذلك حدسه لا غير . لكنه كان متيقنا من ان تلك السمكة يجب ان تظهر ، لا بد ان تظهر بالتاكيد ، وكان لا يقدر ان يرجع الى البيت بدونها اذ لم يكن يحتاجها للتسلية ، بل من اجل قضية هامة جدا فى حياته .

وراحت الاسماك بعد امد قصير تنبئ عن وجودها . لكن تلك الاسماك لم تكن هي المطلوبة . فى البدء اصطاد سمكة شبوط . وعندما كان يديغي يسحب عرف ان هذه ليست بسمكة الميكريه الذهبية ، اذ لا يمكن ان تقع السمكة الذهبية فى صنارته منذ الوهلة الاولى . ولو حدث ذلك لكانت الحياة على وجه الارض فى غاية البساطة وغير مشوقة . وكان يديغي يرتضى بان يكدح وينتظر . ثم علقت بصنارته سمكة كبيرة من نوع ابي شنب ، وهى من افضل الاسماك فى أرال ، او ربما تكون افضلها على الاطلاق ، وبعد ان قضى عليها بضربة على راسها رماها الى قعر القارب . على اية حال ، فان السمك كان يكفى لحساء العمة ساغين المريضة . ثم اصطاد شلبة . اى شيطان جاء بها الى هنا ؟ هذه السمكة عادة تسبح فى المناطق القريبة من سطح الماء . لكن ، سامحها الله فالحق عليها . بعد ذلك حلت فترة طويلة من الانتظار المضجر . وقال يديغي فى نفسه : «سانتظر . مع اننى لم اقل لها شيئا لكنها هى تعرف بالاحساس اننى خرجت لصيد سمكة الميكريه الذهبية . وينبغى ان احصل عليها ، لئلا يتعذب الجنين فى بطن امه . ذلك ان الطفل هو الذى

اراد ان ترى امه سمكة الميكريه الذهبية وتمسكها بيدها . اما لماذا اراد ذلك فلا احد يعرف ، والام ايضا تشتاق لذلك ، اما انا فانني الأب ومن واجبى العمل على تلبية ارادتهما وتطمين رغبتهما» .

وراحت الامواج معقوفة الجانب تتلاعب وتحرك القارب ، لانها معقوفة الجانب ، وغير آمنة وغير مستقرة . وبدأ يديغي يشعر بالبرد من قلة الحركة وراح طول الوقت يتابع بانتباه البكرتين وخيطيهما ، ليرى ان كانت احداهما ترتعش او تتوتر ولكن لم تكن فى مقدمة القارب او مؤخرته اية ظواهر لذلك . بيد ان يديغي لم يفقد صبره . فكان يعرف ويأمل بان سمكة الميكريه الذهبية سوف تقع فى صنارته ، لكن حبذا لو كان البحر أمهله مدة ، ذلك لان الامواج معقوفة الجانب راحت تدور دورانا شديدا . لماذا يحدث كل هذا ؟ لا ، لا ينبغى ان تهب عاصفة قريبا . لربما سترتفع الامواج العاصفة عند المساء او فى الليل . وعندئذ سيغلى ارال غليانا رهيبا من اقصاه الى اقصاه ، وسيتغطى بالزبد الابيض ولن يتجرأ احد عندئذ على الابحار فيه . لكن حتى ذلك الوقت من الممكن مزاولة الصيد فى البحر ، لا يزال ثمة من الوقت ما يكفى .

وانتظر يديغي سمكته فى البحر مكتئبا وشاعرا بالبرد ومتلفتا فيما حواليه . ما هذا التباطؤ ، لا تخافى بالله .

«ولا تخشى شيئا – فكر فى نفسه مخاطبا السمكة . – لا تخافى . اقول لك ، اننى سوف اخلى سبيلك واعيدك الى البحر . تقولين ان هذا مستحيل ! لكن تصورى ان ذلك ليس مستحيلا ، وقد يحدث . ولست انتظرك كل هذا الوقت لكى اصطادك للاكل . ان بيتنا ملىء بشتى الاطعمة والاسماك . وما هى ثلاث اسماك ترقد فى قعر القارب . امن المعقول ان انتظرك يا سمكة الميكريه الذهبية فى سبيل الأكل ! افهمينى رجاء ، من المفروض ان يولد لنا طفل ولقد حلمت بك زوجتى ، ولم تذق طعم الراحة منذ ذلك الوقت ، مع انها لا تتحدث عن ذلك ، لكننى انا ارى وادرك كل شىء . ولست قادرا على توضيح سر كون الامر على هذه الشاكلة ، لكن من الضرورى جدا ان تراك وتمسكك بيديها ، واننى لأقطع لك على نفسى كلمة الشرف باخلاء سبيلك

مباشرة واعادتك الى البحر . والامر يكمن فى كونك سمكة متميزة ونادرة . لك يافوخ وذيل باللون الذهبى . وزعانفك ومشطك على ظهرك ايضا باللون الذهبى . افهمينا رجاء انها تشتاق لرؤيتك بام عينيها ، وتريد ان تلمسك لكى تتحسس بيديها كيف يكون ملمس السمكة الذهبية . ولا تفكرى بانك بما انك سمكة فليس لك بنا اى شان . رغم كونك سمكة ، فانهـــا – اى زوجتى – ولست ادرى لماذا ، تشتاق اليك كاشتياقها الى اختها او أخيها وتود ان تراك قبل ان تلد الطفل . والجنين فى بطنها سيشعـر بالرضا . هذه هى القصة . ساعدينى يا سمكة الميكريـــه الذهبية ، يا صديقتى . اقتربى ، لن اسىء اليك . كلمة شرف . ان كنت ابيت لك فكرة شريرة فسوف تشعرين بها . التقمـى الصنارة . عندى صنارتان ، فاختارى احداهما بنفسك . لقـد علقت بكل واحدة منهما قطعة كبيرة من اللحم . وتفوح من اللحم اشهى الرائحة لكى تشمينها من بعيد . فاقتربى ولا تفكرى تفكير السوء . ان كنت قد دسست لك صنارة ملعقية لكانت تلـك مسالة غير شريفة ، ولكنت انت على حق ، مـع انـك ستقبلين الصنارة الملعقية اسرع بالتاكيد . ولكن فى تلك الحال لو بلعت الصنارة الملعقية فسيكون من الصعب عليك البقاء على قيد الحياة والكلاب المعدنى فى أحشائك بعد اطلاقى سراحك واعادتك الى البحر !

اذن لكان ذلك خداعا ! لكننـى اعرض عليـــك الصنارة البسيطة بكل صدق . ومع الصنارة لن يحدث لك سوء يذكر ، ما عدا بعض الجروح الطفيفة التى ستصيب شفتيك . ولا تقلقى ، لقد اخذت معى قربة ، ستكون ملاى بالماء وسوف تمكثين فيهـا فترة ، ثم تسبحين فى البحر من جديد . لكننـى لن اغادر هذا المكان بدونك . والوقت لا ينتظر . الا تشعرين كيف تتلاطـم الامواج وتشتد الريح ؟ امن المعقول انك تريديـن ان يولـد ابنى يتيما بلا اب حنون ؟ فكرى قليلا ، وساعدينى رجاء . . .»

كان ضوء النهار يشحب فى الرحاب الرمادية للبحر البارد عشية الشتاء . وسار القارب نحو الساحل مرتفعا فوق اعراف الامواج تارة ومختفيا بينها تارة اخرى . كان القارب يسير بمشقة مصارعا الزوبعة . والبحر يرغى ويزبد ويغلى ويهتاج بالتدريج

مستمدا قوة العاصفة . وراح رذاذ الماء البارد برودة الثلـــج يتساقط على وجهه ، وانتفخت يداه الماسكتان بالمجذافين من البرد والرطوبة .

كانت اوق بالا تجوب على الساحل ، وقد تملكها القلق منذ امد ، وراحت تنتظر زوجها عند البحر . حين وافقت على الزواج من صياد سمك قال لها أقاربها رعاة ساروزيكى : يجب عليك ان تفكرى جيدا قبل قطع الوعد بالزواج فالحياة القاسية تنتظرك . اذا تزوجته ، لسوف تضطرين غير مرة ان تغتسلى بدموعك عند البحر رافعة اليه الدعاء فى ابتهال . ولكن اوق بالا لـم ترفض يديغي ، واكتفت بان قالت : ساكون مثلما يكون زوجى . . .

وهكذا حصل ، ولقد ذهب فى هذه المرة الى البحر لوحده وليس مع الجماعة التعاونية . وراح الظلام يخيم بسرعة ، والبحر اخذ بالهيجان والاضطراب .

لكن فى تلك الاثناء لاحت بين الامواج المجاذيـف ، ثـم ظهر القارب فوق الماء . اقتربت اوق بالا المتلفعة بمنديـــل وببطنها البارز من الامواج عند الشاطئ وانتظرت الى ان يرسو قارب يديغي . دفعت الامواج القارب دفعة قوية نحو مكان ضحل . قفز يديغي بلمح البصر من القارب وامسكه وجره الى الساحل كانه ثور . وعندما افلح فى ذلك وهو مبتل تماما اقبلت اوق بالا نحوه ، وطوقته من رقبته ، تحت ممطره البارد .

– منذ مدة وانا أترقب دربـــك . لماذا تاخرت كل هذا التاخير ؟

– لم تات السمكة طول النهار ، الا فى اللحظات الاخيرة .

– هل ذهبت بحثا عن ذهب سمكة الميركيه ؟

– نعم ، لقد رجوتها وجئت بها . وبامكانك النظر اليها .

اخرج يديغي من القارب قربة جلدية ثقيلة مملوءة بالماء ، ففكها وسكب الماء ومعه سمكة الميكريه الذهبيـــة عـلى حصى شاطىء البحر . كانت سمكة كبيرة . سمكة عظيمة وجميلـــة . فراحت تضرب بذيلها الذهبى بشكل جنونى ملتوية ومتراقصة دافعة الحصى الرطب من حولها ، وفاتحة فمها الوردى على سعته ، وتوجهت نحو البحر محاولة الوصول الى بيئتها الاصلية فـــى مضطرب المياه . وفجاة تسمرت السمكة للحظة مـــا ، وهدأت

محاولة التكيف متلفتة بعينيها المدورتين والصافيتين الى ذلك العالم الذى وجدت نفسها فيه بغتة . حتى فى ذلك الغسق قبل المساء الشتوى صفع الضوء غير المعتاد راسها ، ورات السمكة العيون المتالقة للناس المنحنين عليها ، وجزءا من الساحل ومساحة من السماء وميزت فوق البحر ، فوق موقع بعيد جدا بالنسبة لها ، وراء سحابات متناثرة فى الافق غروب قرص الشمس الهامد ، الساطع الى حد لا يطاق بالنسبة لها . ثم بدات تختنق . وانتصبت السمكة وراحت تخفق وتدور مستمدة قوة جديدة ، ساعية الى بلوغ الماء . رفع يديغي السمكة الذهبية من تحت خيشومها ، وقال لاوق‌بالا :

– هاتى يدك وامسكيها .

رفعت اوق‌بالا السمكة ، كما ترفع الطفل ، بكلتا يديها وضمتها الى صدرها .

– يا لها من مرونة ! – اطلقت اوق‌بالا صيحة تعجب متحسسة قوتها الخفية المحركة كالنابض . – لكنها ثقيلة كقرمة خشب ! ويا لرائحتها القوية ، رائحة البحر ! ويا لها من جميلة ! خذها يا يديغي ، انا مسرورة ، مسرورة جدا . لقد تحققت رغبتى . هيا اعدها الى البحر بسرعة . . .

اخذ يديغي سمكة الميكريه الذهبية الى البحر . وما ان دخل المياه المضطربة حتى ركبتيه الا وسمح للسمكة ان تنزلق من بين يديه . وعندما كانت السمكة الذهبية تسقط الى الماء ، لمعت للحظة فى الهواء الازرق الكثيف زينتها كلها من يافوخها حتى ذيلها ، ثم سبحت ودخلت اعماق البحر . . .

اما الزوبعة الكبيرة فقد اجتاحت البحر فى الليل . وهدر البحر وراء الجدار تحت الجرف . وتوصل يديغي مرة اخرى الى قناعة مفادها ان نذير العاصفة – الامواج المعقوفة الجانب – لا تاتى دون قصد . وكان ذلك فى اعماق الليل . وتذكر يديغي وهو يتسمع فى نصف اغفاءة الى الامواج المضطربة ، سمكته الاثيرة . كيف حالها يا ترى الآن ؟ مع انه من المفروض ان تكون اعماق البحر اهدأ من سطحه ولربما ان الاسماك ، فى الاعماق السحيقة للبحر تتسمع هى الاخرى كيف تتلاطم الامواج فوق سطح البحر . ابتسم يديغي بسرور وهو يغفو واضعا يده على جنب زوجته

وسمع فجاة حركة الطفل فى بطنها . كان وليده القادم ينبئ عن نفسه . ابتسم يديغي بسرور لذلك واستسلم للنوم دون اية افكار مقلقة .

حبذا لو كان يعرف انه بعد سنة ستنشب الحرب ، وتنقلب الحياة راسا على عقب ويترك هو البحر للابد ولا تبقى منه لديه سوى الذكريات . . . ولا سيما حينما تحل ايام عصيبة . . .

وكانت القطارات فى هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق . . .

على جانبى خط السكة الحديد كانت تمتد مساحات شاسعة من الاراضى الصحراوية سارى – اوزيكى ، الاراضى الوسطى من البرارى الصفراء .

فى العام الثالث والخمسين ، ذلك العام المشؤوم ليديغى البورانى ، حتى الشتاء اقبل مبكرا . ولم يحدث مثل ذلك ابدا فى ساروزيكى . اذ سقط الثلج فى اواخر تشرين الاول وبدأ البرد . لحسن الحظ انه افلح قبل ذلك ان يختزن لنفسه وظريفة والاطفال البطاطس التى جلبها من قمبيل . لقد تعجل فى ذلك وكانه كان يعرف عن مجىء الشتاء المبكر . وفى المرة الاخيرة اضطر الى السفر على البعير خوفا على البطاطس التى يمكن ان تتجمد فى حال نقلها فى القطار . فما نفعها حينذاك . وهكذا فقد سافر على ظهر قره‌نار البورانى ، وحمله كيسين كبيرين من البطاطس – ما كان فى وسعه ان يدبر امر الكيسين فساعده الناس ، كل كيس فى جانب ، ودفاهما من فوق باللباد ، لئلا يتعرضا للبرد ، اما هو فقد جلس بينهما ومشى بهدوء الى بورانى – بورانى . كان يجلس فوق ظهر قره‌نار كانه جالس على فيل . هكذا فكر هو بنفسه ايضا . قبل ذلك لم يكن احد يملك اى تصور عن فيلة الركوب . فى ذلك الخريف عرض فى المحطة اول فيلم هندى وتجمهر الى قمبيل الجميع بصغارهم وكبارهم لمشاهدة هذا الفيلم العجيب عن البلاد العجيبة . وعرض الفيلم فضلا عن سيل من الرقصات والاغانى عددا من الافيال . وكان الناس يذهبون لصيد النمور فى الغابات على ظهور الافيال .

وسنحت الفرصة ليديغي ايضا لمشاهدة هذا الفيلم . وكان هو ومدير المفرق حاضرين اجتماعا عاما للنقابات موفدين من البورانليين ، وعرضوا آنذاك فى نادى عمال السكك الحديد بعد انتهاء الاجتماع فيلما هنديا . لقد بدا كل شىء من هذا الفيلم . عندما خرجوا من السينما طرقت شتى احاديث ، وتعجب عمال السكك الحديد كيف ان الهنود يمتطون الافيال . وقال احدهم معلقا على ذلك :

– ما الذى اعجبكم فى هذه الافيال ؟ هل ان قره‌نار البورانى بعير يديغي اسوأ من الفيل ؟ حاول ان تحمله ، فيسير كفيل !

– هذا صحيح ! – ضحك الناس حواليه .

رد عليه صوت آخر :

– ما اهمية الفيل ! الفيل لا يستطيع العيش الا فى البلدان الحارة . فليحاول العيش عندنا فى ساروزيكى فى الشتاء ، سيموت بالتاكيد فهو لا يقارن بقره‌نار ابدا !

– اسمع يا يديغي ، يا بورانى ، لماذا لا تصنع هودجا وتحمّله قره‌نار مثل الذى تحمله الافيال فى الهند ؟ ستسافر مثل اثريائهم الراجات هناك !

تضاحك يديغي لمزاح الاصدقاء ، لكن مع ذلك كان يسره ان يسمع مثل هذا الاطراء على قره‌ناره المشهور . . .

بالمقابل لحق يديغي ذلك الشتاء ما لحق ، وعانى ما عاناه فى سبيل قره‌نار هذا نفسه . . .

لكن ذلك الحادث كان وثيق الارتباط بالبرد . داهمه فى الطريق فى ذلك اليوم اول سقوط للثلج . كان الثلج قد سقط قبل ذلك عدة مرات وذاب . اما ثلج ذلك اليوم فقد سقط بغزارة وايما سقوط ! اطبق ظلام تام فوق ساروزيكى وعصفت الرياح . وتساقط الثلج ندفا كثيفة ثقيلة بيضاء . لم يكن الجو باردا ، بل رطبا وغير مريح . والاهم من هذا كان يتعذر تمييز الاشياء بسبب الثلج . ماذا كان عليه ان يعمل ؟ ليس ثمة فى ساروزيكى ملاجئ للسابلة حيث يمكن ان يأوى الناس اليها انتظارا لتحسن الاحوال الجوية ، ولم يبق لديه الا امر واحد وهو الاعتماد على قوة وغريزة قره‌نار البورانى . فكان ينبغى له ان يحمله الى البيت . ومنح يديغي لبعيره حريته

الكاملة ، اما هو فرفع ياقته وامال قبعته على جبينه وتغطى بالقلنسوة وجلس مصطبرا محاولا بلا جدوى ان يميز شيئا ما فى الطريق . بيد انه لم ير الا جدارا من الثلج الكثيف . اما قره‌نار فظل يسير فى تلك الدوامة دون ان يبطئ سرعته و لا بد انه ادرك ان صاحبه الآن لم يعد صاحبه ، وهذا لانه سكن وركن الى الهدوء بين الكيسين وليس بامكانه ان يظهر نفسه كسيد فى العاصفة . وقره‌نار كان يجب ان يملك قوة هائلة لكي يركض فى البرارى اثناء سقوط الثلج وهو يحمل على ظهره هذا الحمل الثقيل . كان يتنفس بحرارة ، وقوة ، حاملا صاحبه هادرا وراغيا كمتوحش ، واحيانا كان يعوى طويلا ويواصل السير بلا كلل وبلا توقف خلال الثلج المتساقط المعترض طريقه . . .

ولا عجب ، فما اطول ما بدا هذا الدرب ليديغي . «حبذا لو وصلنا وبلغنا غايتنا باقصى سرعة ممكنة» – فكر فى هذا وتصور كيف سيكون ظهوره وانهم فى البيت يشعرون بالقلق لما يلاقيه فى مثل هذا الطقس . وتقلق اوق‌بالا عليه بيد انها لن تذكر هذا للآخرين فليست ممن يبدون المكنون ويكشفون عما يعانون وفيم يفكرون . وربما تفكر ظريفة ايضا بما يلاقيه . انها تفكر بالطبع . ولكنها رغم ذلك لن تتلفظ بحرف واحد عن هذا تحاول ما امكنها ان تتجنب نظرته وتتهرب بكل الذرائع والسبل من خوض الاحاديث فى خلوة وتجاذب اطراف الكلام معه على انفراد . ولكن ما الذى تتهرب منه وما الذى تخشاه وما هو فى الواقع الامر السيئ الذى جرى ؟ اذ ان يديغي لم تصدر عنه كلمة واحدة ولم يبدر منه تصرف وحيد يدلان وينمان عما يجعل احدا ما يخطر على باله وكان شيئا ما هنا ليس كما ينبغى له ان يكون . وكما كان فى السابق فهو الجارى الآن . كل ما فى الامر هو انهما وقد اصبحا رفيقى طريق فى الحياة كانما القيا حولهما نظرة للتحقق من صواب الطريق . . . ثم تابعا المسير . وهذا هو كل شىء اما بخصوص ما سيعرض له على هذا الطريق فما هو الا شأنه وحده ومصيبته لا مصيبة سواه . . . وهذا هو مصيره وقدره . ويبدو انه المكتوب على جبينه والمقدر له فى لوح القدر منذ ان ولد او قبل ان يولد . وكان مقدرا عليه ان يكون موزعا ما بين نارين . ولا داعى ان يقلق اى احد او يشغل باله

بشيء وهي قضيته كيف سيواجه نفسه وهي نفسه المعذبة عذابها المبرح . وماذا يعني الغير من حاله وما الذي ينتظره لاحقا . انه ليس بالصبي الصغير ولا بالغلام وبوسعه على اية حال من الاحوال وكيفما كان ولسوف يفك بنفسه العقدة المعقدة التي اشتد وثاقها اكثر فاكثر وهو المذنب في ذلك ويتحمل تبعته . . .

هذه هي الافكار التي راودت خاطره وهي افكار فظيعة مؤلمة ومعذبة ولا مخرج منها ولا مناص . ها قد حل الشتاء في ساروزيكي اما هو فلا يزال كما كان ليس في وسعه لا نسيان ظريفة ولا التخلي ولو بالفكر وحده عن اوق‌بالا . وهو لمصيبته محتاج الى الاثنتين معا وبنفس الوقت وهما على الارجح ، اذ تريان وتعرفان ذلك لم تحاولا استعجال الاحداث واستباقها لمساعدته على اختيار الموقف بصورة اسرع . اما في الظاهر فكان كل شيء كما هو دوما فالعلاقات الهادئة المستقرة بين المرأتين مستمرة واطفال البيتين ترعرعوا معا كابناء اسرة واحدة ولعبوا سوية دوما في منطقة المفرق وكأنهم ابناء ام واحدة متنقلين بحرية للعب تارة في هذا البيت وفينة اخرى في ذاك . . . وعلى هذه الحال مضى الصيف وعلى هذه الحال ايضا انقضى الخريف . . .

وشعر يديغي بنفسه وهو يسير ، وحيدا اثناء تساقط الثلج وحيدا وبلا مأوى . وجميع الرحاب فيما حواليه مقفرة بيضاء . وكان قره‌نار لا ينى ينفض ندف الثلج عن رأسه ، ويمزق اثناء ركضه الصمت بهديره وزمجرته . وكانت حالة صاحبه سيئة في تلك الرحلة . لم يتمكن يديغي ان يفعل شيئا بنفسه ولا ان يرتكن الى الهدوء ويستقر على حال واحدة لا تقبل الجدال والشك . لم يستطع ان يكون صريحا منتهى الصراحة مع ظريفة ، كما لم يقدر ان يتنازل عن اوق‌بالا . عندئذ بدأ يسب ويشتم ويصب على نفسه اقذع الشتائم : «حيوان ! انت حيوان مثل بعيرك ! يا سافل ! يا كلب ! يا أهبل !» وراح يؤنب نفسه على هذا النحو ، تتخلل ذلك التأنيب والتأديب شتائم بذيئة لكي يصحو ويعود الى رشده ويتوقف . . . لكن لم يسعفه شيء . . . وكان يديغي مثل ذلك الانهيال الذي تزحزح من مكانه . . . الا الاطفال كانوا السلوى الوحيدة التي كانت تنتظره . وكانوا يتقبلونه دون قيد

او شرط ، ومثلما هو عليه ، ولم يضعوا امامه مشاكل معينة . وكان هو مستعدا دائما لتقديم المساعدة لهم وجلب اي شيء يحتاجونه او اي عمل في البيت وانجز كل هذا بكل سرور وارتياح ، وها هو يجلب لهم الآن البطاطس للشتاء في كيسين كبيرين وسط العاصفة وعلى ظهر قره‌نار . وكان قد تم اختزان الاحتياط الكافي من الوقود للتدفئة ايضا . . .

كان التفكير بالاطفال ملاذ يديغي ، وفي هذا التفكير كان يبدو في وفاق تام مع نفسه . فتصور كيف سيصل بورانلي – بورانى وكيف سيهرع الاولاد من البيت عند سماعهم بمجيئة ، ولن يفلح احد بارجاعهم على الرغم من تساقط الثلج ، وسيتقافزون حوله متصايحين بصوت مرتفع : «جاء العم يديغي ! وعلى ظهر قره‌نار ! وجلب البطاطس !» – وفي هذه الاثناء سيأمر قره‌نار بصوت صارم وحازم ان ينيخ بكلكله على الارض ويبرك ، وعندئذ سينزل من فوق قره‌نار وهو مغطى بالثلج ، وينفض ملابسه ، ويلحق اثناء ذلك ان يمسد شعر الاطفال ويربت على اكتافهم مطبطبا ومن ثم يبدأ بانزال البطاطس ويتلفت ان كانت ظريفة قد خرجت ، فان خرجت من البيت ، فلن يقول لها شيئا بشكل خاص ، وحتى هي لن تقول شيئا ، وسيكتفي بالنظر الى وجهها وسيشعر بالرضا ومن جديد لا مفر من الاكتئاب والوقوع في الغم . اما الاطفال فسيحومون حوله ولا ينفكون عن الاقتراب منه حذرين خائفين من هدير البعير . وبعد ان يتغلبوا على الخوف يحاولون مساعدته ، سيكون هذا بالنسبة له بمثابة مكافأة على عذاباته . . .

تهيأ داخليا للقاء القريب مع ابناء ابى طالب مفكرا سلفا في الذي سيقوله لهم هذه المرة وعن اي شيء سيتحدث اليهم وهم الذين كما يسميهم ويصفهم خير السامعين لانهم لا يشبعون من سماع الاحاديث الطريفة ويظلون يتطلبون المزيد فالمزيد . أيتحدث اليهم مرة اخرى عن بحر آرال ؟ واحبّ الاحاديث الى نفوسهم حوادث وقعت في هذا البحر يطوّرونها فيما بعد في اذهانهم ويشترك فيها ابوهم بالتأكيد وبذلك نفسه يحتفظون بذكراه . . . ولكن كل ما سمعه يديغي وما عرفه عن الحياة في البحر قد نفد لانه قصه واعاده على اسماعهم مرارا اللهم عدا

قصة سمكة الميكريه الذهبية . وكيـــف يمكن ان تروى هذه القصة ؟ ولمن يمكنه ان يشرحها ما خلا لنفسه ذاتها وهو العارف ماذا وراء تلك الاحداث التى دارت قبل زمان قديم وما هى قيمتها وفحواها . هكذا كان يقطع طريقه فى ذلك اليوم المثلج ، ولـم تتركه الافكار والشكوك طول الطريق . . . وطول الطريق ايضا تساقط الثلج . . .

ومن ذلك الثلج الذى هطل ، حل الشتاء مجللا منطقـــة ساروزيكى بالثلج المنبسط وكانه راس قد وخطه الشيب ثـم جلله ببياضه الوقور وهو شتاء مبكر وقارس البرد منذ خطاه الاولى .

ومع بدء موجات البرد عاد من جديد قره‌نار بعير يديغي الى حالة الهيجان واستشاط واخذت تغلى وتفور فيه قوة الفحل ولم يعد اى شىء او اى احد يستطيع ان يتطاول على حريته . وفـى هذا الوقت حان الاوان لكى يكف حتى صاحبه نفسه عن التحكم فيه فان عليه ان يتنازل ويتراجع ولا يقدم على اقتحام النار وهى ملتهبة وجمرها لذاع . . .

فى اليوم الثالث عقب هطول الثلج هبت على منطقة ساروزيكى ريح صرصر عاتية وزوبعة ثلجية طاغية وساد المكان وسيطر عليه وكانه السلطان وصاحب السلطان وانتشر فوق السهب كله باسطا ذراعيه بالوصيد وناشرا جناحيه على الصعيد برد الشتاء القارس الشديد . وكانت تسمع من البعد القصى وبالوضـــوح الجلى فى صبارة القر الخطوات التى يصرصر تحتها الثلـــج واى صوت واى همس او حفيف . اما هدير القطارات على السكـــة الحديد فيسمع على مسافات العديد من الكيلومترات . امـا حين طرق سمع يديغي عند مطلع الفجر صوت رغاء بعيره قره‌نار فى حظيرته وسمعه وهو ينطط ويلوح باطرافه ويدور حول نفسه ويهزز السياج خلف البيت هائجا مائجا ادرك اية مصيبة حلـــت ببيته وسرعان ما ارتدى ملابسه وخرج فى عتمة الظلمة ودنـا الى الحظيرة صارخا وهو يبتلع هبة من الهواء الصقيعى القارس :

– ما لك يا هذا وما بك ولماذا ؟ أراك هائجا مرة اخرى وكان القيامة قد قامت وكانما حلت نهاية العالم وجاء يوم الحشر ؟ اانت مرة اخرى على طريقتك الهوجاء ؟ وعدت مرة اخرى تلغ فى

دمائى وتقلقل احشائى ! يا لك من حيوان ايها الحيوان ! اخرس قلت لك وصه . ما لك قد قررت البدء مبكرا فى هذا العام بهذه القضية . الست قد اضحكت عليك الناس وجعلت نفسك هزأة لهم ومسخرة .

ولكنه عبثا وبدون جدوى اضاع وقته وجهده وبعثر فـــى الهواء كل هذه الكلمات والعبارات ، فان بعيره الهائج حتى لـــم يعر التفاتا الى قوله وكان يريد تحقيق ارادته فواصل صراخـــه ورغاءه والصرير باسنانه وكاد يحطم سياج الحظيرة .

– اذن فقد شممت رائحة مالوفة ومرغوبة ؟ – قرر صاحبه ان ينتقل من السخط الى التوبيخ – القضية واضحة كل الوضوح انك لا تريد الآن سوى الركض فورا للالتحاق بالقطيع ، انـك تحلم باللقاء مع ناقة انيقة من حسان النوق . لست ادرى لماذا فكر الخالق البارى فى خلق جنسكم يا بعران ، وانتم تقومـون مرة واحدة فى العام بما كان يمكن القيام به يوميا دون ضجيج وعجيج وضوضاء . وما الذى يعنى الناس من امركم . ولكن كلا ، ثم كلا وكانما هى نهاية العالم وخاتمة المطاف بل وقيامـــة القيامة ! . .

كل هذا قاله يديغي البورانى لمجرد الناحية الشكلية لكى يفش غيظه اذ كان يعلم حق العلم بلا جدواه وعجزه عن تغيير الامر . ولم يكن ثمة ما يفعل فلا فائدة من هز الهواء ففتح بوابة الحظيرة وما كاد يزحزح ويزيح الثقالة الضخمة بمقاس قامـــة الانسان والمربوطة بسلسلة كبيرة حتى اندفع قره‌نار الى الخارج وكاد يسحق قدم صاحبه من سرعته وانطلق نحو السهب وهـــو يزعق ويتقافز فاتحا ما بين اطرافه بهياج ورافعا وواضعا اخفافه فى عصبية وسناماه السوداوان يهتزان مضطربين واختفى فـى لحظة متواريا عن الانظار مخلفا وراءه سحابة متطايرة من الثلج المتناثر .

– تفو عليك – بصق سيده فى اثره واضاف غاضبا : – اركض ، اركض ايها الاحمق الاخرق والا تاخرت !

كان متعينا على يديغي الذهاب صباحا الى العمل . ولهذا توجب عليه ان يتصبر على تمرد قره‌نار . ولو كان يعرف ما سينتهى اليه الامر فهل كان سيطلق سراحه ويترك له الحبل على غاربه –

مطلقا حتى ولو انفجر من الغيظ . ولكن من سواه وبدونه كان بوسعه ان يسيطر على بعير هائج فى الحظيرة ؟ فليذهب الى حيث شاء وليبتعد ما شاء . وحدث يديغى نفسه مؤملا بان البعير سوف يستنشق الهواء فتهدأ ثائرته ويقر قراره منطلقا على هواه ومتنسما نسيم الحرية فاذا ما برد هياجه وقرت نفسه واطمأنت وسكن دمه الفائر سيعود الى حالته الطبيعية . . .

ولكن جاء اليه قازانغاب فى وقت الظهيرة وقال له متضاحكا بشىء من المشاركة الشعورية :

– والآن ايها الباش سماء امرك وشأنك . كنت لتوى فى منطقة المرعى ورأيت بعيرك قره‌نار موليا وجهته فى رحلة بعيدة الغاية ويبدو لى انه مزمع الامعان فى البعاد والاسراف فى الابتعاد ولعله لم تعد ترضيه النياق الحسان فى ناحيتنا ولا تكفيه فهو متوجه فى البحث عن سواهن فى المكان القصى .

– هل هرب ؟ ولكن الى اين ؟ افلست تمزح عابثا لتغيظنى ، قل الصدق والتزم بالجد .

– وما الذى قلته مما يجانب الجد ؟ لقد قلت لك واعيد انه توجه الى اسراب اخرى من قطعان الابل فقد شم ما يتوق اليه لقد ذهبت لتفقد الوضع هناك . وما ان تجاوزت منطقة الوادى حتى رأيت شبحا يعدو فى السهب بلا ضابط ولا رابط يطوى الارض طيا وتبينت فاذا به هو قره‌نار نفسه وقد جحظت عيناه وهو يزعق فى ثغائه باقصى ما لديه من قوة ولعابه يتسايل من اشداقه ويصفر كالقاطرة . وخلفه زوبعة ثلجية حقيقية . ظننت انه سوف يدهسنى ولكنه مرق بجوارى كالسهم المنطلق من قوسه لا يلوى على شىء وكانه لا يرى امامه انسانا يلوح له لكى يقف . لقد عدا نحو جهة ملكو مديتشاب . وهناك تحت منطقة الجرف يرعى ويسرح سرب من الجمال اكبر واكثر عددا من سرب جمالنا . وهو الآن لا يهتم بما لدينا فهو فى حاجة الى مجال ارحب ونطاق اعرض . انه بهيمة فى اوج قوتها وذروة فاعليتها ونشاطها .

تحير يديغي وارتبك بشكل حقيقى . وتصور مدى المصاعب والمتاعب التى سيكون عرضة لها .

– دعك من هذا ، لا بأس فى الامر ، فلتهدأ نفسك

وليستقر خاطرك . لا بد ان تكون فى ذلك الجانب جمال قوية سوف تقابله بالردع فيضطر الى العودة كما يعود الكلب الضال معضوضا ومطرودا . – اخذ قازانغاب يهون عليه ويطمئن باله .

فى اليوم التالى اخذت الانباء تتوارد وكانها نشرة الاخبار الحربية او بلاغ الوقائع من جبهة القتال عن «العمليات العسكرية» للبعير الخطير . قره‌نار البورانى . وتولدت منها لوحة لا تسر عين الناظر ولا تطيب للخاطر . ما ان يتوقف قطار فى مفرق السكك الحديد بورانلى – بورانى حتى يتحدث سائق القطار او الوقاد او الكمسارى او المفتش بحماس عن وقاحات واعتداءات وهجمات قره نار فى مبارك الجمال عند المحطات والمفارق . وكان فيما رواه الرواة ان قره‌نار هاجم عند مفرق ملكومديتشاب جملين وانهكهما عراكا الى حد الاختناق وساق امامه الى السهب اربع نياق ولم يستطع اصحابها الرعاة استعادتها من قره‌نار الا بلاي شديد وبالجهد الجهيد . وكم اطلق الرصاص فى الهواء افزاعا له لكى ينتهى عما ازمع ويكف عن فعلاته . وفى مكان آخر انزل قره‌نار من ظهر ناقة صاحبها الذى كان يمتطيها . اما صاحبها ، الرجل العبيط ، كما يبدو ، فقد انتظر ساعتين تقريبا ظانا ان البعير بعد ان قضى وطره قد خفف خطره وسوف يطلق سراح الناقة لكى تذهب على رسلها وتمضى لحال سبيلها . وعلى فكرة فان هذه الناقة حتى لم يخطر لها على بال ان تتخلص من هذا البعير وتتملص من المهاجم المغير . وعندما مل صاحبها الانتظار ودنا الى ناقته لكى يمتطيها الى غايته ويذهب بها لطيته ويعود الى اهله وبيته فما كان من قره‌نار الا ان هجم عليه كالوحش المفترس وطارده ليقتله ولولا ان الرجل لحق فى آخر لحظة ان يتوارى فى حفرة عميقة وينزوى فيها كالفار الهارب من هرة وهو بين الموت والحياة من شدة الفزع . ثم افرخ روعه وعاد الى نفسه وارتقى حافة المنحدر فى الجهة المقابلة للمكان الذى قابله فيه قره‌نار البورانى بالويل والثبور وعظائم الامور وسارع الى اهله يتمطى شاعرا بالسعادة لسلامته وبقائه حيا .

وبلغت عبر التلفون الشفهى على ألسنة الرواة الى منطقة ساروزيكى ايضا انباء اخرى على هذه الوتيرة عن مغامرات قره‌نار الخطيرة ولكن اخطر الانباء واكثرها اثارة للقلق وتأجيجا للتأثر

ورد فى شكل تحريرى من مفرق آق موبناق . فلقد بلغت عصا الترحال بقره‌نار هذا الشيطان الرجيم اليها ويقع هذا المفرق وراء محطة قمبيل . ومن هناك بعث رسالته الشخص المدعو قوسبان . واليكم فحوى هذه الرسالة العجيبة :

«السلام عليكم ايها السيد المحترم يديغي اغا . بالرغم من كونك شخصا معروفا فى منطقة ساروزيكى يتعين عليك سماع امور لا تطيب للسمع ولا تروق للنفس . كنت اظن انك رجل اشد مراسا مما انت عليه . ما الذى حدا بك الى اطلاق سراح بعيرك الرهيب قره‌نار ؟ لم نكن ننتظر منك مثل هذا . انه قد اشاع من الرعب والروع والفزع بيننا ما لا يوصف . لقد اصاب جمالنا بالعاهات وساق منا ثلاثا من خيرة النياق ثم انه وصل الى هنا ليس لوحده بل كان يسوق امامه ناقة عائدة لاحد ما وعلى سناميها رحل للركوب . يبدو انه انزل صاحبها من فوق ظهرها . ولا يسمح لاى احد بالدنو اليها سواء أكان رجلا ام بهيمة . فهل هذا امر ينفع ؟ وكيف يمكن الصبر عليه ؟ وقد نفق واحد من جمالنا وهو جمل فتى . وظهر ان اضلاعه مهشمة بعد ان كسرها جملك فى العراك معه . اردت ان افزع قره‌نار بطلقات فى الهواء لكى اطرده واستعيد نياقنا . ولكن هيهات . انه لا يخشى شيئا ولا يعتريه خوف او وجل . وهو مستعد ان يمزق من يقرب منه باسنانه ويجتره ويلوكه وهو على قيد الحياة ! لئلا يعرقل عليه امره او يعوقه عن مزاولة فعلته . انه لا يأكل ولا يشرب ويحرس هذه النوق ويجول حولها ويغشاهن والارض تهتز تحت وقع مناسمه . وهو يختار الواحدة منهم بعد الاخرى . وتقبض النفس رؤيته وهو يفعل هذا كالوحش الكاسر ويصرخ لدى ذلك بزعيق مروع فيملأ السهب كله برغائه الصخاب كالزئير . ولا طاقة على سماعه . ويخيل الىّ انه يستطيع ان يظل يمارس عمله هذا مائة عام وعام على مر الشهور والايام بدون راحة ولا استجمام ! ولم اشاهد طيلة عمرى وحشا كهذا بل ولم اسمع به . وكل اهالى بلدتنا يشعرون بالقلق والفزع ويعتورهم جميعا انشغال البال . ويخاف النسوة والاطفال من الابتعاد عن البيوت . ولهذا فانني اطلب منك ان تأتى الينا على الفور وتأخذ جملك قره‌نار وتخلصنا من هذا البعير . واعطيك فترة من الزمن كمهلة

فان لم تصل الينا بعد يوم واحد لتنقذنا من هذه المصيبة الجانحة فلا تلمنا ولا تغضب علينا ايها الاغا العزيز . وانا عندى بندقية كبيرة العيار ورصاصاتها تخرق حتى فروة الدب وترديه قتيلا وتطرحه ارضا جثة هامدة . وسوف أتصدى لبعيرك واطلق عليه النار فالقا بالرصاص هامته وسيكون لديّ شهود عدول وبذلك تكون لهذه القصة نهايتها وتوضع لهذا الفصل خاتمته . وسوف ارسل لك جلده مع قطار البضاعة القادم اليكم . ولن يثنى عزمى انه قره نار البورانى . وارجو ان تعلم اننى رجل كلمته واحدة وفعله وقوله صنوان وقرينان . اذن فاسرع الينا قبل فوت الاوان .

اخوك الصغير من مفرق آق موبناق قوسبان» .

هكذا دارت الامور . ورغم ان هذه الرسالة قد كتبها رجل غريب الاطوار الا ان التحذير الوارد فيها جد خطير والانذار فيه شر مستطير . وقد تشاور يديغي مع قازانغاب وقررا انه يتعين على يديغي التوجه فورا الى مفرق آق موبناق . والقول بهذا بسيط ولكن تنفيذه ليس بالامر الهين . كان ينبغى الذهاب الى آق موبناق وقنص قره‌نار فى السهب والعودة به فى هذه الفترة التى تعصف فيها موجات البرد القارس وتزوبع الريح الصرصر العاتية وكان ممكنا فى اية لحظة ان تهب زوبعة ثلجية كالاعصار . وكان ابسط السبل لهذا ارتداء ملابس دافئة وركوب قطار بضاعة اما العودة فعلى ظهر قره‌نار . ولكن من الذى يعلم مدى المسافة التى قطعها قره‌نار فى السهب ساحبا معه حريمه المصون . يمكن الاستدلال من نبرة الرسالة على ان اهالى آق موبناق من الانزعاج والامتعاض بحيث انهم سوف يعطونه بعيرا للبحث عن قره‌نار وسيكون متوجبا عليه ان يقوم بمطاردة البعير فى المنطقة الغريبة عليه راجلا بين الكثبان الثلجية حتى يدرك قره‌نار .

وفى الصباح بدأ يديغي سفرته . واعدت له اوق‌بالا الطعام للطريق وارتدى يديغي من ملابسه ما يبعث الدفء . وفوق السراويل المحشوة بالقطن والسترة المبطنة لبس فروة ضأن وانتعل حذاءين لباديين طويلين واعتمر بقبعة من فرو الثعالب مستديرة لا تسمح بمرور الهواء الى الرأس لا من جهة الناصية ولا القفا ولا من الجانبين فهو محاط بالفراء من كل جانب . ولبس

كذلك قفازات فرائية وحين امتطى ظهر الناقة التى تهيأ للانتقال عليها الى آق موريناق تراكض نحوه ولدا ابى طالب كلاهما ومد داول اليه يده بلفاف صوفى طويل يدوى الحياكة قائلا :

– ايها العم يديغي ارسلته لك ماما لئلا يستبرد عنقك .

– تستبرد العنق ؟ بل قل لئلا تلتهب الحنجرة .

وراح يديغي يلاعب ويداعب الصبيين فى فرحة غامرة وقبلهما وبلغ به التأثر الى حد استعصى عليه معه ايجـــاد العبارات والكلمات الاخرى وسرت نفسه منفعلا كصبى صغير فلقد كانت هذه اول امارة وعلامة على العناية والحدب من جانبها نحوه .

– قولا لامكما – قال للصبيين وهو يبتعد – اننى سأعود قريبا ، سأرجع ان شاء الله فى يوم الغد . لن أتاخر ولن ابقى هناك فوق الحد المطلوب واللازم حتى ولا دقيقة واحدة . وسوف نلتقى نحن جميعا مرة اخرى وسوف نرتشف الشاى معا .

كم كان يديغي البورانى يود لو تسنى له الوصول على جناح السرعة الى منطقة آق موريناق اللعينة ثم الرجوع ادراجه من حيث اتى لكى تقع عيناه على طلعة ظريفة ومحياها ويتطلع الى عينيهـا النجلاوين ليقتنع بانه لم يكن لفتة عابرة هذا اللفاف الصـوفى الذى طبقه بعناية ودسه فى جيب الجاكتة الداخلي . وعندما بدأ التحرك وحينما ابتعد كثيرا عن البيت حزم امره وبالكاد تحكم فى نفسه ليمنعها من الرجوع الى الخلف . فليذهب بلعنة الله هذا البعير قره‌نار المسعور الهائج والمنفلت من عقاله فليطلق عليه الرصاص الشخص المدعو قوسبان ويبعث له بجلده وبالفعل الى متى يظل يراعى جملا راكبا راسه فليأخذه القدر . فليكن . انه يستحق هذا . اجل ، قد بدرت منه بعض هذه البدوات والنزوات ولكنه شعر بعدها بالخجل واستحى مدركا انه كان احمق الحمقى وانه اخزى نفسه فى عيون الناس وبالدرجة الاولى فى عينـى اوق‌بالا بل وظريفة نفسها فهدات ثائرته وبردت حميّاه وقرت غلواء روحه . واقنع نفسه بانه ليس لديه سوى اسلـــوب واحد لاطفاء غلته واخماد شعلته هو ان يصل الى مبتغاه سريعا ويعود باسرع ما يستطيع .

وبهذه الفكرة حث الناقة . كان البرد القارس صقيعا لاذعا . وكانت الريح صرصرا تعصف وتصفر باستمرار وحدة . وتجلد

وجهه فى مواجهة الريح وانتصب الفرو الثعالبى من البرد منتفخا كاشواك القنفذ مكتسيا ببياض الثلج الفضى مثل التخاريـم . وفرشت مثل هذه الملاءة الثلجية البيضاء المخرمة على الناقـــة الرمادية ايضا من عنقها حتى بوزها . ويبدو ان زمهرير الشتاء كان يجرى نحو أشده واغتم الافق البعيد مدلهما اما فى القريب فلم يكن من ضباب ولكنك تنظر فيعود اليك البصر متخبطا من الضباب المتلبد عند منتهى دائرة الرؤية . وهذه الضبابية كأنما ظلت تتنقل امامه على قدر تحركه فكلما انتقل مسافة ما الى الامام مشت امامه زاحفة قدما لا تفارقه . وكانت منطقة ساروزيكى وهى ملفعة برداء الشتاء قليلة الناس وصارمة الاحساس تعبث فيها الرياح العاتية الباردة .

وانطلقت ناقته الفتية ولكنها ذلول وغير عصية تسير بصورة لا باس بها وهى تقطع باخفافها فى نشاط الثلج المبكر . ولكن يديغي العجول لم يكن مثل هذا السير ليرضيه ولا مثـل هذه السرعة لتكفيه . لو كان تحتى بدلا منك بعيرى قره‌نار اذن لكان الامر تماما غير الامر . ان انفاسه الحرى غير أنفاسك فهى اقوى وخطاه اشد واوسع . لا وجه للمقارنة ولا مجال للتشبيـه . وليس عبثا ان قيل منذ قديم الزمان :

هذا الجواد الاسحم الكريم يعدو سريعا مطلقا العنان
فارسه بعقلـه السليـــم اصبـح فارس الفرســان

كانت غاية السفر بعيدة ونائية ، وطيلة الوقت فى وحدة وعلى انفراد . وكان ممكنا ان يشعر يديغي بالاعياء والانهاك فى هذا الطريق لو لا اللفاف الذى اهدته له ظريفة . فقد كان يحس على طول الطريق بوجود هذا الشيء الذى قد يبدو للوهلة الاولى وكأنه تافه وزهيد . ولكم عاش طويلا فى هذا العالم ولم يكـن ليخطر له على بال ان مثل هذا الامر الطفيف القليل يمكنه ان يدفئ الصدر وينعش النفس ويحيى القلب الى هذا الحد اذا كان مصدره الامراة المحبوبة وكل قليل ممن تحب كثير . وبهذا شغل نفسه طيلة الطريق وكان يدخل كفه فى عبه ويتحسس اللفاف ويمسده فتطرأ على شفتيه ابتسامة الرضا . ولكنه على اثر ذلك يستغرق فى التفكير ويغرق فى التأمل . ما العمل وكيف ستكون حياته لاحقا ؟ فكان يرى امامه الطريق المسدود فلا مخـرج ولا

منفذ . فما العمل ؟ ان الانسان الحى يجب ان يعيش وينبغى ان يضع نصب عينيه هدفا وغاية وان يرى الدرب نحو هذه النهاية لاحبا وواضحا . ولكنهما بالضبط لم يكونا متوفرين لديه فلا الدرب ولا غايته .

وحينئذ سد مجال البصر امام عينى يديغي البورانى ضباب متلبد مثل هذه الرحاب الساروزيكية الصامتة التى يرخي عليها الزمهرير ستاره ويبسط عليها خماره . ولم يجد يديغي جوابا عن السؤال ولم يعثر على تفسير وتاويل لحياته القادمة فانهار من الداخل وانفعل واعتاصت عليه الحلول وعادت اليه من جديد احلامه غير قابلة للتحقيق . . .

واحيانا بدا له انه فى وضع فظيع للغاية وشعر بالرهبة والروع وهو فى هذا العالم الصامت والموحش . وتساءل : كيف قيضت له حياة كهذه ؟ لم قدر له ان يعيش فى ساروزيكى ؟ ولماذا ظهرت فى بورانلى – بورانى هذه العائلة الشقية التى طاردها القدر ؟ ولو لم يكن هذا كله لما جرب كل هذه المنغصات ولعاش فى سكينة وهدوء وبراحة ومتعة . ولكن هيهات هذا فها هى روحه لا تستقر ولا يقر لها قرار ولا تقنع بنصيبها فهى تطلب فوق ما لديها وتتوق الى المستحيل . . . ثم ها هو هذا البعير المنفلت من العقال والمسمى قره نار يشكل ايضا عبئا وثقلا وهو كذلك عذاب وعقاب من الله فيا له من حظ تعيس ونصيب منكود . وليس هذا ، بالهزل فانه حقا من اتعس الناس حظا وانكدهم طالعا . . .

وصل يديغي الى آق موبناق والمساء يكاد يحل ويرخى ستوره وكانت الناقة قد اعياها المسير وهدّ حيلها التعب . وكان الدرب طويلا ثم قد تعين اجتيازه فى فصل الشتاء .

ومحطة آق موبناق شانها شأن بورانلى – بورانى مفرق فى السكك الحديد الا ان الماء هنا محلى مأخوذ من الآبار . ولكن ليس ثمة عدا هذا من الفروق ما يذكر فهذا المكان هو ساروزيكى نفسها .

وعند بلوغه آق موبناق استفسر يديغي من صبى التقى به فى طرف الزقاق الصغير حيث يقطن قوسبان . وقد اجابه ان قوسبان موجود فى هذا الوقت بالذات فى موضع عمله كمراقب

فى المفرق . والى هناك توجه يديغي البورانى . ذهب الى محل نوبة المراقبة ولم يكد يترجل حتى ظهر عند المدخل رجل متوسط القامة بادى النشاط ماكر النظرات يلتف بمعطف قصير من الفرو كانما ليس له ولا على مقاسه وفى حذائين لباديين قديمين وعلى راسه قبعة بالية مائلة الى الجنب .

– ها انت ذا يديغي اغا يا عزيزنا البورانلى اغا – رحب بيديغي وقد عرفه راسا وهو يتأرجح قافزا من عتبة المدخل – اذن فقد جئت ونحن طال انتظارنا اياك . نفكر ونحزر هل سيجيء الينا ام انه لن يجيء .

– وكيف يمكن الا أجيء – رد يديغي متضاحكا – بعد تسلمى منكم مثل هذه الرسالة الغاضبة .

– كيف لا وما من حل آخر . ولكن الرسالة هى نصف المصيبة ، يا يديغي اغا . وما الرسالة سوى ورقة . اما القضايا هنا فهى تتطلب منك تخليصنا بصورة مستعجلة من بعيرك قره نار والا فاننا هنا كاننا فى حالة حصار ليس بوسعنا الذهاب الى السهب فانه ما ان يلاحظ احدا ما قادما من بعيد حتى يركض هاجما عليه كالمسعور متهيئا لاصابته بعاهة مستديمة . يا له من هول عجيب ! ما افظع ان يمتلك المرء مثل هذا البعير . – ثم التزم الصمت ورنا الى يديغي راكبا واضاف : – ولكنى اريد ان اشاهد كيف ستسيطر عليه باليدين المجردتين . اليس كذلك ؟

– لم باليدين المجردتين ؟ فهذا سلاحى معى – واخرج يديغي من الخرج كرباجا مطويا على نصفه .

– ماذا ، أبهذا السوط ؟

– وبماذا اذن ، وهل تريدنى ان استخدم ضد البعير مدفعا ؟

– ونحن هنا لا نستطيع كبح جماحه بالبنادق . ولست ادري ، لعله بالطبع سوف يعرفك كسيده وصاحبه وعندئذ . . . ولكن ذلك من المستبعد فان عينيه غائرتان لا تريان ولا تميزان وكانهما غارقتان فى الدخان . . .

– هذا ما سوف نراه ، ولسوف نرى ما نرى – اجاب يديغي – ما لنا نضيع الوقت سدى ؟ يبدو انك نفسك قوسبان .

فان كان ذلك كذلك حقا فدلنى ، رجاءا ، وارنى اين بعيرى وفى اى مكان هو الآن اما الباقى فدعه لى .

– ليس المكان قريبا جدا – قال قوسبان واخذ يتطلع متلفتا الى جانبيه ثم رنا الى ساعة يده – اسمع ، يا يديغي اغا ، الوقت الآن متاخر . الى ان نصل الى هناك سوف يحل المساء . وكيف ستذهب فى الليل الساجي والظلام الداجي كلا ، هذا لا يصح . اناس من مقامك ليس ممكنا دوما دعوتهم الى الضيافة فانزل ضيفا علينا على الرحب والسعة واهلا بك وسهلا . لننتظر للصباح وفى الصباح الرباح . ومنذ الصباح الباكر افعل ما يحلو لك ويطيب وانت وشانك .

لم يكن يديغي ينتظر مثل هذا المنقلب فى تطور الامور . كان يؤمل ان يتم الامر على المرام ان يشد على قره نار الزمام ويجره هذه الليلة وياخذه الى قمبيل وهناك يكون المبيت قرب محطة القطار عند معارف له ثم عند مطلع الفجر التحرك مبكرا نحو البيت . وحين لاحظ قوسبان ان يديغي عازم على الرحيل احتج بحزم :

– كلا ثم كلا يا يديغي اغا ، هذا ما لن يكون على هذا النحو . اعذرنى عن الرسالة ولهجتها فانى استميحك العذر ولكن لم يكن لدى مخرج آخر . فان البعير لم يدع لنا مجالا للعيش ونغص علينا حياتنا الا اننى لا يمكن ان ادعك تذهب . فان حدث لك سوء لا سمح الله فى الليل البهيم وفى السهب الشتوى المهجور فاننى لا اريد ان تسوء سمعتى وينتشر عنى الذكر السيء فى كل منطقة ساري – اوزيكى . ابق عندنا ، ارجوك ان تبقى ، وفى الصباح افعل ما تشاء . هذا هو بيتى على طرف . بقى من عملى فى نوبة الرقابة ساعة ونصف الساعة . خذ راحتك عندى وكن كانك فى بيتك وكما يقول الكرام «يا ضيفنا لو جئتنا لوجدتنا – نحن الضيوف وانت رب المنزل» اما ناقتك فاربطها فى الحظيرة وهناك ما يكفى من العلف . والماء العذب لدينا متوفر من آبارنا .

سرعان ما هبط الظلام فى ذلك النهار الشتوى . وظهر ان قوسبان واسرته من اطيب الناس واكثرهم حسن معشر . فان والدته العجوز وزوجته وصبيه البالغ سن الخامسة من عمره

(وظهر ان ابنته الكبرى كانت تتلقى تحصيلها فى المدرسة الداخلية بقمبيل) وقوسبان نفسه كان شغلهم الشاغل ارضاء الضيف واراحته ولا هم لهم سواه . كان البيت مدفأ بالنار الى حد جعله حارا وهو يموج بالحركة المنتعشة على نحو خاص الى حد الهرج والمرج وهو نابض بالحياة . وطهى اللحم فى المطبخ من مؤونة الشتاء . فى هذه الاثناء كانوا يشربون الشاى . وكانت الوالدة العجوز تصبه بنفسها فى الفناجين وتقدمه الى يديغي البورانى ولا تفتأ تعيد عليه الاسئلة التقليدية مستفسرة عن احوال العائلة وصحة الصغار وشؤون الحياة المعاشية وعن الطقس عندهم ومن اية عشيرة ينحدر وما هى شجرة بيته فى النسب وهل هو من اهل الحسب وتحدثت هى بدورها عن وقت وكيفية مجيئهم الى مفرق آق موريناق . وكان يديغي يجيب برغبة على كل هذه الاسئلة ويشارك فى الحديث بسمعه ولسانه وقلبه متجاذبا معها اطراف الحديث واطرى متاديا الزبدة التى كان يطلى بها الكسر من ارغفة الخبز وهى صفراء فاقع لونها يسر الناظرين ثم يدسها فى فمه متلذذا بطيب المذاق لقمة فلقمة . وسمن البقر فى ساروزيكى نادر . ان سمن الضان والمعز والابل لا يعاب ايضا وليس عليه غبار ولا باس به كغذاء ولكن سمن البقر على اية حال الذ مذاقا واشهى طعما . وكان بعض اقربائهم قد بعثوا اليهم سمن البقر من منطقة الاورال . وكان يديغي وهو يغمس طرف كسرة الرغيف من الخبز فى هذا السمن يؤكد انه يتحسس فيه حتى نكهة رائحة اعشاب المرج وهذا ما كان له وقع طيب فى نفس العجوز وفى قلبها اجمل موقع فراحت تتحدث عن موطنها ومسقط راسها فى اراضى منطقة الاورال التى يسميها القزاخيون فى لغتهم بنعت الرحبة والفسيحة وكانها لديهم رحاب الكون وعما تحتويه فى حناياها من اعشاب وغابات وانهار . . .

وفى هذه الاثناء دخل عليهم رئيس محطة المفرق ارليبيس الذى دعاه قوسبان فى ضيافته بمناسبة قدوم يديغي البورانى . ويدخول ارليبيس بدا عفويا وبحد ذاته حديث فياض خاص هو حديث الرجال عن الخدمة ومتطلباتها واعمال النقليات ووسائط المواصلات وعن المشاكل التى تحدثها كثبان الثلج على خطوط السكك الحديد . وكان يديغي على بعض المعرفة مع ارليبيس

هذا فى السابق ايضا فهو يشتغل منذ وقت طويل وامد بعيد فى طرق السكك الحديد اما الآن فقد جرى التعارف على قرب وعن كثب . كان ارليبيس اكبر سنا من يديغي . وقد عين رئيسا لمفرق آق موبناق منذ ان وضعت الحرب أوزارها . وكان واضحا ومشعورا به انه يحظى بين اهل المفرق بما هو جدير به من التقدير والتوقير والتبجيل .

كان الليل فحيما حالكا وضاربا اطنابه وقد أسدل أستاره على النوافذ . وكما هو الشان فى بورانلى – بورانى كانت القطارات تمر بين الفينة والاخرى صاخبة وباعثة الضجيج بوقعها الرتيب وزجاج النوافذ يئز ويصرصر والريح تصفر من خلال شقوق النوافذ . ومع ذلك فان هذا كان موضعا آخر تماما رغم وقوعه على نفس الخط من السكك الحديد الذى يمر عبر ساروزيكى وكان يديغي الآن بين اناس آخرين تماما . كان هنا ضيفا . ورغم كونه جاء لكى ياخذ معه قره‌نار الجامح الهائج فقد استقبل هنا على النحو اللائق بالترحاب والبشاشة من صميم الافئدة والحشاشة .

حين جاء ارليبيس ودخل عليهم وشاركهم احاديثهم شعر يديغي كانه بين اهله وذويه . كان يديغي يعرف جيدا وحق المعرفة التقاليد القديمة العريقة لدى القزاخيين . وسرعان ما انتقل الحديث الى موضوع الزمان القديم وذكر اسماء المشهورين من الناس فى هذه البقاع واحداث التاريخ الكبار . واستفاض يديغي مسترسلا فى هذا المساء بانفتاح نفس وفيض شعور ازاء اصدقائه ومعارفه الجدد من قاطنى آق موبناق . وقد استمالته الى هذا لا مجرد الاحاديث الطوال والمحاورات وانما ايضا بدرجة كبيرة كرم الضيافة وحسن الوفادة وكل ما لذ وطاب من الطعام والشراب . وكان على الخوان ايضا شراب الفودكا . وبسبب شدة الزمهرير والبرد المرير والسفر الطويل على الدرب البعيد اقبل يديغي على الشرب مرتشفا القدح الى نصفه وتناول من الشحم المقدد المملح المأخوذ من سنام ناقة صغيرة السن والموضوع فى صحون على الاسكملة المدورة الواطئة وهو المسمى عندهم ، اوروقوتش وشعر برعشة التلذذ من المتعة المنعشة تسرى فى بدنه وتتمشى فى اعضائه عضوا فعضوا كما يتمشى البرء فى مفاصل السقيم عند تماثله الى الشفاء . واعترى يديغي البورانى مس من الخمار

وانتعش قليلا ونشطت نفسه وتراءت مرتسمة على شفتيه ابتسامة الغبطة . وسمح ارليبيس كذلك لنفسه بالانبساط رافعا وشاربا الانخاب فى صحة الضيف وعلى شرفه وتكريما لمقدمه وشعر ايضا بعلو نفسه ونهوض مزاجه الرائق . ولهذا قال لقوسبان وهو فى هذه الحالة من الانتعاش والارتعاش :

– تفضل متلطفا يا قوسبان ، استحلفك بالله ، واجلب لى من بيتى آلة الدومبرا الموسيقية لكى اعزف لكم عليها قليلا .

– هذا هو عين الصواب – قال يديغي مشجعا ومستحسنا – منذ نعومة اظفارى وانا احسد الذين يحسنون العزف على الدومبرا .

– لا اعدكم بعزف رائع يا يديكه ولكنى اتذكر شيئا من اصوله وسوف احاول اداءه على شرف حلولك فى ديارنا وبين ظهرانينا . – قال ارليبيس وهو يخلع سترته ويرميها عن كتفيه ويشمر مسبقا عن ساعديه رافعا اكمام قميصه الى اعلى مرفقيه .

وخلافا عن قوسبان الحرك القوال كان ارليبيس اكثر حفاظا وتحفظا واضبط للنفس وهو ممتلئ الوجه وطرير البدن يبعث الثقة فيه والاطمئنان اليه . وحين تناول الدومبرا بيديه تركز وركز اهتمامه على ما هو مقبل عليه واستجمع أمره وكانما ابتعد مسافة ما مرتفعا عن مستوى الحياة اليومية العادية . وهكذا يحدث حين يتهيأ الانسان لكشف النقاب ورفع الحجاب عن مكنون ذاته المصون وثمين كنزه الدفين . ورنا ارليبيس وهو يضبط الاوتار ويوضب الآلة نحو يديغي ملقيا عليه نظراته الطوال مفعمة بعمق التأمل وشعشع فى عينيه السوداوين الواسعتين الناتئتين ببعض الجحوظ وميض الضوء منعكسا كالبروق على صفحة سطح البحر . اما عندما اخذ يطرق بالضربات اوتار الدومبرا وتسابقت اصابعه الطوال العراض صاعدة نازلة على رقبة الآلة بكل ارتفاعها واتساعها مطلقا مرة واحدة ومعا حزمة كاملة من متنوع الاصوات متناغمة فى لحن منسجم وراحت تنفك واحدة اثر الاخرى عقد الصرر المحزومة سابقة ولاحقة متطورة فى موضوع واحد له وجوه عديدة ولكنه مربوط بخيط رفيع ومشدود ناثرا باقات الالحان بسخاء من طبقات الاوتار فقد احس يديغي البورانى وادرك انه لن يكون سهلا ويسيرا عليه سماع

هذه الموسيقى التى تشنف الآذان وتثير كوامن الأحزان . وذلك لانه كما يبدو لم يفعل شيئا سوى انه اشغل باله والتهى قليلا ورويدا عن نفسه وهو فى الضيافة وبين مضيفيه متشاغلا لا مشغولا عن افكاره وخواطره ولكنه عند انطلاق اولى نغمات الدومبرا عاد الى نفسه من جديد وسقط مجددا على ام رأسه فى لجة الآلام والمصائب . من اين جاءته هذه الحالة الداخلية ؟ يبدو وكأن هؤلاء القوم الذين وضعوا موسيقى هذه الألحان كانوا يعرفون فى زمانهم السحيق كيف وماذا سيكون فى قابل الايام وقادم الشهور والاعوام مع يديغي البورانى وما هى الاعباء الثقال وخلجات العذاب المكتوبة على جبينه والمقدرة عليه منذ ولادته . فهل الأمر كذلك ؟ والا فكيف استطاعوا ان يعرفوا مشاعره وخوالجه وآلامه ولواعجه وعرفوا سلفا احساسه لدى سماعه هذه الموسيقى وكان نفسه هى التى تتكلم وتعبر عن نفسها فهو يسمع صوته فى هذا اللحن الذى عزفه ارليبيس ؟ مارت روح يديغي واضطربت وطارت شعاعا واستطارت واخذت تئن انين الثكالى وتحن حنين النياق الى سقابها وفى دفعة واحدة انفتحت امامه كل أبواب الدنيا على مصاريعها وتجمعت فى مكان واحد الأفراح والأتراح والمباهج والأحزان وتماوجت الافكار والظنون وتمازجت الرغبات المبهمة والشكوك المستلهمة . . .

كان عزف ارليبيس على الدومبرا بالفعل اخاذا بالاسماع والقلوب . عادت الى الحياة من جديد منبعثة من اغوار الماضى السحيق ألوان المعاناة التى خالجت نفوس قدامى الناس فى قديم الازمان وسالف العصر والأوان وخرجت من بين الأوتار حرة منطلقة تدب فيها الحياة وهى تحترق كأحطاب الاخشاب اليابسة فى موقد النار الملتهب . اما يديغي فقد كان يفكر تلك الساعة وهو يداعب متلمسا باصابعه بين حين وآخر وماسحا برفق وحنان على اللفاف الصوفى الذى اهدي اليه واخفاه فى جيب جاكتته الداخلى فى ان الدنيا فيها الامراة التى يحبها ويهواها وان التفكير فيها بحد ذاته يجمع ما بين حلاوة الآمال ومرارة الآلام وانه بدونها عاجز عن الحياة ، فليس له عنها غنى ولهذا فانه سيظل يحبها مدى العمر وما دام حيا يرزق ومهما كان من امر . وبهذا بالضبط تغنت الدومبرا وهى بين يدى ارليبيس تارة

بالصوت الخافت الذى لا يكاد يبين كالنار الخامدة الهامدة واخرى بالرنين العالى مشتعلة كالنار الواقدة الواصدة . كانت التلاوين فى التلاحين تتعاقب بين الحين والحين وكل لحن منها يسلم الى لحن وينتقل متحولا من نغم الى نغم مناسبا فى نفس يديغي باعثا فيها طورا لذة الراحة وطورا آخر عذاب الألم وكأنها قارب تتلاعب به الامواج أو ريشة فى مهب الرياح . ومرة اخرى وجد نفسه بعين الخيال وقد عاد بفكره الى بحر آرال وخطرت على ذاكرته التيارات البحرية غير المرئية على طول الشواطئ وتحزر اتجاهاتها بالنظر الى الاشنات المائية طويلة الألياف وكثيفة الغزول كأنها شعر المراة التى تسبح مع التيار مراوحة ومتراوحة فى نفس المكان . وقد كان فى حينه لدى اوق بالا مثل هذا الشعر الطويل الكثيف والناعم الخفيف والذى طال حتى تدلى الى ما تحت مستوى الركبة . وعندما كانت تسبح فى البحر كان شعرها يطفو ويطوف بعيدا عنها فى ناحية وكأنه مجموعة من الطحالب البحرية والاشنات المائية يتلاعب بها التيار . وكانت عندئذ تضحك فى سعادة غامرة وهى آنذاك الجميلة الحسناء والفاتنة السمراء .

وكان يديغي البورانى فى حالة انتعاش نفسى حساس وهو يستمع الى نغمات الدومبرا . وهذا وحده كان يستحق ان تضرب اليه اباط الابل وتقطع المسافات فى اجتياز الدرب طول النهار فى برد الشتاء القارس بمنطقة ساروزيكى . واخذ يديغي يفكر بينه وبين نفسه : «حسنا فعل قره نار اذ انساق الى هنا وجئت انا او جاء بى وجعلنى مضطرا الى المجيء . وها قد تلذذت روحى وتمتعت نفسى بسماع عزف الدومبرا . فما أبرعك يا ارليبيس . احسنت ثم احسنت . انك لعازف كبير كما ظهر ولم اكن على هذا بذى علم وفوق كل ذى علم عليم . . .»

وحين كان يديغي يستمع الى عزف ارليبيس اخذ يفكر فى شان نفسه محاولا ان ينظر الى حياته من جانب ويتطلع الى داخله من جهة جانبية والارتفاع فوق مستوى موضعه فيها كما يلقى النسر الطائر محلقا فى السماء نظرته النفاذة ليستطلع السهب المتبسط تحته كالبساط فهو يرتفع أعلى فأعلى ومن هناك ، من الأعالى فى وحدة تامة معلقا على جناحيه المبسوطين الى آخر

اتساعهما فوق تيارات الهواء ينظر الى ما فى الأسفل . وانبسطت امام ناظريه لوحة عريضة لمنطقة ساروزيكى فى فصل الشتاء . وهناك عند منعطف لا يكاد يلحظ لخط طريق السكك الحديد تتلاوح حفنة متناثرة من بضعة بيوت منفردة تشعشع من نوافذها اضوية تبعث بصيصا من النور . وهذا هو مفرق بورانلى-بورانى . وفى واحد من هذه البيوت اوق بالا مع ابنتيهما . ولعلهما الآن غارقتان فى احضان الرقاد . اما اوق بالا فربما هى ، وعلى الاغلب والارجح ، غير نائمة . انها تفكر فى امر ما ولا بد ان امرا ما يشغل بالها ويقلق فؤادها والقلب يوحى كالدليل ، بما يؤجج الغليل . وفى بيت آخر ظريفة مع ولديها وهى بالتاكيد ساهرة . ما اصعب حالها وما اعسر مآلها وكم عليها ان تتجرع لاحقا من مر الآلام فالصغار لا يعرفون بعد من شأن والدهما الحقيقة البلقاء . واين المفر فلا منحى ولا منجى فان الحق لا بد ان يقال والمعرفة ستطولها يد المنال . . .

واخذ يتصور القطارات ماضية هذه الساعة فى دربها وهى تلعلع وسط آناء الليل تشعشع منها الاضواء وتثير عثير الثلج كزوبعة تراب من رمال الصحراء ويا لها من ليلة ليلاء مرخية ستارها بلا انتهاء . وغير بعيد عن هذا الموضع الذى ينزل فيه ضيفا ويستمع الى رنات الدومبرا كانات القيثارة فى ذلك السهب المظلم بلا بصيص ضياء والموحش بلا نأمة ضوضاء وبين الثلوج العاصفة والرياح القاصفة يتراكض هائجا مائجا بعيره الجامح الذى لا يكل ولا يمل ولا يتعب قره‌نار وهو لا يعرف للنوم طعاما وليس له بالراحة والاستجمام عهد ولا يريد الهدوء ، وهذا هو حكم الطبيعة وهى احكم الحاكمين . طول العام يستجمع قواه ، وعلى مدى الايام يواصل يوما فيوما تناول الطعام ويجتر علفه فى سكينة وسلام ويظل كل هذا الوقت يلوك علكه المضوغ بفكيه الجبارين ولهذه العملية بالذات هيئت له معدة المجترات فهى فى البداية تخزن له ما يعتلفه مما يختطفه خبط عشواء من العاقول والحلفاء وشجرة السكسهول الشوكاء ثم تعيده له الى فمه فتتحلب اشداقه فى المضغة الثانية فيقطعه بأسنانه ويجمعه بلعابه ولسانه وهو ما يزاوله البعير فى اى وقت يشاء من بكرة او عشاء فهو يجتر علكته ويلوكها اثناء السير وحتى خلال النوم وكل

هذا لكى يستجمع القوى فى سنامه . وكلما قوى السنام وتلبد وسمك الشحم فيه وتصلب كالعظام كان الجمل أقوى وأصلب عودا فى موسم السفاد فى الشتاء وعندها لا يأبه بالثلج الصاقع ولا يكترث بالبرد الساقع ولا يخشى من الامر الواقع ولا يخاف حتى من صاحبه ومولاه ناهيك عن الناس الغرباء سواه . وحينئذ يزداد عتوا وغلوا وتدير رأسه قوة قهارة لا تغلب وهو عند ذاك ملك البيداء وسلطان الصحراء لا تاخذه سنة ولا نوم ولا يعتريه تعب ولا يعتوره خوف وكأنما ليس حوله لا احد ولا شىء وليس قربه من شخص او شاخص ولا يهمه لا الطعام ولا الشراب ولا اى شىء عدا اطفاء شعلته الهائلة وغير الزائلة . فانه عاش لها وبها طيلة العام وظل يستجمع قواه من أجل هذا يوما بعد يوم . وفى هذه الساعة كان يديغي البورانى يجلس ضيفا فى حضن الدفء وهو يستمع الى العزف على أوتار الدومبرا بينما فى مكان ما حول هذا المكان وفى هذه الليلة الليلاء وسط الثلوج المغمورة بنور القمر الفضى كان قره‌نار البورانى يفور هائجا مائجا مستجيبا لنداء دمه الفوار وهو يحرس فى غيرة هوجاء وحماسة طاغية نياقه القريبات الى قلبه من كل غريب ولا يسمح بالدنو اليهن لا لوحش ولا حتى لطير ولا لاى احد كان فهو يهدر ويزعق ويزمزم ويهز لحيته السوداء الشعثاء باعثا الفزع حواليه .

وعن هذا ايضا فكر يديغي وهو يستمع الى انغام أوتار الدومبرا . . .

وحملته انغام الموسيقى فى لحظة على كف الفكر من الماضى الى الحاضر ثم اعادته من جديد الى الماضى مرة اخرى . ثم نقلته الى ما هو منتظر فى يوم الغد . ونشأت لديه عند ذلك رغبة غريبة هى ان يصون ويحجز ويحمى من الخطر كل ما هو لديه حبيب وعزيز وكل العالم الذى يحوطه ويكتنفه لكى يصونه من كل سوء ويجنب الشر كل من فيه وما فيه . وهذا الشعور المبهم لديه بذنب محسوب عليه حيال كل من كان له ارتباط وصلة بحياته قد اثار فى نفسه حزنا غامضا . . .

– ايه ، يديغي – ناداه ارليبيس وهو يبتسم فى تأمل مكملا العزف بانتقاء الاوتار الواطئة الهامسة – يبدو انك متعب من وعثاء

الطريق وينبغى تامين الاستراحة لك بينما انا اواصل العزف على الدومبرا دون ان احسب لشىء حسابا .

– كلا ، كلا ، ما قولك هذا يا ارليكه . – قال يديغي بصدق ومن الصميم وهو مرتبك واضعا كفه على صدره كاشارة تقدير – بالعكس لم اشعر منذ امد بعيد بمثل هذه الحالة النفسية الطيبة مثلما انا عليه الآن . اذا كنت انت نفسك لم تتعب ، فهيا واصل العزف وشنف آذاننا بموسيقاك الرائعة . وتفضل علينا بفضلك الغزير فاعزف ما شاء لك العزف .

– واى نوع من الموسيقى والالحان تريد ؟

– انت بهذا اعلم واخبر يا ارليكه . والاستاذ نفسه سيد العارفين بما يطاوعه منها وما يحلو . وبالطبع فان القديم من الالحان اولى بان يحب ويرغب فانها اقرب الى النفس وأحب اليها واعز عليها . ولست اعرف السبب الا اننى أدرى انها تستحوذ على النفس وتمتلك ناصيتها امتلاك العزيز المقتدر وتبعث من الخواطر والافكار ما تلتهب به الروح كاشتعال النار .

واوما ارليبيس برأسه ايماءة المدرك لهذه المعانى .

– ان صاحبنا وصديقنا العزيز قوسبان ايضا على هذه الشاكلة – قال ارليبيس متضاحكا وناظرا الى قوسبان الذى صار هادئا متاملا على غير عادته – فهو ما ان يستمع منصتا الى انغام الدومبرا حتى يكاد يذوب من التاثر ويغدو كانه انسان غيره وغير الذى كان لحد الآن وسيكون بعد أوان . أليس الامر كذلك يا قوسبان ؟ ولكن عندنا اليوم ضيف عزيز فلا تنس هذا ولا تغفل عنه فصب لنا قليلا فى الاقداح .

– هذا ما سافعله فى الحال – قال قوسبان منتعشا وخف بنشاط فاترع الاقداح بالخمر .

وشربوا وتناولوا من النقل والمقبلات والوان الطعام . وبعد هنيهة انتظار واستراحة عاد ارليبيس فتناول بيده الدومبرا وتفحصها من جديد وضبط أوتارها ضاربا عليها كما اتفق ليتحقق من صحة ضبط الآلة .

– ما دمت ممن يهوى القديم ويحن الى انغام الماضى وممن يهوى الحان زمان – قال مخاطبا يديغي – اذن فلسوف اذكرك بهذه القصة يا يديكه . وكثير من الشيوخ عندنا يعرفونها

ويتذكرونها بل وانت ايضا من العارفين بها . وعلى فكرة فان قزانغاب لديكم ممن يحسنون ويجيدون رواية الاحاديث ولكنه يتحدث قولا اما انا فحديثى هو العزف والغناء فكاننى مسرح كامل وحيد الممثل بل انا فيه المؤلف والممثل والمخرج . وانا الآن اقدم عرضا خاصا بمناسبة قدومك وعلى شرفك . وسيكون موضوع هذا العرض «نداء رحيم الله ـ اغا الى اخيه عبد الخان» .

واوما يديغي ايماءة الشكر والامتنان . أما ارليبيس فقد مرر اصابعه على الأوتار وأخذ يعزف اللحن المعروف وهو مقدمة موسيقية قبل الغناء ومن جديد عادت الأوتار تئن فى أنين حزين وراحت نفس يديغي تتلوع مع اللحن لان كل ما تسرده هذه القصة من تفاصيل كان لها بحذافيرها صداها ورجعها فى نفسه فهى معروفة لديه واثيرة عليه ومؤثرة فيه بحكم التشابه فى الانفعال والتماثل فى الامر . وكان ذلك فى هذه المرة بمزيد من الكآبة والتوق والادراك على نحو خاص .

رنّت الدومبرا وانّت وترنّت وحنّت وراحت تكرر صوت ارليبيس منطلقا فى الغناء وهو أجش قليلا وواطئ الطبقة ومتناسب كل التناسب مع الحديث عن المصير الفاجع فى مأساة شاعر البادية الشهير (المسمى محليا جيراو بمعنى الراوية) رحيم الله ـ اغا . وقد كان متجاوزا سن الستين من عمره حين وقع فى هوى صبية فتية وحسناء غيداء بنت تسعة عشر ربيعا هى المغنية الجوالة بيغيماى وكانت تبرق مشعشعة كالنجم الساطع فى سواد الليل البهيم وتضوى منيرة درب حياته كنجمة الصبح فينوس – كوكب الزهرة – وهى البادئة بحبه . ولكن بيغيماى كانت حرة الروح طليقة النفس تعيش وفق قانونها الخاص وعلى هواها وتتصرف بنفسها حسب مشيئتها وحدها . وقد شجب الخلق رحيم الله ـ اغا على حبه هذا . ومنذ ذلك الحين تنوقلت قصة هذا الغرام على الافواه وتنقلت على الألسنة من شفاه الى شفاه . وكان له انصاره وخصومه . ولكن لم يكن ثمة من لا يبالى بها ولا يكترث لها . بعضهم لا يقبلها ولا يرضاها ويرفضها ويعترض على تصرفات رحيم الله ـ اغا ويطالب بان يترك اسمه فى غيابة النكران ويغفل مهملا فى زوايا النسيان ويشعر آخرون بالتعاطف معه ويعيشون ما عاشه بمشاركة الوجدان ويشاطرون هذا

الحزن المرير الذى سحق قلب العاشق الولهان ويبلغونه ابا عن جد فتتلاقفه الاجيال . وهكذا عاشت حية خالدة قصة رحيم الله-اغا وله فى كل عصر وجيل مهاجمون ومدافعون واعداء وخلان .

وتذكر يديغي فى ذلك المساء كيف استشاط غضبا وثارت ثائه وجن جنونه بسبب ذلك الرجل اللعين سنقرى العينين وهو يقلب اوراق ابى طالب قطبايف فيجد بينها نص النداء الذى خاطب به رحيم الله-اغا اخاه عبد الخان . اما ابو طالب فلقد كان على العكس من هذا ، يقدر عالى التقدير هذه القصيدة وكان يسميها قصيدة جوته الصحراوى وظهر ان ابناء الشعب الجرمانى والناطقين باللغة الالمانية كان لديهم ايضا شيخ وحكيم وقع فى هوى فتاة صغيرة السن . سجل ابو طالب كلمات الاغنية عن رحيم الله-اغا برواية قزانغاب على امل ان يقراها من بعده ابناؤه حين يكبرون ويصبحون رجالا راشدين . وكان ابو طالب يقول حينئذ ان بعض الحالات الخاصة والحوادث الفردية ومصائر بعض الناس تغدو بعد مرور الزمن ذخرا لدى الآخرين وذخيرة لمن يعتبر منهم بالعبر وذلك لان الدرس المستنبط من هذا الحدث او ذاك من الرفعة والعلاء جامعا فى نفسه الكثير من المشابه والنظائر بحيث ان ما جرى لفرد واحد كانما ينتشر ويمتد على حياة كل الناس وجميع البشر فى ذلك الزمان بل وفى كل الازمان فتنعكس فيها وعليها معاناة من خلفوهم وعاشوا بعدهم بزمان طويل وطويل . . .

كان يجلس امام يديغي البورانى ارليبيس وهو يعزف مستوحيا ومستلهما على الدومبرا ويصاحب انغامها بصوته مغنيا . وارليبيس هذا هو رئيس محطة المفرق الذى يتوجب عليه بالدرجة الاولى الاشراف على حركة القطارات عبر طرق السكك الحديد فى قطاع معين عهد به اليه وهنا موضع للتساؤل عن السر الذى حدا به ان يحمل بين طوايا نفسه وزوايا ذاته قصة العذاب المؤلمة العائدة الى الماضى السحيق وهى قصة رحيم الله-اغا التعس المنكود ولماذا يتعذب ويتالم وكانما قد حل محله ودخل فى جلده فهو يعانى ما عاناه . . . ذلك هو تاثير الموسيقى الرائعة والغناء الحقيقى والفن الرفيع . واخذ يديغي يفكر بينه وبين نفسه : لو امرت بان اموت الآن ثم اولد من جديد وانا

اموت واحيا مع هذه الموسيقى فاننى مستعد فى هذه اللحظة للموت والولادة . . . آه ما اشد الرغبة فى ان تبقى النفس طيلة عمرها تشتعل فى اوار هذه النار الملتهبة وتنصهر فى بوتقة هذا العذاب الذى يبدو للانسان وهو فى برزخه انه يرى كل شىء واضحا جليا كوضح الشمس فى رابعة النهار ومن وضوح الرؤية يجد المرء نفسه فى اعلى عليين . . .

بسبب تغير المكان لم يستطع يديغي ان يغط راسا فى لجة المنام رغم خروجه قبل هذا للتنزه فى الجو الطلق واستنشاق انسام الهواء العليل ومع ان اهل الدار هيأوا له مرقدا دافئا ومريحا وفرشوا له فراشا وثيرا واعدوا له دثارا وفيرا وخصوه بالبياضات النظيفة المذخورة فى كل بيت من اجل الضيوف الاعزاء . رقد قرب من النافذة وراح يصغى الى الريح وهى تصفر فى اسى وتصر فى شجى وينصت الى طقطقة عربات القطارات عابرة فى الاتجاهين . . . . راح ينتظر طلوع الفجر لكى يهب طالبا بعيره الهائج قره-نار فيأخذه ويعود به بأسرع ما يمكن متوجها الى بوارالى-بورانى حيث ينتظره الاطفال فى البيتين وهو يحب الجميع بالتساوى ولكونه انما يعيش من اجل هذا ولكى ينعموا بالهناء والعيش الرغيد . . . واخذ يفكر فى افضل السبل لتهدئة قره نار . ويا لها من مهمة كاداء ويا له من نصيب غريب قيض له وحده فليست اموره مثل امور الناس سواه وحتى البعير الذى خصه به القدر شديد الهياج عنيف المزاج يفزع الناس من طلعته وهم الآن يريدون حتى اطلاق الرصاص عليه . . . ولكن كيف يشرح للبهيمة ما هو الحسن وما هو السيء والفارق ما بين الخير والشر . . . اذن من الذى جره الى هذا الموضع وجاء به الى هذا المكان تلك هى الطبيعة واحكامها وقره نار كبير وقدير ولهذا لا تقف بوجهه اية حواجز او موانع ولا يمكن ان تعترض دربه عقبات مانعة فهو يجتاز ويذلل كل ما يعرض امامه . . . فكيف العمل معه ؟ وباي اسلوب يمكن ردعه وايقافه عند حده ؟ . . . ينبغى تقييده بسلسلة وربطه فى الحظيرة طيلة فصل الشتاء والا فلن يتحمل شقاوته وحماقة راسه الذى سوف يطير عن عنقه فان لم يفعل ذلك فوسيان كما هم ان يفعل فلسوف يطلق الرصاص عليه شخص

آخر سواه وبهذا سوف ينتهى الامر . . . وحين بدأ يغط فى النوم تذكر يديغي مرة اخرى غناء ارليبيس وعزفه على الدومبرا وشعر ببالغ الرضا للفرصة التى تسنت له بقضاء امسية كاملة معه . لقد انبعثت وانتقلت الى روحه عبر الدومبرا الويلات التى عاناها فى حينه المغنى رحيم الله ـ اغا الذى احب لشقائه تلك المغنية . ومع انه لم يكن بينهما اى امر مشترك أحس يديغي فى قصة رحيم الله ـ اغا تلك بوجود بعض التصادى والتشابه وشعر بشىء من الألم المماثل . وما قد عاناه رحيم الله اغا قبل مائة عام قد انتقل الآن كرجع الصدى اليه ، الى يديغي البوراني الذى يعيش فى ساروزيكى الصحراوية . جذب يديغي انفاسا ثقالا فى حسرات وتقلب فى الفراش ، كان يشعر بالحزن العميق الشديد من كل هذا الغموض المبهم الداهم وحيرة النفس فى داخلها . الى اين كان عليه ان يذهب واية وجهة يولى اليها وجهه وكيف ستكون حاله لاحقا ؟ وماذا سيقول لظريفة وما الذى سيجيب به اوق بالا ؟ كلا ، انه لم يجد الحل وفك العقدة . وتلخبط وتخبط فى امره وبدا له وهو فى حالة النعاس قبيل الاغفاء وكانه عاد مرة اخرى الى منطقة بحر آرال . . . وشعر بدوار الراس من زرقة البحر وصخبه وهبوب الريح . . . وكما حدث له فى عهد طفولته قفز الى البحر متصورا نفسه طائر نورس يطير حرا فوق زبد الامواج وفرح بهذا كثيرا وشعر بالمرح وراح يتلاوح فوق الرحاب البحرية وظل طيلة الوقت يشنف سمعه بدقات ورنين الدومبرا وغناء ارليبيس عن الحب الشقى الذى كان يتعذب به رحيم الله ـ اغا وحلم مرة اخرى فى الرؤيا وطيف الاحلام انه يطلق فى البحر سمكة الميكريه الذهبية . وكانت السمكة طرية ومرنة ولزجة وحين حملها الى الماء كان يشعر على نحو محسوس بدفق الحياة فى السمكة المتزلقة وكيف كانت تخفق فى يديه توقا الى الماء وتحاول التملص للمروق اليه . وراح يسير على سيف الشاطئ وكان البحر يهرع اليه ويدنو لملاقاته اما هو فكان يضحك للريح ثم فتح كفيه واخذت السمكة الذهبية تنزلق وتهبط الى الماء مدة طويلة طويلة ملتمعة فى الزرقة الكثيفة لمعانا حيا بالوان قوس قزح وظلت

تصدح من مكان ما تلك الموسيقى . . . ومعها صوت أحدهم شاكيا باكيا ومتظلما من الزمان لاعنا القضاء والقدر .

فى تلك الليلة كانت تلهو فى السهب وتعبث كما تشاء ريح صرصر عاتية . وكان البرد يستجمع قواه وتتزايد ضراوته على الخط الصاعد . وكان قطيع النياق او سربهن المؤلف من اربع ناقات حسان أحبهن البعير قره‌نار البورانى ودافع عنهن كحماية الحريم يحافظ على الهدوء مستقرا فى وهدة منخفض تكتنفها كثبان الثلج احاطة السوار بالمعصم . وقد تجمعت هذه النياق وكانت الريح تكوم عليهن الثلج وهن يحتمين ببعضهن البعض متلاصقات لبعث الدفء فيهن جميعا وكل واحدة منهن واضعة راسها على عنق الاخرى والبعير سيدهن وصاحبهن وحامى حماهن البعير الغيور قره‌نار الهصور الذى لا يتعب ولا يكل لم يكن ليتركهن وشانهن ينعمن بالراحة بل كان يحوم حولهن كالفلك الدوار والكوكب على المدار يروح ويجرى ذهابا وايابا وهو يحمحم ويزمجر ويشخر وينخر شاعرا بالغيرة عليهن من لا احد وحريصا على الدفاع عنهن ضد لا شىء الا من القمر الذى كان يرسل نوره الفضى من عليائه خلل السحاب العابر .

كان قره‌نار لا يهجع ولا يهدأ ولا يقر له قرار ولا يحس براحة الاستقرار . وكان يراوح داخل الزوبعة الثلجية الدوارة فى دوامة هوائية كثيفة كانها من البخار كما لو كان وحشا اسود له سنامان ورقبة طويلة جدا كالحية وراس طويل البوز تهدر براطمه وتتحلب أشداقه . وكم قد تجمعت فيه من القوة المخزونة التى تبحث عن منفذ لتنفجر كالبركان الثائر الذى يقذف الحمم . وهو الآن ايضا ليس عازفا عن مزاولة عملية الحب كفحل الضراب فهو يقحم هذه من النياق او تلك ويعض بشدة كواحلهن وافخاذهن ويحاول ان يفصل بعضهن عن البعض ولكن هذا كان من جانبه افراطا فى الشبق واسرافا فى أكل الطعام طبقا بعد طبق وكان كافيا للنياق وقت النهار لارضاء شهوته وتلبية مطاليبه ورغباته اما فى الليل فقد اردن الخلود الى الراحة والهدوء ولهذا فانهن ايضا اندفعن فى الزعاق احتجاجا وردا عليه متهربات من تحرشاته الزائدة ولم يفكرن فى التنازل والتراجع والاستسلام

واصرون على تخصيص ساعات الليل للراحة بعد التعب والهدوء بعد الشغب والصخب .

واذ اقترب الفجر ودنا هدأ قره‌نار البورانى ايضا واطمأن رويدا . ووقف بجوار النوق زاعقا على ندرة وهادرا بوحشية كالزئير وهو شبه نائم باثا الرعب من حوله . وآنذاك استلقت النياق على الثلج اربعتهن واحدة بجنب الاخرى وقد مددن اعناقهن واطرقن برؤوسهن واستسلمن للنعاس فالنوم غرارا . وحلمن برؤية السقاب الصغار من التى ولدن من قبل والتى ستولد من هذا البعير الاسود الذى جاء اليهن من حيث لا يدرين وغنمهن فى معركة سجال خاض غمارها ضد الجمال الاخرى وفاز فيها منتصرا عليها . وحلمن ايضا بالصيف ورائحة الشيح الحادة فى الحقول والملامسة الرقيقة من افواه السقاب الصغار لضروعهن عند الرضاع فتدر الضروع الحفل عند هذا الابساس وتجود بلبنها وهنا اخذت ضروعهن تمتلئ وتتحسس حليبها المترقب وكانه امر واقع . . . اما قره‌نار البورانى فقد ظل ساهرا فى موقف الحارس الامين والديدبان الهمام واستمرت الريح تعوى وتصفر وتعبث بوبره الاشعث . . .

وما فتئت الكرة الارضية تطوف سابحة بانسياب على مداراتها ودائرة حول نفسها وحول الشمس تلف حولها الرياح العصوف . وفى اثناء دورانها المزدوج صارت فى موضع بحيث بزغ الصباح على منطقة ساروزيكى وشاهد قره نار البورانى فجأة وعلى حين غرة كيف ظهر بالقرب شخصان يمتطيان ناقة . وكان هذان الشخصان يديغي وقوسبان . وكان قوسبان يتابط بندقيته على سبيل الاحتياط .

هاج قره نار البورانى وماج وزمجر وزعق واستشاط غيظا مستغربا وحنقا لكون الناس يجدون فى أنفسهم بعد هذه كله الجراة الكافية للاتجاه نحوه والدنو من حماه والاقتراب اليه وبأى حق يسمحون لانفسهم بالقدوم الى حرمه وخرق حرمة حريمه ؟ واطلق قره نار صوتا وحشيا تقشعر من هوله الابدان واخذ يدير راسه على رقبته الطويلة وكشر عن انيابه فاغرا فاه كالتنين . واندفع البخار كالدخان من فمه الساخن وسرعان ما تلبد في زمهرير البرد وتكاثف على وبره الاسود الاشعث حول

فمه رغوة بيضاء متجمدة وبدا قره نار يبول من الهياج رائحا جائيا ثم واقفا متنفجا وبال بوجه الريح فشاعت فى الهواء رائحة بوله النتنة الحادة وتطايرت قطرات متجمدة من البول بفعل البرد فمست وجه يديغي .

وقفز يديغى الى الارض مترجلا وخلع فروته ورماها على الثلج وبعد أن تخفف منها - باقيا فى السترة اللبادية والسراويل المبطنة بالقطن المحشو - فك سوط الكرباج عن مقبضه الذى أطبق عليه كفه . - انتبه يا يديكه وكن حذرا ، واذا اقتضت الضرورة فلسوف اردبه قتيلا برصاصة واسقطه ارضا . - قال قوسبان مسددا البندقية . - كلا ، مطلقا . لا تقلق من ناحيتى .اننى صاحبه وسيده وانا نفسى ووحدى المسؤول عنه فاحفظ سلاحك لنفسك . وفى حالة وثوبه نحوك ومجومه عليك لك ان تفعل ما شئت فتلك قضية اخرى . - طيب ، حسنا . - وافق قوسبان باقيا على ظهر الناقة .

اما يديغى فقد ساط الكرباج فى الهواء بضربات خافقة حادة كالطلقات متوجها لملاقاة بعيره قره نار والذى لاحظ دنوه فزاد هياجه وعلا هرجه ومرجه وضج فى الضوضاء واخذ يصرخ واستحلب فى فمه الزبد فراح يتسايل ويتطاير واقبل على يديغى . فى هذه الاثناء نهضت النياق من مرقدهن ورحن ايضا يتراكضن ويتقافزن ويدرن حواليه فى قلق .

وسار يديغى على الثلج ملوحا وضاربا بالسوط الذى كان فى العادة يستعمله لحمل قره نار على جر الزحافة عبر الثلوج المتراكمة وهو ينادى على قره نار صارخا من بعيد ومرددا اسمه على أمل ان البعير سوف يعرفه من صوته وقال له :

- ايه ، ايه ، قره نار . كف عن حماقتك وعد الى صوابك ورشدك لا تهج يا اهوج اقول لك . هذا انا ، ماذا ؟ اانت اعمى فلا تراني . الم تعرفنى ؟ هذا انا يا قره نار .

ولكن قره نار لم يكترث بصوته ولم يتعرف عليه وخشى يديغى واعتراه الفزع حين شاهد نظرة البعير الشزراء الرعناء والمفعمة بالحقد والبغضاء ولحظه وهو يهرع اليه بكل جسده الهائل وعلى ظهره السنامان يتأرجحان . وعندئذ أصلح يديغى وضع قبعته ورفع يده بالسوط واهوى به فى قوة . كان

السوط طويلا يبلغ طوله سبعة أمتار وهو مضفور من جلد مشبع بالقطران . صرخ البعير وهجم على يديغى محاولا عضه بانيابه او نهشه بخطمة من فمه الواسع او طرحه ارضا ودعسه بالمناسم والاخفاف ولكن يديغى لم يتح له الفرصة للتقدم نحوه وبلوغ موضعه وساطه بالكرباج بكل قوته وتنكب متجنبا هجمته ثم سعى اليه متقدما خطوة فخطوة وهو طيلة الوقت يصرخ فيه زاجرا لكى يسترجع رشده ويعود اليه صوابه الغائب ويعرف سيده وصاحبه . وظلا على هذا المنوال يبدى كل واحد منهما ما لديه من عزم وحزم وكانا معا على حق وكلاهما من جهته ذو قناعة بما يفعل . كان يديغى يشعر بهزة العجب لعصيان جمله الثائر وتمرده الفائر وسعيه نحو سعادته وحرصه عليها واحس بانه يريد حرمانه من هذه السعادة وسلبه اياها ولكن لم يكن ثمة من مخرج آخر . وكان يديغى لا يخشى سوى امر واحد هو عسى الا تنفقئ عين قره نار بضربة السوط وما عدا هذا سيمر بسلام . واخيرا كسر اصرار يديغى تصميم البعير وانتصر حزم الانسان على ضراوة الحيوان . وتسنى ليديغي بسوطه الضارب وصوته الجازم الهادر وتقدمه المقتدر نحو بعيره ان يدنو منه وينتفض فيمسك به من خطام شفته العليا وكاد من شدة القبض والشد ان يشق هذه الشفة ويبترها متشبثا بها فى عنف وفى الحال تسنى له ان يثبت فيها حلقة البرى التى كان قد اعدها سلفا . ونخر قره نار ثم زمجر ثم أمعن فى الانين من شدة الألم المبرح الذى عاناه . ورأى يديغى فى عينيه الجاحظتين المتوسعتين والمحملقتين رعبا وألما لا تطرفان ولا تغمضان انعكاسا دقيقا كما فى المرآة لشخصه وكاد يتراجع من منظره المفزع . ساورته الرغبة فى ترك كل هذا الى الشيطان والجري مبتعدا عن هذا الأمر لئلا ينزل العذاب نكالا بهذا المخلوق البرىء الا انه سرعان ما انثنى وأعرض عن هذه الفكرة لعلمه بانه كان منتظرا فى بورانلى – بورانى ولم يكن جائزا له ان يعود الى هناك بدون قره نار الذى كاد الجيران من اهالى آق موبناق ان يطلقوا عليه الرصاص . وألح على نفسه فجعلها تصبر وتواصل وحملها على ما ينبغى عليه فعله .

وصرخ بمزيد من المهابة واستمر فى مزاولة اخضاع البعير

وارغامه على الاضطجاع ارضا والبروك عليها . كان ينبغى ان يوضع عليه الرحل . وكان قره نار البورانى لا يزال يقاوم ويزعق ويزمجر قاذفا على صاحبه دفقات من انفاسه الرطبة الخارجة من فمه الساخن الفاغر ولكن صاحبه ظل مصرا على ما يفعل وارغم البعير على الخضوع له والاستكانه اليه .

– قوسبان ، اقذف لى الى هنا عدل البعير وسق بعيدا هذه النوق خلف الكثيب لئلا تقع عيناه عليهن فلا عين ترى ولا قلب يحزن . – صرخ يديغى بهذا نحو قوسبان .

وقذف قوسبان بسرعة العدل الذى كان على ناقته وركض هو نفسه فساق قطيع قره نار من النياق الحسان . وفى هذه الاثناء تم الانتهاء من كل شىء فقد وضع يديغى بسرعة ذلك العدل على قره نار وحينئذ ركض قوسبان جالبا الى يديغى الفروة التى رماها على الارض فارتداها بسرعة وامتطى بحركة عاجلة دون تباطؤ قره نار الذى كان قد وضع العدل عليه وكبح جماحه فسلس قياده ولان .

وحاول البعير الجامح العودة الى النياق التى فرقوا بينه وبينهن وحاول حتى ادارة رأسه الى الخلف على عنقه الطويلة وبلوغ صاحبه وراكبه بأسنانه . ولكن يديغى كان عارفا بأمره وخبيرا . وبالرغم من الرغاء والزعقات الحاقدة وزمجرة قره نار الممتعضة التى استمرت لفترة طويلة ساقه يديغى بعناد واصرار على الدرب المكسو بالثلج وحاول طيلة الوقت اعادته الى جادة الصواب وجعله يهدأ وهويقول له : –كف عن هذا ! يكفى ! اصمت ! صه ! مهما فعلت فلن يباح لك الرجوع الى حيث كنت ولا رجعة الى الخلف . يا لك من احمق فارغ الرأس من المخ . اتظن اننى اعطف عليك بلا سبب ؟ ولولاى لكنت الآن قتيلا بالرصاص كوحش هائج ضار ، فما قولك ؟ جن جنونك وهذا صحيح كل الصحة القول بانك كنت مسعورا . لقد جننت وتصرفت كشر المجاذيب . والا فلماذا جئت الى هنا قاطعا كل هذه المسافة البعيدة الم تكن تكفيك النياق التى عندنا ؟ اذن فاعلم باننا سوف نذهب الى البيت وقد حلت نهاية جولاتك فى الاماكن الغريبة ومغامراتك فى قطعان الغير . سوف اقيدك بسلسلة

ولن تكون لك حرية القيام بخطوة واحدة ما دمت قد كشفت عن حقيقتك وبرهنت على طينتك !

واسترسل يديغى البورانى فى الوعيد وانما كان ذلك لكى يبرر تصرفاته فى عين نفسه ذاتها . لقد قاد قره نار عنوة وساقه بالقوة مبعدا اياه عن ناقاته فى آق موريناق وكان ذلك بوجه عام ليس من العدل . ولو كان جملا هادئ الطبع لكان قد تركه على هواه مع هذه النياق . أفلم يترك الناقة الذلول عند قوسبان الذى وعده بارسالها عند الاقتضاء والامكان الى بورانلى بورانى . فلا مشاكل معها وسيكون كل شىء حسنا ولطيفا . اما هذا البعير اللعين فليس من ورائه سوى المنغصات .

بعد مضى بعض الوقت استسلم قره نار البورانى واسلس قياده لكونه صار من جديد يركب وبهذا اصبح مطية لسيده . وقل صياحه وهدات ثائرته واسرع الخطى فى خببه وسرعان ما بلغ ذروة عدوه فراح يركض العرضنى مباعدا ما بين قوائمه وقاطعا الارض نحو ساروزيكى . وارتاحت نفس يديغى واتخذ جلسة مريحة بين السنامين الناتئين واحتمى من الريح واحكم شد لثامه واخذ الآن ينتظر بلهفة وفارغ الصبر بلوغ الامكنة البورانلية .

ولكن المسافة الى البيت كانت لا تزال على قدر كاف من البعد . وكان النهار هادئا والريح ليست عاتية كما ان الغيم غير متلبد . ولم يكن يخشى هبوب زوابع ثلجية فى وقت قريب بيد ان ذلك كان مرجحا حدوثه فى الليل . عاد يديغى البورانى راضيا لانه قد تسنى له قنص ولجم قره نار وكبح جماحه وكان مبعث رضاه على نحو خاص سماعه مساء أمس فى ضيافة قوسبان عزف ادليبيس على الدومبرا وغناءه .

وعاد يديغي بفكره لا اراديا الى افكاره حول حياته غير الموفقة . ويا للمصيبة ! كيف العمل وما الذى ينبغى فعله لئلا يعانى اي أحد ولكن يعلن ألمه على الملأ مكشوفا ولا يخفيه بأن يذكر لظريفه انه يحبها . واذا كان اولاد ابى طالب لا يجدون مجالا للتحرك والانطلاق وتسد أمامهم الطرق بسبب لقبهم وانتسابهم الى أبيهم فانه اذا وافقت ظريفة على استعداد لنسبة هؤلاء الصغار اليه رسميا وربطهم رسميا اليه بالاسم واللقب .

وسيكون من دواعى سعادته لو غدا لقبه حاجزا حاميا للصغيرين داول وايرميك . وعسى الا تكون أمامهما اية حوائل وعوائق على الدرب . فلتزل اية عقبات تقف فى وجوههما . وليحالفهم النجاح ويبلغا ما يستحقونه بما لديهما من قوى فكرية وذهنية وقدرة . وهل يضن باعطاء اللقب لغرض كهذا ؟ أجل ، اخذت الافكار من هذا النوع ايضا تراود فكر يديغى البورانى وهو فى الطريق .

كان النهار قد مال الى الغياب . ومهما بدر عن قره نار الهمام من مقاومة وهياج فانه عند ركوبه كان يؤدى مهمته بشكل مقبول . وها قد انبسطت امام النظر المروج البورانلية وها هى الشجيرات المألوفة والمحفوفة بالكثبان وها هى الربوة الكبرى وبعدها تراءى على منعطف طريق السكك الحديد مفرق بورانلى بورانى . كانت اعمدة الدخان منبعثة من المداخن . كيف حال اهله هناك ؟ لم يطل غيابه سوى ليوم واحد لا غير ولكن القلق فى نفسه وكأنما هو لم يكن بينهم طيلة عام كامل . وما أكثر شوقه وتوقه وخصوصا الى الاطفال . وحين لمحت عينا قره نار مبانى المساكن زاد من سرعة خطاه وراح يجرى وقد ساح منه العرق واختلج من الحماس موسعا خطواته الطوال ومرسلا من فمه سحائب البخار . وبينما كان يديغى يدنو الى البيت لحق فى المفرق ان يتقابل ويختلف فى اتجاهين قطاران للبضاعة . سار احدهما نحو الغرب والثانى نحو الشرق . . .

توقف يديغى فى الجهة الخلفية عند فناء الدار لكى يدخل قره نار راسا الى الحظيرة . ترجل وخطف سلسلة ضخمة مربوطة الى عمود مدفون فى التراب فقيد بها ساق البعير الامامية . وتركه وشأنه «فليسترح اولا ثم ارفع عن ظهره رحل الحدوج» هكذا قرر بينه وبين نفسه . وقد كان لأمر ما على عجلة شديدة من امره . وبعد ان مد قامته مقوما ظهره الذى طال عليه الانحناء وطبطب برجليه ليعيد الى ساقيه طراوتهما بعد طول الركوب خرج يديغى من الزريبة حين هرعت اليه ابنته الكبرى ساوله . وعانقها يديغى محتضنا وهو يتحرك بارتباك بسبب الفروة التى يرتديها وقبلها فى خدها .

– سوف تستبردين – قال لها مشفقا عليها وخائفا على

صحتها وكانت ترتدى ملابس خفيفة – اركضى جريا الى البيت . سأجيء حالا .

–ابتاه – قالت ساوله وهى تلاطف اباها – لقد رحل داول وايرميك – والى اين رحلا ؟

– ذهبا بشكل نهائى . مع امهما . ركبوا القطار ورحلوا .

– رحلوا ؟ متى رحلوا ؟ – قال يديغى وهو لا يزال لا يدرك بعد على وجه الضبط ما هو المقصود من الكلام وراح يستفسر ناظرا فى عين ابنته .

– فى صباح هذا اليوم .

– هكذا اذن – قال يديغى بصوت مرتعش – هيا اركضى الى البيت جريا – واطلق ابنته . اما انا فسوف آتى بعد حين فاذهبى انت الآن . . . وتوارت ساوله خلف زاوية الركن . اما يديغى فقد توجه راسا الى كوخ ظريفة مسرعا وحتى دون ان يرد خلفه باب الزريبة باحكام وهو فى فروته فوق السترة اللبادية المبطنة بالقطن . مضى وهو غير مصدق . ربما تكون الطفلة مشتبهة وقد اختلط عليها الأمر . هذا ما لا ينبغى ان يكون . ولكن المدخل الى البيت كان موطوءا بآثار الكثير من الاقدام . وجذب يديغى الباب بشكل حاد وجره اليه من السقاطة وحين عبر العتبة شاهد الغرفة المهجورة والتى بردت منذ وقت طويل وقد تبعثرت فيها البقايا المتروكة من النفايات المهملة . ولم يكن ثمة من اثر لا للاطفال ولا لوالدتهم ظريفة . – كيف هذا ؟ – همس يديغى فى الفراغ وهو لا يزال يمتنع عن الفهم حتى النهاية لما حصل – اذن فقد رحلوا ؟ – قال مستغربا وفى اسى بالرغم من انه كان جليا تماما ان هؤلاء الناس قد رحلوا وغادروا .

وكان الامر صعبا على نفسه كما لم يكن من الصعوبة طيلة عمره . وقف ملتفعا بمعطف الفرو فى وسط الغرفة قرب موقد الفرن البارد لا يدرى ما يفعل وما الذى ينبغى فعله لاحقا وكيف يمكن تسكين ما يعتمل فى نفسه من فورة صارخة ومندفعة الى الخارج ناجمة عن الشعور بالهضيمة والفقدان . كانت مرمية على رف النافذة احجار معرفة الطالع التى نسيها ايرميك وهى تلك نفسها الواحد والاربعون حجرا التى تعلم الصبيان استخدامها

للتعرف على المستقبل وكشف الطالع ولمعرفة موعد عودة أبيهما الذى لم يعد منذ أمد بعيد بين الاحياء وهى أحجار الأمل والمحبة . ولملم يديغى هذه الاحجار فى كومة واطبق عليها كفه فى قبضة مشدودة وهى كل ما بقى لديه منهم . ولم يعد لديه من القوة ما يكفى والتفت نحو الجدار ملصقا جبينه الملتهب الى الالواح الباردة وانخرط فى النشيج ناحبا وهو مسحوق ويائس وفريسة القنوط . وبينما كان ينحب باكيا تساقطت من يده الى ارضية الغرفة تلك الاحجار واحدا بعد الآخر . وحاول مهتزا فى قشعريرة الاحتفاظ بها والامساك بها فى يده المرتعشة ولكن يده لم تطاوعه وانزلقت الاحجار منفلتة وكانت تسقط على الارضية فى وقع اجش متتابعة وكانت تقع وتتدحرج الى شتى الزوايا فى غرفة البيت المهجور . . .

ثم ادار جسمه وزحف معتمدا على الجدار وجلس القرفصاء ببطء وظل جالسا هكذا فى فروته وقلنسوته ضاغطا بظهره على الحائط ومنخرطا فى نحيب مرير وهو متكسر العبرات . واخرج من جيبه اللفاف الذى أهدته اليه قبل يوم ظريفة وراح يمسح به دموعه المذروفة مدرارا . . .

ظل جالسا هكذا فى البيت المهجور وحاول ادراك كنه ما حصل . اذن فان ظريفة رحلت ومعها ولداها فى غيابه عمدا . اذن فقد ارادت ذلك او خشيت انه لن يسمح بذهابهم . بل وانه لما كان سيسمح بهذا مهما كانت الاحوال وعلى اية حال ومهما كان . ومهما كانت حصيلة هذا الأمر فانه لم يكن ليسمح بذلك لو انه كان هنا عندئذ . اما الآن فلقد غدا من غير الميسور وقد فات الأوان ان يحزر ما الذى كان يمكن ان يحدث لو انه كان موجودا وحاضرا حينئذ ولم يكن مغادرا ومسافرا . والآن لم يعودوا موجودين ، لا اثر لظريفة ولا لولديها . وهل كان ممكنا ان يترك ظريفة وولديها يبتعدون عنه ويذهبون ؟ وسر الامر كله فى ظريفة ، لقد فهمت وتصورت ان من الافضل ان يرحلوا فى غيابه . وبذلك سهلت على نفسها الرحيل الا انها لم تفكر فيه وفى امره وكيف سيكون فظيعا عليه ان يرى البيت بعدهم مهجورا فيقعد ملوما محسورا .

ثم لا بد ان يكون أحد ما قد عاونها بايقاف القطار لها

فى محطة المفرق . فمن هو ذلك الشخص . انه معروف . لا بد وان يكون ذلك الشخص هو قازانغاب ومن غيره وسواه . ولكنه ، بالطبع لم يكسر جهاز التوقيف الاضطرارى كما قد فعل يديغي فى يوم وفاة ستالين وانما اتفق ورجا مدير محطة المفرق القادر على ايقاف القطار ان يوقف احد قطارات الركاب . انه رجل من هذا الطراز . . . واوق بالا ينبغى ان يكون لها ايضا يد واصبع فى هذا الأمر لكى تسهم فى ابعادهم عن هنا بأسرع ما يمكن والى ابعد ما يمكن . ولكن انتظروا وسوف ترون ! واندفع دم الثار فوارا من الاعماق وبلون قاتم السواد صاعدا الى الرأس ومهيجا ومؤججا للدماغ وكان بوده الآن لو استجمع قواه وحزم امره وضرب ضربته القاضية ليسحق ويمحق كل من وما فى هذا المفرق اللعين الذى غضب عليه الله فاهمله والقاه فى زاوية النسيان وتركه ينعى من بناه ، هذا المفرق المسمى بورانلى – بورانى ويهدمه من اساسه وعلى اسه ويتركه اثرا بعد عين . ثم يمتطى ظهر قره نار ويهيم على وجهه فى ساروزيكى ضائعا حتى الموت فى وحدة ووحشة معانيا الجوع والبرد . ظل هكذا جالسا فى هذه الوضعية فى الموضع المهجور خائر القوى حائر النفس شارد الذهن مهزوز الخاطر من هول ما وقع . ولم تبق فيه من بقية سوى الحيرة البلهاء اذ يدور فى واعيته التساؤل الفارغ : «لماذا رحلت ؟ والى اين ذهبت ؟ ما سر رحيلها والى اين ولت وجهتها ؟ لماذا رحلت والى اين ذهبت ؟»

ثم ذهب الى بيته . وتناولت اوق بالا وهى صامتة فروته رافعة اياها عن كتفيه وقلنسوته فعلقتهما على المشجب وخلعت له حذاءه اللبادى الطويل ووضعته فى ركن الزاوية . وكان من الصعب ان يحدد من وجه يديغى البورانى الصارم المتجهم والجامد كالحجر ما الذى يفكر فيه وما الذى يزمعه وينتويه . وكانت عيناه زائغتين لا تعبير فيهما وتخفيان فى داخلهما الجهد فوق البشرى الذى بذله لكى يظل محتفظا برباطة جاشه وضبط النفس . وكانت اوق بالا قد سخنت سماور الشاى مرارا فى انتظار زوجها . كان السماور فائرا ، يغلي فيه الماء ملئ القناة بالفحم الخشبى المتوهج المتوقد . وقالت لزوجها :

– الشاى ساخن ، رفعته عن النار للتو واللحظة .

رنا يديغى نحوها متطلعا فى صمت وواصل ارتشاف الشاى الساخن . لم يشعر بمدى سخونته . وكانا كلاهما ينتظران فى توتر بدء الحديث – رحلت ظريفة من هنا مع ولديها – تمتمت اخيرا اوق بالا .

– اعرف هذا ، – رد يديغى باقتضاب دون ان يرفع راسه عن فنجان الشاى ، وبعد هنيهة صمت استفسر متسائلا ودون رفع راسه وعينيه عن شايه : – الى اين رحلوا ؟

– انها لم تذكر لنا شيئا عن هذا – اجابت اوق بالا .

وعند هذا لزما حبل الصمت . واذ يلذع يديغى الشاى الساخن لشفتيه لم يعر ذلك التفاتا كان مشغول الذهن بأمر وحيد هو منع نفسه من الانفجار والحيلولة دون تدفق كل ما فى داخل نفسه من الشرار الى الخارج لئلا يفزع الصغار ولئلا يحدث الأمر الجلل . . .

عقب انتهائه من شرب الشاى تهيأ للخروج الى الشارع من جديد وعاد الى انتعال الحذاء اللبادى الطويل وارتداء الفروة والقلنسوة .

– والى اين انت ذاهب – تساءلت زوجته .

– اريد تفحص امر البهيمة . – القى الجواب وهو عند الباب .

وفى هذه الاثناء اوشك على الانتهاء النهار الشتوى القصير . وسرعان ما تلبد الجو كانما فى مدى رؤية البصر واخذ يعتم ويظلم فى الحوالى . واشتد زمهرير البرد بشكل ملحوظ واظهر عز الشتاء عزمه وحزمه وابدى صرامته وايده . اما يديغى فقد مضى متجهما مقطب الوجه يتخطى المسافة الى الحظيرة ودخلها وعند دخوله اليها تفحص المكان بعينيه ناظرا الى قره نار وهو يتوثب مجاذبا عنان السلسلة وخاطبه بقوله :

– افانت طول الوقت تصرخ وتزعق . لا تهدأ ثائرتك لسوف ترى ايها النذل الحقير وتتحمل وحديثى معك منذ الآن قصير . لم تعد لديك عندى الآن قيمة تذكر .

ولكز يديغى البعير قره نار فى جنبه بحقد وموجدة وصب عليه سيلا من اللعنات والشتائم المقذعة فى السباب ومن فحش الخطاب وخلع عنه العدل والخرج ملقيا عدة الركوب وفك وثاق

السلسلة عن ساق قره نار المقيدة ثم أمسك بمقوده وشد قبضة يده الاخرى على مقبض السوط الملفوف حول مقبضه وتوجه الى السهب وهو يجر من المقود بعيره المحمحم الذى يثن فى كآبة واسى . ونظر صاحبه عدة مرات اليه ولوح له بقبضته مهددا ومتوعدا وهم بضربه لكى يكف عن انينه وزمجرته واذ لاحظ ان ذلك لا فائدة من ورائه ولا طائل كف عن ذلك وبصق متأففا ومتضجرا ولم يعد يعير ذلك التفاتا وسار مقطب الوجه متجهما ومتحملا بصبر زمجرة البعير وزعيقه ، سار وئيدا وعلى خط مستقيم فى الثلج العميق بعز الشتاء فى الحقل المعتم من الارض العراء تحت جنح الظلام البهيم وهى تفقد تدريجيا حدودها وتغدو دون ابتداء وبلا انتهاء . كانت انفاسه ثقيلة ولكنه سار دون توقف يلهث ويستحث السير . سار طويلا ومطرقا برأسه فى أسى . وحينما ابتعد عن المفرق واختفى وراء الكثيب أوقف قره نار لكى ينيله عقابه الشديد وينزل به النكال . ألقى يديغى فروته على الثلج وشد المقود بسرعة فى حزام فروته لئلا يقفز البعير ويفر ولكى يطلق يديه حرتين وشد بقبضتى يديه كليهما ممسكا بمقبض السوط وراح يلهب بالسوط ظهر البعير صابا على رأسه جام غضبه ومنتقما منه لمصابه وألمه . وساط فى حنق وفورة وبلا شفقة قره نار البورانى منزلا به الضربات واحدة تلو الاخرى شاخرا وناخرا ومسلسلا عليه الشتائم واللعنات وقائلا :

– خذ ، خذ ، ايها البهيمة الحقيرة . كل هذا حصل بسببك . انت المذنب فى هذا كله ، انت المذنب . والآن سوف اخلي سراحك وادعك لشانك فاذهب الى حيث شئت ولكن قبل اطلاقك سوف اضربك حتى تصاب بعاهة مستديمة . خذ وخذ ، ايها الحيوان الذى يأكل فلا يشبع ! كل شيء لا يكفيك . كان لا بد لك من الركض والابتعاد وهى قد رحلت فى تلك الساعة مع ولديها . ولا شان لك بأحد ولا يعنيك ما حل بى واصابنى ولا يعنى اى احد آخر منكم شانى ومصابى . وكيف أستطيع الآن أن اعيش ؟ وكيف سيكون عيشى بدونها ؟ اذا كان الأمر لديكم سواءا بسواء وعلى حد سواء فانا ايضا أنظر الى اموركم بنظرة سواء . اذن فخذ وخذ يا ايها الكلب الحقير .

صرخ قره نار وهاج وتقافز وماج وتمايل تحت وقع الضربات الموجعة من السوط الرهيب ثم جن جنونه وطاش عقله وصوابه من فرط الرعب والألم فركل سيده وصاحبه بقدمه والقاه ارضا على الثلج وهام على وجهه جاريا وهو يجره فوق الثلج . جر صاحبه بقوة وحشية فظيعة ساحبا اياه وكانه جذع شجرة مؤملا ان يتخلص منه ويتحرر من سيطرته ليعود حرا مطلق السراح ويرجع الى المكان الذى اعيد منه عنوة وبالقوة .

– قف ، ويلك . قف ويحك – صرخ يديغي وهو يكاد يختنق ويتمزق مسحوبا على الثلج الذى يجره عليه البعير جرا .

طارت عن رأسه القلنسوة وصدمت رأسه الاكوام الثلجية فراح يشعر بدفقات متتابعة ومتعاقبة من الحر والقر على رأسه وعلى وجهه وعلى بطنه وتسرب الثلج الى داخل المعطف متجمعا عند رقبته وصدره وتحت ابطيه والتف السوط على يديه . ولم تكن لديه من حيلة أو وسيلة لكى يوقف بشكل ما ذلك البعير عند حده ويثنيه عن قصده وما من سبيل الى فك المقود من حزامه . وذلك البعير يجرجر به على الارض مذعورا طائش العقل لا يرى منقذا الا فى الفرار . ومن يدرى بم كان يمكن أن ينتهى كل هذا لو لم يتح ليديغى بشكل عجيب اشبه ما يكون بالمعجزات ان يفك حزام الفروة عن خصره وبطنه وبذلك ينقذ نفسه والا لكان قد لقى الهلاك اختناقا بين الثلوج . وعندما امسك بزمام المقود وتشبث به جره البعير ايضا لعدة أمتار اخرى وتوقف ملجوما بشد صاحبه لزمام مقوده بآخر ما لديه من قوة .

– يا لك من اهوج – تمتم يديغي وهو يعود الى نفسه لاهث الانفاس ومترنحا – كيف تفعل هذا ؟ اذن فلسوف تلقى نصيبك يا بهيمة . فاذهب عنى اذهب الى حيث تشاء بعيدا عن عيونى . اركض ايها اللعين فلست منى ولست منك ولا اريد ان تقع عليك عيناي ما بقيت حيا فاذهب عليك اللعنة اذهب بلا رجعة فليطلق عليك الرصاص فلترجم وتلجم كالكلب المسعور . كل ما جرى وقع بسببك اذهب لتلقى حتفك وحيدا فريدا فى السهب كالكلب الضال ولتذهب روحك الى الشيطان وليكن

مصيرك الهلاك وبئس المصير . – وجرى قره‌نار راكضا وهو يزعق ويصرخ فى جهة آق موريناق . اما يديغي فقد ركض خلفه وضربه بالسوط وهو يصب عليه سيلا من اللعنات والشتائم القبيحة المقذعة من فحش القول بكل ما فى جعبته وكنانته من عبارات السب والشتم واللعن . حلت ساعة التنكيل والعقاب والفراق . ولهذا ظل يديغي مدة طويلة يصرخ فى اعقابه :

– اذهب ملعونا يا مطية الشيطان ومركب ابليس اللعين ! اركض مت وانفق كالكلب المعقور والحمار المبتور عسى ان تصيبك رصاصة فى جبهتك وتفلق راسك وتحطم جمجمتك .

تابع قره‌نار ركضه مبتعدا اكثر فاكثر فى البادية الظلماء المعتمة والحالكة وسرعان ما اختفى اثره فى دوامة زوبعة ثلجية ولم يبق ثمة مما يدل عليه سوى زعقات متفرقة نادرة كانت تاتى بها الرياح حادة كالنفخ فى النفير . وتصور يديغي كيف سيواصل هذا البعير جريه بلا كلل طيلة الليل عبر الزوبعة الثلجية وخلل الريح الصرصر العاتية قاصدا نياقه تلك فى آق موريناق .

– تفو ! – بصق يديغي وعاد ادراجه على اثر الدرب الثلجي العريض الذى حرثه جسده المجرور على الثلج بلا قلنسوة على الراس ولا فروة على الجسم محكوك الجلد فى الوجه واليدين كان يسير فى الظلام مجرجرا السوط الجلدى وشعر فجاة بمنتهى الانهاك وانهيار القوى . سقط على ركبتيه بعد الترنح على الثلج وانثنى جسمه ثلاث طيات عاصرا راسه بيديه بقوة وصرخ فى تحيب ونشيج بعمق ويأس . وطرق سمعه وهو فى وحشة الوحدة المطبقة راكعا على ركبتيه فى وسط منطقة ساروزيكى صوت دوى الريح الثلجية فى السهب وهى تصفر وتدور فى دوامة زوبعية وسمع ايضا صوت سقوط الثلج من فوق . وخيل اليه ان كل ذرة ثلجية ساقطة والملايين منها وهى تهفهف وتحفحف بلا صوت مسموع نازلة خلل الهواء فى الظلام تتحدث اليه ذاكرة كل شىء مما يتعلق بكونه لن يقوى على تحمل عبء الفراق وانه لم يبق من معنى للعيش فى هذه الحياة فى حالة خلوها من المراة المحبوبة وبدون اطفالها وهم الذين شغف بهم حبا وتعلق بهم ودا

بشكل ليس كل اب يضاهيه فى محبته لابنائه . وراودته الرغبة فى ان يموت هنا لكى يغطى جسده هذا الثلج نفسه وبهذا يدفن فى قبر ثلجى .

– لا اله ! الرب غير موجود ! واذا كان موجودا فحتى هو لا يفهم فى شؤون الحياة قيد انملة ولا يفقه فيها شيئا . فما الذى يتوقع ويرجى من الآخرين ؟

لا ! ولا يوجد الرب او الله ! – قال لنفسه وهو ملقى فى تلك العزلة المرة والوحدة الموحشة وسط مناطق ساروزيكى الصحراوية القفراء . وقبل هذا لم يسبق له حتى ولا مرة واحدة ان تحدث بمثل هذا فى صوت مسموع ولم ينطق طول عمره من قبل بأمثال هذه العبارات . وحتى حين اكد له يليزاروف الذى كان يتذكر الاله والرب بشكل دائم ان الرب غير موجود من وجهة نظر العلم فانه لم يكن يصدق بذلك . اما الآن فقد اعتقد بهذا وآمن به . . .

ودارت الكرة الارضية فى فلكها وكانت الارض مكتنفة بالرياح الهوجاء . ظلت تدور حول الشمس وفى الوقت نفسه حول محورها . وهى تحمل فى تلك الساعة الانسان الراكع على ركبتيه فى الثلج وسط الصحراء المكسوة بالثلوج . لا الملك ولا الامبراطور او اى عاهل آخر ما كان ليركع على كعبتيه امام هذا العالم متفجعا على فقدانه مملكته او دولته او سلطته بمثل هذا القنوط والحبوط كما فعل يديغي البورانى هذا فى يوم فراقه للامراة المحبوبة . . . وظلت الارض تدور حول نفسها وحول الشمس . . .

عقب مرور ثلاثة ايام استوقف قازانغاب فى الطريق يديغى قرب المستودع حيث تسلما اللوالب والصفائح لتصليح قضبان السكك الحديد :

– ما لك قد اصبحت قليل الكلام صعب العشرة منصرفا عن الناس – قال له هذا كانما عرضيا وهو يرتب ربطات القطع الحديدية على النقالة – لقد صرت تتفادى الالتقاء بى وتتجنب لقائى وتتهرب من ملاقاتى . اليس كذلك ؟ فماذا جرى ولماذا هذا ؟

ورنا يديغى الى قازانغاب فى نظرة شزرة طافحة بالموجدة .

– فى حالة افضائنا بما فى النفس لبعضنا البعض وشروعنا فى الحديث الصريح لسوف اخنقك فى الحال . وانت بى عليم .

– وليس لدى ادنى شك فى كونك راغبا فى خنقى او شنقى وربما ايضا بعض الناس الآخرين معى . ولكن الذى لا أعرفه هو سر غضبك هذا وحنقك ونقمتك على العالم من حولك .

– انهم انتم الذين دفعتموها الى الرحيل . – كشف يديغى عن دخيلة نفسه وافضى فى صراحة بما فيها وازاح عن نفسه كمدها بافراغ ما يغمها وما يرين على قلبه وصدره كل هذه الايام .

– اذن فاعلم – حرك قازانغاب رأسه واحمر وجهه واحتقن فيه الدم ونطت عروقه اما بتاثير الغضب واما من الحياء والخجل – اذا كان قد خطر على بالك مثل هذا ودار فى راسك ظن كهذا اذن فانت تسئ الظن لا بنا فحسب وانما بها ايضا . كان عليك ان تزجى الشكر وتبدى سلامة الفكر وتعرض حسن الذكر لأن هذه المراة كما ظهر من فعلها وتصرفها كبيرة النفس راجحة العقل وانها ليست مثلك ولم تكن عدلك . هل فكرت يوما ما الذى كان يمكن ان ينتهى به كل هذا ؟ كلا ؟ اما هى ، فلقد فكرت وادركت ووعت فقررت ان ترحل قبل حدوث ما لا تحمد عقباه وقبل أن يفوت الأوان . ولقد ساعدتها على الرحيل وعاونتها فيه حين طلبت منى هذا ورجتنى فيه . ولم استفسر منها عن وجهتها والى اين هى ذاهبة مع الاولاد ولم تذكر لى هى ذلك فليعرف ذلك القضاء والقدر وحدهما ولا احد سواهما . افهمت ؟ لقد رحلت دون أن تنطق بكلمة تنزل من عزتها وكرامتها او عزة وكرامة زوجتك . وقد تواعدا خير وداع . يجب عليك ان تنحنى لهما كلتيهما الى الارض لكونهما قد صانتاك وحفظتاك من المصاب الجلل الذى كان لا بد منه ولا مفر وانقذتاك من المصير المحتوم . وان زوجات كمثل اوق بالا لعزيزات نوادر ولن تجد لك زوجة مثلها مهما بحثت وهيهات ان تعثر على مثال لها ، ولو كانت غيرها فى مكانها وسواها على مثل أمرها اذن لفعلت بك الفعائل وجعلتك تهيم على وجهك فى الخافقين وتطوف فى الآفاق باشنع مما فعل بعيرك قره نار جالبا على نفسك واهلك العار . . .

التزم يديغى بالصمت وما الذى كان يستطيع ان يجيب به على هذا ؟ لقد نطق قازانغاب عموما بالحق والصواب . ولكن لا ، لم يكن قازانغاب ليفهم ما كان يعلو على مداركه ويسمو فوق نهاه . واقدم يديغي على الغلظة والفظاظة .

– حسنا ، دعنا من هذا – قال هذا وبصق باستهانة فى ناحية – لقد اصغيت الى كلامك يا حكيم الحكماء وسيد العقلاء . انك على هذه الشاكلة تروح وتجيء هنا على مدى ثلاثة وعشرين عاما تقيس الارض بالذراع ولا لوم عليك ولا تانيب ، وكانك محروم الاحساس تماما . من اين لك ان تعرف الامور مثلها ! وكفى ولا وقت عندى اضيعه فى سماع اقوالك فدعنى منك ومن افعالك .

– انت وشانك فى الامر – جاءه من خلفه الجواب .

بعد هذا الحديث بدا ليديغى انه يحسن به ان يهجر مفرق بورانلى بورانى خاويا على عروشه . وفكر فى ذلك جديا لانه لم يجد لنفسه سكينة ولا لروحه طمانينة ولم تقو نفسه على النسيان وعجز قلبه عن السلوان وصعب عليه تحمل الكآبة بوطاتها والصبر على كاس الصبر المر . بدون ظريفة وبدون ولديها بدا له كل ما حوله قاتما وفارغا ومشؤوما . وعندئذ قرر يديغى جانغيلدين تخلصا من هذه الآلام ان يقدم رسميا طلبا الى رئيس المفرق بالاستقالة ثم الرحيل باسرته على مدى البصر ومنتهى النظر . والمهم عدم البقاء هنا . اذ ليس هو بالمشدود فى سلسلة من القيود الى هذا المفرق اللعين الذى تركه الله بلا معين . اليس اكثرية الناس يعيشون فى اماكن اخرى حيثما شاءت قلوبهم وطابت نفوسهم فى مدن وقرى اخرى ولن يرضوا بأن يمضوا هنا ساعة واحدة من الزمان . ولماذا قدر عليه ان يقيد نفسه بالسكنى فى ساروزيكى ابد الآبدين ؟ فاى جرم اقترفه واى ذنب جناه ؟ كلا ، ثم كلا . يكفيه ما هو فيه فليرحلن وليعودون الى بحر آرال او يقصدن فرغنده او ألما – آتا فما اكثر البقاع وما أوسع الاصقاع . انه شغيل جيد صناع اليدين قوى الجسم معافى البدن له عينان ولسان وشفتان . فليبصق على كل شيء وليذهب الى حيث شاء وما له يبقى هنا

نهبة للافكار وعرضة للهيب النار . وتصور يديغى فى فكره كيف سيفتح هذا الموضوع مع اوق بالا وكيف سيقنعها برأيه والباقى اسهل . وفيما تهيأ لهذا وظل يقلب الامر على عواهنه وينتقى الوقت المناسب لفتح الباب وطرح الحديث مرت مدة اسبوع وعاد على حين غرة الى الظهور قره نار البورانى الذى طرده صاحبه واطلق له العنان ليعيش حيثما شاء وكيفما أراد .

انتبه يديغي الى نباح الكلب المتواصل خلف البيت وهو يخلد حينا الى الهدوء فيصمت حينا ثم يعاود النباح ويركض الى هناك ثم يعود من جديد . وجذب ذلك انتباهه واستدعى فضوله وقلقه فخرج مستطلعا ما وراء الاكمة واذا به يرى غير بعيد عن الزريبة حيوانا لا يعرفه . هو بعير ولكنه على شيء من غرابة المنظر والمظهر يقف هادئا ساكنا ولا يتحرك فهو جامد فى مكانه لا يريم . دنا يديغى قريبا اليه وعندئذ فحسب تبين فيه بعيره قره نار .

– اذن فهذا هو انت ؟ الى اي وضع زري وصلت ايها المسكين ؟

– ما اسوا الحال التى صرت فيها ! – ردد يديغي المرهق هاتفا فى صوت ينم عن الشفقة .

لم يكن باقيا فى هذا البعير من قره نار البورانى السابق سوى جلد على عظم . وكانت هامته الضخمة بعينين زائغتين طافحتين بالاسى المرير تتدلى متارجحة على رقبة كالخيط اما وبره فكانه ليس منه وانما هو نتف الصقت على الجلد متباعدة ومتفرقة للاضحاك ومتدلية الى ما تحت الركبتين اما سناماه اللذان كانا شامخين كالبرجين الأسودين فوق سور قلعة منيعة فلم يبق منهما حتى الذكر الجميل كان كلا السنامين مرتخيين على جانب مثل ثديين لعجوز شمطاء يتدليان مثل الكيسين شبه الفارغين . كان البعير قد بلغ به الارهاق مبلغا بحيث لم تبق فى نفسه بقية من القوة لكى يوصل نفسه الى الزريبة . وتوقف حيث هو لكى يلتقط انفاسه ويستجم ويستعيد قواه . لقد استنفد نفسه حتى آخرها فى موسم السفاد وقد عاد الآن وهو كالكيس الفارغ ووصل الى المكان حيث وجد وكان زاحفا زحفة المستميت .

– ايه ، هيه – قال يديغي باستغراب لا يخلو من نغمة الشماتة وهو يتطلع الى قره نار من كافة الجوانب – الى اى درك اسفل قد انحدرت . حتى الكلب لم يتعرف عليك . وكنت قبل هذا كله جملا عظيما . ووجدت فى نفسك الشجاعة والرقاعة لكى تعود ؟ لا حياء ولا خجل ! وهل بيضتاك لا تزالان فى مكانهما أم انهما قد تراختا وراحتا وفقدتهما فى الطريق ؟ ويالها من رائحة نتنة عفنة تصدر عنك الآن . هل شرشرت بولك على قدميك وبللت به ساقيك اذ لا قوة لديك لكى تقذف به بعيدا خلفك . ما اقذر مؤخرتك وما اتعسك لقد غدوت مثارا للحزن وبعث الاشفاق فيالك من مسكين .

ظل قره نار واقفا فى مكانه لا قدرة لديه على التحرك ولم تكن فيه لا القوة السابقة ولا العظمة السامقة بل هو بائس ويائس واكتفى بتحريك راسه باذلا جهده الجهيد لكى يظل محافظا على وضع الوقوف والبقاء واقفا على قوائمه فلا ينهار ساقطا الى الارض .

وشعر يديغى بالاشفاق على جمله . توجه الى البيت وعاد حاملا إجّانة ملأى بحبوب القمح المنتقى والمنقى وقد رش فوقها نثارا من الملح المجروش .

– هاك ، كل – قال وهو يضع طاسة العلف امام البعير – فلربما تتكيف من جديد ويعود اليك ما فقدت من الأيد والحول . وسوف اقودك فيما بعد الى الزريبة لترقد وتستريح وتنعم بالوضع المريح فتعود الى سيرتك وهيئتك الاولى .

فى ذلك اليوم نفسه دار له حديث طويل مع قازانغاب وقد ذهب هو بنفسه اليه فى البيت وخاطبه بهذا الخطاب :

– انى قدمت عليك يا قازانغاب وجئت اليك بهذا القصد . لا تستغرب ولا تتعجب لانى لم ارد بالامس تبادل الحديث معك بل ولقد اغلظت لك فى القول جزافا ثم ها انا اليوم قد جئت اليك بنفسى . ان القضية جدية . انى اريد ان اعيد اليك الجمل قره نار وقد جئت اليك لكى اكرر لك الشكر الجزيل . فلقد سبق لك ان اهديته لى وكان سقبا صغيرا فشكرا لك على ذلك ولقد احسن لى الخدمة وأداها على احسن وجه . ولكنى طردته

قبل أمد قصير شر طردة اذ لم يعد لدى من صبر وهو قد عاد اليوم اليّ راجعا لا يكاد يستطيع الوقوف على اطرافه من الاعياء . وهو الان مضطجع فى الزريبة خائر القوى .

وبعد اسبوعين سوف يسترجع قواه ويستعيد جماع امره وسيعود كما كان قويا وصحيح البدن وافر القوة وموفور الصحة . ولا يحتاج ذلك الى اكثر من اطعامه بالعلف لانقاذه من التلف .

– قف – اوقفه قازانغاب عن الاسترسال فى الكلام مقاطعا – الى اين ترمى وما هو مقصدك ؟ ما الذى دعاك وحدا بك بغتة الى ارجاع قره نار الى ؟ هل طلبت منك ذلك ؟ هل طالبتك بارجاعه ؟

وآنذاك سرد يديغي عليه الأمر برمته وحكاه بقضه وقضيضه والقضية كذا وكيت فانى افكر عازما ان اغادر مصاحبا اسرتى فلقد مللت العيش فى ساروزيكى وضجرت من طول البقاء بها وحان لى الأوان لتغيير محل اقامتى فلعل تتحسن الاحوال . واصغى له قازانغاب بعناية واهتمام ثم قال له :

– افعل ما ترى ولك ما تشاء فالشأن شأنك لا شأن سواك . ولكن يبدو لى ويخيل الى انك نفسك عاجز عن فهم وادراك ما تريده نفسك . حسنا فلنفرض انك رحلت فهل بوسعك الابتعاد عن نفسك والهرب منها . وأينما حلت وحيثما كنت فلن تجد من شقوتك الخلاص . وسيظل همك وغمك مصاحبين لك فى كل مكان . كلا يا يديغي ان كنت رجلا من الرجال وفارسا بين الفرسان فعليك تمحيص أمرك وحاول حل مشكلتك وانت هنا . اما الرحيل والابتعاد فليسا من باب الشجاعة . كل شخص يستطيع ان يرحل ويهرب ولكن ليس بوسع كل انسان ان يتغلب على نفسه ويقوى على تذليل هواها .

ولم يوافق يديغي على رأى قازانغاب ولم يتفق معه فى القول الذى ذهب اليه ولكنه لم يشأ ايضا ان يعارضه . وانما انصرف الى ذات نفسه وانغلق على كنه ذاته وظل جالسا يجذب الحسرات . واخذ يفكر بينه وبين نفسه ويدير الحوار معها . «بل ربما يكون من الافضل على اية حال ان ارحل واجرجر حالى الى بقاع اخرى ؟ ولكن هل سيكون بوسعى ان انسى ؟ ولماذا يجب على حتما إسدال ستور النسيان وما العمل لاحقا وكيف ينبغى ان يكون ؟ فلا الانقطاع والاقلاع عن التفكير

فى هذا ممكن ولا التفكير وحمل أعبائه مما يتاح ويمكن . وما هو شأنها هى ؟ واين هى الآن مع طفليها ؟ وهل ثمة من يفهمها ويعينها فىحالة بلواها ؟ وأمر اوق بالا ايضا ليس باليسير وشأنها كذلك ثقيل وكم مرت عليها من أيام صعبة وهى تنوء بصمت تحت عبء تجهمى وغربتى عنها وتتحمل تقطيبى وسهومى . . . وما ذنبها هى فى كل هذا ؟»

وأدرك قازانغاب ما يجرى فى ذهن يديغى البورانى ولكى يخفف قليلا من لعجائه قال بعد أن سعل وتنحنح لكى يسترعى اهتمامه ويستثير انتباهها فيسمع كلامه . وراح يقول له حين التفت اليه وأقبل عليه :

– وعلى فكرة ، ما لى احاول اقناعك يا يديغى وكأنما لى من وراء ذلك نفع وفائدة . فانك انت نفسك سيد العارفين بشأنك ولست تجهل وضعك . وما دمنا قد دخلنا فى هذا الحديث فانى احب ان أقول انك لست برحيم اللله-اغا وانا لست عبد الخان . والأمر الرئيسى هو ان أرضنا قاحلة ماحلة وليس ثمة حوالينا على مبعدة مائة فرسخ فى كل الجهات الأربع حتى ولا شجرة واحدة من اشجار البتولا لكى أشد وثاقك اليها . انت حر . تصرف كما تشاء ، ولكن فكر جديا قبل ان تغادر المكان .

ظلت كلمات قازانغاب هذه مدة طويلة راسخة فى ذاكرة يديغي .

الفصل العاشر

كان رحيم اللله-اغا ، بالنسبة لعصره ، مغنيا بالغ الشهرة ، ذاع اسمه منذ الصغر . وقد انعم الله عليه برحمته يجمع فى شخصه ثلاث خصال رائعة : فهو كان شاعرا وملحنا لاغانيه ، ومغنيا مقتدرا ذا نفس طويل . وكان رحيم اللله-اغا يثير دهشة معاصريه . اذ كان يكفيه ان يضرب على الاوتار لتنساب اثر الانغام كلمات اغنية تولد فى حضور المستمعين ولا تلبث ان تتناقلها فى اليوم التالى الحناجر لان كل من استمع لغناء رحيم

الله اغا لا بد وان يحمله معه الى سكان القرى والرعاة الرحل . فهذه هى اغنيته التى كان يرددها فى زمانه الفرسان :

هذا جوادى الأسحم الأصيل
يعدو من الفجر الى الأصيل
مندفعا من الجبال
كانه دفق الخيال
وعندما يبلغ مجرى الماء
تلمع فيه زرقة السماء
يذوق طعم عذبه الزلال
مستعذبا كالصائم الهلال
اما انا فاننى بحبى الدفين
اقفز من صهوة سرجه المكين
الى شفاهك العذاب الرطاب
كانها ذات عصير من الذّ الشراب
مرتشفا رضابك العذب الزلال
متذوقا حلاوة الحياة فى حسن المآل
أحلى من الحلوى ومن طيف الخيال

وقد احب رحيم الله-اغا الملابس الجميلة والزاهية وكان ذلك امرا طبيعيا بالنسبة له ، واستهوته بالاخص القبعات الفاخرة المؤطرة بافضل انواع الفرو ، شتى القبعات الشتوية والصيفية والربيعية . وكان لديه ايضا حصان لا يفارقه ، انه الحصان الاخالتيكنسكي المعروف سارالا ، ذو اللون الاشقر الذهبى مع بياض العرف والذيل وهو هدية تلقاها من التركمان فى وليمة اقيمت تكريما للضيوف . وسارالا نال من المديح ما لا يقل عن سيده . وكان عشاق الخيول يلقون متعة كبيرة فى تملي مشيته الرشيقة والمهيبة . ولهذا فقد قال المتندرون : كل ثروة رحيم الله فى انغام الدومبرا * ومشية سارالا .

* آلة موسيقية قازاخية مكونه من جسم خشبى مثلث الشكل وبوترين . **الناشر** .

وهذا ما كان فى الواقع . فهو قضى كل حياته على صهوة حصانه والدومبرا فى يديه . ولم يجمع اية ثروة على الرغم من شهرته الواسعة . بل عاش ، كالبلبل فى شهر ايار ، يتنقل من وليمة الى اخرى ومن احتفال الى آخر محاطا فى كل مكان بالاحترام والحب . والحصان بالعناية والعلف . ولكن كان هناك اناس آخرون ، اناس اغنياء ، لم يحبوه ، وادعوا انه عاش حياة ماجنة وعقيمة ، كالريح فى الفلاة . نعم ، تناقل البعض مثل هذه المزاعم من وراء ظهره .

ولكن ، ما ان كان رحيم الله-اغا يظهر فى وليمة عامرة ويعزف على الدومبرا ويغنى حتى يصمت الجميع ويوجهون مفتونين انظارهم نحو يديه وعينيه ووجهه ، حتى انظار اولئك الذين استهجنوا اسلوب حياته . نظروا الى يديه لانه لم يكن هناك لون من المشاعر التى تولد فى قلب انسان ، الا وتجد هاتان اليدان فى الاوتار ما يعبر عنه ، والى العينين ، لان كل قوة الفكر والروح كانت تلتمع فى عينيه المتجددتين أبدا ، والى وجهه لانه كان وسيما وبهيا . فقد كان وجهه عندما يغنى ، اشبه بالبحر فى يوم عاصف . . .

وكم زوجة هجرته بعد ان استبد بها اليأس واستنفدت كل صبرها . ومع ذلك فقد كان هناك الكثير من النساء اللاتى ذرفن الدموع سرا فى الليالى حسرة عليه .

هكذا مضت حياته ، اغنية اثر اغنية ، وعرس اثر عرس ووليمة بعد اخرى . وما لبثت ان تسللت الشيخوخة خفية ، فالتمع الشيب فى الشاربين بادئ الامر ، ثم غزا اللحية كلها . بل وحتى سارالا لم يعد على سابق عهده — فقد انهد هيكله وانقصف شعر ذيله وعرفه . ولم يعد فيه ما ينبئ بانه كان فى وقت مضى حصانا مطهما ، الا مشيته . هكذا دخل رحيم الله-اغا شتاء حياته كشجرة من السرو الهرمى ، تذوى فى وحدة مفعمة بالعز . . . وهنا اكتشف انه وحيد بلا عائلة ولا بيت ولا قطعان او اية ثروة . ولم يؤمن له الماوى سوى أخيه الاصغر عبد الخان . ومع انه كان يعبر بين الاهل والاقرباء عن استيائه منه

ولومه له ، الا انه أمر بنصب خيمة خاصة له ، وباطعامه والعناية به . . .

لم يعد رحيم الله اغا يغنى الا عن الشيخوخة . ولا يفكر الا بالموت . وقد ألف فى تلك الايام اغانى عظيمة وحزينة . وحان دوره ليملأ اوقات فراغه بما شغل المفكرين أبدا – لماذا ولد الانسان فى هذا العالم ؟ وما عاد يترحل كالسابق بين الولائم والاعراس ، بل قضى جل وقته فى البيت يعزف على الدومبرا ألحانا حزينة فى الغالب ، وعاش يقتات على ذكرياته ويجترها ، بل وطالت مجالسه مع الشيوخ حول احاديث عن العالم الفانى .

ويشهد الله ان رحيم الله اغا ، كان سيقضى ايامه بهدوء ، لولا حادث هز مشاعره ، وهو فى هذه السن المتقدمة .

لم يطق رحيم الله اغا ذات يوم البقاء ، فامتطى حصانه الشائخ سارالا ، وتوجه الى حفل كبير ليسرى عن نفسه . واصطحب معه الدومبرا تحسبا . وكان قد ألح عليه الوجهاء ، ان يحضر حفل الزفاف ، وان يحل ضيفا على الاقل ، اذا كان لا يرغب فى الغناء . وبهذا المزاج انطلق رحيم الله اغا بنفس مفهافة وعلى نية العودة على عجل .

استقبلوه باحترام بالغ ، ودعوه الى افضل خيمة ، وهى خيمة ذات قبة بيضاء . وقد توسط هناك الوجهاء ، يرتشف الكوميس ويتجاذب أطراف حديث لائق يعرب فيه عن تباريكه وتمنياته .

وفى هذا الحين استمر الاحتفال فى القرية على قدم وساق وتعالت من كل مكان الاغانى والضحكات والصيحات الشابة والهرج والمرج . كما تناهى اليه كيف يجرى الاعداد لسبق الخيل تكريما للعريسين ، ويطهو الطهاة عند النيران ، وترتفع ضجة القطعان فى الفلاة ، وكيف تمرح الكلاب وتهب الرياح من السهوب حاملة معها شذى الاعشاب المزهرة . . . الا ان اكثر ما شد اهتمامه كانت ألحان الموسيقى والغناء فى الخيم المجاورة ، وضحكات الفتيات التى تفجرت بين حين وآخر لتملأ المكان وتثير القلق فى قلبه . . .

ضنيت نفس المغنى العجوز وتعذبت . ومع حرصه على كتمان

ما فى نفسه ، الا ان افكاره حلقت فى الماضى ، وعادت الى تلك الايام التى كان فيها شابا وسيما ، يطوى المسافات على صهوة حصانه الفتى والمتوقد سارالا ، وعندما كانت الاعشاب تحت حوافر حصانه تضحك وتبكى ، والشمس ما ان تسمع غناءه حتى تنحدر للقائه ، وعندما كان صدره يضيق بشدة الرياح ، والحان الدومبرا تجعل الدماء تفور فى قلوب الناس عندما كانوا يلقفون كل كلمة من كلماته وعندما كان هو قادرا على ان يتألم ويحب ويتعذب ويذرف الدموع ، اثناء الوداع وهو على ظهر حصانه . . . فما الغاية من كل ذلك يا ترى ، وما الحاجة اليه ؟ ألكى يتأسف فى الكبر ويذوى كالجمرة تحت الرماد ؟

اغتم رحيم الله اغا واشتد صمته وازداد انطواؤه على نفسه . وعلى حين غرة تناهى الى سمعه وقع خطوات تقترب من الخيمة والتقطت اذناه ، اصوات ورنين قلائد وحفيف ثياب معروف . ثم رفع احدهم من الخارج ، ستارة المدخل الموشاة ، لتتكشف عن فتاة تشد آلة دومبرا الى صدرها ، فتاة بوجه سافر ونظرة لعوب تنبئ عن التعالى والكبرياء ، وحاجبين دقيقين رقيقين ، كوتر القوس ، ينمان عن ارادة قوية ، بل وكل ما فى هذه الفتاة ذات العينين السوداوين كان كامل الجمال وكأنه من صنع الايدى الماهرة الصناع – القامة والمطلع والثياب . وقفت عند المدخل منحنية فى التحية ، بصحبة رفيقاتها وبعض الفرسان ، وهى ترجو الوجهاء ان يستميحوها عذرا . ولكن لم يلحق احد منهم ان ينبس بكلمة ، حتى ضربت الفتاة على اوتار الدومبرا وانشدت تحيى ، رحيم الله اغا بالاغنية التالية :

«كما يقصد حادى الابل ينبوع الحياة من بعيد لارواء عطشه ، قصدتك ايها المغنى المجيد ، يا رحيم الله اغا ، لاحييك . فلا تؤاخذنا اذا اقتحمنا بهذا الصخب مجلسكم ، فهذا شأن الولائم والافراح فى حفلات الزفاف . ولا تدهشنكم جراتى يا رحيم الله اغا ، فلم اتجرأ على تحيتك بهذه الاغنية الا وفى من الرهبة والخشوع ما يعترى اية فتاة تعترف لاول مرة بالحب . فاستميحنى عذرك يا رحيم الله اغا ، فانا مشحونة بالجراة كالبندقية بالبارود . ومع انى اعيش طليقة فى الولائم والافراح

الا انى لم انفك طوال الحياة عن الاعداد لهذا اللقاء كالنحلة التى تجمع العسل قطرة فقطرة . واستعددت كتلك الجنبذة التى لا تنفتح الا فى ساعتها المقدرة . وها هى ساعتى قد ازفت . . .»

– «سامحينى ، ولكن من تكونين ايتها الضيفة الرائعة ؟ . .» هم بالاستفسار رحيم الله اغا ولكنه لم يجرؤ على مقاطعة الغناء . ولكنه انجذب بكل جوارحه نحوها دهشة واعجابا . فاستبدت الحيرة فى نفسه وبعثت الدماء المتدفقة النشاط فى اوصاله ، ولو كان لدى الناس آنذاك حاسة البصر الخاصة لشاهدوا كيف انتفض هو وصفق بجناحيه كالصقر قبيل التحليق . وتفجرت فى عينيه الحياة التى توهجت وتحفز وكانه يسمع فى السماء هتافا منشودا . فرفع راسه وقد نسي عبء السنين . . .

اما الفتاة فقد استطردت تغنى :

«فاستمع الى حكايتى ايها المغنى العظيم ، ما دمت قد اقدمت على هذه الخطوة . فقد احببتك منذ صباى ، ايها المغنى الموهوب ، يا رحيم الله اغا . وتبعتك اينما غنيت او نزلت . ولا تؤاخذنى اذا قلت ان امنيتى كانت ان اصبح مغنية عظيمة مثلما كنت ومازلت عليه يا رحيم الله اغا . ولاحقتك كالظل وتلقفت كل كلمة تنطق بها وكررت اغانيك كالصلوات فحفظت قصائدك ورحت اردددها كالتمائم . وتمنيت ، وابتهلت الى الله ان يمن علىّ برحمته ، فيمكننى من تحيتك فى يوم سعيد ، فاعترف لك بحبى وانشد اعترافا باعجابى القديم ، اغنية اؤلفها فى حضورك ، وليغفر الله لى جسارتى اذا ما تمنيت ان انازلك فى الفن ايها الفنان العظيم ، حتى لو كانت الهزيمة مصيرى . اه ، يا رحيم الله اغا ، تمنيت هذا كما تتمنى الاخريات الزفاف . ولكن كنت صغيرة العمر ، وانت على هذه العظمة ، تتمتع بحب الجميع ، محاطا بذلك المجد والشرف . فلا عجب اذا لم تفطن لي أنا الفتاة الصغيرة وسط هذا الحشد من الناس ، ولم تلاحظنى فى تلك الولائم الصاخبة . اما انا فقد انغمست فى اغانيك ، وتمنيتك وانا احترق خجلا ، بل وحثثت عجلة الزمن لعلى بذلك اعجل سن البلوغ ، فيغدو بمقدورى ان آتيك واعلن عن نفسى بكل جراة . واقسمت ان اتقن فن البلاغة ، واتعلم اصول الموسيقى بعمق

كبير واجيد الغناء مثلك يا معلمى ، كى يمكننى ان اقابلك دون تردد او رهبة من نظرتك الصارمة ، وان اقرئك التحية ، واعترف لك بوجدي ، واتحداك دون وجل . وها انا ذا اقف امامك وانتظر حكمك . فريثما ترعرعت ، وعشت متلهفة استعجل البلوغ ، كان الزمن يمر ببطء ، الى ان بلغت هذا الربيع اخيرا التاسعة عشرة تماما . اما انت فقد بقيت فى عالمى يا رحيم الله اغا على عهدى بك ، الا بعض الشيب . ولكن هذا ليس مانعا من حبى اياك مثلما يمكن ان 'يحب 'مَنْ لم يبلغه الشيب بعد . وها انا ذا هنا . فاسمح لى الآن ان اعلن لك بكل حزم ووضوح بانك حر فى ان ترفضنى كفتاة ، ولكنك ، لا تستطيع ان ترفضنى كمغنية ، فانى جئت لانازلك فى البلاغة . . . فانا اتحداك ايها الفنان ، والقول لك الآن ! . . .»

– ولكن من تكونين ؟ ومن اين انت ؟ – هتف رحيم الله اغا ونهض من مجلسه – وما اسمك ؟

– بيغيماى اسمى .

– بيغيماى ؟ واين كنت حتى الآن ؟ ومن اين اتيت يا بيغيماى ؟ – بعد ان ندت عنه هذه التساؤلات ، طاطا رحيم الله اغا راسه غما .

– لقد ذكرت يا رحيم الله اغا . كنت صغيرة ، وترعرعت .

– انا فاهم كل شيء – قال مجيبا – ولكنى لا افهم امرا واحدا – هو قدري ! فلماذا شاء ان يجعلك بهذا الجمال وانا فى مغيب العمر ؟ لماذا ؟ اهو بذلك اراد أن يقول ان كل ما كان لم يكن كما ينبغى ، وانى عشت فى هذه الدنيا عبثا ، دون علم بان السماء ستنعم علىّ بهذا العذاب ، فشنّف سمعى بصوتك الرخيم وملا نظرى بمظهرك الفخيم ؟ فما الذى يبغيه القدر من هذا الانتقام ؟

وقالت بيغيماى :

– عبثا هذه الشكوى المريرة يا رحيم الله اغا . فاذا كنت انا اجسد القدر ، فلا يخامرنك الشك فيّ ، يا رحيم الله اغا . فلا اعزّ علىّ من الاحساس بأنى احمل البهجة لك بحناني واغنيتي وحبى المتفاني . لا تشكن فيّ ، يا رحيم الله اغا . ولكن اذا ما تغلبت عليك الشكوك واغلقت بابك فى وجهى ، فان حبى العامر

لك يدفعنى الى القول بأنى اتشرف بان انازلك فى الفن ، وانا مستعدة لاى امتحان .

– ما الذى اسمعه ! وعن اى امتحان فى البلاغة يابيغيماى ! وما قيمة المباراة مقابل الامتحان الرهيب – الحب الذى لا يوافق النظام الذى نعيش فى ظله . كلا ، يا بيغيماى ، انا لا أعدك بالتبارى فى البلاغة ، لا لانى لا اجد القوة الكافية ، ولا لان البلاغة قد ذوت فيّ ، وزوت وجهها عنى ولا لان صوتى قد خوى وذوى وفنّى انضوى وانطوى . كلا ، وانما لانى لا أقوى على شيء سوى الاعجاب بك يا بيغيماى . ولا يسعنى الا ان احبك نكاية بنفسى ، وفى الحب وحده استطيع ان اتبارى معك يا بيغيماى .

ومع هذه العبارات امسك ، رحيم الله اغا بالدومبرا ووزن اوتارها على نحو مغاير وانشد اغنية جديدة ، انشدها ، كعهده فى الايام الخوالى – تارة كالريح لا تكاد تسمعها الاعشاب ، واخرى كالرعد يدوى فى قبة السماء الزرقاء المشوبة باللون الابيض-الازرق . ومنذ ذلك الحين وهذه الاغنية تعيش على الارض . اغنية «بيغيماى» .

«. . . اذا كنت قد سعيت من بعيد لتنهل الماء من الينبوع ، فانا كالريح ساسرع للقائك واقلع الى قدميك ، يا بيغيماى ، واذا كان القدر قد كتب لي أن يكون هذا اليوم ، هو يومى الاخير ، فانا اليوم لن اموت ، يا بيغيماى ، ولن يدركنى الموت ابد الابدين يا بيغيماى ، بل سانبعث من جديد لئلا ابقى بدونك يا بيغيماى ، كالاعمى بدون الهادى يا بيغيماى . . .»

هكذا انشد هو اغنيته «بيغيماى» . وقد تناقل الناس احداث ذلك اليوم امدا طويلا . وما اكثر الاقاويل التى تعالت فورا حول رحيم الله اغا وبيغيماى . اما رحيم الله اغا وبيغيماى فقد تخطرا عند توديع العروس الى العريس وسط الخيم البيضاء ، وبين الفرسان مع حصتهم المزينة والجماهير بملابسها الزاهية وعلى رأس موكب المودعين ، وهما ينشدان الاغانى التى يدعوان فيها باطيب التمنيات لهما . سارا جنبا الى جنب وركابا فى ركاب ، وتخطرا معا ، مبتهلين الى الله وكل القوى الخيرة ان تمن على العريسين بالسعادة ، غنّا على الدومبرا وعزفا على الناى وانشدا

الأغانى – تارة هو ، واخرى هى ، تارة هو ، واخرى هى . . .

وكان الناس من حولهم لا يفترون عن ابداء الاعجاب بهذه الأغانى ، وضحكت الاعشاب من حولهما ، وانتشر دخان النيران وحامت الطيور وسرح الأولاد ومرحوا وهم يتسابقون على صهوات المهارى . . .

ولم يتعرف الناس فى رحيم الله اغا على ذلك المغنى العجوز ، فقد صدح صوته كالسابق ، واكتسب من جديد ، مرونته ورشاقته السابقة ، ووميضت عيناه كمصباحين فى خيمة بيضاء نصبت فى مرج أخضر ، بل وحتى حصانه سارالا نصب رقبته بفخر واعجاب .

ولكن ذلك لم يطب للجميع . اذ لم تكن الجموع لتخلو من البعض الذى تاقف لدى رؤية رحيم الله اغا . فقد استاء اقرباؤه وابناء عشيرته – باراكباي . واغتاظ من حضر منهم حفل الزفاف . فهذا تصرف غير مقبول ، على حد زعمهم ، ولا بد ان يكون رحيم الله اغا قد خرف فى ايامه الاخيرة . وراحوا يؤلبون عليه اخاه عبد الخان . كيف سننتخبك مدير الناحية علينا ، اذا كنا سنصبح سخرية الاخرين فى هذا الانتخاب واذا استمر رحيم الله اغا فى الحط من كرامتنا ؟ أسامع انت ماذا يغنى ، وكيف يقهقه ، كالفرس ؟ وكيف تجيبه هذه الفتاة ؟ لا تنتظر خيرا من ذلك . فما حاجته الى الارتباط بهذه الفتاة ؟ ازجره ، دفعا لانتشار الاقاويل فى الريف . . .

وكان عبد الخان ناقما يحقد منذ أمد بعيد على اخيه الماجن الذى عاش حتى المشيب لا يعرف الا هذه المهنة الفاجرة . وقد تصور ان الكبر قد شفاه من طيشه . ولكن ها هو يلطخ اسم عشيرة باراكباى بالخزى والعار .

وحث عبد الخان حصانه ليشق طريقه عبر الجموع نحو اخيه وهو يصرخ مهددا بالسوط : «ثب الى رشدك ! عد الى البيت ! . .» الا ان أخاه الاكبر الذى كان منهمكا فى اغانيه العذبة لم يسمعه او يراه . والعشاق الذين تجمهروا حول المغنيين على صهوات الجياد ، وتلقفوا كل كلمة تبدر منهما ، ازاحوا عبد الخان فى الحال وانهالت فى هذه الاثناء ، الاسواط على رقبته من كل صوب . فاسرع عبد الخان بالابتعاد .

اما الاغاني فقد ظلت تصدح باستمرار . وفي تلك الدقيقة كانت تولد اغنية جديدة .

وانشد رحيم الله اغا : «عندما يصيح فحل الابل داعيا حبيبته الناقة في الصباح ، يجيبه صدى الوديان في الجبال . . .»

فاجابته بيغيماي منشدة : «اما طير التم الذي فقد حبيبته البيضاء فانه ينظر في الصباح الى الشمس ، فيرى قرصها اسود لا يضيئ ولا ينير . .»

وهكذا صدحت الاغاني باستمرار ، تارة هو وتارة هي ، تارة هو ، وتارة هي . . .

وفي تلك الساعة التي نسي فيها رحيم الله اغا كل ما حوله ، لم يخطر له مدى الحقد الذي راح يغلي في صدر اخيه عبد الخان الذي اسرع عائدا الى قريته ، وقد بلغت المدى مشاعر الغيظ والانتقام التي كان يكنها له اقرباؤه بل وكل ابناء عشيرة باراكباي الذين اسرعوا في اثر اخيه . ولم يكن ليعلم اي نكال قد اعدوه له .

اما الاغاني فقد صدحت باستمرار تارة هو وتارة هي ، تارة هو وتارة هي . . .

التحم عبد الخان بسرج حصانه وهو ينطلق مسرعا الى القرية الى البيت كالغيمة السوداء . وقد شيعه الاقرباء الذين واكبوه كقطيع من الذئاب بالهتافات التالية :

– ان اخاك قد جن ! وفقد عقله ! يا للمصيبة ! لا بد من معالجته على وجه السرعة !

اما الاغاني فقد صدحت باستمرار : تارة هو وتارة هي ، تارة هو وتارة هي . . .

وهكذا جرى على ايقاع الاغاني توديع موكب العروسين الى مخدع الزوجية . وانشد المودعون الاغاني التي يدعون لهما فيها باطيب التمنيات . وتكلم رحيم الله اغا مخاطبا الناس ، بانه سعيد لكونه عاش الى هذه الايام المجيدة التي كافاه فيها القدر بمغنية ند له ، هي المغنية الشابة بيغيماي . وقال ، كما لا يقدح الشرر الا بدق الصوان على الصوان ، لا يسبر المغنون اسرار الكمال في البلاغة الا من خلال المنازلات . ولكنه سعيد فوق اية سعادة لانه جرب في خريف عمره مذاق ذلك الحب الذي هو

كالشمس التي تستعر في المغيب بكل ما اوتيت من قوة دافقة منذ بداية الخلق ، جرب تلك القوة الروحية التي لم يقدر له تجربتها طوال حياته .

وفي كلمتها الجوابية قالت بيغيماي :

– ها هي ذا امنيتي قد تحققت يا رحيم الله اغا . فلسوف اتبعك واكون انا والدومبرا طوع بنانك . لكي تقترن الاغنية بالاغنية ولكي احبك واكون حبك وبهذا اسلم نفسي وديعة في يدي القدر .

وهكذا صدحت الاغاني .

وهنا وامام اناس السهوب كافة اتفقا على اللقاء بعد يومين في السوق الكبرى ، وعلى الغناء لجميع الوافدين اليها من كافة الأطراف .

وفي نفس اللحظة التي انقض فيها المودعون ذاع في جميع الأطراف خبر يقول بان رحيم الله اغا وبيغيماي سينشدان اغانيهما في السوق .

– الى السوق !

– شدوا الرحال الى السوق !

– هلموا الى السوق لسماع المغنيين !

وارتدت هذه الاقوال مترددة على شاكلة صدى يؤكد :

– انه سيكون عيدا ما بعده عيد !

– يا للمرح !

– ويا للجمال !

– يا للخزي !

– يا للروعة !

– يا للعار !

اما رحيم الله اغا وبيغيماي فقد افترقا في منتصف الطريق .

– الى اللقاء في السوق يا عزيزتي بيغيماي !

– الى اللقاء في السوق يا عزيزي رحيم الله اغا !

وواصلا بعد افتراقهما يناديان بعضهما الاخر :

– الى اللقاء في السوق !

– الى اللقاء في السوق ، يا رحيم الله اغا !

كانت الشمس قد مالت الى المغيب . وغاصت السهوب

الرحبة بهدوء فى لجة عتمة بيضاء من صيف السهوب . وكانت الاعشاب قد أينعت وفاحت بشذى الحشائش التى قد مسها الذبول ، وتصاعدت وانتشرت برودة منعشة اثر الامطار التى هطلت فى الجبال ، وحلقت الصقور فى هذه الساعة من المغيب على ارتفاع واطئ وعلى مهل ، وانشدت الطيور تمجد هذه الامسية الهادئة . . .

وهمهم رحيم الله اغا مخاطبا نفسه وهو يمسد على عرف حصانه :

– يا له من سكون رائع ! آه يا سارالا ، يا صاح ، ويا حصانى المجيد ، انى لم اكن لاصدق ان الحياة بديعة الى حد يمكن معه ان يصاب المرء بالوجد فى خريف عمره ؟

بيد ان سارالا واصل السير خطوة اثر خطوة وهو ينخر مسرعا الى البيت ، على امل ان يريح اقدامه بعد يوم كامل قضاه فى السير والجرى ، ورغبة منه فى اطفاء غلة الظمأ من مياه النهر ، وان يسرح فى المرج تحت نور القمر .

وها هى القرية تبدو عند انعطافة النهر . وها هى ذا ، الخيام والنيران التى تصاعد دخانها بمرح .

ترجل رحيم الله اغا . وربط حصانه فى المربط . وجلس دون ان يدخل الى الخيمة ليلتقط انفاسه عند الوجاق فى الخارج . ولكن ما لبث ان اقترب احدهم ، انه ولد الجيران :

– رحيم الله اغا ، الناس فى الخيمة يستدعونك .

– اى ناس ؟

– ذووك وكلهم من عشيرة باراكباي .

وما ان تخطى رحيم الله اغا العتبة حتى شاهد كبار شيوخ العشيرة يجلسون متقاربين فى حلقة على شكل نصف دائرة ، وبينهم ، جلس الى الجانب بعض الشىء ، أخوه عبد الخان . كان عبد الخان عابسا ، لا يرفع عينيه وكانه يسعى الى اخفاء انظاره .

– السلام عليكم – بادر رحيم الله اغا الاقرباء – ما الخطب ؟

فاجاب اكبرهم قائلا :

– نحن بانتظارك .

– اذا كنتم تنتظرونى فها انا امامكم – رد رحيم الله اغا وهم باختيار موضعا لينضم الى مجلسهم . الا انه سمع امر يقول له :

– انتظر ! خذ مكانك عند الباب ، وفى حالة ركوع .

– ما معنى كل هذا ؟ اذ اننى لا أزال رب هذه الخيمة .

– كلا لم تعد ! اذ لا يمكن ان يصبح ربا لها عجوز فقد صوابه !

– عم تتكلمون ؟

– عليك الآن ان تقسم بانك لن تقدم من بعد هذا على الغناء فى اى مكان ، ولن تتسكع فى الولائم وان تنسى هذه الفتاة التى انشدت لها اليوم اغانيك الفاجرة متناسيا لحيتك البيضاء الشائبة ، وحرمة شرفنا وشرفك . فاقسم بانك لن تسعى الى رؤيتها بعد !

– عبثا هذا الكلام . فبعد غد ساغنى فى السوق معها امام الناس كافة .

وهنا تعالت الاصوات :

– انه يجلب لنا العار !

– اعتذر قبل فوات الاوان !

– لقد جن !

– نعم ، لا بد وانه جن تماما !

– ليسكت الجميع ! سماع ! – اعاد النظام الى نصابه قاضى القضاة ، واردف قائلا : – وهكذا يا رحيم الله اغا ، اهذا كل ما تقوله ؟

– هذا كل ما اقوله .

– اسمعتم يا ابناء عشيرة باراكباي ، ما الذى قاله ابن عشيرتنا ، هذا الكافر رحيم الله ؟

– نعم ، سمعنا كل ما قاله .

– اذن فاسمعوا ما اقوله . لك فى البداية ، ايها المسكين رحيم الله اغا . فانك قضيت حياتك كلها فقيرا مع حصانك الوحيد ، لا تعرف الا الكسل والخمول . فغنيت فى الولائم وطنطنت على الدومبرا وكنت مهرجا . وقضيت حياتك كلها فى تسلية الاخرين . وقد غفرنا لك حياتك الماجنة عندما كنت شابا . ولكنك اصبحت

الآن مضحكا بعد ان تقدم بك العمر . فنحن نستهزئ بك . وفي الوقت الذي حان لك فيه ان تفكر بالموت والخشوع ، تعلقت بهذه الفتاة ورحت تنتهك العادات والاعراف كالغلام الطائش ، وتحجم عن الانصات لنصائحنا ، ولهذا فليعاقبك الله ، ولا تلومنّ في ذلك الا نفسك . والآن هذا قولي الاخير . انهض يا عبد الخان فانت اخوه وانتما من صلب واحد ، وانت عمادنا وأملنا . وقد اردنا ان نراك مدير ناحية تمثل جميع ابناء عشيرة باراكباي . ولكن أخاك فقدّ صوابه كليا . فهو لا يفقه ما يفعل ، وقد يصبح عائقا لك في هذا المجال . لذا أرى من حقك ، ان تعامل هذا المجنون ، رحيم الله اغا ، على النحو الذي يقينا الخزي والعار امام الناس ولئلا يتجاسر أحد على البصق في عيوننا ، والاستهزاء بابناء عشيرة باراكباي .

– انا لا اعترف بأحد منكم رسولا أو حاكما عليّ – بادر رحيم الله اغا ، مستبقا عبد الخان – وانا أرثي لكم انتم الجالسون هنا وغير الجالسين ، فجميعكم على ضلال مبين ، وانتم تحكمون فيما لا يجوز تقريره في اجتماع عام . فانتم لا تفقهون اين هي الحقيقة واين هي السعادة في هذا العالم . فهل الغناء عار وشنار عندما تنطلق النفس ذاتها بالغناء ، وهل الحب خزي ومعرة وهو هبة إلهية وهبت مرة واحدة والى الابد ؟ فالفرحة الكبرى على الارض حين يفرح الناس لسعادة العشاق ولكن بما انكم تعتبرونني مجنونا ، لا لشيء سوى لأني اغني من شدة الوجد الذي أصابني على غير انتظار ، ولأني افرح له ولا أصدّ عنه ، فاني سوف اغادركم . سوف اغادركم فلستم الوحيدين في هذا العالم . سأمتطي صهوة سارالا في الحال ، وأتوجه اليها ، او سأغادر معها الى أطراف اخرى ، لئلا اقض مضاجعكم بغنائي وسلوكي .

– كلا لن تغادرنا – انفجر عبد الخان الذي التزم الصمت طوال هذا الوقت ، وقال وهو يتنفس بصعوبة – ولن تذهب من هنا الى أي مكان آخر . ولن تجد أي سبيل الى السوق . فنحن سوف نطببك لتستعيد عقلك .

ومع هذه الكلمات انتزع من أيدي المغني آلة الدومبرا .

– هكذا ! – ورمى بالآلة الرقيقة الى الارض وراح يركلها

كالثور الغاضب الهائج اذ يرفس الراعي – فلسوف تنسى الغناء بعد الآن ! هيه ، أنتم هاتوا هذا الحصان العجوز ، سارالا – واوما بيده . وما لبث اولئك الواقفون على اهبة الاستعداد عند المربط في الفناء ، أن ساقوا سارالا على عجل .

– انزع السرج ، وارم به الى هنا ! – امر عبد الخان وهو يخرج فاسا خبأها بين طيات ثيابه .

وراح يحطم السرج بالفأس الى قطع صغيرة وهو يردد قائلا :

– خذ ! لن تذهب الى مكان آخر ! لن تذهب الى اية سوق ! – واقبل في سورة الغضب على تمزيق عدة الحصان وتقطيع السيور ، اما الركابان فقد رماهما الى الخارج ، واحدا في جهة والآخر في جهة اخرى .

وفي هذا الحين كان سارالا يخبط في خوف ثم ركع وراح يشخر ويعض على اللجام وكأنه عرف بان المصير ذاته بانتظاره .

– اذن ، فأنت نويت الذهاب الى السوق ؟ وعلى صهوة سارالا ؟ انظر اذن ! – تكلم عبد الخان باهتياج .

وهنا كان اقرباؤه قد تمكنوا من طرح سارالا أرضا بسرعة وما هي الا لحظة حتى كان الحصان مكبلا بحبل من الشعر . فامسكه عبد الخان بكل أصابع يده القوية من شدقيه ، وشرع سكينه فوق رقبة الحيوان الاعزل .

انتفض رحيم الله اغا بكل ما اوتي من قوة في محاولة للتخلص من مقيديه .

– قف ! لا تذبح الحصان !

ولكن كان قد فات الاوان . فقد انبجست الدماء تيارا دافئا من تحت الجلد ، وانسدلت على العينين غمامة كالظلام في رابعة النهار . نهض رحيم الله اغا من الارض وهو يترنح وقد خضبته دماء سارالا الدافئة .

– عبثا ! فسوف اغادر مشيا على الاقدام . بل حتى زحفا على الركبتين ! – قال ذلك المغني المهان وهو يتمسح بذيل ثوبه فاجابه عبد الخان الذي رفع بحدة وجهه المكشر عن رقبة سارالا المحزوزة .

– كلا لن تذهب حتى مشيا على الاقدام . فلن تخطو بعد

الآن خطوة واحدة من هنا ! – قال بصوت خفيض ثم تحول فجأة الى الصراخ :

– امسكوه ! انظروا انه مجنون ! قيدوه فقد يقتل احدا !

وهنا تصاعد الصياح واختلط كل شيء وتشابك :

– هات الحبل !

– اوثقوا يديه !

– شد الحبل !

– انه قد جن ! يشهد الله !

– انظر ، فما اغرب نظراته !

– فَقَدَ عقله ، بالتأكيد !

– تعالوا به الى الشجرة !

– هيا نحمله !

– تعالوا به بسرعة !

كان القمر قد توسط السماء . وكان هدوء تام قد ساد السماء والارض . ثم جاء بعض المشعوذين وأشعلوا النيران وادوا رقصات همجية لطرد الارواح التى سلبت المغنى العظيم صوابه .

اما هو فظل واقفا مقيدا الى الشجرة ويداه مغلولتان الى الوراء .

ثم جاء ملا ، تلا بترتيل آيات من القرآن وقرأ عليه عبارات ارشادية تهدى الى الطريق القويم والصراط المستقيم .

بينما ظل هو واقفا ، مقيدا الى الشجرة ويداه مغلولتان الى الخلف .

ثم أنشد رحيم الله اغا مخاطبا اخاه :

«سيذهب الليل حاملا معه سدول الظلام ، ومع طلوع الصباح يبدأ يوم جديد . ولكنى لن ارى الضوء بعد الآن ابدا . فقد سلبتنى الشمس يا اخى المسكين عبد الخان . انك فرح ومسرور على الرغم من عبوسك وتجهم جهامتك ، فقد تمكنت من احلال الفرقة بينى وبين حبيبتى التى وهبنى الله اياها فى آخر عمرى . ولكن ليتك تعرف اية سعادة تكمن فى اعماقى ، ما دمت اتنفس وطالما ظل قلبى يخفق ويدق . ومع انك تربطنى وتقيدنى الى الشجرة فانى لست هنا الآن ، يا اخى المسكين عبد الخان

فانت لا ترى هنا سوى جسدى الفانى وحده ، اما الروح فهى كالريح تطوي المسافات وكالمطر تعانق الارض ، وفى كل لحظة انا معها لا افارقها كشعرها وكانفاسها . وهى عندما تستيقظ فى الصباح ، اصير نسيما بريا يهبط اليها من الجبال ، ينتظر على صخرة عالية ، مطلعها من الخيمة فى الصباح . ولو اوقدت النار فسوف اكون الدخان الذى يلامسها ، ولو امتطت الفرس وهمت بعبور النهر فساكون الرذاذ الذى يبلل يديها ووجهها . وساكون الاغنية عندما تنشد وانغام الموسيقى عندما تعزف الالحان . . .»

تعالى حفيف الاغصان فوق راسه وبان عمود الفجر وطلع الصباح .

وما ان ذاع خبر جنون رحيم الله اغا حتى وقد الجميع لاشباع فضولهم ، وتجمهروا على مبعدة .

اما هو فقد ظل واقفا فى ملابسه الممزقة ، مقيدا الى الشجرة ويداه مغلولتان الى الوراء .

وكان ينشد اغنية ، هى تلك الاغنية التى ذاعت من ثم وتناقلتها الأفواه وغدت تتراقص على الألسنة والشفاه :

حينما ينحدر القوم الرحل الرعاة من ذرى الجبال السود
ارجوك ان تفك وثاقى وتطلق يديا يا اخى عبد الخان
عندما يهبط اولئك الرعاة الى الوادى على سفوح الجبال
نازلين من قممها الشوامخ المكللة بالثلوج بيضاءزرقاء
هبنى إرادتى واعد لى حريتى المسلوبة يا اخى عبد الخان
لم احزر يوما ولم يخطر لي على بال
اننى ساكون اسيرك مقيدا بالحبال
لا نسرا محلقا فى الهواء فوق الجبال
اشق حرا عنان السماء
بل ماخوذ فمصفود بالنواصي والاقدام
مكتوف اليدين ومشدودا بلا حراك
فاذا نزل الرعاة الرحل من سود وزرق الجبال
فاطلق يديا ورجليا يا اخى عبد الخان

اذا ما انحدر القوم الرحل من الجبال السود
سأظل محروما من فرصة الذهاب الى السوق يا بيغيماى

واذ ينزل الرعاة من ذرى الجبال السود
لا تنتظرينى وسط السوق الحافلة بالناس يا بيغيماى
لن ننصرف معك الى الغناء فى السوق مع الناس
فان جوادي الاصيل لن يطوى اليها الارض طيا
وانا نفسى هناك متروك نسيا منسيا
ولن استطيع الوصول اليك
ولن تستطيعى الوصول اليّ
من الجبال السود حين يهبط الرعاة نازلين
من الجبال الزرق حين يهبط الرعاة نازلين
لا تنتظرى انت قدومى للسوق مع الناس يا بيغيماى
فاننى بارادتى الحرة والكرامة الشماء
قررت ان اصعد فى الجو محلقا الى عنان السماء

تلكم هى الحكاية . . .

وكان يديغي لا يفتر الآن عن التفكير بذلك ، وهو فى طريقه الى آنا – بابيت ، مشيعا قازانغاب الى مثواه الاخير .

الفصل الحادى عشر

كانت القطارات فى هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق .

وعلى جانبى خط السكة الحديد تمتد هنا مساحات شاسعة من الاراضى الصحراوية – ساروزيكى ، الاراضى الوسطى من البرارى الصفراء . . .

وكانت المسافات فى هذه النواحى تقاس نسبة الى خط السكك وكانه خط غرينيتش .

اما القطارات فكانت تسير من الشرق الى الغرب وبالعكس .

بعد اجتيازهم ممرا طويلا يمتد بمحاذاة جرف ملكومديتشاب ذى الرمال الحمراء حيث طافت نايمان-آنا بحثا عن ابنها-المانكورت ألفوا انفسهم على مشارف آنا-بابيت . وبعد ادامة التطلع تارة الى الساعة واخرى نحو الشمس الطالعة الساطعة فوق منطقة ساروزيكى اعتبر يديغي البورانى ان كل شىء يجرى لحد الآن وفق المطلوب وعلى المرام . بعد الانتهاء من الدفن سيكون بوسعهم تماما اللحاق بالعودة الى الدار فى الوقت المناسب لكى يشتركوا جميعا فى تابين قازانغاب وسيجرى هذا التابين بالطبع عند المساء ولكن الامر الرئيسى هو ان يتم هذان الامران فى يوم واحد . اجل فالحياة هى الحياة . سوف يثوى رفات قازانغاب فى مقبرة آنا-بابيت اما هم العائدون الى البيت فسوف يتذكرونه مرة اخرى بالكلمة الطيبة . . .

وسار الجميع فى نفس ذلك النظام : فى المقدمة يديغي على ظهر بعيره قره‌نار المزدان بالكراكيش المعلقة بالخيوط المدلاة ، يتلوه الجرار مع العربة المقطورة وخلفه الحفارة من طراز «بيلاروس» . لقد رحلوا من ملكومديتشاب الى وادى آنا-بابيت بصحبة الكلب الاصهب جولبارس جاريا بجانبهم وهو حر طليق لكنه يلهث وقد تدلى لسانه مطلا من فمه وكانه معلق فى الهواء .

هنا اعترضتهم المشكلة الاولى . فقد اصطدموا على غير انتظار بعقبة على شكل سياج من الاسلاك الشائكة .

كان يديغي اول من توقف – يا للعجب ! بل وانتصب على ركابيه وتلفت من فوق صهوة قره‌نار يمنة ويسرة فلم ير فى السهوب تتلوى على مد البصر ، سوى الاسلاك الشائكة التى تدلت على عدة صفوف من الاعمدة الكونكريتية المغروزة فى التراب على مسافات متساوية بعد كل خمسة امتار . وكان ذلك السياج يقف بمتانة منيعا وراسخا . وليس معلوما من اين يبتدئ واين ينتهى فلا يعرف مبتداه من منتهاه وربما يكون بلا نهاية فهو يمتد الى لا غاية . ولم يكن ثمة من درب بعد هذا فكيف العمل ؟ والى اين تولى الوجهة ويستانف المسار فالطريق مسدود والدرب محدود .

وتوقف خلفه الجراران . وكان ثابت جان اول من قفز من القمرة ثم تبعه عادل باى الطويل .

– ما هذا ؟ – اشار ثابت جان بيده الى السياج ، وخاطب يديغي متسائلا – هل اخطأنا الطريق ؟

– لماذا أخطأنا ؟ لم نخطئ ، ولكن لا ادرى من اين اتت الاسلاك الشائكة . يا للشيطان !

– الم تكن موجودة من قبل ؟

– لم تكن .

– ما العمل اذن ! وكيف سنواصل الطريق ؟

التزم يديغي الصمت ، فهو نفسه لم يكن يعرف ما العمل .

– هيه ، انت ! أوقف الجرارة ! كفاك ضجيجا ! – صاح ثابت جان بنرفزة وهو يخاطب قالى بيك الذى اخرج رأسه من القمرة .

اوقف قالى بيك المحرك ، وسكتت فى اثره الحفارة . فساد الهدوء فى المكان وهو هدوء تام مطبق . ظل يديغي البورانى متجهم الوجه مقطب الجبين جالسا على ظهر جمله متمسكا بسنامه وممسكا بزمام مقوده ووقف ثابت جان وعادل باى الطويل بالجوار اما سائقا الجرارين – قالى بيك وجمعة على – فقد بقيا جالسين فى قمرتى الجرارين . وجثمان المتوفى قازانغاب المكفن بالكفن الابيض مسجى فى العربة المقطورة وبجواره جلس صهره السكير زوج آى زاده واستغل الكلب الاصهب جولبارس الفرصة السانحة بفترة التوقف فانتقى لنفسه مكانا مريحا جنب احدى العجلات ورفع احد قائمتيه الخلفيتين الى اعلى .

ومع ان سهوب ساروزيكى العظيمة امتدت تحت السماء من اقصى الارض الى اقصاها ، الا ان اى ممر الى مقبرة آنا-بايبت لم يبد للعيان . وظل الجميع واقفين فى حيرة وارتباك لا يدرون ما يصنعون امام هذا السياج من الاسلاك الشائكة .

وكان عادل باى الطويل اول من خرق الصمت :

– اهى لم تكن موجودة من قبل يا يديكه ؟

– كلا ابدا : فهذه اول مرة أراها فيها !

وواصل عادل باى حديثه قائلا :

– اذن فهم احاطوا المنطقة خصيصا . للمطار الفضائى على ما يبدو ؟

– هذا ما يبدو . والا فما فائدة هذه الجهود – اقامة مثل هذا السياج فى عرض السهوب . فقد يكون خطر لاحدهم . فهم لا يخطر فى بالهم شىء الا ونفذوه ، يا للشيطان ! – شتم يديغي فاجابه ثابت جان بتجهم :

– ما فائدة الشتيمة ! كان الافضل ان نستعلم قبل ان نتوجه مع الجنازة فى هذه الرحلة الطويلة .

حل صمت مكهرب . ومن فوق صهوة قره‌نار تفحص يديغي ثابت جان باستهانة من اعلى الى اسفل ، وتكلم بكل برود قائلا :

– الا تصبر انت يا عزيزى بعض الشىء ولا تتأفف ، اذا كانت الاسلاك الشائكة غير موجودة من قبل ، فمن أين لنا ان نعرف ؟

– وهذا ما أقوله انا بالضبط – قال ثابت جان ذلك واستدار .

وساد الصمت من جديد . وكان يبدو ان عادل باى الطويل يفكر فى شىء .

– ما العمل اذن يا يديغي ؟ ما العمل ؟ افلا يوجد طريق آخر الى المقبرة ؟

فأجاب يديغي وهو يتلفت حوله :

– نعم ، يجب ان يكون . ولم لا ؟ فهناك طريق على بعد خمسة كيلومترات الى اليمين . هلموا الى هناك . فلا يمكن الا يكون ثمة ممر آخر الى هناك !

– أانت متأكد من وجود الطريق ؟ – استفسر ثابت جان مع التحدى – والا فسوف نورط انفسنا !

فأكد يديغي قائلا :

– موجودة ، موجودة . خذوا اماكنكم . فلن نضيع الوقت .

وتحركوا من جديد . واستأنف الجراران قرقعتهما فى الخلف . واتخذوا طريقهم على امتداد الاسلاك .

انفعل يديغي وثبط عزمه . وكان يشعر بالأسف فى قرارة نفسه لان الاسلاك الشائكة احاطت بالمكان ولم يهتم احد بتأشير الطريق الى المقبرة . يا لمفارقات الحياة ! ومع ذلك لم يتركه

الأمل ، اذ يجب ان يكون هناك ممر فى هذا الطرف الجنوبى ايضا . وهذا ما كان فعلا . فقد وصلوا الى حاجز يعترض الطريق .

وكان يديغي قد انتبه اثناء اقترابهم من الحاجز ، الى متانة واحكام مبنى نقطة التفتيش : الكتل الكونكريتية الراسخة على الجوانب ، والبيت المشيد من الاجر على حافة الطريق ، وفى اول بداية الممر الذى تتصدره زجاجة عريضة تفتح مجال الرؤية ، والمصباحان الكشافان على سطح البيت المستوى ، لاضاءة الممر فى الليل على ما يبدو . ومن الحاجز امتدت الى الداخل طريق مبلطة بالاسفلت . فما ان راى يديغي كل هذه الترتيبات حتى تولاه القلق .

بمجرد وصولهم خرج من مبنى الحراسة جندى فتى اشقر تنكب الرشاشة وفوهتها الى اسفل . تقدم وهو يسوى ملابسه ، ويعدل قبعته على راسه زيادة فى رفعة الشان ، ثم توقف عند حاجز الطريق بمظهر صارم . ومع ذلك فقد بادر بالتحية عندما اقترب يديغي من الحاجز الذى يعترض الطريق .

– السلام عليكم – وادى الحارس التحية وهو ينظر الى يديغي بعينين زرقاوين فاقعتين لا تخلوان من نظرة صبيانية – من تكونون ؟ وما هى وجهتكم ؟

فاجابه يديغي وهو يبتسم من مظهر الصرامة الصبيانية ، قائلا :

– نحن من السكان المحليين ، وجئنا نشيع جثمان انسان عجوز الى المقبرة .

– المرور ممنوع بدون تصريح – هز الجندى الشاب راسه بالنفي وابتعد بوجل عن شدقى قره‌نار الذى راح يجتر ، واوضح قائلا : – هذه المنطقة محروسة .

– افهم ، ولكننا يجب ان نمر الى المقبرة . انها قريبة من هنا . وما الغريب فى ذلك ! ندفنه ونعود . دون اى تاخير !

فاجاب الحارس :

– لا استطيع . لا يحق لى .

– اسمع يا عزيزى – وهنا مال يديغي من فوق الجمل لكى تبدو بشكل أفضل اوسمته العسكرية – لسنا غرباء . نحن من

مفرق بورائلى – بورائى . فلا بد وان سمعت به . نحن لسنا غرباء . وكل ما نريد ، هو ان ندفن الميت . نذهب الى المقبرة ونعود .

– افهم – همّ الحارس ان يجيب وهو يهز كتفيه بسذاجة لولا ثابت جان الذى وصل فى غير وقته ، بمظهر الانسان الكبير الشان والخبير ، وقد بدا عليه التكلف والعجلة .

واعلن قائلا :

– ما هذا ، ما الأمر ؟ انا من المجلس النقابى فى المحافظة . ما سبب التاخر ؟

– لان المرور ممنوع .

– لقد قلت ايها الرفيق الحارس ، أنا من المجلس النقابى فى المحافظة .

– الامر سيان عندى ، من أين تكون .

– كيف ذلك ؟ – تساءل ثابت جان بتعجب .

– هكذا . فالمنطقة محروسة .

فرد ثابت جان بنبرة الشخص الذى امتهنت كرامته :

– فما الحاجة اذن الى هذا القيل والقال ؟

– ومن يثير القال والقيل ؟ انا اوضح الأمر احتراما لذلك الشخص الراكب على الجمل وليس لك . كى يفهم هو . وعموما ان الحديث مع الغرباء مخظور علىّ . فانا انهض بواجب الحراسة .

– اذن فليس ثمة طريق الى المقبرة ؟

– كلا . لا الى المقبرة وحدها . فالدخول ممنوع للجميع .

– حسنا – اجاب ثابت جان بغيظ – هذا ما توقعته ! وخاطب يديغي – هذا ما توقعت ان يحدث ! ولكن ، اين انت منهم ! آنا-باييت ! آنا-باييت ! فهذه هى آنا-باييت ! – وبهذه الكلمات ابتعد يتميز غضبا وهو يبصق بسخط وتذمر .

شعر يديغي بالخجل امام الحارس الشاب ، وخاطبه بلهجة ابوية قائلا :

– لا تؤاخذنى يا بني . واضح انك تؤدى واجبك . ولكن الى اين يمكن ان نذهب بالجثمان ؟ فهو ليس بالجذع الذى يمكن طرحه والتخلص منه .

– أنا أفهمك جيدا . ولكن ما حيلتى ؟ فانا انفذ ما أومر به فلست أنا الآمر هنا .

– نعم ، لسوء الحظ – تكلم يديغي بحيرة – ومن أين أنت أصلا ؟

فاجابه الحارس وقد ابتهج بحياء مثل طفل صغير ولم يحاول مداراة الابتسامة التى بدت على محياه لان الاجابة عن هذا السؤال كانت تفرحه .

– من فولوغدا ايها العم .

– وهل الجنود عندكم فى فولوغدا يحرسون المقابر هكذا ؟

– ما هذا القول ، يا عم ، ما هذا الكلام ! فالمقابر عندنا مفتوحة البوابة فتفضل متى ما شئت وكم من الوقت شئت . بل وهل الأمر فى ذلك ؟ فهذه المنطقة مغلقة . وانت ايها العم قد خدمت وحاربت على ما ارى ، وتعرف على ما اعتقد ان الخدمة هى الخدمة . والواجب يبقى امانة فى عنقك أردت ذلك أم لم ترد .

– هذا صحيح – وافقه يديغي – ولكن الى اين نذهب بالجثمان ؟

وركنا الى الصمت . ثم عاد الجندى بعد تفكير عميق فهز راسه الاشقر بأسى وقال :

– كلا ايها العم ، لا أستطيع ! ولا يحق لى !

– اذن فليكن – تمتم يديغي وهو فى تمام الحيرة ذاهلا .

كان من الصعب عليه نفسيا ان يدير وجهه ويستدير نحو رفقاء طريقه وذلك لان ثابت جان استشاطت فورته ودنا نحو عادل باي الطويل قائلا :

– ألم اقل لكم انه لا داعى الى الذهاب بهذا البعد القصى فما هذه العقائد الا من رواسب الماضى . وليس من وراء عملكم هذا سوى تصديع رؤوسكم ورؤوس الآخرين . وما الفرق اينما دفن الميت فليكن قبره حيث يكون . ولكنكم لججتم فى الخصام واكثرتم من الكلام فحتى لو انفجرت لا معدى عن آنا-بابيت . وانت ايضا كنت معهم فى هذا فظللت تردد : رح ، سنقوم بالدفن بدونك وها انتم الآن تدفنون ! فادفنوا ما شاء لكم الدفن !

وابتعد عنه عادل باى الطويل وهو صامت ولم ينبس ببنت شفة .

– اسمع ايها الصديق والرفيق – قال للحارس وقد دنا حتى قارب الحاجز – لقد سبق لى انا نفسى اداء الخدمة العسكرية ولى معرفة وعهد ببعض هذه الوجائب والتعليمات ، أليس لديكم هنا تلفون ؟

– بلى ، طبعا .

– اذن فليكن الامر على هذا النحو – تحدث بالهاتف مع رئيس الدورية واخبره بان بعض الأهالى المحليين يرجون الاذن لهم بالمرور الى مقبرة آنا-بابيت .

– كيف ؟ ماذا قلت ؟ آنا-بابيت ؟ – تساءل الحارس معيدا .

– اجل ، آنا-بابيت . تلك هى التسمية التى تطلق على مقبرتنا العمومية . تلفن ايها الصديق وما من مخرج آخر . فليستحصل شخصيا إذنا خاصا لنا . اما نحن ، فصدق بنا ، لا يهمنا هنا سوى المقبرة لا أي شيء آخر .

وفكر الحارس مليا مراوحا بين قدميه وتغضن جبينه من التامل فى التفكير .

– لا تشكنّ ولا تتردد يا أخ – قال عادل باي الطويل – كل شيء يجرى وفق النظام . الأمر هو ان اشخاصا غرباء دنوا الى المخفر وعليك ان تخبر بهذا رئيسك ما الذى عليك ان تفعله فى واقع الأمر . انك ملزم بان تخبر الرؤساء .

– حسنا . – أومأ الحارس براسه – سوف اتلفن الآن . الا ان رئيس الدورية يمضى الوقت كله وهو يجول ويطوف فى ارض المكان بسيارة الدورية مفتشا ومتفقدا المخافر . وارض هذه المنطقة كما تراها واسعة وشاسعة .

– عساك تسمح لى ايضا بالوقوف بجوارك – رجاه عادل باي الطويل – وعند اقتضاء الضرورة اذكر ما يلزم .

– هيا بنا . – وافق الحارس .

ودخلا الى مبنى المخفر . كان الباب مفتوحا وبلغ سمع يديغي كل ما دار من حديث بالتلفون . تلفن الحارس الى عدة جهات مستفسرا عن مكان تواجد رئيس الدورية حاليا ولم يعثر له على اثر اذ لم يكن مكانه معروفا لاؤلئك .

– كلا ، كلا ، اننى اطلب رئيس الدورية شخصيا – اوضح لهم – شخصيا . كلا ، كلا . ثمة قضية على جانب من الاهمية .

تهيجت اعصاب يديغي . الى اين رمت الرومي بهذا الرئيس للدورية ؟ من كان حليفه عدم التوفيق فلن يساعفه التوفيق ومن كان بلا حظ فمن اين له بالحظ !

واخيرا وجدوه .

– ايها الرفيق اللفتنانت . ايها الرفيق الملازم . – كان الحارس يصرخ عاليا بصوته الرنان الحاد فى تاثر وانفعال .

واخبره بان ثمة عند مخفره اشخاصا من الاهالى المحليين قدموا ومعهم نعش ليدفنوا جثمان صاحبهم فى المقبرة القديمة العريقة . فكيف العمل ؟ وارهف يديغي سمعه . فى حالة موافقة اللفتنانت وسماحه لهم بالمرور سيتم كل شيء على ما يرام . ما ان يقول انه موافق حتى تتم الامور . ما احسن ما تصرف عادل باى الطويل . احسنت يا عادل باى . ويا له من فتى فطن وثاقب الذهن . ولكن حديث الحارس التلفونى طال واستطال . وهو الآن يجيب طيلة الوقت عن الاسئلة الموجهة اليه :

– نعم . . . كم عددهم ؟ انهم ستة اشخاص واذا عدت جثة المرحوم شخصا فهم سبعة ، اى انهم ستة سابعهم ميتهم . والميت شيخ ما كبير السن . واكبر المشيعين سنا يمتطى سنامى بعير . ثم جرار يسحب عربة مقطورة وخلف الجرار حفارة كذلك . . . انهم يقولون ان ذلك لازم لحفر اللحد . . . كيف ؟ وما الذى اقوله لهم ؟ اذن ، لا يجوز وهو ممنوع ؟ لا يسمح به ؟ حسنا ، سمعا وطاعة .

وهنا ارتفع صوت عادل باى الطويل ويبدو انه خطف سماعة التلفون من يد الحارس وطفق يقول مندفعا :

– ايها الرفيق اللفتنانت ، تصور نفسك فى وضعنا . ايها الرفيق اللفتنانت لقد جئنا من بورانلى-بورانى . فالى اين يمكننا ان نذهب الآن ؟ نحن اشخاص محليون من ابناء وسكان هذا الموضع ولن نفعل اى شيء سيئ وكل ما نريد ان نفعله هو ان ندفن ميتنا ثم نعود راسا ادراجنا . . . آ ؟ ماذا ؟ ولكن كيف هذا ! فليكن ، هلموا الينا ، تعالوا لنا . وسوف ترون بانفسكم وتقتنعون . ومعنا شيخ كبير السن سبق له ان حارب فى جبهة القتال ابان الحرب . اوضحوا له الأمر .

خرج عادل باى الطويل من مبنى المخفر وهو مضطرب البال

ومنفعل ولكنه قال ان الضابط اللفتنانت سياتى قريبا بنفسه ويقرر الأمر كله عن كثب . واقترب يمشى فى اثره الحارس الذى ذكر الأمر نفسه . وقد اخذ الحارس يشعر الآن بالارتياح وقد خفف عن نفسه وتنفس الصعداء نظرا لان رئيس الدورية ينبغى ان يتولى بنفسه حل القضية واخذ الآن يخطو بثقة ذهابا وايابا بمحاذاة الحاجز الممدود المقلم باللونين الابيض والاسود .

واستغرق يديغي البورانى فى التفكير . من كان بوسعه ان يتوقع مثل هذا الانقلاب للامور والنتيجة والعاقبة للقضية ؟ لا مفر من انتظار وصول اللفتنانت . فى هذه الاثناء ترجل يديغي فساق بعيره نحو الحفارة وربط مقوده الى مغرفتها نفسها . ثم رجع الى الخلف متوجها نحو الحاجز الممدد . وطفق سائقا الجرارين قالى بيك وجمعة على يتجاذبان اطراف الحديث فيما بينهما بصوت غير مرتفع . وانصرفا الى التدخين . وراح ثابت جان يتمشى بعصبية جيئة وذهابا فهو يروح ويجيء الى خلف والى امام مبتعدا الى جانب عن الجميع . اما صهر قازانغاب وهو زوج آيزاده فقد ظل طيلة الوقت جالسا على ظهر المقطورة بجنب جثمان الفقيد . وراح يستفسر من يديغي بقوله :

– ماذا وراءك يا يديكه ، كيف تجرى الامور هناك ؟ وهل سوف يسمحون لنا بالمرور ؟

– ينبغى ان يسمحوا . سياتى الآن رئيس الدورية نفسه ، وهو اللفتنانت . ولِمَ لا يسمحون لنا بالمرور ؟ وهل نحن جواسيس ! يحسن بك ان تنزل من المقطورة لتريض رجليك بالتمشى لئلا تتنمل من طول الجلوس .

بلغ الوقت الساعة الثالثة بعد الظهر وهم لم يبلغوا بعد المكان المقصود والموضع المنشود ولم يصلوا الى مقبرة آناـ بابيت رغم كونها لم تعد من البعد بمكان .

عاد يديغي الى الحارس وراح يخاطبه قائلا :

– قل لى يا ولدى هل سيطول انتظارنا قدوم رئيسك ؟

– كلا ، سيصل قريبا على جناح السرعة . انه يستقل

سيارة . والمسافة تستغرق عشر دقائق الى خمس عشرة دقيقة لا غير .

– طيب ، فلننتظر . وهل اقيم هذا السياج من الاسلاك الشائكة منذ امد ؟

– نعم ، ليس منذ قريب . ونحن الذين اقمناه . وانا في الخدمة منذ سنة . وعليه تكون قد مرت مدة نصف سنة على تطويق المنطقة به .

– اذن فالأمر مفهوم . فلقد جهلت انا ايضا ان هذا الحاجز الشائك منصوب هنا . ولهذا السبب وقع ما وقع وكانما انا الآن بحكم المذنب وصاحب الجريرة فيه . وذلك لانني انا الذى ألحفت في الدعوة الى جلب جثة المرحوم الى هنا بالذات لتثوى رفاته بعد وفاته في مثواها الاخير في مقبرتنا العامة . ولنا هنا مقبرة عريقة هي مقبرة آنا بابيت . اما المرحوم قازانغاب الذى جئنا لندفن جثمانه فلقد كان انسانا طيب النفس جدا . عشنا معا ثلاثين عاما امضيناها في المفرق . كان بودى انجاز الامر على احسن ما يكون .

يبدو ان الجندى قد تعاطف مع يديغي البورانى في مشاركة وجدانية . توجه اليه قائلا بلهجة الجد العملية :

– اسمع يا ابتاه ، سيصل قريبا رئيس الدورية اللفتنانت تنسيق بايف فاذكر له الأمر كله على حقيقته وبكل فحواه . وهو على اية حال انسان له نفس وقلب . فليعرض الأمر على الرؤساء ممن هم أعلى منه رتبة ومقاما فلعلهم يرقون ويأذنون .

– شكرا جزيلا لك على الكلمة الطيبة . وبغير هذا ما سبيلنا وكيف هو منتهى أمرنا . ما هو لقبه الذى ذكرته ، اهو تنسيق بايف ؟ هل لقب اللفتنانت تنسيق بايف ؟

– اجل ، انه تنسيق بايف . وهو جديد هنا ، نقل الينا منذ وقت قريب ، فهل انت تعرفه ؟ هو من ابناء منطقتكم . لعله ممن لكم به معرفة او من اخصائكم .

– كلا ، ما قولك هذا – قال يديغي متضاحكا – ان لقب تنسيق بايف منتشر عندنا انتشار لقب ايفانوف عندكم ايها

الروس فما اكثر هؤلاء واولئك هنا وهناك . كل ما في الأمر هو انني تذكرت شخصا يحمل اللقب ذاته .

وهنا رن جرس التلفون في المخفر وأسرع الحارس راكضا ليرد على المتلفن . بقي يديغي لوحده . عاد حاجباه الى تقطيبهما وتجهم وجهه من جديد . واخذ يتطلع عبوسا متجهم الوجه حواليه ناظرا نحو الافق ليتبين ما اذا كانت سيارة قد ظهرت على الدرب وراء الحاجز . وهز يديغي البورانى رأسه . «واذا ظهر ان هذا الضابط هو ابن ذلك الرجل صاحب العين التى تشبه عين الصقر وهو الذى عرفته في وقت ما ؟ – خطرت على بال يديغي هذه الفكرة وسرعان ما طردها هو نفسه واخذ في لوم نفسه وتعزيرها بينه وبينها زاجرا لها بقوله الداخلى : – ثم ماذا تظنين وتحسبين ؟ ما اكثر ما تخطر على البال من افكار واغربها ويا للراس من محط لغريب الافكار . فما اكثر من يحملون هذا اللقب نفسه بين الناس . ليس ذلك متوقعا ولا يمكن ان يكون . لقد اخذت النصفة من تنسيق بايف ذاك في نهاية المطاف وخاتمته وانتصف منه وفق ما يتطلب الانصاف . . . على اية حال ومهما قيل فان الحقيقة لها مكانها على وجه الارض . انها مهما كان من امر هي التى تعلو وتفوز في آخر الأمر . . .»

تنحى الى جانب واخرج منديل الجيب ومسح به في عناية كبيرة اوسمته ومدالياته وشارات المكافاة عن حسن العمل وجودة حصيلته وعدلها على صدره لكى تلمع وتبرق وتشعشع ولكى يراها راسا ويلاحظها هذا اللفتنانت تنسيق بايف .

الفصل الثانى عشر

اما حكاية تنسيق بايف الملقب بسنقرى العينين فقد جرت على النحو التالى .

في سنة ١٩٥٦ في اواخر الربيع عقد اجتماع حاشد في مراب قمبيل ودعى اليه عندئذ جميع العاملين في خطوط السكك الحديد بالمنطقة فقدموا زرافات ووحدانا من كافة المحطات والمفارق .

ولم يبق في مواضع العمل سوى من كان عليهم في ذلك اليوم القيام بنوبة الشغل على الخطوط . ما اكثر ما عقد من كافة انواع الاجتماعات العامة التى حضرها يديغي البورانى ولكن ذلك الاجتماع بالذات كان مما لا ينسى على الاطلاق .

عقد الاجتماع فى مبنى ورشة تصليح القاطرات . وتجمهر هناك جمع غفير ضاق بهم المكان على وسعه حتى لقد تسلق البعض الى القسم العلوى بالغين حد السقف نفسه وجلسوا متعلقين على العوارض السقفية . ولكن الأمر الأهم هو اية خطب نارية القيت ! اوضح امر بيريا كله حتى النهاية . ووصم بالعار والشنار هذا الجلاد اللعين ، ولم تعرض ثمة بادرة تنم عن رحمة او شفقة بل وأسف عليه . وتعاقبت الخطب الحادة حتى حلول المساء واندفع الى منصة الخطابة عمال الكراج انفسهم ولم يخرج من الاجتماع قبل ختامه حتى ولا شخص واحد فكأنهم كانوا متسمرين الى المكان بالمسامير على المعنى الحرفى لهذا التعبير . ولم يكن ثمة من شيء عدا دوي الكلام ورجع الاصوات وهو أشبه ما يكون بضجيج الغابة الناجم عن حفيف الاشجار وخشخشة الاوراق والاغصان فيها متصاعدا فى ارجاء قبة المبنى . وانطبعت فى الذاكرة عبارة تلفظ بها احدهم فى الجوار مرددا اياها بهمس فى لهجة روسية صميمة بقوله : «انها بالفعل مثل اضطراب البحر قبيل هبوب العاصفة» وهو كذلك . حتى لقد خفق القلب فى الصدر مثلما كان يحدث فى جبهة القتال ابان الحرب قبيل شن الهجوم . واشتدت الرغبة فى ارواء العطش فلقد جف الحلق ويبست اللهاة ولكن اين السبيل الى الماء فى مثل هذا الحشد الحاشد من الناس ؟ وانّى لك هذا وانت فى هذا الجمع الغفير من البشر ؟ ولم يكن ثمة من سبيل سوى مواصلة الصبر وكظم العطش الشديد . وخلال فترة الاستراحة القصيرة اقترب يديغي الى المنظم الحزبى للورشة تشيرنوف رئيس المحطة السابق وكان من الجالسين فى المنصة . وقال له :

– اسمعنى يا اندريه بتروفيتش ، ربما يحسن بى ايضا ان اخطب مع هؤلاء الخطباء . ما رايك ؟

– هيا ، اذا كانت فى نفسك مثل هذه الرغبة .

– الرغبة متوفرة بل وعارمة . ولكن هلم بنا في البداية

نتشاور . الا تتذكر انه كان قد اشتغل معنا فى مفرقنا قطبايف ، ابو طالب قطبايف . وهو ذلك الذى كتب عنه المفتش تقريرا بشكل اخبارية زاعما انه يسجل مذكراته عن ايامه بيوغوسلافيا وكان ابو طالب هذا قد حارب هناك فى صفوف الانصار . وكتب عنه ذلك المفتش الكثير غير هذا وجاء اولئك الجوالون من رجال الأمن واعتقلوا الرجل فلقى حتفه من جراء هذا وهو رهن الاعتقال وضاع فى شربة ماء . الا تتذكر ذلك ؟

– اجل ، أتذكره وما نسيته . وقد جاءت زوجته فى طلب ورقة رسمية .

– اجل ، اجل . ثم رحلت العائلة . وانا الآن اذ سمعت ما سمعت ، خطرت على بالى افكار . اذ تربطنا حاليا بيوغوسلافيا أواصر الصداقة وما من خلافات البتة فبأي ذنب يلقى العذاب والنكال اناس ابرياء لا ذنب لهم ؟ لقد كبر أولاد ابى طالب هذا وهم الآن يتلقون التحصيل فى المدرسة مع اقرانهم واترابهم . وينبغى شرح الأمر كله ليكون الجميع على بينة . والا فلسوف يشير نحوهم كل من شاء ، ويقول ما شاء بينما نال هؤلاء الاولاد نصيبهم . وعانوا مرارة اليتم وفقدان الاب المعيل .

– تمهل يا يديغي . أفأنت تريد التحدث فى خطبتك عن هذا الأمر بالذات ؟

– نعم ، بالفعل .

– وما هو لقب ذلك المفتش ؟

– من الممكن معرفته ، وان كنت فى الحق لم اره بعد ذلك .

– وكيف يمكنك معرفته الآن وعند من ؟ ثم هل ثمة برهان بالوثائق على كونه هو بالذات الذى كتب التقرير ؟

– ومن غيره ؟

– هنا يحتاج الأمر الى برهان فعلي يا عزيزى البوراني . وماذا اذا ظهر ان الامر ليس ولم يكن على هذا النحو ؟ هذه قضية ليست من باب المزاح . اسمع يا يديغي نصيحتى . اكتب رسالة عن هذا كله الى عاصمة الجمهورية ألما – آتا . اكتب عن كل شيء كما حصل وارسلها الى لجنة الحزب المركزية فى الجمهورية . وهناك سوف يمحصون الأمر ، بدون تاخر . لقد

تولى الحـــزب بنفسه القضيـــة بقوة وسترى بنفســـك وتتحقق .

وسوية مع الجميع حاضري ذلك الاجتماع صرخ يديغي البورانى هاتفا بكل قوة وحزم : «المجد للحزب . تؤيد خط حزبنا» ثـم عند اختتام الاجتماع ارتفع صوت أحدهم منشدا نشيد الاممية . ثم ايدته بعض الاصوات منشدة معه وعقب مرور دقيقة واحدة كان الجمع كله يردد كما لو كان بصوت واحد هذا النشيد الذى صدح تحت سقف ورشة التصليح ، هذا النشيد العظيم ، نشيد كل الازمان والعصور نشيد الجميع وكل من كان طيلة حياتـه مـــن المضطهدين . لـــم يصـــادف قط مـــن قبل ان انشد يديغي بهذا الشكل الجماعى . وكأنما قد رفعته الامواج وحملته مهيبا وفخورا وفى نفس الوقت شعر يديغي بكونـــه متحدا مع اولئك الذين هم ملح الارض وعرقها الناضح . واخـذ نشيد الشيوعيين يتعالى ويتعالى ويرتفع نافثا فى القلب والنفس الشجاعة والعزم على الذود عن الحق وتأكيد حق الكثيرين فـــى العمل على تحقيق سعادة الكثيرين . وكما هـو الحال فى حالات الانفعال الطاغي بدا ليديغي من باب الخيال وكأنه عاد مرة اخرى الى شاطئ بحر آرال وهناك شعر كما يشعر دوما بان روحـه الحائرة تتطاير كطائر النورس الحر فوق زبد الامواج فى رغوتها البيضاء .

وبهذه المشاعر الجياشة عاد الى البيت . وحين جلس يرتشف الشاى قص على زوجته اوق بالا مفصلا وبحيوية كل مـا جرى فى الاجتماع . واخبرها كيف أراد هو نفسه ان يخطب ايضـــا وما الذى قال له ردا على ذلك الموجه الحزبى الحالى تشيرنوف . واستمعت اوق بالا الى حديث زوجها وهى تصب له من السماور الشاى قدحا اثر آخر وهو يرتشف ويرتشف بلا توقف .

– ما الذى دهاك ؟ ها انت قد افرغت السماور كله مـــن مائه – قالت ذلك مستغربة وهى تضحك .

– فى الاجتماع عطشت جدا واشتدت رغبتـــى فى شرب شىء ما ، اى شىء . وذلك من شدة التاثر والانفعال . وايـــن هناك الوصول الى الماء او ما يشرب . كان التجمع بحيث يصعب التحرك والتململ . ثم بعد الانتهاء هرعت قفزا لكى أروى عطشى .

ونظرت فاذا بقطار يتحرك نحو جهتنا ببطء . وأسرعت الى سائق القطار وعرفته فقد كان فتى من جماعتنا ، جاندوس من تمغريك – تام وفى الطريق سقانى الماء . ولكن هل ذلك يكفى ؟

– وهذا ما لاحظت بالضبط – همست اوق بالا مبتسمـــة وهى تصب له الشاى مرة اخرى . ثم قالت – انه لأمر حسن انك قد فكرت فى شانهم ، أولاد ابى طالب . ما دام الامر كذلك واذا كانت قد حلت أزمان كهذه ولن تكون بعد الآن مضايقـــات وملاحقات يتعرض لها هؤلاء الايتام ، اذن فكن جريئا ولاتخف . ان كتابة رسالة شىء حسن ولكن حتى تتم كتابتها ثم ارسالهـــا ووصولها وقراءتها وتمحيصها يحتاج الامر الى وقت ما أطوله . والافضل ان تسافر انت نفسك الى ألما – آتا وهناك تقص الامر كله بنفسك وكما وقع .

– اهذا ما تعتقدينه ؟ ان اسافر الى ألما – آتا وتوجـه راسا الى الرئاسة العليا ؟

– وماذا فى ذلك ؟ الامر يتعلق بقضية . وكم مرة دعاك صديقك يليزاروف ولقد طال انتظاره لك وهو فى كل مرة يترك عندنـــا عنوانه المنزلى . بدلا منى سافر انت . لست استطيع الابتعاد عن البيت وعند من أستطيع إيداع الاطفال ؟ اما انت فافعل . اطلب اجازة من العمل . كم هى الاجازات التى تستحقها طيلة هذه الفترة من السنين . خذ اجازة ولو مرة عـلى الاقل . وهناك فى المكان تقص الامـر كلـــه على الناس الكبـــار ذوي المناصب .

وقال يديغي متعجبا من حكمة زوجته ورجاحة عقلها :

– انت يا زوجتى تقولين الصواب . فلنفكر فى الامر ونقلبه على وجوهه .

– لا تطل التفكير وعجل بالتدبير . كلما اسرعت بالانجاز كان الامر افضل . وسوف يساعدك افاناسى ايفانوفيتش . وهـو يعرف خيرا منك الى اية جهة ينبغى ان تذهب وعلى من يجب ان تعرض الامر .

– وهذ ايضا عين الصواب .

– وهو ما اقوله لك . لا داعى للتاجيل والتسويف . وفى

الوقت نفسه سترى ما ترى ولعلك تشترى بعض الاشياء والحاجيات للبيت . بناتنا قد كبرن وسوف تقصد ساولا الى المدرسة فى الخريف . ولعلنا سندخلها الى مدرسة القسم الداخلى او ما رايك ؟ هل فكرت فى هذا الامر ؟ الم تفكر فيه ؟

– فكرت ، فكرت بالطبع وكيف لا ؟ – قال البورانى متنبها ومحاولا ان يستر عنها شعوره بانه قد ادهشه كيف كبرت ابنتهما الكبرى على غفلة منه وحان موعد قصدها الى المدرسة لبلوغها سن التعليم .

وواصلت اوق بالا كلامها قائلا :

– اذا كنت قد فكرت فى ذلك فعلا اذن فسافر لتقص الامر على الناس وتحدثهم عما عانيناه هنا طيلة تلك الاعوام . فليساعدوا الايتام ولو بتبرئة ساحة ابيهم . ثم اذا بقى لديك متسع من الوقت فاذهب وتطلع لعلك تجد ما تشتريه لبناتنا ولى ايضا فما في ذلك من باس . ولقد تجاوزت انا ايضا طور الشباب – قالت ذلك جاذبة حسرة خفية .

وتطلع يديغي الى زوجته . ما اغرب انه يمكن رؤيتها يوميا دون ملاحظة ما تراه بعد ذلك فى نظرة واحدة . انها بالطبع لم تعد شابة ولكنها لا تزال ايضا بعيدة بعد عن التقدم فى السن . ولكنه شعر فيها بشيء ما جديد وغير معهود . وادرك السر : فان التعقل فى نظرة زوجته قد لاحظه وكذلك اكتشف اول شعرة فى راسها قد وخطها الشيب ثم عد من هذه الشعرات البيض ثلاثا ورباعا كالخيوط البيض وليس اكثر ومع ذلك فانها كانت تدل على ما مر من العيش والمعاناة .

بعد يوم واحد كان يديغي فى محطة قطار قمبيل بصفته هذه المرة احد الركاب . اجل ، تعين عليه الانتقال بالاتجاه المعاكس من بورانلى – بورانى لكى يستقل القطار المتوجه الى الما –آتا . ولم ياسف يديغي على هذا . فعلى هذا النحو او ذاك كان ينبغى فى البداية ارسال برقية الى يليزاروف يخبره فيها بقدومه اليه . وهذا لم يكن ممكنا فعله الا فى محطة القطار الكبيرة . . .

ثم وصل قطار موسكو – الما آتا وفيه ركب يديغي متجاوزا مفرقه بورانلى – بورانى . وكان محله فى عربة ذات مقاصير واريكته علوية . وبعد ان وضع الامتعة فى محلها خرج يديغي

راسا الى الممر ووقف عند النافذة لئلا يفوته القاء نظرة على مفرقه من القطار كواحد من الركاب وبعد هذا كان ممكنا الارتقاء الى الاريكة والاستغراق فى الرقاد فعليه ان يقطع بعد هذا فى الطريق يوميين سيرتاح فيهما مستمتعا كما اعتقد الا انه ابتداءا من النهار التالى لم يعد يدرى كيف يمكنه قضاء الوقت وكيفية تخليص نفسه من هذا الفراغ الاضطرارى . واخذه العجب من الركاب الآخرين فى القطار الذين كانوا كسالى ينامون وقتا طويلا ثم يعاودون الأكل والشرب بنهم وجشع وكانهم ممن لا يشبعون ولا همّ لهم سوى النوم والأكل .

ولكن خلال اليوم الاول ولا سيما ساعاته الاولى غلب على نفسه الشعور بالابتهاج وحتى اختلاجة الغبطة الممزوجة بهزة التاثر لعدم اعتياده على مغادرة الاسرة لفترة طويلة . وقف عند النافذة متاثرا نهبة الانفعال منتصب القامة يعتمر بقبعة جديدة ابتاعها خصيصا لهذه المناسبة فى مخزن مبيعات الحاجيات بمحطة القطار ويرتدى قميصا نظيفا وسترة من زمان الحرب ولكنها فى حالة جيدة من ملابس قازانغاب ، مفتوحة الأزرار الى النصف . وقد الزمه قازانغاب بارتدائها قائلا انها تتناسب مع الأوسمة والنياشين والمداليات على الصدر وساقاه فى بنطلون خيالة وجزمتان من جلد مكسو بالطلاء من النوع الجيد مما يلبسه الضباط . وكانت عاتان الجزمتان تعجبان يديغي البورانى اشد الاعجاب رغم ندرة المناسبات التى حدت به الى انتعالهما . كان يديغي يعتبر ان الانسان لكى يحافظ على حسن المظهر ينبغى ان يكون لديه قبل كل شيء احذية جيدة ولباس راس جديد . وكان لديه الآن هذا وذاك .

وهكذا كان واقفا عند النافذة . وكان يمر به العابرون فى ممر عربة القطار بعد القاء نظرات عليه يشعر فيها بالتوقير وبعضهم يعيد الالتفات . ورضى يديغي البورانى عن مظهره الذى كان يبدو انه يوحى بالتعبير عن اللياقة والحساسية فى وجهه .

ومضى القطار فى سيره الرتيب مندفعا بسرعة قصوى فى رحاب ساروزيكى الربيعية وكانه يسابق الريح ويتعجل اللحاق بسمت حاشية الافق الشفاف المتراكض عنه الى الامام . وكانما

خلا العالم الا من شيئين هما عرض السماء والسهب الرحب . وقد انطبقا على بعضهما البعض عند الافق البعيد الوضاء ونحو موضع انطباقهما كان يجرى مندفعا هذا القطار السريع .

ولكن ها هى تتراكض الى اللقاء الأراضى البورانلية . وكل طية من طيات الارض وكل حجر هنا قريب الى النفس ومعروف لديها . ومع الدنو نحو بورانلى – بورانى تحرك يديغي بحيوية قرب النافذة وتراءت ابتسامة تحت شاربيه وكأنما كانت قد مرت أعوام طوال وهو بعيد عن هذا المكان الحبيب وها هو يبدو الآن المفرق . ومرقت امام العين مصابيح الاشارات الضوئية والاكواخ والانشاءات وقطع القضبان المكومة والعوارض المرمية عند المستودع وبدا كل هذا بالسرعة الخاطفة قرب خط السكة الحديد الممتد وسط الرحاب الصحراوية الشاسعة المنبسطة على الجانبين . ولحق يديغي حتى أن يلمح ابنتيه . ويظهر انهما استقبلتا اليوم ارتقابا لوصوله جميع قطارات الركاب العابرة من الغرب الى الشرق . وكانت ساولا وشرابات وهما تلوحان بكفيهما فرحتين وتتقافزان لجلب الالتفات اليهما وتبتسمان فى بشاشة لنوافذ العربات العابرة فى سرعة خاطفة . وكانت ضفائرهما تتلاعبان لدى ذلك بشكل يبعث على الضحك اما عيونهما فتبرق مشعشعة . واندفع يديغي غريزيا نحو النافذة ولوح لهما بيديه متمتما بكليمات رقاق ولكنهما اما لم تريا واما لم تعرفاه وكيف كان ممكنا تميزه والتعرف عليه والقطار يمرق كلمح البصر . ومع ذلك كان مبهجا لنفسه ان ابنتيه كانتا تنتظران أوبته بلهفة وتستقبلان بالتحية كل قطار فى ذلك اليوم عسى ان يكون قطاره بالذات . ولم يحزر اى واحد من ركاب القطار انه خلف وراءه الآن لتوه عابرا طفلتيه وبيته ومفرقه ! ومن باب أولى لم يكن احد منهم ليستطيع ان يحزر انه كان يسرح ضمن سرب الجمال والنياق فى السهب الواقع خلف المفرق بعيره الشهير قره‌نار . اما يديغي فقد عرفه رأسا من بعيد فسخنت عيناه حين اغرورقتا بالدموع من شدة التأثر .

ثم فيما بعد عندما ابتعد القطار على مسافة عدة محطات عن بيته اغفى يديغي . نام طويلا ورغدا على وقع العجلات الرتيب

كالايقاع الموزون وتردد عبارات الركاب مجاوريه فى العربة وهم يتحدثون فى صوت خفيض .

وعند الظهيرة من اليوم التالى بدت للركاب جبال الاطاو الممتدة فى سلسلة متلاحقة من مدينة تشمقند على طول منطقة السبعة انهار (سيميريتشيه) ويا لها من جبال رائعة لا تشبع العين من منظرها . ومهما متع يديغي البورانى ناظريه بالمنظر الفخم لسلسلة الجبال المكللة بالثلوج وهى التى ترافق طريق السكك الحديد حتى مدينة الما-آتا نفسها طلبت نفسه وعيناه المزيد فالمزيد من النظر وكان هذا المنظر بالنسبة له كقادم من سهب ساروزيكى معجزة ساحرة واحساسا بالخلود الأبدى الأزلى . وقد أثارت جبال الاطاو فى نفسه لا مجرد الاعجاب بعظمتها فحسب وانما ايضا الحاجة الى التأمل فى التفكير وهو يتطلع اليها تطلع المندهش المبهور . وقد أعجبه هذا التأمل الصامت والعين تسرح فى هذه الجبال . وتهيأ بالفكر لملاقاة الشخصيات ذوي المسؤولية الذين لا يعرف بعد من سيكونون وهم الذين اعلنوا للملأ أن اخطاء الماضى لن تتكرر بعد الآن مرة اخرى مطلقا ولهذا السبب أراد ان يقص عليهم القضية المريرة التى وقعت فى نصيب عائلة ابى طالب . فليتفحصوا وليتمحصوا وليقرروا الآن الكيفية التى ينبغى أن يجرى بها تصحيح القضية . وابو طالب نفسه لا يمكن بعثه مرة اخرى الى الحياة ولكن اطفاله يجب أن يصانوا من كل أذى وترفع عنهم كل اساءة واهانة وينبغى ان تفسح أمامهم كل الدروب . فليذهب اكبرهم سنا ، داول ، خريف هذا العام الى المدرسة غير خائف ولا وجل من اى شىء وغير مضطر الى اخفاء أمر من اموره . ولكن أين هم الآن ؟ وكيف تسير شؤونهم ؟ وما هو شأن ظريفة ؟ وكيف تجرى حياتها ؟

جثمت كآبة ثقيلة الوطأة على الصدر وسرت رعشة باردة فى النفس حين خطرت على باله هذه القضية . كان الأوان قد حان لنسيان الماضى البغيض واسدال ستار النسيان عليه ولكي تهدأ النفس وتستقر وتطمئن بعد الغليان والفوران فلقد ابتعدت لكي تنسى وذهبت كى تقطع الافكار عنها ولكن الله وحده يعلم ما الذى نسى من أمرها وما الذى لا ينسى ولا يمحى . شعر

يديغي البورانى بالحزن والأسى وهدأ نفسه ما استطاع خاضعا للقدر ومستسلما للمصير . ولمن تبث ما فى صدرك ومن الذى يفهم ما يجيش فى نفسك ؟ عدا هذه الجبال المكللة بالثلوج والتى تناطح السحاب وتشهق الى عنان السماء ولكنها فى عليائها وفى رفعة شأوها لا شأن لها بهموم أهل الارض ولا يعنيها فى شىء ما يعانيه الناس . وانما هى عظيمة جبال الاطاو هذه لكى يأتى ويذهب العدد العديد من الناس الفانين وكانهم لم يكونوا شيئا مذكورا بينما تظل هى شامخة فى العلاء وتبقى فى حضن الخلود والأبدية ولكى تخطر على بال الناس شتى الافكار وتمر بخاطرهم مختلف الخواطر وهم يتطلعون اليها ويسرحون بصرهم عليها وهى صامتة لا تنطق ومهيبة لا تتحرك . . .

وتذكر يديغي كيف ان ابا طالب عقب تاليفه «نداء رحيم الله اغا الى شقيقه عبد الخان» وقد فكر كثيرا كما يبدو فى الحكاية الماثورة التى سجلها تدوينا أدلى ذات مرة فى الحديث بفكرته حول ان اشخاصا مثل رحيم الله اغا وبيغيماى اذ يلتقون على درب العمر يمنحون الى بعضهم البعض من السعادة والهناء مثلما يسببونه لهم من البلاء والشقاء حين يلقى أحدهم الآخر فى حومة مأساة لا حل لها ولا منفذ منها وحول ان الانسان ليس فى حل عن الانسان الآخر وليس فى منجى من أحكام الناس الآخرين ولا فى غنى عن حكمهم عليه ورأيهم فيه . ولهذا تصرف على هذا النحو معه ، مع رحيم الله اغا ذووه القريبون اليه حاسبين كما ظنوا اواعتقدوا انهم يفعلون له الخير . وبدت ليديغي تلك العبارات الحكيمة آنذاك ليست سوى عبارات فيها ذكاء لا اكثر حتى أدرك بنفسه وتجربته مدى ما فيها من حقيقة عميقة وحكمة دقيقة وعرف ما تشتمل عليه من صواب حين عانى بنفسه ما عانى من العذاب . ورغم انهما هو وظريفة كانا بعيدين عن مثل هذه القصة بُعد السماء عن الارض وبعد الثرى عن الثريا اذ لم يحصل بينهما أي شىء عدا كونه كان يفكر فيها تفكيرا جمّا ويحبها حبا لمّا ولكن ظريفة كانت الاولى فى تلقى الضربة الاولى بغية التخلص من المصير الأكيد لعدم الحل وانعدام المخرج وقررت لنفسها قاطعة بحكم العقل كما تجرى الدماء من العروق عند النزيف عزمت وامضت بيد انها لم تفكر فيه وفى

شأنه وما الذى سيخلفه قرارها هذا فى نفسه . من الحسن انه بقى على قيد الحياة على الاقل . وحتى الآن يشعر أحيانا بنوبة من الكآبة بحيث يجد نفسه على استعداد للجرى الى حافة الارض ومنتهاها ومن أقصاها الى أقصاها لمجرد ان تقع عيناه عليها او يشنف سمعه صوتها ولو لمرة واحدة ولحظة خاطفة . . .

وتذكر يديغي ايضا وهو يضحك على نفسه ويسخر منها كيف اعتراه وبدا منه انفعال غير لائق حين اخبره ابو طالب بانه عاش فى المانيا كما يقال شخص مرموق وشاعر عظيم هو جوته ويرن لقبه هذا فى اللغة القزاخية بمعنى ليس بالمطلوب والمرغوب ولكن هذا ليس مانعا وليس هو الجوهر فكل انسان يحمل ما قدر له واطلق عليه من اسم او لقب . وهذا الشيخ العجوز جوته وقد تجاوز سن السبعين من عمره يبدو انه احبّ صبية حسناء وهى ايضا احبته من كل قلبها . وعرف هذا الجميع ولكن لم يؤخذ جوته بالنواصي والاقدام ولم يعلن انه مجنون معتوه ومخبول مجذوب . . ولكن كيف كان التصرف مع رحيم الله اغا . . . جعل عرضة للاذلال والمهانة وسلط على هذا الانسان ما لا يليق بالانسان وكرامة الانسان وقالوا وظنوا انهم يريدون به خيرا . . . أما ظريفة فانها هى ايضا ارادت له على طريقتها الخير وتصرفت وفقا لما أوحى به لها ضميرها . . . ولهذا فهو لا يحس ازاءها بالضغينة . وهل يمكن ان يشعر المرء بالضغينة ازاء الانسان الذى يحبه وهل يحقد الانسان على محبوبه ؟ من الاحرى أن تتهم نفسك وتحملها الذنب من ان توجه ذلك الى من تحبه . فلينزل بك السوء لا بها وليكن العذاب والويل من نصيبك لا من نصيبها . . . واذا كان باستطاعتك فان هجرتك وتركتك تذكرّها دوما واحبّها دائما . .

وبهذا رحل يديغي البورانى متذكرا اياها ومحبا لها كان يتذكر ابا طالب واطفاله الذين أصبحوا بعده يتامى . . .

وقد فكر يديغي فجأة وهو يوشك على الوصول الى ألما آتا على هذا النحو : وما العمل ان لم يكن يليزاروف هنا ؟ يا له من أمر ! ولماذا لم يخطر له هذا من قبل وهو لا يزال فى بيته

واوق بالا ايضا لم تفكر فى هذا . حكموا على الأمر قياسا على انفسهم اذا كانوا هم يعيشون فى منطقة ساروزيكى دون الانتقال منها او السفر منها فانهما يظنان ان الجميع مثلهما لا يسافرون ولا ينتقلون . بينما الاحتمال حتى كبير بان افاناسى ايفانوفيتش لن يكون فى بيته . ان هذا الرجل يشتغل فى الاكاديمية نفسها وهو فى كل مكان مطلوب ومرغوب وما اكثر الاعمال والاشغال لدى عالم كهذا . يمكن ان يسافر فى رحلة ايفاد وفى سفرة طويلة . «يا له من اخفاق واحباط سيكون فى هذه الحالة» – فكر يديغي بقلق واخذ يفكر فى انه سوف يتعين عليه عندئذ التوجه الى هيئة تحرير جريدته القزاخية التى تنشر عنوانها فى كل عدد من الجريدة . وهناك سوف يشرحون له على الارجح كيف والى اين يتوجه . ومن اعلم من محررى الجريدة بالجهة التى ينبغى قصدها فى مواضيع كهذه . بدا له حين كان لا يزال فى بيته ان الامور كلها بمنتهى البساطة فاستجمع امره وسافر . والآن مع دنوه من المكان اخذ يديغي البورانى يشعر بالقلق وليس عبثا ان مما يقال فى الامثال قولهم ان الصياد غير الرشيد يحلم بما سيصيده وهو لا يزال بعد فى بيته لم يخرج منه الى موضع الصيد والقنص . وهكذا فعل هو ايضا . ولكنه بالطبع اعتمد وعوّل على يليزاروف وهو عماده وصديقه منذ امد بعيد وقد نزل مرارا على ضيافته فى المفرق وقد عرف قصة ابى طالب قطبايف . وسيكون بوسعه فهم الأمر من اقل اشارة واخصر عبارة . ولكن كيف يمكن التحدث الى اناس غرباء ومن اين ينبغى ان يبدأ وكيف ينبغى ان يدير الحديث – هل يلقى افادات شاهد العيان كما يجرى فى المحاكم ومرافعاتها أم يعمد الى القاء ما يشبه التقارير أم على نحو آخر ؟ وهل سوف يصغى اليه سامعوه وما الذى سوف يقال له فى الجواب ؟ أم انهم سوف يستفسرون منه متسائلين فى استفسار انكارى أو شبهه من قبيل : ومن انت ؟ ولماذا تشعر بالحاجة الملحة لديك دون غيرك او اكثر مما لدى سواك لتبييض صفحة ابى طالب قطبايف وتبرئة ساحته ؟ وما هي علاقتك الشخصية بالأمر وصلتك الخاصة به ؟ ومن انت له ؟ أانت اخوه الشقيق أم قريبه ام زميل ورفيق أم صاحب وصديق ؟

وفى هذه الاثناء كان القطار قد بلغ احد اطراف الماآتا بعد ان كان ينهب الطريق اليها نهبا . واخذ الركاب يتهيأون للنزول عند الوصول وخرجوا الى الممر بأمتعة سفرهم فى انتظار وقوف القطار . وكان يديغي ايضا متهيئا وعلى استعداد للنزول من القطار . وها هى محطة القطار قد بدت وبلغت وها هى نهاية الدرب قد حلت وقد تمت الرحلة وقاربت نهايتها . وكان الخلق المتجمع فى انتظار القطار جمهورا حاشدا لا أول له ولا آخر . وكان الناس فى المحطة وعلى رصيفها كثرة كاثرة من مودعين ومستقبلين ومن مسافرين وقادمين . واخذ القطار يسير ببطء ويتهيأ تدريجيا للوقوف . وعلى حين غرة لمح يديغي البورانى من النافذة بين الوجوه المتلاوحة على رصيف المحطة وجه يليزاروف وامتلكته بهجة غامرة عاصفة كفرحة الاطفال . ولوح له يليزاروف بقبعته فى بشاشة وحفاوة وسار بمحاذاة عربة القطار مرافقا . يا له توفيق كبير . ان يديغي حتى لم يراود نفسه الحلم بان يليزاروف سوف يستقبله بنفسه . انهما لم يلتقيا ولم يريا بعضهما البعض منذ امد بعيد ، منذ الخريف الماضى . كلا ، لم يتغير افاناسى ايفانوفيتش رغم انه تقدم فى العمر . انه لا يزال على ما كان عليه : خفيف الحركة نشط اللفتات وهو نحيف الوجه نحيل القوام حتى ان خبير الخيول قزانغاب يشبهه بجواد مطهم كريم الاصل من نوع سلالة ارغماق وهو من خيرة الجياد وكان ذلك خير اطراء له . وحين علم يليزاروف بالوصف الذى نعت به وافق على ذلك قائلا فليكن الامر كما شئت واردت . ثم اضاف لدى ذلك اذا كان ولا بد من تسميتى ارغماق فاعلموا انى ارغماق كبير السن ولست مهرا فى مقتبل العمر . فلكم الشكر على هذا التقدير . وكان يسافر فى العادة الى ساروزيكى مرتديا بدلة العمل ومحتذيا بساطيل المشمع ويعتمر على رأسه طاقية ابلتها السنون اما هنا فقد كان يشد على عنقه رباطا ويرتدى بدلة حسنة بلون ازرق غامق . وكانت هذه البدلة تلائمه جدا وتوافق قوامه والامر الرئيسى هو انها كانت تنسجم ولون شعره الذى وخطه الشيب الى حد النصف .

والى ان استقر القطار سار افاناسى ايفانوفيتش

بجواره ملتفتا نصف التفاتة ومبتسما له عبر النافذة وكانت عيون يليزاروف الشهلاء الوطفاء برموشها الطوال تشعان ببريق كشرار النار يتلألأ فيها الارتياح الصادق والرضا الصميمي لهذا اللقاء المرغوب . وهذا قد بعث الدفء راسبا فى صدر يديغي وغابت مرة واحدة وتبددت الشكوك التى خامرت نفسه مؤخرا . وقال لنفسه منتشيا بالحبور : «انها بداية طيبة وان شاء الله ستكون الرحلة كلها موفقة وميمونة» .

– ها انت اخيرا قد حزمت امرك وعزمت على المجيء وجئت بالفعل . وكم من مرة هممت ولم تفعل واجلت ولم تنجز . مرحبا واهلا وسهلا بك يا يديغي ، مرحبا يا بورانى – قال يليزاروف هذا وهو يستقبله .

وتعانقا بقوة فى احتضان . وبسبب شدة الزحام حولهما وبسبب الفرحة شعر يديغي بشيء من الارتباك . وبينما انتقلا الى الساحة المقابلة للمحطة امطره يليزارف بسيل دافق من الاسئلة التى لها اول وليس لها آخر . وقد استفسر منه عن الجميع وعن حياتهم وشؤونهم : عن قازانغاب واوق بالا وبوكيه والاطفال ومن هو الآن رئيس المفرق ولم ينس ان يسأل عن بعيره قره‌نار .

– وكيف هناك يا بورانى حال بعيرك قره‌نار ؟ – سأله مستفسرا باهتمام بعد ان ضحك سلفا بمرح لسبب ما – الا يزال على حاله كالاسد الهصور ؟

– انه يتمشى على هواه وما الذى سيحدث له ؟ انه يزمجر ويهدر – اجاب يديغي – ولديه هناك فى ساروزيكى ما يشاء من مراح فهو مطلق السراح والمكان رحب فسيح وله كامل الحرية فماذا يريد اكثر من ذلك ؟

كانت واقفة قرب مدخل المحطة سيارة سوداء كبيرة ملمعة ومغسولة . وهذه اول مرة تقع فيها عينا يديغي على مثلها . انها كانت من طراز «زيم» وهى خير سيارة سوفيتية كانت معروفة فى اعوام الخمسينات . وقال يليزاروف مازحا :

– هذه هى قره‌نارى . اجلس يا يديغي – قال له وهو يفتح له بابها الامامى – فلنذهب .

– ومن الذى سوف يسوق السيارة ؟ – استفسر يديغي .

– انا نفسى ، سأسوقها بنفسى – قال يليزاروف وهو يجلس وراء المقعود . – فى آخر العمر اصبحت ذا ابهة كما ترى . ما الفرق ما بيننا وبين الامريكان فى هذا وغيره . وهل نحن اسوأ منهم بشيء ؟

وشغل يليزاروف المحرك بثقة الواثق المطمئن وقبل ان تنطلق السيارة من مكانها تطلع بنظرة تساؤل وهو يبتسم نحو ضيفه قائلا :

– ها انت قد قدمت اذن . فقل لى راسا : أتنوى البقاء طويلا ؟

– اننى فى الحقيقة قادم من اجل قضية يا افاناسى ايفانوفيتش . والامر يتوقف عليها وعلى النتيجة وقبل كل شيء ينبغي اجراء التشاور معك فى الامر .

– هكذا حدست وقدرت انك قادم من اجل قضية معينة والا لما جررت نفسك وغادرت ساروزيكى . كيف لا ، فليكن . هلم بنا نفعل على هذا النحو يا يديغي . الآن سوف نتوجه الى بيتنا . وسوف تسكن عندنا ولا تعترض . ودعك من التفكير فى اية فنادق كانت . انت عندى ضيف خاص وكما نزلت انا فى ضيافتك بساروزيكى ستنزل عندى ضيفا مكرما وعزيزا . . . صيدين سيي بار . . . افليست العبارة هكذا بلغتكم القزاخية ؟ ومعناها : احتراما باحترام ؟

– اجل انها على هذا النحو – قال له يديغي مؤكدا .

– اذن فقد انتهينا من الامر وسيكون ذلك لي ابعث على المرح فلقد سافرت زوجتى يوليا الى موسكو ذاهبة الى ابننا فقد ولد لنا الحفيد الثانى .

– الحفيد الثانى ! لك منى التهانى – قال يديغي .

– اجل ، اسمع ، الثانى – كرر يليزاروف وهو يرفع كتفيه باستغراب – عندما ستغدو جدا مثلى سوف تفهمنى ، رغم انك لا تزال بعيدا عن الوصول الى هذا . عندما كنت فى مثل سنك كان الهواء لا يزال يعصف مزوبعا برأسي ! ويا للعجب فانني واياك نفهم بعضنا البعض دون النظر الى فارق السن . والآن هلم بنا فلنرحل ولنذهب عبر المدينة كلها الى الاعلى . أترى الجبال والثلج يكلل هامات ذرواتها ؟ هناك فوق الجبل

بمنطقة ميديو واظن اننى حدثتك حول هذا ، يقع بيتنا بضواحى المدينة عند القرية تقريبا .

– اتذكر يا افاناسى ايفانوفيتش . وقد قلت لى ان بيتكم يقع عند حافة النهر . ويسمع عندكم دوما صوت خرير الماء .

– سوف ترى الآن هذا كلـــه بنفســك راي العين . هيا بنا ما دام ضوء النهار لا يزال منتشرا . انظر الى المدينـــة انها الآن فى غاية البداعة والروعة والجمال والفصل هو فصـل الربيع . وكل شىء غارق فى الورود والازهار ، فما ابدع ومـــا اروع .

كان الشارع يمتد من محطة القطار مستقيما وبدا كما لـــو كان بلا نهاية ، عبر المدينة كلها وهو يرتفع تدريجيا محفوفا بصفين من اشجار الصفصاف ومكتنفا بحدائق غنّاء نحو قمـــة المرتفع . وكان يليزاروف يقود السيارة على مهل وبدون عجلـة متحدثا اثناء الطريق ذاكرا الامكنة ومواقعها وصفاتها وكانت ثمة مؤسسات ودوائر رسمية شتى ومحلات بيع ودور سكنى . وفى قلب المدينة تماما كانت شاهقة فى ساحة كبيرة فسيحة ومكشوفة من كافة الجهات بناية سامقة عرف يديغي راسا وحالا من شكلها انها دار الحكومة .

– هذه هي لجنة الحزب المركزية . – قال يليزاروف وهو يشير اليها بايماءة من راسه . ومرا بجوارها دون ان يخطر على بالهما انه سوف يتعين عليهما القدوم فى اليوم التالى الى هنا فى عمل كما تتطلبه القضية . وعرف يديغي البورانى بناية اخرى حين استدارت بهما السيارة عن الشارع المستقيم الى اليســار وهى مسرح الاوبرا القزاخى . وبعد عبـور حيين استدارا مرة اخرى نحو جهة الجبال فى الدرب المفضى الى منطقة ميديو . خلفا قلب المدينة وراءهمـا . وقطعـا شارعا طويـــلا بين المنازل والبساتين ومجاري السواقي التى يترقرق فيها الماء المنحدر من الجبال . وكانت الحدائق والبساتين حولهما مزدهرة ومزهرة .

– يا للجمال ! – ردد يديغي هامسا .

– اننى لمسرور لكونك قدمت فى هذا الوقـــت بالذات – اجاب يليزاروف – ان مدينة الماآتا فى هذا الوقت تكون فـى

احسن اوقاتها وترتدى ابهى حللها . وهى فى الشتاء ايضا جميلة ولكنها الآن تطرب النفس وتغني للروح .

– اذن فالمزاج عندك رائق . – قال يديغي مبتهجا مـــع ابتهاج يليزاروف .

ونظر ذاك اليه متطلعا بعينيه الشهلاوين الجاحظتين واوما براسه واتخذ هيئة الجد مقطبا جبينه ومكفهر الوجه ثـم عـاد الى الابتسام وانفرجت اساريره وانزاحت تجاعيد وجهه مـــن تحت العينين .

– هذا الربيع له خصوصية يا يديغي . ثمة تغيرات تجرى ولهذا تبدو الحياة مستطرفة ويطيب العيش بالرغم من كون الاعوام تجرى بسرعة . لقد افقنا ونظرنا الى ما حولنا مفتوحي العيون . هل سبق لك من قبل ان اصبت بعلة وبيلة ثم شفيت فراق لك مذاق الحياة على نحو جديد ؟

– لست اتذكر نفسي فى مثل هذه الحالة – رد يديغـــي بتاثره السريع المباشر – اللهم الا اذا اعتبرنا حالتى بعد الاصابة برجة الدهول فى الحرب .

– انك فى صحة وعافية وانت اقوى صحة من ثور ! – قال يليزاروف ضاحكا – اننى اتحدث على وجه العموم لا عن هذا . كل ما فى الامر انه قد خطرت على بالى هذه العبارة فليس فـى كلامى اية اشارة بل هو قول يقال . . . ان القضية هى ان الحزب نفسه قد قال الكلمة الاولى . وانا راض عن هذا كل الرضـــا واشعر ازاءه بمنتهى الارتياح رغم اننى ليست لدى فى ذلك من الناحية الشخصية اية اسباب خاصة . ولكن الفرحة تغمر القلب وتعم النفس وقد انتعشت الامـــال وكاننى قد عدت الى عهـــد الشباب . ام ربما يكون ذلك ناجما عن كونى انحدر فى واقـــع الامر الى هوة الشيخوخة ومنخفض الهرم ؟ ما قولك ؟

– وانا يا افاناسى ايفانوفيتش قد قدمت بالذات فى قضية من هذا النوع .

– وما هى ؟ – تساءل يليزاروف دون ان يفهم كنه الامر .

– لعلك تتذكر ؟ لقد تحدثت اليك سابقا عن ابى طالـب قطبايف .

– أجل ، وكيف لا ! اننى اتذكر حق التذكـر . اذن فهذه

هى الحقيقة . يبدو انك بالفعل تنظر الى الجذر من الامر . احسنت صنعا . وحسنا فعلت بقدومك دون ارجاء .

– لست انا الذى احسنت صنعا بل انها اوق بالا التى اوحت لي بهذا وهدتنى اليه . ولكن السؤال هو من اين نبدا والى اين ينبغى ان نتوجه ؟

– بأى شىء نبدا ؟ هذا الامر يجب ان نتولاه انـــا وانت بالمناقشة والبحث وعلينا ان نقتله بحثا . وسوف نفعل هذا فى البيت جالسين حول المائدة نرتشف اقداح الشاى . وســـوف نناقش الموضوع بتمهل ودون تعجل – وبعد ان صمت هنيهة قال يليزاروف بلهجة تحوى الكثير من المعانى : – ما اكثر ما تبدلت الازمان يا يديغي ، فقبل ثلاثة اعوام حتى لـم تكن لتخطر لك على بال فكرة القدوم بأمر كهذا . اما الآن فما من اخطار ولا خوف من لذع النار . وهكذا ينبغى ان تكون كل الشؤون من حيـث المبدا ينبغى علينا جميعا حتى آخر فرد ان نتمسك بهذا العدل ونقول فيه كلمتنا الفصل . ولن تكون لدى اى احد كان اية حقوق استثنائية أو امتيازات خصوصية . وهكذا افهم الامـر واراه .

– الامر هنا لكم اوضح وأجلى وفضلا عن ذلك انت رجـل متعلم – ابدى رايه يديغي – وعندنا اثناء الاجتماع العام فـى عنبر الكراج دار الحديث ايضا حول هذا . وقد دار براســـي عندئذ راسا التفكير فى شأن ابي طالب . وهذا الموضوع مستقر فى نفسى منذ وقت طويل . حتى لقد اردت ان اخطب فى ذلـك الاجتماع . لقد خلف ابو طالب اطفالا اصبحوا بعده يتامى وقد كبروا وسيذهب اكبرهم الى المدرسة خريف هذه السنة . . .

– واين هى الآن اسرته ؟

– لا اعرف يا افاناسى ايفانوفيتش ، منذ مغادرتها آنذاك وستحل قريبا على ذلك ثلاثة اعوام ونحن لا نعرف عنهم شيئا .

– ليس هذا بالمشكلة المستعصية على الحل . لســـوف نجدهم سنبحث عنهم الى ان نعثر عليهم . ان الامر الرئيسى حاليا هو كما يقال فى لغة الحقوقيين ان نرفع القضية بشأن قضيـة ابي طالب .

– اجل ، اجل . هذا هو الامر . لقد عثرت راسا على الكلمة

المناسبة . وانما لهذا كان قدومى اليك بالذات .

– اعتقد ان قدومك لم يكن عبثا ولن يذهب سدى .

كما عرف كان الذى حصل . فسرعان ما جرى المطلوب ، فانه عقب مرور ثلاثة اسابيع بالضبط على عودة يديغي وصلت ورقة من آلما – آتا كان مذكورا فيها بشكل صريح ان العامل السابق فى مفرق السكك الحديد بورانلى – بورانى والمدعو ابو طالـب قطبايف الذى توفى اثناء التحقيق معه اعيد اعتباره تماما لعدم توفر اركان الجريمة فى قضيتـــه . هكذا ذكر ! وكانت هذه الورقة معدة لتلاوتها علنا على اسرة العمل التى اشتغل فيها هذا الرجل .

وفى نفس الوقت تقريبا مع هذه الوثيقة وردت رسالـــة من افاناسى ايفانوفيتش يليزاروف . وكانت رسالة بالغـــة الاهمية . وظل يديغي طيلة عمره يحتفظ بهذه الرسالة مع اهـم وثائق الاسرة مثل شهادة عقد قرانه وشهادتى ميـــلاد البنتين والمكافآت العسكرية من الاوسمة والمداليات والاوراق المتعلقة باصاباته بالجراح فى جبهة القتال والوثائق المرتبطة بنوعية عمله وصفات شخصيته . . .

فى تلك الرسالة الضافية افاد افاناسى ايفانوفيتش بانـه يشعر بالارتياح الكبير لسرعة النظر فى قضية ابي طالب وانه مسرور لاعادة اعتباره وان هذه الحقيقة نفسها علامة طيبة مـن علائم الزمن وكما عبر فان هذا هو انتصار لنا على انفسنا .

ثم كتب مخبرا انه مر عقب رحيل يديغي مرة اخرى على تلك الدوائر الرسمية التى قصدا اليها هو ويديغي وعرف انباء هامة هى اولا ان المحقق تنسيق بايف قد فصل من عمله وخفضـت رتبته وحرم من الحصول على المكافآت واحيل على المسؤولية . وثانيا كتب انه قد اعلم بان اسرة ابي طالب قطبايف تقطـن كما ظهر فى بافلودار (وما اقصى ما نأت اليه !) وان ظريفـــة تشتغل معلمة فى مدرسة وهى حاليا متزوجة . وتلك هـــى المعلومات الرسمية الواردة من موضع اقامتها . ثم كتب له : «ان ظنونك يا يديغي بشأن ذلك المفتش قد تحققت اثناء اعادة النظر

في قضية ابي طالب وظهر انه هو بالذات الذى صاغ وحرر التقرير عن ابي طالب قطبايف . فلماذا فعل هذا وما الذى دفعه الى ارتكاب هذا العمل الشرير ؟ لقد فكرت طويلا حول ذلك متذكرا ما عرفته عن امثال هذه الاحوال وما تحدثت به الىّ يا يديغي ومتصورا هذا كله حاولت ان افهم دواعي تصرفه . كلا ، من الصعب علىّ والعسير ان اعطي الجواب الشافى . ليس بوسعى شرح السر فى ذلك الحقد الذى كان يضمره ويكنه حيال شخص غير معروف لديه بالمرة وغريب عنه تماما هو ابو طالب قطبايف . ربما يكون ذلك مرضا وبائيا اصاب الناس فى بعض الاحيان من التاريخ او لعله ما هو شبيه بالخاصية الفتاكة الدفينة فى اعماق نفس الانسان وهى غريزة الحسد وهى تتاكل النفس من الداخل وتنخرها وتجعلها بالحقد ميالة الى الشر والشراسة فى القسوة . ولكن اى حسد كان ممكنا ان تثيره وتستدعيه شخصية ابى طالب ؟ يبقى هذا الامر بالنسبة لى لغزا لا حل له ومعضلة يعوزها التعليل الشافى . اما بخصوص اسلوب التنكيل فانه قديم قدم العالم نفسه . كان يكفى فى ذلك الوقت تقديم اخبارية عن اي احد بانه مخالف فى الراي كما كان الهراطقة والزنادقة والمناطقة والشخص من هؤلاء كان يقتل فى أسواق بخارى رجما بالحجارة اما فى اوربا فكان يحرق على موقد من الحطب المشتعل . ولقد تحدثنا معك كثيرا حول هذا الامر يا يديغي عندما كنت عندى . وبعد استيضاح الحقائق واظهارها بصدد اعادة النظر فى قضية ابي طالب اقتنع مرة اخرى بان الناس سيظلون حينا طويلا من الدهر يجتثون من نفوسهم عروق هذا الداء الخبيث الدفين وهو الحسد والحقد على سواهم من الناس واستئصال بغض الانسان للانسان . وانه حتى لمن الصعب والعسير الشاق المعرفة او التكهن كم سيطول هذا الصراع وما هى المدة التى سوف يستغرقها مثل هذا النضال . ورغم هذا كله فانى ابارك الحياة لان الحقيقة لا يمكن محوها وهى راسخة فى الارض كشجرة أصلها فى التراب ورأسها فى السماء . وفى هذه المرة ايضا انتصرت الحقيقة ولا بأس ان الدرب اليها وعر وطويل ومحفوف بالمخاطر والتضحيات ومهما كان الثمن غاليا فانها تستحقه وتسترخصه . وهكذا سيكون الامر

دوما وابدا وفى كل زمان ومكان ما دام العالم قائما والدنيا معمورة . اننى راض كل الرضا يا يديغي لكونك قد توصلت الى تحقيق العدل واحقاق الحق بصدق واخلاص ونزاهة . . .»

بقى يديغي اياما طوالا يعيش تحت تاثير الانطباع الذى خلفته فى نفسه هذه الرسالة المؤثرة . وكان مبعث دهشة يديغي نفسه كيف تغيرت واثرت نفسه وكانما قد اضيفت اليه زيادة جعلت نفسه أقوى ورؤيته اوضح واجلى . وعندئذ فكر لاول مرة بانه ينبغى ان يكون قد حان الاوان للتهيؤ للمرحلة القادمة من عمره وهى سن الاكتهال والشيخوخة التى لم تعد كما كان يبدو له بعيدة الوصول والمنال ومختفية وراء جبال وجبال . . .

كانت رسالة يليزاروف له بمثابة الحد الفاصل ما بين حياته التى سبقتها والتى لحقتها . وكل ما كان فى حياته قبل هذه الرسالة وكى مع الماضى ملفعا بالضباب وملفوفا بالدخان ومبتعدا كسيف البحر فى عينى من تنطلق به سفينة الى عرض البحر وكل ما جرى بعدها كان يسير رخاءا عادئا يوما اثر يوم وكان يذكره بان الحياة سوف تطول وتطول ولكنها لن تكون قصة لاتنتهى . ولكن الامر الرئيسى هو انه عرف من تلك الرسالة ان ظريفة قد تزوجت . وهذا النبأ جعله مرة اخرى يعانى ضغط لحظات ثقال . وطمأن نفسه بانه قد عرف وشعر بشكل خاص وأكيد انها تزوجت برغم انه لم يعرف اين تعيش وما هى حال أولادها وكيف هى حياتهم بين الناس الاخرين . انه قد أحس بذلك بصورة خاصة وهو فى طريق العودة من رحلته . ويصعب عليه القول من اى مصدر جاءت هذه الفكرة الى رأسه وخطرت على باله . ولكن ليس بالمرة لانه كان يخالجه شعور كئيب . بل على العكس فلقد سافر يديغي من ألما – آتا ونفسه مفعمة بمزاج رائق طيب . وفى كل مكان قصداه هو ويليزاروف قوبلا بالتفهم والطيبة والاقبال . وهذا بحد ذاته قد بعث فى النفس الثقة واليقين بصواب الافكار وطيب النوايا والأمل فى نهاية الامر الحسنى . وهكذا حصل فيما بعد بالفعل . وفى ذلك اليوم الذى ازمع فيه يديغي الرحيل من ألما – آتا ذهب بصحبة يليزاروف لتناول وجبة الغداء فى المطعم الملحق بمحطة القطار . وكان الوقت

الباقى على موعد بدء الرحلة وتحرك القطار كافيا وقد طالت جلستهما وطابت وتناولا ما شاءا ومالذ وطاب من الطعام والشراب وتبادلا عند الوداع اطيب الاحاديث ما شاء لهما الحديث . وفى ذلك الحديث كما فهم يديغي عرض افاناسى ايفانوفيتش فكرته الصميمية العزيزة الغالية . لقد كان فى السابق عضوا فى منظمة الكمسمول بموسكو وقد ارسل فى اعوام العشرينات الى ناحية تركستان لخوض الكفاح ضد البصمجية اعداء الثورة فاستقر هنا بشكل دائم طيلة عمره مزاولا العلم الجيولوجى وهو يعتبر ان العالم كله لم يكن بتاتا على غير هدى حين علق كبار الآمال على ما بدائه ثورة اكتوبر . ورغم الثمن الغالى والعبء الثقيل اللذين تعين دفعهما وحملهما مقابل الاخطاء والهفوات فان السير على الدرب غير المطروق لم يتوقف وفى هذا سر الامر وجوهره . وقال ايضا ان هذه الحركة تسير حاليا بقوة جديدة . والضمانة على ذلك انما هى التصحيح الذاتى للاخطاء والتطهير الذاتى للمجتمع . واكد يليزاروف قائلا : «ما دمنا نستطيع ان نواجه انفسنا بهذا ونقوله ونردده فهذا معناه ان لدينا من القوى ما يكفى للمستقبل» . اجل ما احسن ما كان حديثهما حول مائدة الطعام .

وبهذا المزاج المرتفع عاد يديغي البورانى الى منطقة سكناه فى ساروزيكى .

ومن جديد امتدت امام البصر سلسلة جبال الاطاو المكللة بالثلوج البيضاء المشربة بزرقة الماء والسماء منبسطة على الافق البعيد ومصاحبة لكل منطقة الانهار السبعة والمسماة لهذا سيميريتشيه . وعندئذ اخذ يفكر وهو فى الطريق حول فترة مكوثه فى الما آتا وادرك وكانما اوحى له بذلك صوت من داخله ان ظريفة لا بد وان تكون قد تزوجت .

وحين تطلع يديغي الى الجبال ونظر الى الافق البعيد سارحا بالفكر والنظر على المروج الربيعية اخذ يفكر بان العالم فيه اناس مخلصون بالقول والعمل مثل يليزاروف وانه لولاه ولولا امثاله لكان الامر على الانسان فى هذا العالم اصعب واعسر بكثير . وايضا لدى انتهاء كل مراحل النظر فى قضية ابى طالب فكر فى تقلبات الزمن المتغير ذى الجريان السريع واخذ يفكر فى

انه لو كان ابو طالب قد بقى حيا يعيش لحد الآن ورفعت عنه التهم التى وجهت اليه ظلما وعدوانا فلربما استعاد من جديد حياة الرغد الهانئة والسكينة الهادئة بين اطفاله . آه ، لو كان لا يزال على قيد الحياة . وفى هذه العبارة كل المعنى والمغزى . لو ظل حيا ، اذن لظلت ظريفة بالطبع تنتظره وفية له حتى اليوم الاخير . وهذا امر اكيد . ان امراة كهذه كانت ستظل فى انتظار زوجها مهما طال الانتظار ومهما كلفها ذلك من أعباء ومرار . ولكن اذا لم يكن من احد يمكن انتظاره ولا شىء ينتظر فلا داعى لعيش امراة فى عهد الشباب وهى تعانى وحشة الوحدة ومرارة الانفراد وسوء العذاب . وما دام الامر كذلك فانها اذ تصادف شخصا مناسبا تليق به ويليق لها فانها سوف تتخذه زوجا وما المانع من ذلك ؟ وشعر يديغي بانقباض النفس من جراء هذه الافكار . وحاول مجتهدا تحويل تفكيره الى مجرى آخر وحمل نفسه على الانقطاع عن التفكير فى هذا الامر ومنع خواطره من الانسراح فى هذا الفكر . ولكن هيهات ومشى بعد ذلك الى عربة المطعم .

كان المكان هنا قليل الناس ونظيفا ونقيا كما هو الامر عادة فى بداية الطريق . جلس يديغي على انفراد قرب النافذة . فى البداية طلب قنينة جعة لمجرد ان يشغل نفسه بأمر ما . واتاح له المنظر الواسع الذى يطل عليه من نافذة عربة المطعم ان يتطلع بنفس الوقت الى الجبال والسهب والسماء التى تظلل المكان كله . وهذه الرحاب الخضر التى تمر امام الناظرين بلمح البصر من جهة ومهابة سلسلة الجبال المكسوة بالثلوج البيضاء بلونها المشرب بالزرقة من جهة اخرى رفعت روحه الى اعلى عليين وبلغت به الى الرغائب غير المحققة واخذت بيده الى الاحزان الكئيبة المرة . ومن مرارة الافكار احتاجت نفسه الى شىء مر فطلب الفودكا وارتشف منها عدة اقداح الا انه لم يشعر ولم يتحسس تاثير الشرب . عندئذ طلب مرة اخرى الجعة وظل جالسا واهبا نفسه كلها لافكاره سارحا فى واديها . وآذن النهار بالانتهاء . وفى شفافية الامسية الربيعية كانت الارض تنطوى على الجهتين من خط السكة الحديد . وعبرت سريعا صغار القرى والبساتين والدروب والجسور والناس والقطعان فى لمحة

خاطفة . ولكن هذا كله قليلا ما هز يديغي أو أثار فى نفسه الاحاسيس ذلك لان الكآبة الثقيلة التى حلت فيه بغتة بقـــوة جديدة عكرت صفو نفسه وسحقتها ضاغطة عليها بشعور مقبض مبهم كوطأة هدوء الاحساس بان الماضى قد ولى وانقضى ، وابتعد ومضى .

ومن جديد عادت الى ذاكرته عبارات الوداع من رحيم الله اغا :

وحين ينزل البداة الرحل الرعاة من الجبال السود فى مهل وفى أناة
وحين ينزل البداة الرحل الرعاة من الجبال الزرق فى مهل وفى أناة
لا تقفى فى السوق بانتظارى بدون جدوى طيلة النهار يا بيغيماى

فى هذه الحالة خيل ليديغى البورانى بانه هو المشدود الى شجرة البتولا واغصانها مثلما فعلوا فى حينه برحيم الله اغا وانه هو الذى قطع وبتر عن نفسه ومزق اشلاءا واوصالا . . .

بقي جالسا على هذه الحال حتى حلول عتمة الظلام وحتى جاء الى عربة المطعم جمع غفير من الناس وصارت تختنق الانفاس بسبب سحابة الدخان التى رانت فى المكان مخيمة فوق الرؤوس من سجائر المدخنين . ولم يستطع يديغي ان يفهم آنذاك مـــا لهؤلاء الناس فارغى البال غير مشغولين بهم ولا غـم بحيـــث تلهيهم سفاسف الامور وصغار التوافه فى أحاديثهـــم التى لا تنتهى حـــول المائـــدة وكيف يجدون اللذة والمتعـــة فى الفودكا والطباق وكانما لا هم لهم ولا استمتاع سوى بالسكـر والتدخين ؟ ولم يطب له ايضا منظر هؤلاء النسوة اللواتى جئن الى هنا مع الرجال . وكان منفرا منهن على نحو خاص ضحكهن فى قهقهات . وقف ناهضا من مقعده وهو يترنح قليلا وبحث عـن النادل البدينة ليدفع لها الحساب فوجدها تحمل الصينية تسعى مارقة بين الموائد الملأى بألوان الطعام والشراب من كل ما لذ وطاب فى هذا المطعم السفرى الضائق بما فيه ومن فيـــه . وبعد دفعه الحساب توجه الى محله فى القمرة . كان عليه ان يمر عبر بضع عربات . وبينما كان يسير مترنحا ومتمايلا عـلى الجانبين مع حركة القطار المترجرج الهزاز تزايدت عليه وطأة الشعور الطاغى بالثقل واليتم من وحدته الكاملة ووحشتـــه الشاملة وغربته وهو بين الناس .

من أجل أى غرض كان واجبا مفروضا عليه ان يعيش وما هو الداعى لرحيله الى مكان ما . . .

وتملكه الآن ايضا الشعور باللاابالية ولم يكن ليعنيه مـن اين والى أين ولماذا هو مسافر وماله متعجلا وسط الليـــل البهيم هذا القطار السريع لا يلوى على شىء . وفى أحد المعابر ما بين العربات توقف عن السير ساندا جبهته الملتهبة الى الباب المزجج وتجمد هنا لا يتلفت حواليه ودون اعارة اى التفات الى الركاب المارين بقربه وجواره .

اما القطار فقد مضى لطيته يترنح متأرجحا على سكته ذات اليمين وذات الشمال . وكان ممكنا له فتح باب العربة اذ كان لدى يديغي شأن جميع العاملين فى السكك الحديد مفتاحه الذى يمكنه ان يفتح به الباب ويتخطى الحد . . . وفى موضع صحراوى ما تميز يديغي فى حلكة الظلمة ضوءين خافتين يومضان من بعيد . وظلا طويلا يتراءيان له ولا يختفيان عن أنظاره ولا يزولان . واما كانا يشعشعان من نافذتى بيت منفرد وامـــا هما موقدان صغيران يتجمران على الارض . ولا بد ان يكون ثمة اناس حول هذين الضوءين وبقربهما ، فما هم ؟ ومن يكونون ؟ وما سبـب وجودهم هناك ؟ آه لو كانت هناك ظريفة مع أطفالها ! اذن لكان قد قفز الآن من عربة القطار بعد فتح بابها بمفتاحه وهرع اليها راكضا بأسرع ما يستطيع وجرى بنفس واحد دون ان يسترجع انفاسه او يلتقطها ولكان يهوى عند قدميها ويجهش منخرطا فى البكاء دون استحياء لكى ينحب حتى يستفرغ كل ما اختزن فـى نفسه الولهى من ألم وكآبة شوق وحنين . . .

وصدر عن يديغي البورانى أنين مكتوم ومحبوس فى الصدر وهو يتطلع نحو تانكما الضوءين اللامعين فى السهـب وقد اخذا يختفيان عن الانظار فى الجهة القصية . وظل واقفا متسمرا على هذه الحال عند باب المعبر بين عربتى القطار وهو مختنق العبرات يبكى بصوت غير مسموع دون ان يلتفت ودون اكتراث منه الى ضجيج ركاب القطار وعجيجهم وهم يمرون عبر العربات . وكان وجهـــه مبتلا بالدموع . . . كانت متاحة له الامكانية ان يفتح الباب ويقفز متخطيا الحد . . .

ومضى القطار يترنح على الجانبين .

وحين ينزل البداة الرحل الرعاة من الجبال السود فى مهل وفى أناة
وحين ينزل البداة الرحل الرعاة من الجبال الزرق فى مهل وفى أناة
لا تقفي فى السوق بانتظاري بدون جدوى طيلة النهار يا بيغيماى

كانت القطارات فى هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق .

وعلى جانبى خط السكة الحديد كانت تمتد مساحات شاسعة من الاراضى الصحراوية – ساري-اوزيكى ، الاراضى الوسطى من البرارى الصفراء . . .

وفى هذه الانحاء كانت المسافات تقاس نسبة الى خط السكك كانه خط غرينيتش . . .

اما القطارات فواصلت سيرها من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق . . .

طار من وكره فى جرف ملكومديتشاب نسر كبير ابيض الذيل وحلق مستطلعا المكان بنظرة فاحصة ثاقبة . كان هذا النسر يحلق متفقدا موضع ملكوته مرتين فى النهار اولاهما فى رأد الضحى والاخرى عند قيلولة الظهيرة .

وبعد التفحص بعناية فائقة لسطح الارض فى السهب من أعالى الجو ملاحظا كل شيء يتحرك فى الاسفل الى حد الجعل الزاحف والعظاة والضب وسواهما من زواحف الحراذين ظل النسر يحلق فى صمت فوق منطقة ساروزيكى ملوحا بجناحين مبسوطين بمهابة متصاعدا بتدريج على مراتب الجو لكى يلقى على مدى أوسع نطاقا وابعد مرمى بصره الحديد على السهب المترامى الاطراف تحته كبساط ممدود وبنفس الوقت دنا متنقلا بحركات انسيابية وكانه يسبح فى الهواء كالسمكة فى الماء نحو مكان صيده المفضل وهو ارض المنطقة الممنوعة . منذ ذلك الحين الذى احيطت فيه هذه المنطقة الشاسعة الارجاء بالاسلاك الشائكة وحرمت على العابرين تكاثرت هنا صغار الحيوانات ومختلف انواع ذوات الريش وذلك لان الثعالب وسواها من الوحوش البرية لم تعد لتتجرأ على التغلغل

الى هنا دون عوائق وبلا مجازفة بالمخاطر . فى حين ان النسر لم يكن طوق السياج ليعنيه فى شيء . ولقد استغل ذلك خير استغلال وعاد هذا الشر المستطير لغيره بالنفع والجدوى عليه . رغم انه والحق يقال لمح قبل ثلاثة ايام من الاعلى ارنبا صغيرة وحين انقض عليها ساقطا كالحجر الهاوى وهو ما يفعله كل نسر واقع تسنى لتلك الارنب المروق من تحت ذلك السياج الشائك اما النسر فقد كاد يرتطم بقوة هاويا من العلاء بشوائك الاسلاك . واستطاع بالكاد النجاة قبل فوات الأوان منحرفا عن اتجاهه المهلك بشكل حاد مرتقيا صعدا الى الأعالى بعد ان مس بريش صدره الاشواك الحادة فى تلك الاسلاك وتناثر بعض الزغب من صدر النسر فيما بعد وتطاير هذا الريش فى الهواء على هواه . ومنذ ذلك الحين حاول النسر الابتعاد ما أمكنه عن هذا السياج الخطر .

وهكذا كان يطير محلقا فى تلك الساعة باعتباره ملك الجو وسلطان الهواء باعتداد واباء دون اسراف فى الحركة حتى ولا بخفقة واحدة زائدة عن اللزوم من جناحيه المبسوطين لئلا يلفت الى نفسه انتباه الزاحفين تحته على الارض من هذه المخلوقات . وفى هذا اليوم منذ الصباح الباكر – للمرة الاولى من التحليق والآن فى تحليقه الثانى – لاحظ النسر حركة نشيطة للناس والمكائن من سيارات وسواها على الساحات العريضة المبلطة بالخرسانة فى المطار الفضائى . كانت السيارات رائحة غادية ذهابا وايابا وكثر دورانها حول الهياكل التى تكتنف الصواريخ . هذه الصواريخ المسددة نحو السماء تقف منذ وقت طويل على ساحاتها وقد تعود النسر منذ أمد بعيد على منظرها . ولكن يجرى اليوم حولها شيء ما . وما اكثر السيارات وما اكثر الناس وما اكثر التحركات . . .

ولاحظ النسر ايضا ولم يفت عليه ان الرجل راكب البعير السائر منذ وقت فى السهب والجرارين المترجرجين والكلب الاصهب الاشعث قد توقفوا الآن عند خط الاسلاك الشائكة من جهته الخارجية وكانهم عاجزون عن اجتياز هذا الخط الى ما وراءه وخلفه . . . واثار الكلب الاصهب امتعاض النسر بمظهره البهيج وبالاخص التصاقه بالناس واصطفافه معهم على قرب الا انه

لم يظهر بأى شيء نوعية شعوره ازاء هذا الكلب الاصهب اذ ليس له ان ينزل هابطا الى هذه الدرجة . . . بل اكتفى بالتحويم حول هذا الموضع من فـــوق متطلعا بنظره الثاقب مترقبا مـــا الذى سيحدث لاحقا وما الذى ينوي ويزمع فعله هذا الكلـــب الاصهب الذى يبصبص ويلوح بذيلـــه لاعبـا وهو يقـــرب الناس . . .

ورفع يديغي وجهه الملتحى ورأى فى السماء النسر المحلق مبسوط الجناحين وفكر فى نفسه : «يا له من نسر كبير مـــن ذوات الذنب الابيض . اه ، لو كنت قد خلقت نسرا اذن لما كان بوسع أحد ان يوقفنى ويحجزنى عن الحركة فى الهواء كما أشاء ولحلقت الى حيث اريد ثم أحط لأرتاح فى تلك المقبرة البعيدة النائية مقبرة آنا-بايبت» .

وفى هذا الوقت ظهرت على الطريق فى المقدمة سيارة . وفكر يديغي البورانى بينه وبين نفسه : «انها تسير . حبذا لو ابتعدت عنى وتركتنى وشأنى» . وانطلقت السيارة بسرعة نحو حاجـــز الطريق وتوقفت بحدة بجوار باب مبنى المخفر . كان الحارس ينتظر السيارة المقتربة وسرعان ما اتخذ وقفة الاستعداد وأدى التحية العسكرية للضابط الملازم رئيس دورية الحراســـة اللفتنانت تنسيق بايف حين نزل من السيارة وبدا يقدم لـــه التقرير النظامى :

– ايها الرفيق اللفتنانت ، اخبركم . . .

الا ان رئيس دورية الحراسة أوقفه باشارة من يده وعندما بلع الحارس نصف الكلمة الثانى من عبارته المقطوعة وانزل كف يده عن الخوذة التى يعتمرها التفت الضابط الى الواقف عند الجهة الثانية من حاجز الطريق واستفسر مخاطبا يديغي البورانى .

– من هذا الغريب ؟ ومن ينتظر ؟ أهو أنت ؟

وقال يديغي بلغته القزاخية : «بيز بيزغوي قراغيم . انـا بيتكيه جيلتبي طوريب قلديق . قلاي دا بولصـــا جردامديش قرا غيم . *

---

* انا ، هذا انا يا ولدى . لا يسمح لنا بالمرور الى المقبرة . ارجوك يا ولدى افعل شيئا ساعدنى فى هذا . **الناشر** .

نطق يديغي بعبارته جاهدا ان تجعل حركاته عين الضابط الشاب تقع على الاوسمة المرصوفة على صدره كمحارب قديم .

ولم يترك هذا على اللفتنانت تنسيق بايف اى انطباع او أثر واكتفى بالتنحنح فى جفاف كالجفاء وحينما همّ يديغي العجوز بأن يعاود الكلام قاطعه ببرود قاطعا عليه كلامه قبـل ان يبداه بقوله :

– ايها الرفيق الغريب خاطبنى باللغة الروسية . اننى اؤدى واجبات نوبة الحراسة العسكرية . – قال موضحا وهو يقطب جبينه مكفهر السحنة وقد انعقد حاجباه الفاحمان على عينيـــه الضيقتين .

واعترى يديغي البورانى ارتباك شديد فردد :

– اوه ، عفوا . اعذرنى اذا كنت مقصرا – وسكت متحيرا ومضطربا ثم تلعثم والتزم الصمت المطبق وكأنه فقـــد ملكـة النطق وضاعت طائرة من رأسه تلك الفكرة التى كان قد بدا التعبير عنها .

– ايها الرفيق الملازم ، اسمحوا لنا بعرض رجائنا – تدخل منجدا الشيخ العجوز عادل باى الطويل .

– هيا اعرضوه ولكن بأقصى ما يمكن من الايجاز والاختصار – قال رئيس الدورية محذرا .

– دقيقة واحدة ، فليحضر لدى ذلك نجل الفقيد . – وتوجه عادل باى الطويل نحو ثابت جان وطلب منه : – ثابت جان ، هيا يا ثابت جان ، تعال الى هنا .

ولكن المنادى تقهقر متنحيا واكتفى بقوله نافرا وهو يلوح بيديه :

– اتفقوا فيما بينكم ودعوكم منى .

واضطر عادل باى الطويل الى الانصياع والامتثال فعاد متوجها الى الضابط بالكلام :

– اعذرنا ايها الرفيق اللفتنانت انه منزعج لحصول الامر على هذا الوجه . انه ابن المتوفى صديقنا الشيخ قازانغـــاب . ومعه ايضا صهره وها هو الجالس على العربة المقطورة .

ويبدو ان الصهر تصور من الاشارة نحوه انه يدعى للدنو فأخذ يترجل من العربة المقطورة .

– هذه التفاصيل لا تعنيني فى شىء . اعرض صلب القضية
– طلب رئيس الدورية .
– حسنا .
– باختصار وحسب الترتيب .
– حسنا . باختصار وحسب الترتيب .

واندفع عادل باى مسترسلا محاولا طرح الامر كله وبحذافيره شارحا من هم ومن اين هم قادمون ولأى غرض وسبب ظهورهم هنا . وبينما كان يتحدث كان يديغي يتمعن فى وجه اللفتنانت تنسيق بايف متطلعا وادرك من اساريره انه لا ينبغى لهم ان ينتظروا منه أى امر طيب فانه كان واقفا عند الجانب الآخر من حاجز الطريق لمجرد الاستماع بالانصات شكليا الى شكوى الاشخاص الغرباء . ادرك يديغي هذا فاخذت نفسه تفور وتغور . كل ما كان مرتبطا بوفاة قازانغاب وجميع تحضيراته للرحلة وما فعله لاقناع هؤلاء الشبان بدفن الفقيد فى مقبرة آنا – باييت وجميع افكاره وكل ما راى فيه واعتبره الخيط المقدس الذى يربطه بتاريخ ساروزيكى كل هذا قد تحول فى لحظة خاطفة وطرفة عين الى لا شىء ، كل هذا بدا عديم الفائدة فاقد الجدوى امام تنسيق بايف هذا . وقف يديغي شاعرا بالمهانة والاهانة لخيرة مشاعره واسمى عواطفه . بدا له مضحكا مبكيا واثار سخريته الهازئة والمه الى حد ذرف الدموع ما رآه من ثابت جان الجبان الذى كان بالامس فقط وهو يتجرع كؤوس الفودكا دهاقا يثرثر عن الآلهة والاشخاص الذين يوجهون بالراديو محاولا ادهاش اهالى بورانلى – بورانى بسعة معارفه واطلاعه العريض ، اما الآن فلم يشأ حتى فتح فمه للتفوه بكلمة واحدة لا غير ! وشعر بالسخرية الضاحكة والاساءة المبكية لكل ما فعله بقره‌نار من الزينة بالبساط السجادى المنتهى بذوائب من الكراكيش . فلم يكن ثمة من داع الى هذا وهو كله زائد عن الحاجة الآن وها هو ذا اللفتنانت تنسيق بايف الذى لا يريد او يخاف تبادل الحديث باللغة القومية أفهل كان بوسعه تقدير زينة قره‌نار ؟ كان مضحكا ومؤسفا ليديغي ان يرى صهر قازانغاب التعس هذا السكير الذى جاء معهم على ظهر العربة المقطورة الهزازة الرجاجة دون ان تمس لسانه قطرة من المشروبات

الكحولية ليكون بجوار جثمان الفقيد وهو الآن قد دنا ووقف بالجوار وكما تدل كافة الدلائل لا يزال يأمل فى حصولهم على الاذن بالمرور الى المقبرة ليدفنوا ميتهم . وخالج يديغي البورانى الشعور بالسخرية والأسى حتى للكلب الاصهب جولبارس ، فلماذا جاء معهم طوع ارادته ؟ وهو الآن ينظر بصبر فارغ متى سيبدأون بالتحرك الى الامام او ربما كان الكلب يهجس ان سيده ستسوء حاله ولهذا السبب انضم اليهم لكى يكون فى هذه الساعة معه . وكان السائقان الميكانيكيان الشابان قالي بيك وجمعة علي جالسين فى قمرتى الجرارين . فماذا لهما الآن وما الذى سوف يفكران فيه بعد هذا كله ؟

بيد ان يديغي الشاعر باهانة الاذلال مما افقده مزاجه وازعج نفسه شعر بكل جوارحه كيف ارتفعت فى داخله واخذت تمور فى نفسه وتفور موجة من النقمة والسخط وكيف ثار وفار فى عروقه الغضاب دمه حارا وملتهبا كالنار واخذ قلبه يدق بوجيب شديد والدم الفوار يتدفق منه كزوبعة اعصار وعرف لمعرفته بنفسه ومطالبته اياها على مدى عمره غير القصير مدى الخطر فى استسلامه لفورة الغضب وحاول جاهدا ومجتهدا ان يخمد فى نفسه عصف الارادة ويطفئ فيها الاوار الطاغى . ولكن كلا ، ثم كلا ، لم يكن يمتلك الحق فى عدم امتلاك ناصية مشاعره والسيطرة على اعصابه الثائرة طالما كان جثمان الفقيد دون ان يدفن مطروحا فى العراء على ظهر عربة مكشوفة . ولا يليق برجل شيخ وقور فى مثل سنه ان يفقد اعصابه ويرفع صوته . هكذا فكر وهو يحرّق الارم ويصك اسنانه لئلا تفلت من لسانه كلمة او تند عنه حركة تفضح وتفصح عما كان يعتمل فى داخله اثناء تلك الهنيهة من الزمن .

وكما كان يتوقع يديغي سرعان ما تحول حديث عادل باى الطويل مع رئيس دورية الحراسة الى جانب اليأس وانقلب الى حوار طرشان لا جدوى من ورائه ولا طائل .

– ليس بوسعى المساعدة باى شىء ، فان المرور الى ارض المنطقة مقطوع وممنوع بصورة باتة على الاشخاص الغرباء . – قال اللفتنانت بعد استماعه الى كل الكلام الطويل الذى ألقاه على مسامعه عادل باى الطويل .

– لم نكن عارفين بهذا ايها الرفيق اللفتنانت والا فلمـــا كنا لناتى الى هنا ومعنا جثمان الفقيد المسجى فى نعشه فلماذا هذا ؟ اما الآن وقد اصبحنا هنا بالفعل فاننا نرجوك ان تشاور الرئاسة الاعلى وتعرض عليها الامر عسى ان يؤذن لنا بدفـــن ميتنا ، فليس ممكنا ان نعود به ادراجنا من حيث اتينا .

– لقد سبق لى ان اتصلت لتقديم تقارير الخدمة فى النوبة وتلقيت ايعازا بعدم السماح لأى احد بالمرور مهما كان السبب واية كانت الذريعة والحجة .

– عن اية حجة وذريعة تتحدث ايها الرفيق اللفتنانت ؟ – قال عادل باى الطويل مستنكرا – افانت تعتقد باننا نبحث عـن ذريعة ونخترع حجة ؟ لماذا ؟ ما الذى لم نره هناك فى منطقتكم فنحن الى رؤيته تواقون ولمشاهدته مشتاقون ؟ وحتى اننا نلفق الحجج ونلتمس الذرائع لولا حاجتنا الى دفن المتوفى فقيدنا فما الداعى الذى حدا بنا الى قطع هذا الدرب الطويل ؟

– اننى اوضح لكم الامر مرة اخرى واخيرة ايها الرفيـق الغريب بقولى ان الطريق من هنا فصاعدا مقطوع عن الجميـــع وممنوع على كل احد ايا كان ولن أسمح بالمرور للغريب .

– ما معنى الغريب ! – اطلق صوته فجاة الصهر السكيـر الذى حافظ لحد الآن على صمته المطبق – من هو الغريب ؟ نحن هم الغرباء ؟ – قال وقد علا الاحمرار وجهه المتغضن والمحتقـن وازرقت شفتاه .

– أجل بالذات : منذ متى ونحن غرباء ؟ – ايده فى القول عادل باى الطويل .

واجتهد الصهر السكير حرصا على عدم تجاوز حد ما لمـــا هو مسموح به ان يكون صوته غير مرتفع عن القدر المقبول واقتصر على القول وهو لعلمه بضعفه فى التحدث باللغة الروسية كان اكثر احتراسا واحرص على انتقاء عباراته وكلماته ومـــع ذلك كانت عباراته ركيكة ومخالفة لقواعد اللغة حين قال :

– انها مقبرتنا مقبرة ساروزيكى هذه ونحن اهالى ساروزيكى نملك الحق فى دفن اموانتا فيها ونحن ندفن فيها موتانا منذ امد بعيد منذ دفن نايمان-آنا ولم يفكر احد منا فى يوم من الايـام بانه ستكون هنا منطقة مغلقة .

– لست على استعداد ولا نية عندى فى خوض مجادلة معكم – اعلن اللفتنانت تنسيق بايف – انى باعتبارى رئيسا لدوريـة الحراسة فى هذا الوقت اعلن مرة اخرى انه لا دخول الى أرض المنطقة المحروسة ولن يكون باية اسباب مهما كانت .

وحلت فترة صمت . «الحفاظ على ضبط النفس والاعصـاب وعدم الاعتداء عليه بالقول» ذلك ما أوصى به نفسه بالحـاح يديغي البورانى واخذ يرنو بطرف عينه الى السماء وشاهد مرة اخرى ذلـــك النسر وهـــو يحلق باسطـــا جناحيه فـى الاعالى . ومرة اخرى شعر بالحسد وغبط هذا الطائـر الهادئ والقوى . وقرر انه لا داعى الى مواصلة محاولة تغيير المصير وانه يتعين الانسحاب فلا مجال للاقتحام بالقوة ورنا يديغي مرة اخرى الى النسر المحلق وقال :

– ايها الرفيق اللفتنانت سوف نذهب عائدين ولكن نرجو منك ابلاغ اولئك الذين عندكم فى القيادة لعله جنرال او ضابط فى رتبة اعلى انه لا يجوز التصرف على هذا النحو وانا كجندى قديم اقول ان هذا ليس بصائب وهو مخالف للصواب ومجانـب له .

– ما هو عين الصواب وما هو مخالف له ليس من شأنـى ولكن مناقشة الايعاز الصادر من فوق مما لا يحق لى مزاولته ، ولكى تعرفوا الامر فيما يخص المستقبل انا مكلف بابلاغكم ان هذه المقبرة قد تقرر محوها .

– مقبرة آنا-بايبت ؟ – تساءل عادل باى الطويل مندهشا .

– اجل ، اذا كان هذا هو اسمها .

– ولكن لماذا ؟ من الذى تعرقله هذه المقبـــرة وتسيء اليه ؟ – قال عادل باي فى حيرة واستنكار .

– سيقام فى محلها حى سكنى جديد .

– عجيب غريب – قال عادل باي الطويل وهو يفرد يديـه فى تعجب – الا تكفيكم جميع الاماكن الاخرى ولم يبق ثمة لهذا من مكان آخر ام ماذا ؟

– هذا ما نص عليه فى الخطة المرسومة المقررة .

– اسمع ، من هو ابوك ؟ – وجه يديغـــي البوراني هذا

السؤال بشكل مباشر وحاد الى اللفتنانت تنسيق بايـــف الذي استغرب جدا وكان رده :

– وهذا ما محله ؟ وما هو شأنك فى الامر ؟

– شأنى هو انك لا ينبغى ان تقول لنا ما كان ينبغى عليك قوله هناك حيث فكروا باتلاف مقبرتنا . ام ان اباك واجدادك لم يدركهم الموت أم انك نفسك لن تموت الى أبد الابدين ؟

– هذا لا علاقة ولا صلة له البتة بالقضية .

– حسنا دعنا نتحدث فى صلب القضية . اذن هلم بنـــا ايها الرفيق اللفتنانت من هو عندكم صاحب اعلى رتبة فليستمع الى كلامى . اننى اطالب بالسماح لى بان ارفع الشكوى الى آمركم الرئيسى الاعلى . قل لهم ان المحارب القديم فى الجبهة واحد اهالى ساروزيكى يديغي جانغيلدين يريد ان يقول له كلمتين .

– ليس بوسعى القيام بهذا . صدر لى الايعاز بأن اتصرف كما ينبغى وعلى النحو اللازم .

– وماذا بوسعك ان تفعله ؟ – تدخل مرة اخرى الصهـــر السكير وقال فى لهجة المستميت الذى لا يفكر ولا يلوى عـلى شىء – حتى رجال المليشيا الذين يراقبون الاسواق افضل منك .

– كفوا عن الهراء والوقاحة ! – قال رئيس دورية الحراسة وقد اعتدل فى وقفته شامخا وشحب وجهه من التاثر والانفعال – كفوا عن الكلام وخذوا هذا بعيدا عن حاجز الطريـــق وابعدوا الجرارين عن الدرب .

أمسك يديغي وعادل باي الطويل بالصهر السكير وسحباه بعيدا نحو الجرارين الواقفين على الدرب اما هو فقد واصل صراخه ناظرا حواليه :

– ساغان جول داجيتبيدى ، ساغان جير داجيتبيدى ! اورديم سيندىديدين اوزين . *

اما ثابت جان الذى ظل طوال هذا الوقت محافظا على الصمت متنحيا الى جانب فى كآبة فقد قرر هنا وفى هذا الوقت ان يظهر نفسه بالمشاركة فى اللقاء بالكلام قائلا :

---

* انك لا تكفيك الدروب ولا تكفيك الاراضى انى لابصق عليك وفى وجهك . الناشر .

– وماذا حصل ؟ لا شىء غير الرفض ؟ وهذا بالضبط هو الذى كان من المنتظر ولا بد ان يحدث . كنتم راغبين فى الدفن بمقبرة آنا-بابيت لا سواها ! اما الآن فهـا انتـــم كالكـــلاب المضروبة .

– ومن هو الكلب المضروب ؟ – اندفع نحوه بجد الصهـر السكير – اذا كان بيننا كلب فانما هو انت ايها النذل الحقير . ما هو الفرق بين ذلك الذى يقف هناك وبينك ؟ ثم انت تفتخر بقولك : اننى انسان رسمى . بل انك ابعد ما تكون عن الانسان !

– وانت ايها السكير امسك لسانك . – هدد ثابت جـان صارخا ليكون صوته مسموعا فى مخفر الحراسة كذلك – لو كنت مكانهم لدفعتك عقابا لك على هذه العبارات بعيدا بحيث لا يكون بالقرب لا جسمك ولا روحك . اية فائدة منك للمجتمع ، ينبغى القضاء على أمثالك قضاءا مبرما .

وبعد ان قال ثابت جان هذه العبارات استدار مديرا اليـه ظهره وكانه اراد ان يقول اننى ابصق عليك وعلى من معك واظهر بغتة نشاطا كبيرا وصار يتصرف ويتحدث بصوت مرتفع ومتطلب وكانه السيد وصاحب الدار ويوجه الأوامر الى سائقى الجرارين :

– وانتما ما لكما قد فغرتما فميكما ؟ هيا شغلا محركـــى الجرارين . اما نحن فكما جئنا فسوف نذهب والى شيطان الام ! هيا نستدر ! يكفى كنت احمق وشبعت من سماع الآخرين !

شغل قالى بيك جراره واخذ يستدير ببطء ويدير العربـة المقطورة نحو طريق الرجوع وفى هذه الاثناء قفز الصهر السكيـر الى العربة واشغل من جديد محله بجوار نعش الفقيد . اما جمعـة على فقد انتظر حتى ينتهى يديغي البورانى من فك صاحبه قره‌نار من كفة الحفارة ولكن ثابت جان حين راى هذا لم يمتنع بل عـلى العكس اخذ يتعجل :

– وانت ما لك لا تشغل جرارك ؟ هيا ، شغل محركه . لا بأس حركه نحو الخلف . أهكذا يكون التشييع والدفن . اننـى عارضت ذلك بادئ ذى بدء اما الآن فيكفى ما حصل ، عد بنـا الى بيوتنا .

بينما كان يديغي البورانى يركب البعير وكان ينبغى فـــى البداية حمله على البروك ثم الجلوس على الحدوج بشكل محكـم

وبعد ذلك ضربه بالعصا لينهض من بروكه ، كان الجراران قد سبقاه الى الامام سائرين باتجاه درب العودة . وسار العائدون على أثرهم الذى خلفوه على الارض عند قدومهم الى هنا . وحتى لم ينتظروا يديغي وكان الذى يستعجلهم على السير ثابت جان الذى ركب الجرار الاول . . .

وكان يحوم فى الهواء ذلك النسر نفسه مراقبا من فوق الكلب الاصهب وقد أثار حنقه وسبب له المضايقة والانزعاج لسبب ما بهذا التصرف الذى لا غاية له . ولم يكن مفهوما لماذا لم يركض الكلب حين تحرك الجراران الى الامام بل بقى واقفا بجوار الانسان راكب البعير منتظرا حتى يكمل جلسته على الجمل ثم سار خلفه على الاثر .

وسار الجراران بركابهما وفى اثرهما راكب الجمل وفى الخلف الكلب الاصهب يجرى خببا عائدين ادراجهم الى ساروزيكى باتجاه جرف ملكومديتشاب حيث كان فى المنحدر الى احدى الترع النائية فى التربة وكر نسر . ولو فى وقت آخر لكان النسر سيقلق ويضطرب مرسلا زعقاته ولحاول الابتعاد ما امكن ولما حول نظره الثاقب عن السائرين ولسارع فى طيرانه ولكان قد استدعى انثاه التى كانت تتصيد فى مكان بالجوار فى منطقة الاراضى التابعة لهما قانونيا لكى تنضم هى ايضا اليه تحسبا لما قد يحدث اذا ما احتاج الامر الى الدفاع عن الوكر وحمايته . ولكن النسر الابيض الذنب لم يشعر هذه المرة بأي قلق اذ كانت الافراخ قد تركت الوكر منذ وقت ليس بالقصير بعد ان نبت على جلدها الريش وتعلمت الطيران . وفى كل يوم زادت أجنحتها قوة واقتدارا وأخذت هذه النسور الصغيرة ذوات العيون البراقة كحبات الكهرمان والمناقير المحدودبة المعقوفة تنظم حياتها بشكل مستقل واصبحت لها مناطق صيدها الخاصة حوالى ساروزيكى ولم تعد الآن تلاقى بالود القديم ذلك النسر العجوز حين كان يحلق عابرا فى ناحيتها . . .

راقب النسر هؤلاء الناس العائدين فى الدرب المعاكس وهو على عادته ينظر الى كل ما يجرى هنا وهناك داخل حدود منطقته . وكان ما أثار فضوله وتطلعه خصوصا ذلك الكلب الاصهب الاشعث الذى يرافق الناس على قرب شديد دون الابتعاد عنهم

الى مكان بعيد . فما الذى يربطه بهم ويشده اليهم ولا حبل هناك ولا رباط ولماذا لا يذهب ليصطاد لوحده بحرية وبحد ذاته وانما كان يركض وهو يهز ذيله خلف اولئك المشغولين بشؤونهم ؟ وما جدوى هذا النوع من المعيشة له ؟ واجتذبت انتباه النسر ايضا قطع معدنية لماعة تبرق على صدر الرجل راكب البعير . ولهذا بالذات لاحظ النسر راسا كيف ان ذلك الرجل الذى كان يسير بجمله خلف الجرارين ، انحرف بغتة بشكل حاد وعدل عن مساره منعزلا الى ناحية وذهب عبر منطقة العشب اليابس سابقا الجرارين اللذين واصلا السير يشقان دربهما فى هذه المنطقة بحركة التفاف . حث جمله بسرعة متزايدة ملوحا بالكرباج وكانت القطع اللماعة المعلقة على صدره تتقافز وتصلصل وجرى البعير راكضا ومادا اطرافه باخفافها فى خطى عراض طوال اما الكلب الاصهب فراح يركض . . .

واستمر الحال على هذا المنوال لبعض الوقت حتى سبق راكب الجمل الجرارين جانبا وتوقف فى عرض الطريق عند المدخل الى جرف ملكومديتشاب وتوقف الجراران قربه .

– ماذا ؟ ما الذى حصل ايضا ؟ – قال ثابت جان مطلا من احدى القمرتين .

– لا شىء . أوقفوا المحركين – قال يديغي البورانى بلهجة آمرة – لدينا كلام .

– واى كلام يمكن ان يكون بعد هذا ؟ لا تعطلنا ، لقد شبعنا من هذا كله .

– الذى يعطلنا الآن هو أنت لا أنا . سوف ندفن جثمان الفقيد فى هذا المكان .

– كفى سخرية بنا – قال ثابت جان متذمرا واخذ يشد رباط عنقه بقوة على رقبته وقد تدلى كالخرقة المدعوكة – اننى سأتولى بنفسى دفنه فى المفرق ولا اريد ان اسمع اى كلام آخر ، كفى .

– اسمع يا ثابت جان . انه أبوك ولا جدال فى ذلك ولا أحد يناقشك فيه . ولكنك لست لوحدك فى هذا العالم ولست فيه الانسان الوحيد ، وعليك ان تسمع على أية حال . ان الذى حدث هناك عند المخفر قد رأيته أنت بنفسك ، رأيت وسمعت . وليس

أى أحد منا بمذنب فيه ولكن فكر فى أمر آخر . متى رئي وسمع ان الميت اعيد من موكب التشييع والدفن مرة اخرى الى البيت ؟ هذا ما لم يحدث قط . انه عار وشنار ينزل على رؤوسنا وهاماتنا ، لم يحدث مثل هذا فى أى زمان كان .

– ولست ابالي بأى شيء ولا شان لى به فليكن ما يكون – اعترض ثابت جان نافرا ومستنكرا .

– أنت تقول ذلك الآن باصقا على كل شيء . والانسان فى ساعة الغضب قد يقول اى شيء يخطر على باله واين منه التروى وامعان النظر . ولكن فكر مليا فى الامر . ان العار لا يمحى . ان نعش الميت الذى حمل من البيت لدفنه فى القبر لا ينبغى ان يعاد مرة اخرى وفيه الجثة .

فى هذه الاثناء خرج ونزل من قمرة الحفارة عادل باى الطويل ترجل من العربة المقطورة الصهر السكير واقترب سائق الحفارة جمعة على ايضا كذلك ليعرف كنه الامر وما يجرى وقطع عليهم الدرب مانعا من التقدم يديغي البورانى وهو على الجمل قره‌نار .

– اسمعوا ايها الفرسان لا تخالفوا العادات والاعراف ولا تخرقوا عوائد الانسان ولا تخالفوا الطبيعة واستجيبوا لندائها الحار ! لم يحدث قط ولم يقع ان الميت اعيد من المقبرة دون ان يدفن فى اللحد ومن اخذ ليدفن يجب ان يدفن وغير هذا غير ممكن . هذا هو جرف ملكومديتشاب وهو ايضا ارضنا وتابع الى ساروزيكى . وهنا فى ملكومديتشاب بكت نايمان-آنا ابنها احرّ البكاء . اسمعوا كلامى وانا يديغي العجوز فليكن هنا لحد وقبر قازانغاب . وليكن هنا ايضا قبرى ولحدى . فليجعل الله انكم سوف تتولون بانفسكم نقلى الى هنا ودفنى . وانى لارجوكم القيام بهذا واتوسل اليكم ان تنجزوه . اما الآن فينبغى قبل فوات الاوان وما دام لنا ثمة فسحة من الوقت وفرصة من الزمن فلنقم بلحد فقيدنا وايداعه الى الارض فى ذلك الموضع عند وهدة الجرف .

وتطلع عادل باى الطويل نحو الموضع المومى اليه باصبع يديغي واستفسر من سائق الحفارة :

– كيف يا جمعة على ، هل بوسع حفارتك الوصول الى هناك ؟

– يمكنها . ولماذا لا تستطيع ؟ يمكنها ان تسير عبر ذلك الطرف . . .

– على مهلك ، لا تتحدث عن ذلك الطرف . عليك اولا ان تسألنى . – تدخل ثابت جان .

– وها نحن نسألك – رد جمعة على – ألم تسمع ما قاله الرجل ؟ ما الذى تريده اكثر من هذا ؟

– اما انا فاقول : كفاكم سخرية بنا . هذه اهانة ، هلموا بنا نذهب الى المفرق .

– اذا كنت تفكر بذلك فان السخرية والاهانة ستكون فى اعادة الميت من اللحد الى البيت . – قال له جمعة على – وينبغى عليك ان تفكر بعمق وقوة .

والتزم الجميع جانب الصمت وظلوا برهة لا ينبسون ببنت شفة وكان على رؤوسهم الطير .

– افعلوا ما شئتم . – قال جمعة على – اما انا فسوف اذهب لاحفر القبر . واجبى هو ان احفر اللحد واجعل حفرته اعمق ما استطيع . فلنفعل ذلك ما دام فى الوقت متسع اما بعد حلول العتمة فلن يزاول ذلك احد . اما انتم فافعلوا ما تشاؤون ان شئتم هذا وان شئتم فذاك .

وتوجه جمعة على نحو حفارته من طراز «بيلاروس» ودون ان يلوى على شيء وبلا تردد شغل محركها واستدار بها نحو حافة الدرب وعبرها واتجه الى علوة الربوة ومنها الى حافة منحدر جرف ملكومديتشاب . وخطا خلفه عادل باى الطويل وحرك خلفه يديغي البورانى جمله قره‌نار .

وقال الصهر السكير لسائق الجرار قالى بيك :

– ان لم تذهب الى هناك – واشار له الى الجرف فاننى سوف استلقى راميا نفسى تحت الجرار ولن يكلفنى هذا شيئا ولن يعسر على – وبعد تلفظه بهذه العبارة جاء ووقف امام الجرار .

– ماذا تريد ؟ والى اين ينبغى الذهاب ؟ – استفسر قالى بيك من ثابت جان .

– الانذال فى كل مكان وحيثما وجهت وجهتك فثمة كلاب . –

قال متذمرا ثابت جان – ما لك جالسا ، هيا حرك المحرك وتحرك خلفهم .

كان النسر فى السماء يراقب هذه المرة هؤلاء الاشخاص وهم يتجمعون عند حافة الجرف . اخـذت احدى المكينتين ترتعش بتشنج وهى ترفع التراب وتكومه فـى اكوام حولها كما يفعل اليربوع . وفى هذه الاثناء زحف من الخلف الجرار بالعربـة المقطورة ولا يزال جالسا عليها لحد الآن انسان وحيد وامامه جسم غريب لا يبدى حركة ولا نأمة ملفـوف فى قماش ابيض ومطروح فـى وسط العربـة المقطورة . وكان الكلـب الاصهب الاشعث يجوب بين الناس وكان يقضى اكثر الوقت بقرب الجمل جاثما عند قائمتيه .

وادرك النسر ان هؤلاء القادمين سيظلون وقتا طويلا عنـد منطقة الجرف يحفرون فى الارض وانساب سابحا فى تحليقه الى ناحية وبعد ان قام بدورات واسعة فوق السهب طار متحولا الى جهة المنطقة المغلقة مزمعا مزاولة اصطياده عـلى طول الدرب ومشاهدا بنفس الوقـت ما يجرى هنـاك فى المطـار الفضائى .

هذا هو اليوم الثانى بليلتيهما والتوتر مخيم فى مساحات هذا المطار ويجرى فيها العمل الحافل قائما على قدم وساق وبدون توقف ليل نهار وكان المطار الفضائى كله بكل اماكن الخدمـة الملحقة به والمناطق المصاقبة مضاءا بالنور الساطع الوهاج الذى ترسله المصابيح الكشافة الضخمة . وكان الضوء يغمـر المكان فى الارض حتى بدا الضوء هنا ليلا اسطع من نور النهار . كانت العشرات من السيارات والمكائن الكبيرة والصغيرة والخاصة والكثير من العلماء والمهندسين فى خدمة التحضير لعمليـة «اوبروتش» .

كانت الصواريخ المضادة للاقمار الصناعية المعدة للقضاء على الاجهزة المحلقة فى الفضاء قائمة منذ وقت طويل ومنصوبة على اهبة الاستعداد للانطلاق فى ساحة خاصة بالمطار الفضائى . ولكنها وفقا لاتفاقية سولت –٧ جمد استخدامها حتى اتفاق آخر شانها شان الوسائل المماثلة لدى الجانب الامريكى . وقد وجدت لها الآن استخداما جديدا وفق البرنامج المستعجل لتحقيق العملية

الفضائية الواسعـة «اوبروتش» . وجرى تحضير مثـل هذه الصواريخ الروبوتات ايضـا للانطلاق بوقت واحد فى المطار الفضائى الامريكى بصحراء نيفادا .

كان وقت الانطلاق محددا بالنسبة لمناطق خطوط العرض فى ساروزيكى هو الساعة الثامنة مساءا . وفى هذه الساعـة بالضبط يجب ان تنطلق الصواريخ دون اى تأخير . وينبغى ان تنطلق على التوالى وبين كل صاروخين منها فترة دقيقة ونصف دقيقة الى الفضاء النائى صواريخ ساروزيكية التسعة المضادة للاقمار الصناعية المعدة لتكوين اطار مانع دائم العمل وافقى فى مجال الغرب – الشرق حول الكرة الارضية ضد تسلل الاجهزة والاجرام الصناعية المحلقة من الكواكب الاخرى ان وجدت . وكان على الصواريخ الروبوتات النيفادية ان تشكل اطارا عموديا فى مجال الشمال – الجنوب .

وفى تمام الساعة الثالثـة بعـد الظهر شغلت فى مطـار ساروزيكى – الفضائى منظومة الضبط لفترة ما قبل الاطـلاق والمسماة «خمس دقائق» وخلال كل خمس دقائق صارت تشتعل وتضيء على كافة الشاشات واللوحات الكهربائية المضيئة لكل الخدمات والقنوات عبارة التذكير والتحذير مع الجملة الصوتية المصاحبة القائلة : «بقى على موعد الاطلاق اربع ساعات وخمس وخمسون دقيقة . حتى الاطـلاق اربـع ساعات وخمسـون دقيقة . . .» وقبل ثلاث ساعات من الاطلاق سوف تشغل منظومة «الدقيقة» .

وحتى هذا الوقت تغيرت احداثيات موقع المحطة المداريـة «باريتيت» فى الفضاء وبنفس الوقت حولت شفـرة الاشارات بقنوات الاتصال اللاسلكى لمنظومات المتن فى المحطة بغيـة الحيلولة دون اى احتمال للاتصال براندى الفضاء ١–٢ و٢–١ .

وفى هذه الاثناء كانت تنهـال مـن انحاء الكـون الاشارات اللاسلكية المتواصلة دون انقطاع من راندى الفضاء ١–٢ و٢–١ المتكافئين ولكن دون اية جدوى تماما وكانها بالضبط كما يقول المثل المعروف صرخة فى واد ونفخة فى رماد وكانا يرجـوان بضراعة وتوسل وعلى نحو مستميت عدم قطع الاتصال معهمـا . انهما لم يشككا ولم يجادلا فى جدوى قرار «اوبتسنوبر» مقترحين

مرة ومرة اخرى دراسة مشاكل الاتصالات المحتملة مع التمدن فى كوكب الصدر الغابى انطلاقا بالطبع قبل كل شىء من مصالح اهل كوكبنا الارض هما لم يصرا على اعتبارهما الفورى موافقين على الانتظار وفعل كل شىء لكى يكون تواجدهما على ظهر كوكب الصدر الغابى جالبا للمنفعة المتبادلة للعلاقات بين المجرات ولكنهما اعترضا على عملية «اوبروتش» التى يجريها الطرفان ، تلك العزلة الذاتية الشاملة على نطاق العالم والمؤدية ، كما يعتقدان ، الى الجمود التاريخى والتكنولوجى للمجتمع البشرى الذى سوف يتطلب تذليله والتغلب عليه الوف الاعوام . ولكن كان الاوان قد فات . . . ولم يستطع اى احد فى العالم سماع صوتهما ولم يتصور اى احد ان صوتهما يتردد فى رحاب العالم وما من جواب . . .

وفى هذه الاثناء كانت قد شغلت فى المطار الفضائى ساروزيكى – ١ منظومة «الدقيقة» التى تحسب بشكل غير قابل للرجعة دنو لحظة الاطلاق وفق عملية «اوبروتش» .

اما النسر الذى أتم دورة تحويم جديدة فقد ظهر مرة اخرى فوق جرف ملكومديتشاب . وكان الناس هناك عاكفين على عملهم مشغولين به كل الانشغال وكانوا يعملون المساحى حفرا ورفشا . وقد انجزت الحفارة اخدودا عميقا ، اخرجت منه اكواما من التراب رمته جانبا . وأخذ الآن ينزل الرفش عميقا الى الحفرة قالبا آخر حفنة من التراب . وسرعان ما كفت عن الارتعاش والارتجاف وتنحت الى جانب وراح الناس يسوون شيئا ما فى قعر الحفرة . وكان الجمل باركا فى مكانه بيد ان الكلب الاصهب لم يكن يرى . فأين كان يمكن ان يستتر ؟ اقترب النسر فى طيرانه ادنى قليلا وقام بتحليق انسيابى فوق موضع الجرف الجبلى مديرا رأسه مرة ذات اليمين وملتفتا مرة اخرى ذات الشمال وأخيرا رأى ان الكلب الاصهب كان يرقد تحت العربة المقطورة متمددا عند العجلات نفسها . كان الكلب منطرحا فى اضطجاع يأخذ قسطه من الراحة او ربما يغط فى تعسيلة اغفاءة . ولم يكن له شغل بالنسر ولم يفكر فيه . كم طار اليوم فوقه محلقا وهو لم يلتفت حتى ولا مرة واحدة رافعا رأسه وعينه الى السماء . وحتى اليربوع يقف على قائمتيه الخلفيتين

يتطلع فى البداية حواليه ثم يرنو الى فوق ليتحقق من خلو المكان من اي خطر عليه يهدد حياته . اما الكلب فقد تكيف للعيش بجوار الانسان ولم يعد يخشى اى شىء وصار خلو البال من أى هم وغم هادئ الخاطر ولهذا فهو الآن متمدد مضطجع لا يفكر فى شىء ولا يشغل باله وخواطره شىء . وتسمر النسر فى الهواء هنيهة واستجمع قواه وانحدر فجاة من ناحية ذيله باندفاعة حادة وكانه الطلقة مخلفا اثرا ابيض مشربا بالخضرة متجها نحو الكلب وكانه يقول له : خذها اذن ان كنت لا تعلم !

وسقط شىء ما على اعلى ردن يديغي البورانى وكان هذا ذراق طائر . ولكن من أين يمكن أن يكون ؟ ونفض يديغي القاذورة عن كمه ورفع نظره محدقا فى السماء . مرة اخرى هذا النسر أبيض الذيل هو نفسه . يحوم فوق رؤوسنا مرة اخرى . ما الذى يدفعه الى هذا ؟ ما احسن حاله ، ويسبح ويتارجح فى الهواء . وقطع عليه حبل تفكيره هذا وسلسلة افكاره السارحة صوت عادل باي الطويل وهو يصرخ من قعر الحفرة :

– وماذا الآن يا يديكه ، انظر هل هذا يكفى أم نواصل الحفر ؟

وانحنى يديغي متجهم الوجه مقطب الجبين على حافة اللحد . وطلب من عادل باي الطويل قائلا :

– اذهب الى ذلك الركن اما انت يا قالى بيك فاصعد من الحفرة الآن . شكرا لك ويبدو لى ان العمق قد بلغ الحد الكافى . ورغم ذلك يا عادل باى ينبغى توسيع الحفرة قليلا فلتكن الهوة افسح .

وبعد اصدار هذه الاوامر والايعازات تناول يديغي البورانى زمزمية صغيرة ملأى بالماء واحتمى خلف الحفارة ليتوضأ تهيؤا لاداء فريضة الصلاة وعندها عادت نفسه بهذا الشكل او ذاك الى مكانها من نفسه وشعر بشىء من طمانينة النفس واستقرارها فمع انه لم يتح دفن قازانغاب فى مقبرة آنا – بايبت ولكن على اية حال ومهما كان من امر تفادوا وقوع العار الاكبر واجتنبوا الوقوع فى كبير الشنار الذى هو اشنع من الاحتراق بالنار وذلك لو انهم عادوا بالميت الى البيت غير مدفون . ولولا ما ابداه من الاصرار لكان قد حدث ذلك المكروه

والمحذور . والآن كان ينبغي الانتهاء من الامر في الوقت المناسب بغية العودة الى بورانلي – بورانى قبل حلول عتمة المساء . وهم هناك في البيت طبعا ينتظرون ولسوف يقلقون كثيرا في حالة تاخرهم عن الرجوع . فانهم وعدوا بالعودة قبل الساعة السادسة او على الاقل ليس بعدها وفي هذه الساعة كان الموعد المضروب لاقامة احتفال التابين لقراءة الفاتحة . ولكن كان الوقت عندئذ الساعة الرابعة والنصف وكان لا يزال لازما اتمام الدفن ثم الطريق في ساروزيكى . وحتى في حالة السير السريع يستغرق هذا الطريق ساعتين . ولكن الاستعجال واختصار الدفن كان ايضا مما لا ينبغي وغير مستحب . وعلى اية حال فلتكن قراءة الفاتحة واداء مراسيم التابين في وقت متاخر من المساء . ولا بد مما ليس منه بد . . .

عقب الانتهاء من الوضوء شعر يديغي بانه اصبح متهيئا لاداء الفريضة الاخيرة . فاغلق بالسدادة حلق الزمزمية وتقدم من خلف الحفارة وعلى وجهه تعابير الجد واخذ يمسح على لحيته ويمسدها وهو يقول :

– تعال الى قربى يا ثابت جان نجل عبد الله قازانغاب الذى انتقل الى رحمته تعالى وقف بجنبى عن شمالى وانتم الاربعة احملوا جثمان المرحوم وضعوه عند حافة اللحد موجهين راس الفقيد الى جهة الغروب . – تلفظ بذلك كله بصوت ترن فيه لهجة مهيبة ويخالطه خشوع وبعد ان تم تنفيذ كل ما طلبه قال : – والآن فلنتوجه جميعا نحو القبلة . ارفعوا راحاتهم بالدعاء وفكروا في طاعة الله متاملين في حكمته وروعة تدبيره خاشعين مخلصين له الدين لكى يقبل صلواتنا ويسمع دعواتنا وتكون اقوالنا وافكارنا ونوايانا في هذه الساعة خالصة له وخاشعة بين يديه في تضرع وابتهال .

ومن الغريب انه لم تصدر من خلف يديغي اية همسة او نامة تدل على التململ او الهزء او التذمر فلا تمتمة ولا نمنمة . وقد شعر هو نفسه لذلك بالارتياح ورضا النفس اذ كان من المتوقع والممكن ان يقولوا له : دعك من هذا ايها الشيخ العجوز ولا تزعج رؤوسنا بما هو باطل فاين انت ويا للسخرية من الملا الحقيقى وهل انت من الاتقياء الصالحين بحيث تستحق ان تتخذ

اماما في الصلاة ونأتم بك وكأنك امام حقيقى . هلم بنا ندفن الميت باسرع ما يمكن لكى نعود سريعا الى بيوتنا في الوقت المناسب وقبل فوت الوقت علينا . وفضلا عن ذلك فان يديغي ادى صلاة الدفن على الميت في وضع الوقوف وذلك لكونه قد سمع من العارفين ان المسلمين في البلدان العربية وهي مصدر الدين يؤدون صلاة الميت في المقابر واقفين دون ركوع ولا سجود . وسواء كان الامر بالفعل على هذا النحو او لم يكن فان يديغي كان يريد ان يكون راسه اقرب الى السماء .

ولكنه قبل الشروع في اداء صلاة الميت التفت منحنيا نحو اليمين ونحو الشمال وكذلك بتلك الايماءة من الراس توجه نحو السماء ونحو الارض وبذلك نفسه كان يؤدى للبارى الخالق واجب الشكر على حسن خلقه في احسن تقويم لهذا العالم الذى يظهر فيه الانسان بالمصادفة ويزول منه كما جاء ويظل الليل والنهار . وهنا وقعت انظار يديغي البورانى مرة اخرى على ذلك النسر يحلق سابحا في الهواء وكان النسر ابيض الذيل كانه معلق في الجو امامه يحرك جناحيه بيسر ويخفق بهما على ندرة وهو يدور في الاعالى دورات واسعة دورة بعد دورة . ولكن النسر لم يصرفه مطلقا عن مشاعره الداخلية بل على العكس ساعده في تركيز الذهن على محور دائرة سامى الخواطر والافكار .

وكان مطروحا امامه عند حافة اللحد المفتوح على الحمالات جسد المتوفى قازانغاب محنطا في كفن ابيض واخذ يديغي يردد في صوت شبه هامس عبارات الصلاة والادعية التي تتلى على القبر وهي العبارات الصالحة والمعدة مسبقا للجميع وكل فرد وللكل في كل الازمان وفي كل مكان حتى نهاية هذا العالم الفانى وهي عبارات يتردد فيها التحذير والنذير بالمصائر المحتومة على كل حى يرزق ولجميع البشر وكل انسان سواء للغنى والفقير والوجيه والحقير والسيد الوزير والحاجب الغفير اينما كانوا وفي اى مكان او عصر عاشوا وذلك محتوم ايضا حتى على اولئك الذين لم يولدوا بعد . واذ كان يديغي البورانى يتلو هذه العبارات التي اوصى بها الانبياء والاولياء حاول فضلا عن ذلك ان يضيف شيئا من افكاره وثمرات خبرته الشخصية في الحياة وتجربته الذاتية

فى العيش . اذ لم يكن عبثا ولاسدى ان يعيش الانسان هذا العمر الطويل .

وكانت افكاره الخاصة على النحو التالى : «اذا كنت تسمع بالفعل ايها الرب العالى صلاتى ودعائى وعباراتى هذه التى ارددها على اثر الاباء والاجداد وسيقراها فى الكتب الدينية الابناء والاحفاد فارجوك ان تستمع الى صوتى منطلقا بافكارى الدائرة فى راسى والنابعة من نفسى والمسيطرة على حسى واعتقد ان هذا لا يمنع من ذاك ولا تعارض فى الكلام ما بين الخاص منه والعام .

ها نحن جميعا نقف هنا عند حافة اللحد الذى سوف نقبر فيه ميتنا قازانغاب فى مكان مقفر موحش وذلك لاننا لم يتح لنا دفنه فى المقبرة العامة المقدسة . اما النسر المحلق فى الهواء فهو ينظر الينا من علياء ويشاهد كيف نبسط راحات اكفنا مودعين صاحبنا قازانغاب . انك انت العظيم الرحيم اذا كنت موجودا وماثلا فى الوجود ، اغفر لنا خطايانا واستجب لضراعتنا ودعوانا واسمع نواحنا وشكوانا وتقبل منا اذ ندفن عبدك قازانغاب واسدل عليه ستار عدلك ورحمتك ودعه يدخل من باب رضوانك ومغفرتك واسبغ عليه رضاك واذا كان من المستحقين للخير بما ابداه من حسن الطاعة وفعل الاحسان فاجعل لروحه مكانا فى عالمك الفسيح وهيئ له النصيب الوافر والمريح فى فردوسك وجناتك فلقد اجتهدنا ان نفعل له كل ما نقدر عليه وكل ما بوسعنا وما هو مطلوب منا والباقى عليك ايها الحى الباقى .

والآن ما دمت اخاطبك فى ساعة كهذه فاستمع الىّ يا رب العالمين ، ما دمت لا ازال على قيد الحياة وبوسعى ان افكر وانطق . ومن الجلى ان الناس لا هم لهم سوى ان يطلبوا منك ارضاء طلباتهم وهم يرجون منك اجابة الدعوات وتلبية الرغبات وتحقيق الامنيات اللهم اسمعنا اللهم اجعلنا اللهم ابعث لنا فارحمهم يا رب وابعث لهم وساعدهم واحمهم انهم ينتظرون منك الكثير الكثير فى كل مناسبة وبكل صدد بالحق وبالباطل وباستحقاق وبدونه وحتى القاتل يتمنى فى نفسه لو انك كنت معه ووقفت الى جانبه وصرت له عونا وسندا . اما انت فانك صامت لا تجيب ولا تتكلم ولا تقول لهم شيئا وما الذى يمكن ان

يقال ، وما نحن سوى بشر يخيل الينا وبالاخص حين تعسر علينا الامور وتضيق علينا المسالك انك انما وجدت فى السموات لكى تعيننا وتاخذ بايدينا وتفرج عنا كربنا وتخفف مصابنا . وهذا كله صعب عليك وعسير وانا افهم ما انت عليه وفيه وما تعانيه وتقاسيه فصلواتنا كثيرة لا تنتهى وطلباتنا اكثر واكثر وانت وحدك واحد أحد فكيف تلبيها كلها وكيف يمكن ان تستجيب للجميع . ولكنى لا أطلب منك شيئا وكل ما اريده منك هو ان تسمع منى كل ما اريد قوله فى هذه الساعة .

اننى اشعر بالاسى والقهر لان مقبرتنا العزيزة على نفوسنا حيث تثوى رفات نايمان-آنا غدت لنا منذ الآن فصاعدا بعيدة المنال . ولهذا ارجو ان يقيض لى ايضا ان أثوى انا ايضا فى هذا الموضع وتستقر عظامى فيه وهنا بالذات فى ملكوميتشاب حيث وطئت قدماها وسارت رجلاها . فليكن الامر بحيث انى ارقد بجوار قازانغاب وبجنبه وهو الذى سوف نسلمه الآن للتراب ونعطيه للارض ونودعه القبر . فان صحيحا وحقا قول القائلين بان الروح تنتقل بعد الموت الى جسد آخر وتحل عن طريق تناسخ الارواح فى احد المخلوقات فلا حاجة بى الى الحلول فى نملة او سواها من الدواب والحشرات ، كلا ثم كلا انى لأود ان اغدو بعد موتى نسرا ابيض الذيل لكى احلق بعيدا فى الاعالى فوق سطح الارض سابحا فى الهواء واحوم فى الجو حول ساروزيكى وانظر من العلاء دون ان اشبع من النظر الى ارضى وديارى وهذا هوكل شيء وجملة ما اشتهى واريد .

اما بخصوص وصيتى فاننى سوف آمر هؤلاء الشبان الذين قدموا معى الى هنا . وسأقول لهم ان رغبتى ومناى وما اطلبه منهم واكلفهم به هو ان يدفنونى هنا بالذات . ولكنى فقد لا أرى من الذين سوف يؤدون على روحى الصلاة ويصلون على جثمانى صلاة الميت . انهم لا يؤمنون بالله ولا يعرفون اى نص للصلاة ولا طقوسها اذ لا يدرى أحد ولن يعرف اى أحد مطلقا وفى اى وقت على وجه التحقيق ما اذا كان لهذا العالم خالق ورب ومن هو واين هو ، فبعضهم يقول بانه موجود اما الاخرون فانهم ينفون وينكرون . وانا اريد ان اكون مؤمنا بوجودك وانك ماثل فى افكارى . وانا حين اخاطبك فى الصلوات فاننى فى واقع

الامر اخاطب من خلالك نفسى وبوسعى الآن فى ساعة كهذه ان افكر مثلما كنت ستفكر انت ايها الخالق البارى ففى هذا مجمل القضية والامر ! أما هم ، هؤلاء الشبان ولكنهم لا يفكرون فى هذا وينظرون الى الصلاة باستخفاف . ولكن ما الذى يمكنهم قوله وماذا سيكون بوسعهم قوله لانفسهم او لسواهم من الناس فى ساعة الموت العظيمة الرهيبة ؟ اننى ارثى لهم واشفق عليهم وآسف لحالهم اذ كيف لهم ان يبلغوا كنه جوهرهم البشرى الغالى النفيس فى حين لا درب لهم للارتفاع بالفكر الى أعلى عليين واذا اصبح كل واحد منهم وكانه رب . اغفر لى يا ربى هذا الكفر وابعث لى العفو والغفران عن هذا التجديف القريب من البهتان فان اى واحد منهم لن يصبح ربا ولكن بدون ذلك لن يكون لك انت ايضا وجود يا رب العالمين فان الانسان ان لم يكن بوسعه ان يجعل نفسه بالسر والخفية ربا وآلها حريصا على الجميع وراعيا لشئون الجميع كما ينبغى ان تفعل انت ايها الاله وتكون حريصا على الناس ومحيطا اياهم بالحدب والعناية والرعاية فانك انت ايضا ايها الرب لن يكون لك كذلك من أثر ولا وجود فتكون غير معبود وغير موجود . . . وانا لا اريد ان تختفى وتزول من الوجود وتغدو شيئا غير موجود .

وفى هذا كل نجواي وشكواي وفيه حزني وبلواي . ولكن اعذرنى واغفر لى اذا كان الامر ليس كما ينبغى وان كنت فى هذا مقصرا فى حقك ومذنبا فى أمرك . فاننى انسان بسيط ساذج التفكير افكر بالشكل الذى أستطيعه والآن سأعود لاتمم الصلاة بآى من الذكر الحكيم وأتلو ما يتلى فى هذا المقام من مئطوق مصحف القرآن الكريم ثم نشرع فى دفن ميتنا الفقيد فبارك لنا عملنا هذا وكن غافرا لنا ذنوبنا آمين يا رب العالمين . . .»

– آمين – وبهذا ختم يديغي البورانى الصلاة وبعد خلوده هنيهة الى الصمت رنا مرة اخرى نحو النسر المحلق وأدار وجهه بكآبة مدهشة فى بطء شديد نحو الشبان الواقفين قربه وبجواره وهم الذين ذكر لتوه رأيه فيهم وخاطب بذلك الرب نفسه . وقد انتهت المحادثة مع الخالق البارى وغدا يرى مرة اخرى أمامه اولئك الاشخاص الخمسة أنفسهم الذى قدم معهم الى هنا والذين

من المتعين عليم الانتهاء أخيرا من عملية الدفن التى طال أمدها معهم .

– والآن – قال لهم متأملا فى تمعن – ما كان ينبغى قوله فى الصلاة قلته بالنيابة عنكم جميعا . والآن فلنشرع فى القيام بالعمل المطلوب .

وخلع يديغي البورانى عنه السترة التى علقت على صدرها الاوسمة والنياشين ونزل بنفسه الى قعر الحفرة وساعده عادل باى الطويل . وتنحى ثابت جان باعتباره نجل المتوفى جانبا معبرا عن حزنه واساه باطراق راسه واحناء هامته على صدره وعمد اولئك الثلاثة – قالى بيك وجمعة على والصهر السكير – الى رفع التابوت عن الحمالات وفيه الجثمان وانزلوه الى اللحد مسلمين اياه الى أيدى يديغي البورانى وعادل باي الطويل .

«ها قد حانت ساعة الفراق وحل وقت الوداع – فكر يديغي البورانى وهو يضع جثة قازانغاب برفق على تراب الارض فى مثواه الاخير ومدده فى عمق اللحد – اغفر لنا كوننا لم نستطع كل هذا الوقت الطويل ان نودعك مثواك وظللنا طيلة النهار نحملك وننقلك تارة الى هناك وفينة اخرى الى هنا . ولكن هكذا حصل . ولم يكن ذلك بارادتنا وليس الذنب فى ذلك ذنبنا وكذلك فى كوننا لم ندفن رفاتك فى مقبرة آنا-بابيت . ولكن لا تفكر ولا تحزن نفسك فاننى لن أترك الأمر على هذه الحال ولن ادعه على هذا المنوال بل سأذهب الى حيث ينبغى ولن أهدأ او أستقر طالما بقيت حيا فلن أسكت عن هذا وسأقول لهم ما سأقول ! ولسوف يعرفون ويسمعون ! اما انت فاهدأ بالا واستقر فى مثواك نفسا . ان الارض واسعة رحبة مترامية الاطراف شاسعة الابعاد اما موضعك منها فقد ظهر انه لا يتجاوز العشرة أشبار وكما رايت فقد كتب لك ان تثوى فى هذا المكان لا سواه . وانت هنا لن تظل وحيدا فاننى سوف أعود قريبا الى هنا يا قازانغاب فانتظرنى يا عزيزى رويدا ولا يخالجنك الشك والريب . ولكن ان لم يحدث من البلاء ما لا يتصور ولا يتوقع واذا حلت ساعة وفاتى وجاء وقت مماتى وكان موتى على فراشى وبين أهلى واخوانى فاننى سوف آتى انا ايضا الى هنا وسنعود معا كما كنا صديقين وجارين وسنتحول الى تراب أرضنا ،

ارض ساروزيكى . ولكننا لن نعرف بهذا فان المرء يعرف ويدرك ما دام لا يزال حيا يرزق . ولهذا فاننى اتحدث كانما معك وانا فى واقع الامر اكلم نفسى لا سواها اذ لم يعد موجودا ذلك الشخص الذى كنته انت ونحن ايضا سوف نذهب بهذا الشكل من هذا الوجود ونغادره شئنا ام ابينا بغير رجعة والى ابد الآبدين من الدنيا الفانية الى الاخرى الباقية . اما قطارات السكك الحديد فسوف تظل تمر عبر ساروزيكى وسياتى محلنا اناس غيرنا . ويخلفنا قوم آخرون . . .»

وهنا لم يستطع الشيخ العجوز يديغي ان يواصل رباطة جاشه فاجهش بالبكاء والنشيج وانخرط فى النحيب . وكل ما جرى ومضى وانقضى على مدى الاعوام الطوال طيلة عمرهما فى مفرق بورانلى – بورانى كل هذا الذى وقع خلال حقبة طويلة من الزمن وكافة الآلام والبلايا والعلل والاحزان والافراح والاتراح بدا له وكانه قد تجمع فى لحظات وتمثل فى عبارات الوداع التى تضمنت بضع كلمات فحسب والدقائق القصار التى استغرقها الدفن فما أكثر وما اقل ما منح للانسان .

– اتسمع يا عادل باي ؟ – نطق يديغي وهو يلامسه فى الحفرة الضيقة كتفا لكتف – يجب ان تدفنى ايضا هنا لأكون بجواره وبجنبه وعليك ان تلحدنى بنفسك وتضع جثمانى على التراب بيديك هاتين وقم بالأمر كما نفعل نحن الآن لكى ارقد انا ايضا فى راحة وسكون . فهل تعطينى على ذلك الكلمة وتقطع على نفسك العهد بان تفى بالوعد ؟

– كف عن هذا الكلام يا يديكه ولنتحدث عنه فيما بعد . والآن هيا فاخرج من هذا المكان لتعود الى عالم الحياة ودعنى اكمل الامر بنفسى دون معونتك . اهدأ يا يديكه واصعد ولا تطل الكلام .

ومسح يديغي البورانى الطين عن وجهه المبلول وارتقى صاعدا من قعر الحفرة ومدت اليه الايدى لتعاونه وتعينه على الارتقاء والصعود وقفز الى الاعلى وهو يبكى ويدمدم متمتما بعبارات ما آسية متقطعة الالفاظ . وجلب قالى بيك زمزمية الماء لكى يغتسل يديغي .

ثم اخذوا يرمون الى الاسفل حفنات التراب ويهيلونه على

اللحد وينثرونه من الجهة التى تهب منها الريح . واستخدموا فى البداية الرفوش وبعد ذلك جلس جمعة على وراء مقود الحفارة ودفع التراب المتكوم ركاما الى الحفرة . ثم راحوا يسوون التراب على اللحد بالرفوش من جديد .

وكان النسر الأبيض الذيل كل هذا الوقت يحوم ويحوم فوقهم مراقبا من خلال سحب التراب والعثير هذه الحفنة من الناس الذين يقومون بعمل لا يخلو من الغرابة عند منطقة جرف ملكومديتشاب . ولاحظ انتعاشا خاصا ما فى الحركة بينهم حين راحت تكبر وتنمو ربوة طرية من التراب . والكلب الاصهب ايضا نهض بعد ان تثاءب وتمطى فى هذه الاثناء من مكانه حيث كان يرقد مضطجعا تحت العربة المقطورة واخذ الآن يدور ايضا حول هؤلاء الناس فما الذى كان يحتاجه ويريده هذا الكلب ؟ والبعير العجوز وحده المزدان على سنامه بحدوج مكسوة ببساط سجادى تتدلى منه الكراكيش ظل على حاله يواصل اجتراره دون التفات الى شىء وهو يحرك فكيه بلا تعب ولا كلل . . .

وخيل اليه ان هؤلاء الناس يزمعون الرحيل وقد تهيأوا له . ولكن كلا ، فها هو أحدهم وهو بالذات صاحب البعير قد مد يده مبسوطة الكف وهو واقف أمام هؤلاء الناس وفعل الجميع مثله . . . !

لم يعد الوقت يحتمل الارجاء والبقاء بعد هذا فقد ازف موعد الذهاب ومرر يديغي البورانى على الجميع نظرة مستطيلة غير عجول ثم قال بصوت مرتفع :

– ها قد انتهى الأمر وحلت النهاية . أفليس انسانا طيبا قد كان صاحبنا قازانغاب ؟

– بلى ، انه انسان طيب القلب حسن الخلق . – اجابوا جميعا .

– هل أبقى وخلف وراءه دينا على ذمته لأحد منكم ؟ هذا هو هنا نجله فليتعهد بوفاء دين أبيه وتسديد كل ما عليه لكم ان وجد .

ولم يقل اى أحد منهم اى شىء . وعندئذ قال قالى بيك نيابة عن الجميع :

– كلا ، لم يكن مدينا لأى احد بأى دين ولم يخلف وراءه دينا بل مضى صافى الذمة طاهر الذيل .

– اذن فى هذه الحالة ما الذى تقوله يا ثابت جان بـــن قازانغاب ؟ – توجه اليه يديغي مخاطبا اياه .

– شكرا لكم جميعا ، شكرا جزيلا وجزاكم الله عنا خيـــر الجزاء – كان جوابه باقتضاب .

– اذا كان الامر على هذا النحو اذن هلم بنـــا لنعـود الى البيت – قال جمعة على .

– الآن . بقيت كلمة واحدة ينبغى ان تقال – أوقفه عـــن الاسترسال يديغي البورانى – اننى بينكم الاكبر سنا . وعندى رجاء موجه اليكم جميعا . اذا حدث لى ما هو مقدر ومنتظر فادفنونى هنا بالذات جنبا الى جنب بجوار قازانغاب . اسمعتم ؟ هذه هـى وصيتى فيكم وطلبى منكم فافهموه وحققوه لى عندما يحين وقته .

– هذا ما لا يعرفه اى احد يا يديكه فلا احد يدرى كيـف وما الذى سيحصل ويقع ، فلماذا التفكير سلفا بما لم يحن أوانه بعد . – قال مبديا شكه قالى بيك .

– مع ذلك وعلى اية حال – اصر يديغي على قوله – يحـق لى القول ويجب عليكم ان تسمعوه فاذا حان الحين فعليكـــم ان تفعلوا ما طلب منكم وتتذكروه ولا تنسوه وينبغى الا تغيب عن بالكم هذه الوصية .

– وماذا سيكون ايضا من هذه الوصايا العظيمة الجليلة ؟ هيا ، يا يديكه اذكر لنا مرة واحدة كل ما لديك منهـا – قال مازحا عادل باي الطويل بنبرة ساخرة راغبا فى التخفيف من الجو المرهق .

– وانت لا تسخر ولا تمزح فليس هذا وقت دعابة وهزل – قال يديغي جادا ومغضبا – فاننى قلت الامر بجد .

– سوف نتذكر يا يديكه ولن ننسى هذا – قال عادل باى الطويل يطمئنه ويهدئ خاطره وباله – اذا حدث هذا فاننا سنفعل كل ما تقول . فلا تشكن واطمئن .

– هذا هو كلام الفرسان – تممتم يديغي البورانى بنفس راضية مرضية .

اخذ الجاران يدوران ويستديران تهيؤا للعودة والابتعاد عن

منطقة الجرف . وقاد يديغي البورانى جمله قره‌نار نحـو درب الرجوع وسار حتى وقف بجوار ثابت جان منتظرا انتهاء الجارين من النزول الى الاسفل وأراد تبادل أطراف الحديث معه فى خلوة وعلى انفراد عما كان يشغل باله كل الانشغال .

– اسمع يا ثابت جان ، لقد انتهينا من كل شىء واصبحـت ايدينا فارغة وثمة الآن موضوع واحد ينبغى علينا تناولـــه بالحديث . كيف سيكون امرنا مع مقبرتنا آنا – بابيت ؟ – قال له فى لهجة تساؤل .

– وما هو الذى يمكن فعله ؟ ليس ثمة فى هذا أمر يستحق ان نصدع به رؤوسنا . – أجاب ثابت جان – الخطة هى الخطة وسوف تنفذ مهما كان من امر وعلى اية حال من الاحوال سواء شئنا ام ابينا . انهم سوف يزيلون تلك المقبرة مادامو قد قرروا ذلك وسيجرى هذا وفقا للخطة المرسومة .

– اننى لست عن هذا ادير زمام الحديث . بهذه الطريقـة يمكن صرف النظر عن كل امر والتلويح باليد انصرافا عن كـــل قضية . انك ولدت هنا فى هذه المنطقة وفيها نشأت وترعرعت حتى بلغت مبلغ الرجال . وعلمك ابوك ما فى حوزته من العلوم ما علمك . وها نحن الآن قد ودعناه وشيعناه الى مثواه الاخير ودفناه وتركناه وحيدا فى القفر والعراء ولا عزاء الا أمر وحيد هو انه على اية حال يرقد فى أرضه لا سواها . انك انسان متعلم وتعمل فى مركز الاقليم والحمد لله وبوسعك ادارة الحديث مع اى أحد كان وعلى اى مستوى رفيع . ولقد قرأت الكتب بشتى انواعها . . .

– وماذا فى ذلك ؟ وما الذى يترتب على هذا ؟ – قاطعـه ثابت جان .

– انه كونك ينبغى ان تساعدنى فى ادارة دفة الحديـــث وحبذا لو ذهبنا معا انا وانت قبل فوات الاوان دون ارجـــاء وتأجيل بل بالضبط يوم غد نتوجه الى الرئاسة المحلية أفليس فى هذه المدينة أحد ما هو الرئيس الاكبر فيها . لا يجوز البتة تسوية المقابر فى مقبرة آنا – بابيت سوية التراب ومسحها من وجه الارض لانها تمثل جزءا من التاريخ .

– هذا الكلام كله كالحكايات القديمة . وينبغى ان تفهـــم

يا يديكه انه يجرى هنا حل قضايا عالمية فضائية ونحن نذهب طارحين شكوى حول مقبرة ما من المقابر . ومن هو فى حاجة الى هذا ؟ بالنسبة لهم هذا الامر كله لا شىء ولا قيمة له ولا يساوى أى شىء حتى ولا شروى نقير بل وانهم على اية حال حتى لن يسمحوا لنا بالذهاب الى هناك .

– أجل ، ان لم نذهب فلن يسمحوا لنا . اما اذا طلبنا والحفنا فى الطلب فانهم سوف يسمحون . والا فان الرئيس نفسه ربما سيأتى بنفسه الى اللقاء . انه بالطبع ليس بالجبل الذى لا يمكن ان يتحرك من مكانه وحتى لا يتزحزح .

والقى ثابت جان على يديغي نظرة امتعاض وقال :

– دع عنك هذا واتركه ايها الشيخ العجوز ما هذه الا عبارات فارغة جوفاء . اما علىّ فلا تضع اى اعتماد فلست فى هذا بصاحبك . ولا علاقة لى بهذا .

– كان ينبغى ان تقول هذا من البداية وعندئذ ما كانت ثمة حاجة الى الكلام ولا داعى الى قول ما قلت .

– وما الذى فكرت فيه انت ؟ وما الذى كنت تظنه ؟ اكنت تحسب أننى سوف اهرع راكضا معك دون ان الوى على شىء وكاننى معتوه ؟ ومن أجل ماذا ؟ انا عندى اسرة واطفال وعمل . وما الذى يدفعنى الى البصق بعكس الرياح والسباحة ضد التيار ؟ يكفى اجراء مكالمة هاتفية واحدة ويكون نصيبى رفسة فى الظهر وركلة فى المؤخرة . كلا ثم كلا ، فلست بالمجنون واعفنى من هذا ولك الشكر على ما تدعوننى اليه .

– تقبل انت نفسك شكرك الجزيل وخذه لنفسك فانت به جدير وحقيق – قال يديغي البورانى رافضا ثم اضاف فى حقد – يبدو انك لا تفكر الا فى مؤخرتك ولا تعيش الا لها !

– وانت ما الذى تعتقده وتراه ؟ وما الذى كنت تظن ؟ ان الامر لهو على هذا النحو بالذات وهو لك بالذات هين ويسير فمن انت بين الناس ؟ لا احد . اما نحن فينبغى ان نحافظ على مؤخرتنا لكى نضمن امتلاء فمنا بالحلوى وكل ما طاب وحلا وما عز وغلا .

– هذا هو الامر . فى السابق كان الناس يعزون الرأس ويحرصون على الحفاظ عليه وتكريمه اما الآن ففى المقدمة

لدى الناس مقام المؤخرة كما يبدو وهى عندهم أغلى حتى من الراس .

– كيفما شئت فافهم وفكر كما بدا لك ولكن لا تبحث عن الحمقى والمغفلين فانك لن تجدهم .

– اذن فالامر واضح وجلى . والحديث انتهى وكانه لم يبدا فلنقطعه فى الحال – قال يديغي البورانى زاجرا – فى حدة سوف نكون معا فى الاحتفال بالتابين واقامة الفاتحة ثم لن يجمع ما بيننا جامع وليمض كل واحد منا فى حال سبيله وعسى ان ينعم علينا الله فيعفينا من اللقاء معك الى الأبد .

– فليكن ما يكون – قال ثابت جان منصرفا بوجه عبوس قمطرير .

وعند هذا الحد افترقا متغاضبين . وبينما راح يديغي البورانى يعتدل فى جلسته على سنام البعير انتظره سائقا الجرارين بعد تشغيل المحرك ولكنه قال لهما راسا ان يسيرا ولا ينتظراه بل وان يسرعا وبأسرع ما يستطيعان فالناس هناك ينتظرون وهم قلقون ليبداوا الفاتحة والتابين اما هو على ظهر بعيره فالطريق امامه مفتوح وسوف يسير على حدة ويصل وحده متى سيصل .

وعندما تحرك سائقا الجرارين بجراريهما منطلقين كان يديغي لا يزال فى مكانه دون ان يتحرك يفكر فى الذى عليه ان يفعله لاحقا وليقرر كيف سوف يتصرف .

هو الآن قد غدا وحيدا وانفرد بنفسه وخلا اليها انه فى وحدة كاملة منفردا مع سازوزيكى اذا لم يعتبر ويعد فى الحساب كلبه جولبارس الذى ركض فى البداية جاريا خلف الجرارين المبتعدين ثم عاد يركض الى الخلف حين أدرك ان سيده لا يسير معهم فى الدرب . ولكن يديغي لم يعره التفاتا . وحتى لو كان الكلب ظل يركض حتى وصل الى البيت لما كان قد لاحظ حتى ذلك . كان كل شىء ثقيل الوطأة عليه وضاق عليه العالم على وسعه . ولم يكن ليستطيع ان يقهر باى شىء حرارة ما فى جوفه ولذعة شعوره الداخلى الجياش بالألم كان يملأ داخله فراغ مقلق حراق وناخر فى النفس وذلك عقب المحاورة التى دارت له مع ثابت جان . وكان يعتمل فى نفسه فائرا ذلك الفراغ الناخر من الألم الذى لا يخمد ولا يهمد كخرم المسمار وكالشق الذى فى

الجدار او الفج والشرخ فى الجبل لا تشعر فى داخله بغير البرد ولا ترى من خلاله سوى الظلام الدامس . كان يديغي البورانى شاعرا بالندم الشديد لانه عبثا وبلا جدوى فتح باب هذا الحديث والقى العبارات جزافا وكانها صرخة فى واد . افهل ثابت جان هو ذلك الشخص الجدير بالتوجه اليه طلبا للمشورة بله العون ؟ لقد خادع نفسه بالأمل وحدثها بانه متعلم ومثقف ومن الاسهل الاهون عليه ادارة دفة الحوار مع امثال هؤلاء الذين هم على طرازه . ولكن ما الذى نتج عن كونه قد تلقى التحصيل فى شتى الدورات الدراسية وفى مختلف المعاهد ؟ ولكن ربما يكونون قد علموه ليكون على هذه الشاكلة التى بدا له عليها لتوه . ربما يكون ثمة من هو ثاقب الذهن المعى الظن كابليس اللعين الذى اجتهد كثيرا ليدخل فى نفس ثابت جان لكى يغدو ثابت جان كما هو ثابت جان الآن وليس احدا آخر غيره وسواه . أفليس ثابت جان نفسه قد تكلم ووصف بكل تفصيل ومن كافة النواحى مثل تلك التفاهة حول الاشخاص الذين يمكن توجيههم وادارتهم بواسطة جهاز الراديو اللاسلكى وكانهم اجهزة ميكانيكية ومن البشر الآليين . وستحل على حد قوله ازمان يتحصل فيها هذا الامر فى الواقع . وماذا اذن لو كان ذلك الجبار غير المرئى والقادر على كل شىء يديره الآن بالراديو .

وكلما اوغل الشيخ العجوز يديغي فى مجاهل التفكير وامعن سارحا فى وادى الافكار متاملا فى هذا الامر شعر من جراء هذه الافكار بالمزيد من التالم والتظلم والاحساس بانسداد المخرج عليه وتعذر الحل والعثور على المنفذ اليه .

— انك لمنكورت ، منكورت حقيقى ! — همس فى داخله شاعرا بمنتهى الحقد والسخط والأسف على ثابت جان هذا .

ولكنه لم يزمع بالمرة التسليم بما حدث . فلقد أدرك ان عليه ان يفعل شيئا ما وان يقدم على شىء ما لئلا ينحنى وينثنى وينطوى ثلاث طيات . لقد أدرك يديغي البورانى انه ان تنازل وتراجع فان ذلك سيكون هزيمته فى الميدان وذلك سيجعله محتقرا فى عين نفسه . ونظرا لاحساسه بانه يتعين عليه الاقدام على فعل أمر ما معارض لحصيلة ذلك النهار لم يكن ليستطيع بعد ان يقول بالضبط ما هو الذى كان بوده فعله بالذات وباى

شىء ينبغى ان يبدأ ومن أية نقطة عليه ان ينطلق وكيف سيشرع فى الامر الذى يجعل افكاره بشأن مقبرة آنا-بابيت تصل الى اولئك الذين بوسعهم بالفعل تغيير الامر الصادر . لكى تبلغهم تلك الافكار وتتفاعل فيهم وتحملهم على القيام بامر ما وتقنعهم ... ولكن كيف يكون ذلك ممكنا ؟ والى أية جهة ينبغى التحرك ؟ وما الذى يتوجب اتخاذه ؟

وتلفت يديغي حواليه وهو غارق فى غمرة تفكيره ومستغرق فى حومة افكاره الشاغلة وهو راكب على بعيره قره‌نار محاطا من كل جانب بالسهب الصامت صمت القبور . واخذت عتمة الغروب تزحف متسللة فوق حمرة رمال ملكومديتشاب . وكان الجراران قد اختفيا منذ أمد بعيد عن ناظريه . ذهب الشبان . ولقد كان آخر من عرف واحتفظ فى ذاكرته بواقع الحياة فى منطقة ساروزيكى وما جرى فيها من احداث وامور هو الشيخ قازانغاب وها هو الآن يرقد فى مثواه الاخير فى الجرف تحت التل الرملى الطرى الذى أهالوه عليه فى قبر منفرد وحيد فى وسط السهب الممتد شاسعا مترامى الاطراف . واخذ يديغي يتصور كيف ان هذه العلوة سوف تتطامن رويدا رويدا ويتغير لونها وتندمج مع لون نبات الشيح المنتشر فى منطقة ساروزيكى والطاغى فيها وعليها وسيكون من العسير تمييزها فى هذا المكان والتعرف عليها ومعرفة موقعها . وهكذا سيكون ، فلا احد يعيش اكثر من عمر الارض ولا احد يستطيع ان يجد عنها محيصا .

تثاقل قرص الشمس وناء تحت ثقل نفسه اذ تدركه نهاية النهار متهاويا تحت هذا الثقل الشاق عليه ومنحدرا أدنى فأدنى نحو الافق . وكان ضوء الشمس الغاربة يتغير من دقيقة لاخرى . كان الظلام يتولد بصورة غير مرئية من بطن الغروب وهو يصب الزرقة القاتمة بسبب الحلكة على الرحاب الشاسعة المضاءة بشعاع الشمس الذهبى الذى يغمرها .

واذ راح يديغي البورانى يمعن فى التفكير متاملا فى الوضع والموقف وسارحا فى وادى أفكاره الفسيح الرحب اقر العزم على العودة كرة اخرى الى ذلك الحاجز الذى يقطع الطريق على المارين عند المدخل الى المنطقة المغلقة المحرمة . ولم يكن بوسعه

التوصل الى اى اسلوب آخر وطريقة اخرى . والآن وقد انتهى أمر التشييع والدفن ولم يعد يشعر بانه مرتبط باى شيء ولهذا أصبح قادرا على الاعتماد على نفسه بالكامل لاطلاق ما فى نفسه من القوى حتى آخرها والى النهاية . وكان بوسعه ان يسمح لنفسه بالتصرف غير خاش على غير نفسه ولا مجازف بسواها وفقا لمشيئته وحدها وعلى هواها . وقبل كل شيء آخر كان يريد ان يسعى لحمل رجال دورية الحراسة على الاضطرار الى أخذه ولو مخفورا الى الرئيس العسكرى الاعلى او اذا احتاج الامر ان يضطر ذلك الآمر الرئيسى الى المجيء الى ذلك الحاجز والاستماع الى اقواله هو ، يديغي البورانى ، وعندئذ سوف يقول له كل شيء مما يضمره ويكنه فى نفسه . سيقول له كل ذلك فى وجهه دون ان يخشى لومة لائم او توبيخ . . .

دارت كل هذه الخواطر فى رأسه وقرر يديغي البوراني ان يتصرف على الفور دون ابطاء ولا تأخير وكان الدافع المباشر الى هذا والذريعة الرئيسية التى ينوى طرحها الحادث الذى وقع وهو الحادث المؤسف الذى منع من دفن قازانغاب حيث كان ينبغى . لقد قرر بقوة وعزم وحزم ان يبدى عند حاجز الطريق كل ما لديه من اصرار مطالبا بالحصول على اذن بالدخول او سماح باللقاء وسيبدأ بهذا وهو حمل الحراس على ادراك انه سوف يظل يسعى لتحقيق غايته وبلوغها الى ان يستمع الى كلامه أعلى رئيس وليس أحد ما من أمثال هذا الشخص المدعو تنسيق بايف . . .

وبهذا وعليه عزز نفسه وقوى عزمها . . .

– تاوبا قيل ! اذا كان للكلب صاحب فان الذئب له رب ! – اخذ يشجع نفسه بهذا ونخز جمله قره‌نار واثقا وعازما موجها وجهته نحو الجهة التى يقع فيها حاجز الطريق المانع .

وفى هذه الاثناء غربت الشمس واخذ الظلام يرخى أسداله ويهبط سريعا ليغمر الدنيا بسواده الحالك . وحين دنا الى المنطقة المغلقة كان الظلام دامسا . وكانت باقية مسافة نصف كيلومتر قبل الوصول الى الحاجز نفسه عندما صارت ترى بوضوح الى الامام مصابيح مخفر الحراسة . وهنا قبل بلوغ الحارس ترجل يديغي من الحدوج

وبدا له أنه فى غنى عن الجمل فى هذا الأمر . وما وجه حاجته الى هذا العائق ؟ ثم انه لم يكن يدرى اى رئيس سوف يقيض له ومن اى نوع من الناس سيكون ذلك الشخص ولربما سوف يرفض تبادل أطراف الحديث أصلا وسيقول : «فلتذهب من هنا انت وبعيرك من حيث جئت وطلعت ! ولا حاجة الى أية مقابلة معك او رؤية لوجهك !» ولن يسمح له حتى بالولوج الى القمرة الداخلية . ولكن الامر الرئيسى هو ان يديغي لم يكن ليدرى بم سوف تختتم فعلته والى اية نتيجة ونهاية سوف تنتهى وهل سيتعين عليه الانتظار طويلا لمعرفة النتيجة . وعليه كان من الافضل له ان يذهب الى هناك لوحده منفردا اما بعيره قره‌نار فليتركه هنا معقولا فى السهب يرعى العشب .

– انتظرنى هنا ايها الجمل وسأذهب لاحاول ان اعرف كيف ستكون نهاية الامر – قال متمتما يخاطب بعيره قره‌نار ولكن ذلك كان اكثر منه توجها اليه مخاطبة للنفس بعثا للثقة فيها . وتعين على اية حال حمل الجمل على البروك الى الارض اذ كان ينبغى عليه ان يخرج من الزكائب مقاود البعير وعقاله .

وبينما كان يديغي مشغولا فى الظلام بكل هذا العمل كان الهدوء مخيما على المكان وسائدا فيه وكان هدوءا مطبقا بحيث كان يسمع لهاث أنفاسه والطنين والخفيف والرفيف الذى تبعثه فى حنايا الهواء اجنحة الحشرات والهوام المتطايرة فيه وكانت تشعشع فى قبة السماء فوق سمت رأسه نجوم ساطعة فى عدد عديد لا عد له ولا احصاء ولقد ظهرت على حين غرة فى السماء الصاحية الصافية فملأت بساطها بدررها المتلالئة . كان الهدوء ضاربا اطنابه وكأنما كل شيء كان مكتوم الانفاس فى انتظار شيء وفى حالة ترقب لشهود ما سيحدث ويقع . . .

وحتى الكلب جولبارس الذى كان معتادا على الهدوء المعهود فى منطقة ساروزيكى أخذ يتسمع باحتراس ويهرّ فى تحفز متحسبا ما الذى قد يعرض له هذا الليل البهيم ؟

– ما لك انت ايضا تدور بين الرجلين مسببا مزيدا من الارتباك والتعذر ؟ – قال سيد الكلب لكلبه فى امتعاض وزجر . ثم اخذ يفكر : واين يمكن ايداع الكلب خلال فترة الانتظار ؟ وتصور لبعض الوقت وهو يقلب مقاود البعير وعقاله فى يديه

مفكرا فى طريقة التصرف مع كلبه . من الواضح الجلى ان هذا الكلب لن يدعه يمضى بدونه . ولسوف ينهره ويزجره ويدفعه عنه بعيدا ولكن الكلب لن يبتعد على اى حال عنك مهما حاولت . اما الذهاب مع الكلب فى طلب كهذا فانه ليس ممكنا ولا مقبولا . واذا لم يقولوا له شيئا فانهم سوف يضحكون ويسخرون ويفكرون بان هذا الشيخ العجوز جاء مدافعا عن الحقوق ليس معه سوى الكلب وكانه لم يجد صحيبا سواه . وعليه فمن الأفضل والأولى ان يكون الذهاب بدون الكلب فلا خير فيه . وعندئذ قرر يديغي ربطه بحبل طويل الى عدة الجمل . فليكونا معا مشدودين بربطة واحدة وليجمع وثاق واحد كلا من الكلب والبعير فترة غيابه عنهما . «جولبارس ، جولبارس ! تعال الى هنا !» وانحنى لكى يدخل عقدة الانشوطة فى عنق الكلب . وهنا بالذات حدث شىء ما فى الجو وانطلق شىء ما متحركا فى رحاب الهواء بفرقعة شديدة أشبه ما تكون بهدير صادر عن انفجار البركان وهو يتزايد ويتعاظم فيصم الآذان . ومن مكان قريب جدا وعلى قاب قوسين او أدنى فى المنطقة المغلقة اياها التى يقع فيها المطار الفضائى اندفعت الى عنان السماء فى عمود باهر من الضياء موجة عارمة من شعلة رهيبة . واجفل يديغي البورانى مفزوعا كأنه قد القى الى هوة فاغرة ليس لهاقرار اما البعير فقد قفز هائجا وهو يصرخ . . . ولز الكلب فى فزع لائذا بالانسان سيده وملتصقا بقدميه . . .

هذا كان اطلاق الصاروخ الاول من الصواريخ الروبوتات المعدة للعملية الفضائية الواسعة الهادفة الى الحماية والدفاع المسماة «اوبروتش» . كان الوقت فى منطقة ساروزيكى بالضبط فى تمام الساعة الثامنة مساءا . وعلى اثر الصاروخ الاول انطلق الثانى وبعدها الثالث ثم الآخر فالآخر . . . واندفعت الصواريخ الى الفضاء النائى لتشكل حول الكرة الارضية حلقة حماية دائمة العمل لئلا يتغير اى شىء فى الشؤون الارضية وليظل كل شىء على حاله ويبقى القديم على قدمه . . .

سقطت السماء على الراس وتحولت الدنيا الى كتلة فائرة من اللهيب والدخان . . . وركضت فى جنون تبتعد دون ان تدرى الى اين ثلاثة مخلوقات ما أبسطها فى هذا الوجود وهى عبارة عن

رجل وجمل وكلب . وكان يلفها رعب فظيع وركض الجميع سوية خشية الافتراق عن بعضهم بعضا هارعين فى انحاء السهب الذى عاثت فيه بلا اية رحمة او شفقة حمم من النار هائلة الحجم تضىء بنور باهر يعشى العيون . . .

ولكنهم مهما ركضوا فان جريهم كان ركضا فى نفس المكان ومراوحة بلا آن لان كل انفجار جديد من هذه الانفجارات المتعاقبة كان يبعث فوقهم ما يغطيهم من حرارة الضوء الطاغى والفرقعة الدواية منتشرا حواليهم فى كل مكان فلا عيون ولا آذان حيث اختلط المكان بالزمان . . .

وركض الثلاثة جميعا – الانسان والبعير والكلب ، ركضوا لا يلوون على شىء ولا يعون من أمرهم ما يعول عليه وفجاة شعر يديغي بظهور طير ابيض جاء لا يعلم من اين طائرا على الجهة الجانبية وكانما هذا الطير الابيض هو الذى كان قد تحول فى الزمان القديم من منديل نايمان – آنا حين وقعت من السرج عن صهوة الحصان الذى كانت تمتطيه بعد ان اصابها السهم الذى صوبه نحوها ورشقها به ابنها المنكورت . . . طار الطائر الابيض بسرعة فى جوار الانسان وهتف به فى ذلك الدوى الهائل والنور الغامر وكانما ساعة الحشر قد دقت :

– من انت ايها الانسان ؟ والى من انت عائد من الناس ؟ وما هو اسمك الذى تدعى به وتنادى ؟ حاول ان تتذكر اسمك : اسم ابيك دوننباى ، دوننباى ، دوننباى ، دوننباى ، دوننباى ، دوننباى . . .

وظل صوت الطائر يدوى ويتردد على مدى وقت طويل بعد غيابه فى غياهب الظلام الحالك الدامس الذى أعقب ذلك الصوت البهير . . .

بعد مضى بضعة ايام جاءت من قزل اورطة الى بورانلى – بورانى ابنتا يديغي كلتاهما ، ساوله وشرابات ، ومع زوجيهما وأولادهما بعد تلقى البرقية بنعى قازانغاب مختار ساروزيكى وشيخها لتأبينه واحياء ذكراه وابداء الحزن والاسى على فراقه والتوجع بمصاب وفاته الفادح وبنفس الوقت اغتنام الفرصة

للنزول يوما او يومين فى ضيافة الوالدين وكما يقال فى الامثال : رب ضارة نافعة ، ورب خير فى بطن شر .

وحين نزلوا من القطار بكل حوائجهم ومتاعهم ووصلوا الى عتبة دار يديغي لم يكن الاب فى بيته وهرعت اوق بالا لملاقاتهم بالترحاب وهى تبكى وتذرف الدموع مدرارا وراحت تعانق وتقبل الصغار من شدة الشوق والتوق وهى لا تخفى فرحتها وتبدى بهجتها بالقادمين قائلة :

– الحمد والشكر لك يا رب العالمين . ما أشد ما ستكون فرحة ابينا عند قدومه بقدومكم . ما احسن انكم جئتم ولقد جئتم جميعا صغارا وكبارا . ما أشد ما سيفرح والدنا .

– ولكن اين هو الآن ؟ ولماذا لا نراه هنا ؟ – تساءلت شرابات .

– سوف يعود فى المساء . لقد ذهب منذ الصباح الباكر قاصدا مكان الرئاسة ، فلديه هناك امور وامور . وسوف احدثكم فيما بعد عن هذه الامور . ما لكم واقفين بالباب ؟ هيا ادخلوا على الرحب والسعة فهذا بيتكم وانتم أصحابه ، يا أولادى الاعزاء .

ظلت القطارات فى هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق .

وعلى جانبى خط السكة الحديد كانت تمتد مساحات شاسعة من الاراضى الصحراوية – سارى اوزيكى ، الاراضى الوسطى من البرارى الصفراء . . .

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وشكل عرضه وطباعته واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧
موسكو – الاتحاد السوفييتى